١

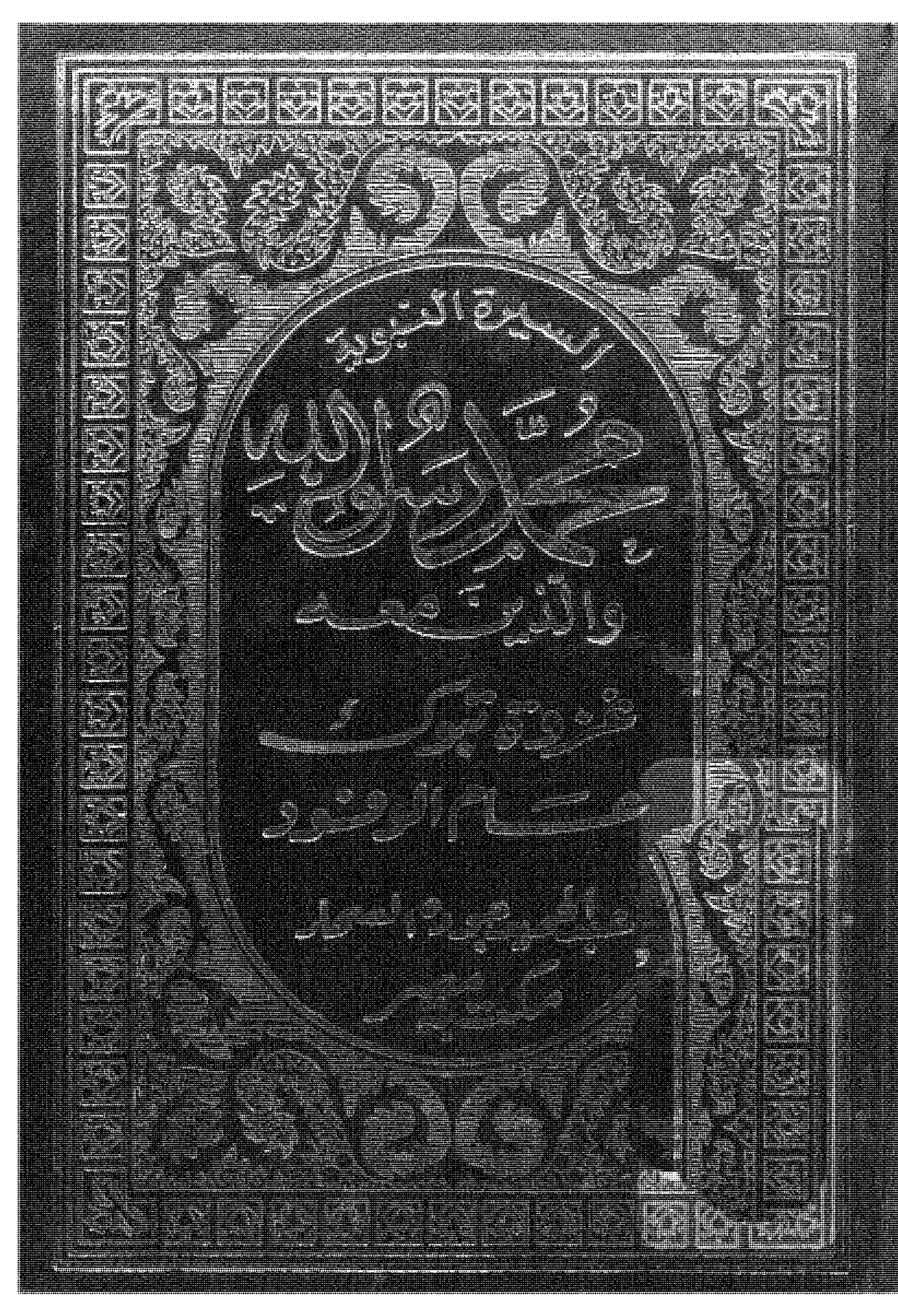
كان قسطنطين يجوس خلال بيزنطة وقد لفها سواد الليل ، وراح النسيم يهب رخاء فينعش الأفئدة ويحرك الأخيلة ، وساد الصمت لحظات شرد فيها الخيال ، ثم ما لبث الإمبراطور أن التفت إلى رجال حاشيته وقال :

ـــ إن ربة المدينة أوحت إلىّ أن أبنى هنا مدينة عظيمة تتوارى روما منها خجلا .

وقامت الاحتفالات بمولد مدينة القسطنطينية ، وعملت السواعد القوية وأنفقت الأموال وصدرت الأوامر إلى الحكام فى أقصى الولايات لإنشاء المعاهد الفنية لتخريج صناع مهرة ينهضون بالأعمال الهندسية التى تحتاج إليها مدينة الآمال . وارتفع البناء وأقيمت أقواس النصر ، وجلبت النفائس من مدن اليونان وآسيا ، ونصب تمثال أبوللو فى وسط الميدان . ودعا الإمبراطور أعضاء السيناتو للإقامة فى مدينته العظيمة فلبى بعضهم الدعوة وهجروا روما ، وشد أغنياء الولايات الرحال إلى مدينة الإمبراطور .

وراح قسطنطين يزين معابد الآلهة ، وأصدرت دار السك الإمبراطورى ميداليات تزدان بصور جوبيتر وأبوللو ومارس وهرقل . وكان قسطنطين يتهلل بالفرح عندما يمثلونه برموز أبوللو إله النور والشعر ؛ وقد زخرت مذابح أبوللو بما قدم من قرابين ونذور .

وكانت المسيحية تتسلل إلى قلوب الرومان فإذا ما اكتشف أمرها أنزل



السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه

السيرة النبوية



غزوة تبوك

عبد الحميد جوده السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

(صدق الله العظيم)

الأباطرة بمعتنقيها أقسى أنواع العذاب ، ونجح قسطنطين فى فتح إيطاليا . ومال قلبه إلى الدين الجديد فأصدر مرسوم ميلان ، مرسوم التسامح مع رعاياه المسيحيين ، فأعاد السلام إلى الكنيسة الكاثوليكية وأقر الحرية الدينية ، فأصبح حبيب السماء ونائب الله فى الأرض .

وأجل قسطنطين تعميده فالتعميد قضاء مبرم على الذنوب وعودة النفس إلى طهارتها الكاملة وجدارتها بالوعد بالخلاص الأبدى . إنه شعيرة لا تتكرر فراح يشبع شهواته فى حرية مطلقة وإن تظاهر بالبحث عن جوهر الحقيقة . حتى إذا ما تمدد على فراش مرضه الأخير دعا الأساقفة إلى قصر نيقوميديا لتعميده ، ثم زعم أنه سيقضى بقية حياته فى نسك يليق بتلميذ للسيد المسيح .

لم تدنس عاصمة الشرق الجديدة بعبادة الأوثان فقد رفع قسطنطين المسيحية على عرش العالم الرومانى ، فراحت روما تحاكى القسطنطينية فعمد فيها اثنا عشر ألف رجل فى سنة واحدة ، وكان الإمبراطور يمنح كل من يتحول إلى المسيحية رداء أبيض وعشرين قطعة ذهبية . وسار الإنجيل فى ركاب الجيوش وفى قوافل التجارة وفى السفن فانتشر فيما وراء حدود الولايات الرومانية . ورحب المتبربرون بالدين الجديد الذى اعتنقه أعظم ملك وأعظم إمبراطورية على وجه الأرض . وأصبح الصليب مقدسا بين القوط والألمان الذين انضموا تحت لواء روما .

أعاد مرسوم التسامح الأمن والراحة بين المسيحيين ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين العالم المسيحى ، ففى الإسكندرية قام آريوس بقول إن « كلمة الله » كان خلقا تلقائيا معتمدا على غيره ، خلقته إرادة الآب من العدم . وهذا الابن الذى صنع كل شىء قد ولد قبل العوالم ، وأن أطول الأزمنة الفلكية لا تعدو أن تكون لحظة عابرة إذا قورنت بمدى وجوده . غير أن هذا الوجود

لم يكن أزليا بل لقد كان هناك زمن سابق لخلق « كلمة الله » ، وهو خلق لا يمكن وصفه أو التعبير عنه . ولقد نفخ الآب سبحانه فى ابنه الوحيد من روحه وغمره فى فيض من نور مجده وعظمته ، ولقد رأى هذا الابن — وهو صورة منظورة لكمال غير منظور — على مسافة غير محدودة القياس تحت قدميه ، عروش ألمع رؤساء الملائكة . غير أن الضوء الذى كان يشعه كان منعكسا عليه ، وكان يحكم العالم خضوعا لإرادة أبيه ومليكه شأنه فى ذلك شأن أبناء أباطرة الرومان الذين كانوا يمنحون لقب قيصر ولقب أوغسطس .

ولم يعجب ذلك الرأى كنيسة القسطنطينية فقام معارضون لآريوس يقولون إن « كلمة الله » يمتلك كل الكمال الكامن الذى لا يمكن أن ينتقل إلى غيره ، وأن الجوهر الإلـٰهى يتألف من ثلاثة عقول أو ثلاث مواد مميزة ولا نهاية لها ، وهى كائنات تشترك فى أنها متساوية وأبدية ، وإنه لمن التناقض أن يقال إن أيا منها لم يكن له وجود أو أن وجودها سوف ينتهى يوما ، ولقد حاول أنصار هذا الفرض الذى يبدو أنه يشكل ثلاثة آلـهة مستقلة ، أن يبقوا على وحدة « خالق الكل » الذى يبرز دوره الملهم فى شكل الدنيا ونظامها بقولهم إن هذه الآلهة الثلاثة متفقة اتفاقا دائما فى عملها وفى التطابق الجوهرى لمشيئتها .

وظهر رأى ثالث يقول بوجود ثلاثة كائنات تملك بحكم الضرورة المستمدة من ذواتها كل الصفات الإلـٰهية فى أسمى درجاتها ، وهذه الكائنات الثلاثة أبدية فى زمانها لا نهائية فى مكانها ، وثيقة الوجود بعضها مع بعض وفى الكون كله . ومن ثم فهى تفرض نفسها على العقل الحائر باعتبارها كائنا واحدا وحيدا يستطيع فى نطاق الكياسة وفى نظام الطبيعة أن يتجلى فى أشكال مختلفة ، ويمكن أن ينظر إليه من جوانب مختلفة . وبمقتضى هذا الفرض يسمو التثليث المادى الحقيقى ويصبح تثليثا من حيث الأسماء ومن حيث الصفات

المجردة التي لا تبقى إلا فى العقل الذى يفهمها . وهكذا لا يعود « كلمة الله » شخصا بل صفة . أما صفة « الابن » فلا تنطبق إلا مجازا على العقل الأزلى الذى كان مع الله منذ البدء ، ذلك العقل الذى صنع كل شيء . ويغدو تجسيد « كلمة الله » مجرد وحى من الحكمة الإلـٰهية هبط على الإنسان « يسوع » فملأ جوانب نفسه وهدى كل أعماله .

وأخذ الناس يدورون فى الدائرة اللاهوتية . وانقسمت إمبراطورية الرومان والولايات الخاضعة لها حول التثليث فرأى قسطنطين أن يضع حدا لذلك الانقسام الذى يهدد إمبراطوريته بالتصدع ، فابتدع بدعة المجامع الدينية لحسم الخلافات بين المذاهب المتناحرة ، فاجتمع مجمع نيقية وأقر المجمع مبدأ أن الآب والابن من جوهر واحد ، ووافقت على ذلك الكنائس اليونانية واللاتينية والكنائس الشرقية وكنائس البروتستانت . ثم تتابعت المجامع فمجمع ينبذ مذهب الطبيعة الواحدة ، ثم يأتى مجمع آخر فيقبله ، ومجمع يصف أتباع آريوس بالمروق ، ومجمع آخر يكيل لهم المديح .

وجاء قسطنطيوس بعد أبيه قسطنطين فلم يستخدم سلطانه فى التوفيق بين الأحزاب بل شجع الخلافات التى أثارها فضوله الأجوف ، وأجج نيران المهاترات الكلامية ، فامتلأت الطرق بجماعات من الأساقفة يهرعون من كل فج إلى اجتماعات المجالس الكنيسية ، ويعملون جاهدين على إخضاع الطائفة كلها إلى آرائهم الخاصة ، فكاد الخراب يحل بكنائسهم العامة نتيجة رحلاتهم التى كانت تستهدف البحث عن العقيدة الصحيحة .

كان قسطنطيوس معارضا للعقيدة التى أقرها مجمع نيقية ، فكان يمقت مذهب الطبيعة الواحدة فشهر سيفه لمحاربة تلك العقيدة وفرض على العالم عقيدة التشابه بين الآب والابن دون الإشارة إلى أنهما من مادة واحدة .

ومرت الأيام والعداوة تشتد ضراوة بين المسيحيين ، ومزقت مملكة الله الخلافات وسمت طائفة نفسها الأرثوذكس « أصحاب المذهب الصحيح » ، وأطلقت على من عداها اسم الهراطقة . واستمرت الخلافات بين الشرق والغرب واتسعت الهوة بين المذاهب المتنافرة المتطاحنة ، وتشعبت حتى أصبح التوفيق بينها ضربا من المحال .

وفى ذلك الوقت كانت الحنيفية التى جاء بها إبراهيم خليل الرحمن قد فسدت فى جزيرة العرب فعبد الناس الأصنام ، وقد أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل ، وحجوا إلى الأصنام ونحروا لها القرابين وقربوا الهدايا ، وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر ، وأحلوا وحرموا ، وكانوا يعتقدون بعبادة الأصنام عبادة الله تعالى والتقرب إليه لكن بطرق مختلفة : فرقة قالت ليست لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلا وساطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه ، وفرقة قالت : الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناما على هيئة الملائكة ليقربونا إلى الله . وفرقة قالت جعلنا الأصنام قبلة لنا فى عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة فى عبادته ، وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطانا موكلا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله .

واعتنق فريق من العرب المجوسية أخذوها عن الحيرة ، فقالوا الصانع اثنان ، ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين . وهما مختلفان فى النفس والصورة متضادان فى الفعل والتدبير ، فالنور فاضل حسن نقى طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شىء من الضرر ، والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح

المنظر ، ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة منتنة مضرة منها الشر والفساد .

وكانت اليهودية فى يثرب وقد انتشرت منها إلى اليمن . وكانت النصرانية فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة ، وقد اجتمع على النصرانية فى الحيرة قبائل شتى من العرب ودخلت الحبشة فى المسيحية . وأراد نصارى الحبشة أن يتصلوا بنصارى الشام وأن يرفعوا الصليب على جزيرة العرب فبعث النجاشى قائده أبرهة ليقوض الكعبة بيت العرب المقدس الذى تجمع حوله كل القبائل العربية وإن اختلفت مذاهبها ، فانطلق أصحاب الفيل ليزيلوا من الوجود أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

أباد الله أصحاب الفيل لأن إرادته شاءت أن يفيض نور الهداية مرة ثانية من بيته العتيق على العالمين ، فما إن اندحر جيش المعتدين حتى ولد الهدى فى البلد الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، وانقضت أربعون سنة وأوحى الله إلى عبده ما أوحى ، فقام محمد بن عبد الله يدعو قومه إلى سبيل ربه بالموعظة الحسنة .

وآلت مقاليد الإمبراطورية الرومانية إلى هرقل . وقد جاءه المنجمون والعرافون ليقرءوا له طوالع عصره فقالوا له فى حزن عميق إن ملكه سيزول على يد شعب مختون . وفكر هرقل ودبر فلم يجد شعبا مختونا غير اليهود يمكن أن يهدد ملكه ، فصب عليهم سوط عذاب وأذاقهم من الاضطهاد ألوانا .

وقام محمد — ﷺ — ينذر قومه ويبلغهم رسالة ربه ، فكان صراع بين الهدى والضلال ، وكانت الهجرة وكانت الحروب بين الأنصار والمهاجرين وبين كفار مكة ، وكانت انتصارات الإسلام الباهرة ، حتى إذا ما وقع صلح الحديبية بين المسلمين وقريش أرسل — ﷺ — الرسل إلى ملوك الأرض

يدعوهم إلى الإسلام .

وذهب دحية الكلبى إلى الشام يحمل كتاب رسول الله — ﷺ — إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيه إلى الإسلام ، فقابل هرقل دحية بالترحيب وبعث معه هدايا لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن ما إن غاب دحية عن عينيه حتى عادت النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيستل منه الملك تؤرقه ، فالعرب الذين بعث الله فيهم رسولا منهم شعب مختون ، وإن النبوءة لقادرة على أن تجمع أشتات هذا الشعب ، وهى قادرة على أن تحمله إلى غزو العالم وتقويض الإمبراطوريات التى نخر فيها سوس الفساد . فبيت هرقل النية على مناصبة الأمة التى بدأت تلتف حول رسولها العداء ، وعزم على أن يطعنها طعنة قاضية قبل أن يشتد ساعدها .

وجمع هرقل الجموع ، وبلغ رسول الله — ﷺ — أن إمبراطور الروم يتأهب لغزو بلاده . إنه عليه الصلاة والسلام يمقت أن يبدأ بالعدوان وهو محب للسلام ، ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يدهمه عدوه فى عقر داره ، فأرسل جيشا بقيادة زيد بن حارثة للقاء هرقل وكانت غزوة مؤتة ، وحارب جيش الأمراء حربا لا هوادة فيها و لم تكن القوى متكافئة ، فانصرف خالد بن الوليد بالناس . فلما أقبل بهم قافلا جعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرّار ، فررتم فى سبيل الله .

فيقول رسول الله — ﷺ — :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وكان فتح مكة ، واتفقت كلمة العرب لأول مرة منذ أن نشأ المجتمع المكى حول بئر زمزم ، وكانت الوحدة فعادت مخاوف هرقل تقلقه ، فها هو ذا شعب مختون فتى يرفع رأسه ويتأهب ليزحف ليحتل مكانه بين العالمين . إنه الشعب

الذى تنبأ المنجمون بأن نهاية ملكه ستكون على يديه ، فراح يجمع الجموع ليطيح بذلك الشعب قبل أن تثبت أقدامه على الأرض .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن هرقل يتأهب ليعاود الكرة ويسير إلى يثرب ليطعن قلب الإسلام فعقد — ﷺ — العزم على أن يخرج بنفسه لتحطيم غرور الرومان وليرشد أتباعه إلى طريق الانطلاق .

٢

الحر شديد والعرق يتفصد من الأجسام ، والناس فى عسرة فقد انتشر الجدب فى البلاد . وبرقت فى النفوس بارقة أمل فقد أينعت البساتين وطابت الثمار ، فهوت أنفس الناس إلى المقام فى ثمارهم وظلالهم . وراح ـ ﷺ ـ يأتى القوم ويقول لهم إن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام ، وإن هرقل قد رزق أصحابه لسنة ، وإن لخم وجذام وعاملة وغسان قد خرجت معه وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .

وندب رسول الله ـ ﷺ ـ الناس إلى الخروج وكان عليه السلام قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا ما كان من هذه الغزوة لبعد الشقة وشدة الزمن وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم ، وأمر الناس بالجهاز فراحوا يتجهزون وقد عادت غزوة مؤتة إلى الذاكرة ؛ لقد قتل فيها زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وجعفر بن أبى طالب أمراء الجيش ، وقد استطاع خالد بن الوليد أن يقفل راجعا بجيش المسلمين بعد خدعة بارعة خدع بها جيوش الرومان .

كان المؤمنون يتحرقون شوقا للقاء الأعداء ليثأروا مقتل إخوانهم ، وكان المنافقون يجاهدون لبث روح الهزيمة فى صفوف المسلمين . وبعث عليه السلام إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فإذا بالرجال الذين أضاء الله قلوبهم بأنوار اليقين يتدفقون على

المدينة من كل حدب ، وإذا بالصدقات تحمل من مكة ومن القبائل إلى مدينة الرسول ، وإذا بأناس يتثاقلون إلى الأرض .

وذات يوم وبينا رسول الله — ﷺ — يتجهز لغزو الروم ، قابل الجد بن قيس — أحد بنى سلمة — فقال له :

— يا جد هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر ؟

— يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عُجبا بالنساء منى . وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه — ﷺ — وقال :

— قد أذنت لك .

ولامه ولده عبد الله وقال له :

— والله ما يمنعك إلا النفاق . سينزل الله فيك قرآنا .

فأخذ نعله وضرب به وجه ولده .

فأنزل الله فى الجد بن قيس : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين »[١] .

فقال له ولده :

— ألم أقل لك ؟

— اسكت يالكع[٢] ، فوالله لأنت أشد علىّ من محمد .

وراح المنافقون يبثون سمومهم ويفحون[٣] للناس فحيح الأفاعى

---

(١) التوبة ٤٩ . (٢) اللكع : اللئيم .

(٣) الفحيح : صوت الأفعى .

ويقولون هامسين :

ــ لا تنفروا فى الحر .

كانوا ينسلون فى حذر ويتهامسون وهم يتلفتون حتى لا يصل همسهم إلى مسامع الرسول عليه السلام أو مسامع أصحابه المخلصين . كانوا يرجون أن ينجحوا فى إلقاء بذور الزهادة فى الجهاد فى قلوب المؤمنين دون أن يفتضح أمرهم ، ولكن الله كشفهم وأنزل فيهم : ﴿ وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون * فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن رسول الله ــ ﷺ ــ ، فبعث إليهم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرِّق عليهم بيت سويلم .

وانطلق طلحة والذين معه إلى الدار وأشعل فيها النار ، فانخلعت قلوب من فيها وهبوا مفزوعين يريدون النجاة فاقتحم الضَّحاك بن خليفة من البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا ، فقال الضَّحاك فى ذلك :

كادت وبيتِ الله نارُ محمد
يشيط بها الضَّحاك وابن أبيرق
وظلت وقد طَبَّقت[٢] كبس[٣] سويلم
أنوء على رجلى كسيرا ومرفقى

(١) التوبة ٨١ ، ٨٢ . (٢) طبقت : علوت .

(٣) كبس : البيت الصغير .

سلام عليكـــــم لا أعــــود لمثلهـــــا
أخــاف ومــن تشمــل بـــه النـــار يحرق

وأخذ عليه السلام يحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ـــ وهى تسعمائة بعير ومائة فرس ـــ والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية ؛ وعند ذلك قال ـــ ﷺ :

ـــ اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض .

وظل من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان .

وجاء عثمان بن عفان بألف دينار فصبها فى حجر النبى ـــ ﷺ ـــ ، فجعل رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقلبها بيديه ويقول :

ـــ ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .. ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم . فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

ـــ أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

ـــ النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية ، فقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خزانتين من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله تعالى .

وجاء العباس بمال كثير ، وجاء طلحة بما عنده ، وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .

وجاء عبد الله ذو البجادين إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ادع لى بالشهادة .

فقال — ﷺ :

— ائتنى بلحاء (قشرة) شجرة .

فأتاه بذلك فربطه — ﷺ — على عضده وقال :

— اللهم حرم دمه على الكفار .

— يا رسول الله ليس هذا ما أردت .

— إنك إذا أخذتك الحمى فقتلتك فأنت شهيد .

و لم يكن لعبد الله إلا بجاد واحد[1] ، فشقه نصفين فأتزر بواحد وارتدى بالآخر . وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآنا كثيرا وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله .

وأتاه أصحاب مسجد الضرّار فقالوا :

— يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

— إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

وجاء — ﷺ — سبعة أنفس من فقهاء الصحابة كانوا متشوقين للغزو فى سبيل الله ، ولكنهم كانوا فقراء لا يجدون ما يركبون فسألوه أن يحملهم ، فقال — ﷺ :

— لا أجد ما أحملكم عليه .

---

(١) البجاد : الكساء المخطط الغليظ .

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون . ورأى العباس بكاء البكائين فتأثر غاية التأثر فحمل منهم اثنين ، وحمل منهم عثمان بن عفان ثلاثة ، وحمل يامين بن عمرو النضرى اثنين دفع لهما ناضحا له وزود كلا منهما صاعين من تمر .

وكان هناك أناس آخرون يتحرقون شوقا للخروج مع رسول الله — ﷺ — لقتال الروم ، وكان يقعدهم عن التجهز أنهم لا يملكون ناقة ولا بعيرا ، فالشقة بعيدة والحر شديد وما يستطيع رجل أن يطوى المسافة بين يثرب وتبوك على قدميه . وكان أبو موسى الأشعرى وبعض أصحابه يجلسون مطرقين قد نزل بهم هم ثقيل ، فهم يرون إخوانهم يتأهبون للخروج بينا هم لا يجدون مطية تحملهم لينطلقوا مع رسولهم الكريم .

واتجهت الأبصار إلى أبى موسى ، فرسول الله — ﷺ — ينصت إليه وهو يرتل القرآن ترتيلا حتى إذا ما انتهى من تلاوته يقول له عليه السلام : « إنك مزمار من مزامير داود » . وطلبوا منه أن ينطلق إلى رسول الله — ﷺ — يسأله الحملان لهم :

وذهب إليه أبو موسى وقال :

— يا نبى الله إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم .

— والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه .

فرجع أبو موسى حزينا إلى أصحابه من منع النبى — ﷺ ، ومن مخافة أن يكون النبى عليه السلام وجد فى نفسه حيث حلف على ألا يحملهم ، وأخبرهم الذى قال النبى — ﷺ — فلم يلبث إلا سويعة إذ سمع بلالا ينادى :

— أين عبد الله بن قيس ؟

فأجابه قال :

ـــ أجب رسول الله ، النبى ـــ ﷺ ـــ يدعوك .

فلما أتاه قال عليه السلام :

ـــ خذ هذه الستة الأبعرة فانطلق بها إلى أصحابك .

وأخذها أبو موسى وانطلق بها إلى أصحابه فتهللت وجوههم بالبشر ، وسرعان ما غاضت ألوانهم لما قال أحدهم :

ـــ أغلقنا رسول الله ـــ ﷺ .

حملوه على يمين الغلق ، حلف أن لا يحملهم ثم حملهم فقالوا :

ـــ فوالله لا بارك لنا فى ذلك .

فأتوه وبثوه مخاوفهم فقال : عليه صلوات الله وسلامه :

ـــ أنا ما حملتكم ، الله حملكم .

ثم قال :

ـــ إنى لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير .

إنه ـــ ﷺ ـــ إنما حلف ألا يتكلف لهؤلاء حملا بقرض ، فهو لم يحنث فى قسمه . وقد أراد استثبات قاعدة على الرغم من أنه لم يحنث فى يمينه ، فقال إنه لو قدر وحلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فهو يكفر عن يمينه ويأتى الذى هو خير .

وتأهب عليه السلام للخروج ، وخلف محمد بن مسلمة الأنصارى على المدينة ، وخلف عليا كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم .

وأرجف بعلى المنافقون وقالوا :

ـــ ما خلفه إلا استثقالا له .

وسار رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالناس وكانوا ثلاثين ألفا وكانت الخيل عشرة

آلاف فرس . وعسكر على ثنية الوداع ، وجاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان فى جيش لا يقل كثيرا عن جيش المؤمنين وعسكر أسفل جيش رسول الله — ﷺ .

وصوبت أعين الشك إلى عبد الله بن أبى ، أينطلق رأس المنافقين مع رسول الله — ﷺ — ليحارب الروم ؟ أطهر الله قلبه وأضاء جوانحه بأنوار اليقين ؟ وآن أوان الرحيل فقال عبد الله بن أبى فى سخرية :

— يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحر والبلد البعيد ! يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب ، والله لكأنما أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال .

لم يبرأ عبد الله بن أبى من مرض قلبه . إنه لم يستطع أن ينسى يوما أن محمدا قد حرمه التاج الذى كاد الأوس والخزرج أن يضعوه على رأسه لولا هجرته عليه السلام التى قضت على كل آماله وأمانيه . وتخلف عن الخروج وهو يرجو أن يهزم الروم المسلمين هزيمة تشفى غليله الذى كان يزداد ضراوة على مر السنين .

واجتمع جمع من المنافقين فقال بعضهم لبعض :

— أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنهم غدا مقرنون فى الحبال .

وقال رسول الله — ﷺ — عند ذلك لعمار بن ياسر :

— أدرك القوم فإنهم قد احترفوا فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا .

فانطلق إليهم عمار فقال ذلك ، فأتوا رسول الله — ﷺ — يعتذرون إليه وقالوا :

ـــ إنما كنا نخوض ونلعب .

فأنزل الله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب »(١) .

وجاء الضعفاء والمقلون من الأعراب ليؤذن لهم فى التخلف فأذن لهم وكانوا اثنين وثمانين رجلا ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر . وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير عذر وكانوا ممن لا يتهم فى إسلامه .

وتأهب رسول الله ـــ ﷺ ـــ للسير فعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر الصديق ، ورايته العظمى للزبير بن العوام ، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير ، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء .

وقطع جيش المسلمين ثلاثة أميال ثم نزل بالجرف ، وإذا بعلى بن أبى طالب قادم وهو باسر الوجه فقد بلغه ما يرجف به المنافقون ؛ إنه يحمل سلاحه وهو يريد أن ينطلق مع ابن عمه الحبيب ليحارب بين يديه كما حارب فى كل المشاهد .

ونظر رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إلى علىّ فى استفسار فقال على :

ـــ يا نبى الله زعم المنافقون أنك ما خلفتنى إلا استثقلتنى وتخففت منى .

ـــ كذبوا ولكننى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟

---

(١) التوبة ٦٥ .

٣

انبسطت أشعة الشمس كأنها تبر فى الأفق الشرقى ، ثم ارتفعت ترسل اللهب فأوى الناس إلى الدور ، وخرجت طائفة إلى الحقول والبساتين تبحث عن الظل الظليل والنسيم العليل ، فقد كان اليوم شديد الحر ثقيل الهواء لكأنه كابوس على الصدور .

وجاء أبو خيثمة والعرق يتفصد منه والهواء الساخن يلفح وجهه ، وعلم أن رسول الله — ﷺ — قد خرج منذ أيام لقتال الروم فدخل على أهله ، فوجد امرأتين له فى عريشتين لهما فى بستان قد رشت كل منهما عريشتها وبردتا فيها ماء وهيأتا طعاما . فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا فتقاصرت نفسه وقال :

— رسول الله — ﷺ — فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وماء مهيأ وامرأة حسناء ؟ ما هذا بالنَّصف .

ورنا إليهما رنوة طويلة ثم قال :

— والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله — ﷺ — فهيئا لى زادا .

ففعلتا ، وأخذ سيفه ورمحه وامتطى راحلته وانطلق فى الحر الشديد يطلب رسول الله — ﷺ — .

كان يعرف الطريق فيا طالما انطلق فيه إلى الشام ، ولقد خرج مع جيش

المسلمين الذى التقى بالروم فى مؤتة . إنه ليرى بعين خياله فرسان الروم على ظهور الجياد وقد تألقت فى الشمس خوذاتهم وعكست دروعهم أشعتها الوهاجة لتبهر الأبصار ، وقد رفع النسر الرومانى على رءوس الرماح يرفرف فى الهواء .

وعادت معركة مؤتة تدور فى رأسه . إنها معركة رهيبة لا يستطيع أن ينساها مهما مرت السنون . كانت بدايتها غريبة وكانت نهايتها عجيبة ؛ ثلاثة آلاف من صناديد المسلمين يخرجون لحرب أعظم جيوش الأرض قاطبة ، الجيش الذى هزم الفرس وأعاد الصليب إلى بيت المقدس ، إنه ليذكر عبد الله ابن رواحة وهو يودع الناس . وإنه ليرى فى وضوح دموعه التى سالت حتى بللت لحيته . وإن الحوار المؤثر الذى دار بين المودعين وبين ابن رواحة يرن فى وجدانه فيبهره من الأعماق :

ـــ ما يبكيك يا بن رواحة ؟

ـــ أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل فذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا »(١) . فلست أدرى كيف لى بالصَّدر بعد الورود .

ـــ صحبكم الله دفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

لكننــــــى أسأل الـــــرحمن مغفـــــرة
وضربــة ذات فـــرغ تقـــذف الزبـــدا(٢)

---

(١) مريم ٧١ .

(٢) ذات فرغ : ذات سعة ، والزبد هنا رغوة الدم .

أو طعنـــة بيـــدَى حـــرَّان مجهـــرة[1]
بحربـــة تنفـــذ الأحشاء والكبـــدا
حتـــى يقـــال إذا مَـــرُّوا على جـــدثى
أرشده الله مـــن غـــاز وقـــد رشدا

ورأى أبو خيثمة عبد الله بن رواحة وهو يودع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فأصاخ السمع كأنما يتلقى من الماضى ترجيع صوت شاعر الرسول :

فثـــبت الله مـــا آتـــاك مـــن حَسَن
تثبيـــت مـــوسى ونصرا كالـــذى نُصروا
إنى تفـــرست فـــيك الخير نافلـــة
الله يعلـــم أنى ثـــابت الـــبَصر[2]
أنت الـــرسول فمـــن يُحـــرم نوافلَـــه
والوجـــه منـــه فقـــد أزرى بـــه القـــدر

وقفز خيال أبى خيثمة إلى المعركة . ثلاثة آلاف من المسلمين أمام هرقل قاهر الفرس فى مائة ألف من الروم وقد انضم إليهم رجال من لخم وجُذام والقيْن وبهراء وبلى . قوى غير متكافئة .

ورأى فريق من المسلمين أن يكتبوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيخبروه بعدد عدوهم ، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمره ، واحتلت صورة ابن رواحة صفحة ذهنه ودوى صوته فى جوانحه كأنما قد تردد بين السماء والأرض :

---

(١) مجهرة : شديدة .

(٢) فى هذا البيت إقداء ، وهو اختلاف حركة الراء من ضم إلى كسر .

— يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة .

وقال أبو خيثمة لنفسه وهو يجفف العرق المتصبب منه :

— وكانت الشهادة .

زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط فى رماح القوم ، جعفر بن أبى طالب يلتقط راية رسول الله عليه السلام — حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ، ومس أذنى خيثمة ما ارتجز به جعفر قبل أن يقتل :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبة وباردا شرابها
والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها
علىّ إذ لاقيتها ضرابها

وتذكر عبد الله بن رواحة بهيئته المهيبة وشجاعته الفائقة وإيمانه العميق . إنه أخذ الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، ثم نزل وسيفه فى يده ، فتقدم فقاتل حتى قتل .

ثلاثة آلاف يقاتلون مائة ألف أو يزيدون ، فماذا كان خالد بن الوليد يستطيع أن يفعل إلا أن ينصرف بالناس !

وراح خيثمة يفكر فى العلاقة التى ساءت بين المسلمين والروم ، فالمسلمون فى أيام محنتهم فى مكة كانوا متحمسين للروم لأنهم أهل كتاب وكانوا يتمنون انتصارهم على الفرس . فلما انتصرت فارس عليهم ساء ذلك المسلمين فنزل القرآن المجيد يؤكد انتصار الروم بعد هزيمتهم المنكرة : « ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون.فى بضع سنين لله

الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ؛ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم »[1] . وكانت سخرية من قريش . وكان رهان بين أبى بكر الصديق وأمية بن خلف ، وتصرمت الأيام وكانت الهجرة وكانت غزوة بدر وكان انتصار المسلمين المبين وجاءت الأنباء بانتصار الروم على الفرس وسادات قريش صرعى فى القليب ، ففرح المؤمنون بنصر الله وخروا للأذقان سجدا .

وأرسل — صلوات الله وسلامه عليه — رسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام ، فقال فى دهاء : « لو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقيه » . إنه عرف صدق النبى — ﷺ — وإنما شح بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام .

إنه بعد أن أعطى من طرف لسانه حلاوة جمع الجموع بعد سنتين ليسير إلى يثرب ليقضى على النهضة التى انبعثت بها قبل أن يستفحل أمرها وتهدد سلطانه ..ولكن رسول الله عليه السلام بعث إليه صفوة جنوده ليحاربوا بالإيمان جحافل الرومان الذين كانت قلوبهم هواء ، وكانت غزوة مؤتة وكان أن قتل أمراء الجيش بعد أن أثخنوا الجيش الرومانى بالجراح .

كانت معركة رهيبة انتشرت أنباؤها فى القدس وفى حمص وفى القسطنطينية ، بل وقرع خبرها أبواب روما ، وأحس هرقل أن سمعة جيشه باتت فى الميزان . مائة ألف أو يزيدون عجزوا عن أن يقضوا على ثلاثة آلاف من المسلمين ، فجمع هرقل الإمبراطور الذى يزهو بنصره على الفرس آلاف الجنود والفرسان ليضرب العرب ضربة قاضية تعيد إليه هيبته ، ولكن رسول

---

(١) الروم ١ — ٥ .

الله — ﷺ — ندب الناس للخروج فخرجوا يطوون الصحراء فى القيظ الشديد ليهاجموا الذين يتأهبون للعداوة ، فالهجوم خير وسيلة للدفاع .

وخطر على قلب خيثمة قول رسول الله — ﷺ : « نُصرت بالرعب » . فرفَّت على شفتيه بسمة رضا . إن خبر خروج رسول الله عليه السلام بنفسه لحرب الروم سيصل إلى هرقل وسينزل الرعب فى قلبه وسيزلزله من الأعماق . سيهزم الجمع قبل أن يشهر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى وجوههم السلاح .

ورأى خيثمة رجلا على الطريق فحث راحلته حتى لحق به ، فقال :

— من ؟ عمير بن وهب !

— نعم .

— إلى أين ؟

— خرجت فى طلب رسول الله .

— الصحبة يا عمير .

— الصحبة .

٤

جيش المسلمين يسرى فى معبد الله . الشمس حامية ترسل لهيبها والعرق ينبثق من الأجسام وشنن الماء ترفع إلى الأفواه فتطفئ الظمأ وقتا قصيرا ثم سرعان ما يعود إلى الحلوق الجفاف . ورسول الله ـ ﷺ ـ يطوى الأرض طيا فهو يريد أن يصل إلى تبوك قبل أن يتم هرقل استعداده للقاء .

وهبت الرياح ساخنة تشوى الوجوه ، وتلفت المسلمون فلم يجدوا إلا ظل الصخور التى كانت تبعث حرارتها لكأنما كانت ألسنة نار ، وكانت الأرض كأتون ملتهب تلسع الأقدام . وأراد كثير من الرجال أن ينقضوا من على رواحلهم ولكنهم كانوا يرون رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ مستويا على ناقته وما كان شابا وما كان حتى فى منتصف عمره ، فكانوا يتماسكون ويتحملون قسوة الحر الشديد ، فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة .

ثلاثون ألفا من الرجال يتحركون وقد صار هدفهم حدود الدولة الرومانية ، وتخلف أبو ذر الغفارى فقالوا لرسول الله ـ ﷺ :

ـ تخلف أبو ذر .

ـ دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، و إن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه .

ومر رسول الله ـ ﷺ ـ بالحِجر ديار ثمود فسجى ثوبه على رأسه

واستحث راحلته وقال :

— لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم .

ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئا وألا يتوضئوا به للصلاة ، ثم ارتحل بالناس وانطلق حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها ناقة صالح ، وقلب وجهه فى السماء وأخبر عليه السلام أصحابه أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة وقال :

— من كان له بعير فليشد عقاله .

ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه أخوه ، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق ، وخرج آخر فى طلب بعير له ند فاحتملته الريح ، فأخبر بذلك رسول الله — ﷺ — فقال : ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه ؟

واستخلف على عسكره أبا بكر الصديق يصلى بالناس واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف فى أصحابه على العسكر ، ثم أصبح الناس ولا ماء معهم فتوجهت الأبصار إلى السماء فإذا هى زرقاء صافية . وارتفعت الشمس ترسل أشعتها الحامية فتململ الناس وراحوا يحتمون بظل الصخور ، وسرعان ما نفثت الصخور حرارتها فانبثق العرق من الأجسام وجفت الحلوق وأخذ الناس يلهثون من الظمأ وكاد يلحق بهم البوار ، فقد حصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم . فقاموا إلى إبلهم ينحرونها ويشقون أكراشها ويشربون ماءها ويجعلون ما بقى على أكبادهم . وراح أبو بكر الصديق ينظر إلى الرجال من بين الدموع التى ترقرقت فى عينيه ، أيموت الناس عطشا ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فيهم ؟!

وذهب أبو بكر إلى رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيرا ، فادع الله لنا .

— أتحب ذلك ؟

فدعا فأرسل الله سحابة فمطرت فأخذ الناس يستقبلون المطر بوجوههم وقد تهللت أساريرهم وارتفعت الأصوات بشكر الله وقد فتحت الأفواه لاستقبال الغيث المنهمر وملئوا شننهم واحتملوا ما يحتاجون إليه . ومر رجل من الأنصار بآخر متهم بالنفاق فقال له :

— ويحك قد ترى .

فقال المنافق دون خجل :

— سحابة مارة .

وقال آخر لمنافق آخر :

— ويحك هل بعد هذا شيء ؟

— إنما مطرنا بنوء كذا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تُكذِّبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾(١) .

وتباطأ جمل أبي ذر لما به من الإعياء والتعب فتخلف عن الجيش ، فقال الناس لرسول الله — ﷺ — :

— يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره .

— دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم . وإن يك غير ذلك فقد

---

(١) الواقعة ٨٢ — ٨٥ .

أراحكم الله منه .

وانطلق الجيش وأبو ذر يحاول أن يستنهض بعيره فذهبت ، محاولته أدراج الرياح ، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله — ﷺ — ماشيا فأدركه نازلا فى بعض المنازل . ونظره شخص يمشى فقال :

— يا رسول الله إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كن أبا ذر .

فلما تأمله القوم قالوا :

— يا رسول الله هو والله أبو ذر .

فقال رسول الله — ﷺ :

— رحم الله أبا ذر . يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده .

وسار جيش المسلمين حتى لاحت أرباض تبوك وأبو خيثمة وعمير بن وهب يغذان السير ليلحقا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ولاحت لأعينهما جماعة المسلمين فالتفت أبو خيثمة إلى عمير وقال :

— إن لى ذنبا فلا عليك أن تتخلف عنى حتى آتى رسول الله — ﷺ .

وتخلف عمير وتقدم أبو خيثمة ، ورأى الناس رجلا يتقدم فقالوا :

— هذا راكب مقبل .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كن أبا خيثمة .

— يا رسول الله هو والله أبو خيثمة .

فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— أولى لك يا أبا خيثمة .

وارتجف أبو خيثمة فرسول الله يتوعده ويهدده ، وسرعان ما استعاد رباطة جأشه فراح يخبر رسول الله ، فقال له رسول الله — ﷺ — خيرا ودعا له بخير .

وأنشد أبو خيثمة :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا
أتيت التى كانت أعفَّ وأكرما
وبايعتُ باليمنى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثما ولم أغش محرما
تركت خضيبا فى العريش وصرمة
صفايا كراما بُسرها قد تحمَّما[1]
وكنت إذا شك المنافق أسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما[2]

وأسدل الليل أستاره ولم يبق على تبوك غير تلك الليلة ، فالتفت عليه السلام إلى بلال وقال له :

— اكلأ لنا الفجر .

وذهب — صلوات الله وسلامه عليه — لينام ونام أصحابه ، وأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه . وظل عليه السلام نائما فلما استيقظ نظر إلى الأفق الشرقى فوجد أن الشمس قد ارتفعت قيد رمح ، فذهب إلى حيث كان بلال وقال له :

---

(١) الخضيب : المخضوبة ، والصرمة : جماعة النخل ، وصفايا : كثيرة الحمل ، والبسر : التمر قبل أن تطيب .

(٢) أسمحت : انقادت ؛ وشطره : نحوه وقصده .

— ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر ؟

— يا رسول الله ذهب بي مثل الذى ذهب بك .

وصلى رسول الله — ﷺ — وصلى الناس ثم ركبوا ، فجعل بعضهم يهمس إلى بعض :

— ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟

فقال النبى — ﷺ :

— ما هذا الذى تهمسون دونى ؟

— يا رسول الله بتفريطنا فى صلاتنا .

— أما لكم فى أسوة حسنة ؟ ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجىء وقت أخرى .

وبلغ رسول الله — ﷺ — تبوك بعد سبعة أيام من خروجه من يثرب ، وكان عليه السلام قد أشرف على الستين وكان أكثر رجال الجيش قوة وحيوية ، وتقع تبوك على حدود الدولة الرومانية وهى واحة خضراء خصبة ، الحدائق تمتد على مدى البصر والأشجار باسقة والسكان يقابلون الذين قطعوا الفيافى والقفار لحرب الروم بالترحاب ، فقد عرف عن المسلمين العدل والإحسان بينا كان الناس يقاسون الأمرين فى ظل الرومان قساة الأكباد .

وراح الجنود يعالجون أقدامهم المكدودة المجروحة بعد أن ألقى الله الرعب فى قلوب الرومان فانسحبوا إلى الشام وقد آثروا السلامة ، ففى غزوة مؤتة فعل ثلاثة آلاف مسلم بهم الأفاعيل فهل يغامرون بتجربة أخرى أمام ثلاثين ألفا الموت إليهم أحب من الحياة ، و على رأسهم رسول الله — ﷺ ؟

ذاب الجيش الرومانى و لم يظهر لهرقل أثر ، فبعث رسول الله — ﷺ —

كتائب خفيفة إلى المناطق المجاورة ، فجاء يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء وهى قرية بالشام وأهل أذرُح ، فعرض عليه — ﷺ — الإسلام أو الجزية فقبل يوحنا أن يدفع الجزية لرسول الله وأهدى له بغلة بيضاء . فكساه رسول الله — ﷺ — بردا وكتب له — ﷺ — ولأهل أيلة كتابا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل البر وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يجوز ماله دون نفسه وإنه لطيبه لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوه ماء يرونه ولا طريقا يريدونه من بر ولا بحر » .

وكتب — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى — ﷺ — لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد . وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة ، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين » .

وسجا الليل ونام الناس وراح عبد الله بن مسعود يتقلب فى نومه ، وأحس حركة خفيفة ففتح عينيه فرأى شعلة نار فاتبعها ينظر إليها ، فإذا رسول الله — ﷺ — وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات بالحمى وإذا هم قد حفروا له ورسول الله — ﷺ — فى حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه وهو يقول :

— أدليا إلىّ أخاكما .

فأدلياه إليه فلما هيأه لشقه قال :

— اللهم قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه .

فقال عبد الله بن مسعود فى نفسه :

— ياليتنى كنت صاحب الحفرة !.

٥

دعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة ، وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من كندة كان ملكا عليها وكان نصرانيا ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لخالد :

ـــ إنك ستجده يصيد البقر .

فخرج خالد فى خمسمائة فارس من فرسان المسلمين حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين رآه وهو على سطح له ومعه امرأته . كانت الليلة مقمرة صائفة وقد خرجت البقر الوحشية تمرح فى ضوء القمر أمام الحصن ، فقالت امرأة أكيدر :

ـــ هل رأيت مثل هذا قط ؟

ـــ لا والله .

ـــ فمن يترك هذه ؟

ـــ لا أحد .

فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم أخ يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه يطاردون البقر ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأخذته وقتلوا أخاه . وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد ، فبعث به إلى رسول الله ـــ ﷺ .

وقدم رجل بالقباء على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فجعل المسلمون يلمسونه

بأيديهم ويتعجبون منه ، فقد كانوا قوما يعيشون عيشة بسيطة لا يعرفون بذخ العيش ولا فاخر الثياب فما كانت الدنيا تغرهم وما كانوا يقدرونها فوق قدرها ، فما هي إلا دار ممر لدار مقر وقد جعلوا همهم الآخرة .

وقدم خالد بأكيدر على رسول الله ــ ﷺ ــ فاستقبله عليه السلام بالترحاب وهش له وبش ، فاطمأن أكيدر بعد أن أفزعه قتل خالد لأخيه حسان ، وعرض عليه ــ ﷺ ــ الإسلام أو الجزية ، فقبل أكيدر الجزية وحقن دمه ثم خلى سبيله .

ومرت الأيام ورسول الله ــ ﷺ ــ فى تبوك و لم يظهر لجيش الروم أثر ، فاستشار ــ ﷺ ــ أصحابه فى مجاوزتها فقال له عمر :

ــ إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال ــ ﷺ ــ :

ــ لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه .

ــ يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا وقد أفزعهم دنوك ، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمرا .

كان خالد قد ساق أمامه ألفى بعير وثمانمائة شاة لما جاء بأكيدر ، وقد أهدى لرسول الله عليه السلام بعض أهل الكتاب هدايا كثيرة . وأهداه بعضهم جبنة فدعا بسكين فسمى الله وقطع وأكل ، ثم انصرف ــ ﷺ ــ قافلا إلى المدينة .

وسرى جيش المسلمين بالليل وكان أبو رهم الغفارى قريبا من رسول الله ــ ﷺ ــ وألقى الله عليهم النعاس ، فطفق أبو رهم يستيقظ وقد دنت راحلته من راحلة رسول الله ــ ﷺ ــ فيفزعه دنوها منه مخافة أن يصيب رجله عليه السلام فى الغرز ، فطفق يحوز راحلته عنه حتى غلبته عينه فى بعض الطريق وهم

فى بعض الليل ، فزاحمت راحلته راحلة رسول الله — ﷺ — ورجله فى الغرز ، فما استيقظ إلا بقوله عليه السلام :

— حَسٌّ .

— يا رسول الله استغفر لى .

كانوا لا يحبون أن يوقظوه عليه السلام فمن يدرى قد يكون يتلقى وحى ربه ، وكانوا يتركونه إذا نام حتى يستيقظ ، فخشى أبو رهم أن يكون قد أساء إليه بإيقاظه فقال له عليه السلام فى بساطة :

— سر .

فجعل رسول الله — ﷺ — يسأله عمن تخلف من بنى غفار فيخبره به ، فقال وهو يحاوره :

— ما فعل النضر الحمر الثُّطاط (صغير نبات شعر اللحية) ؟

فحدثه بتخلفهم .

— فما فعل النضر السود الجعاد القصار ؟

— والله لا أعرف هؤلاء منا .

— بلى ، الذين لهم نعم بشبكة شدخ (ماء لأسلم من بنى غفار) .

فتذكرهم أبو رهم ولم يذكرهم حتى ذُكِّر أنهم رهط من أسلم كانوا حلفاء فيهم ، فقال :

— يا رسول الله أولئك رهط من أسلم ، حلفاء فينا .

— ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله امرأ نشيطا فى سبيل الله : إن أعز أهلى علىّ أن يتخلف عنى المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم .

واجتمع رأى من كان معه — ﷺ — من المنافقين وهم اثنا عشر رجلا أن

ينكثوا برسول الله — ﷺ — فى العقبة التى بين تبوك والمدينة ، فقالوا :

— إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى .

فأخبر الله تعالى رسوله بذلك . فلما وصل الجيش العقبة نادى مناد لرسول الله — ﷺ :

— إن رسول الله — ﷺ — يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد ؛ واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع .

فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله — ﷺ — العقبة ، فلما سمع المنافقون بذلك استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة ، وأمر — ﷺ — عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة يقودها ، فأمر — ﷺ — حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه . فبينا رسول الله — ﷺ — يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم وقد غشوه ، فنفرت ناقة رسول الله — ﷺ — حتى سقط بعض متاعه ، فغضب رسول الله — ﷺ — وصرخ بهم فولوا مدبرين وحذيفة يضرب بمحجن معه وجوه رواحلهم ويقول :

— إليكم .. إليكم يا أعداء الله .

فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل عرفت أحدا من الركب الذين رددتهم ؟

— لا . كان القوم ملثمين والليلة مظلمة .

ونزل رسول الله — ﷺ — عن راحلته فأوحى إليه وراحلته باركة ، فقامت تجر زمامها فلقيها حذيفة فأخذ بزمامها وجاء إلى قرب رسول الله — ﷺ — فأناخها ثم جلس عندها ، حتى قام النبى — ﷺ — فأتاه بها فقال عليه السلام :

— من هذا ؟

— حذيفة .

— إنى مسر إليك سرا فلا تذكرنّه . إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان . وعد جماعة من المنافقين . وظل حذيفة صاحب سر رسول الله مطبقا فمه ، فلما توفى رسول الله — ﷺ — كان عمر بن الخطاب فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فقاده إلى الصلاة عليه ، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر ، وإن انتزع يده ترك الصلاة عليه .

وأصبح رسول الله — ﷺ — فجاء إليه أسيد بن حضير فقال :

— يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى ؟ فقد كان أسهل من سلوك العقبة .

— أتدرى ما أراد المنافقون ؟ إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها . إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم .

— يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى هم بهذا ، فإن أحببت بيِّن بأسمائهم ، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم .

— إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم .

— يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب .

— أليس يظهرون الشهادة ؟

ثم جمعهم رسول الله — ﷺ — سرا وأخبرهم بما قالوا وما أجمعوا عليه فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يحلفون بالله

ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾[١] .

وظل سر هذا الرهط بين رسول الله — ﷺ — وحذيفة صاحب سره عليه السلام . وتأهب الناس للانطلاق إلى المدينة فقال — ﷺ — :

— إن بالمدينة لأقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم .

— يا رسول الله وهم بالمدينة ؟

— نعم . حبسهم العذر .

---

(١) التوبة ٧٤ .

٦

كان أبو عامر الراهب من الأوس وكان فى قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح . فلما اجتمع قومه على الإسلام أبى إلا الكفر والفراق لقومه ، فخرج إلى مكة ومعه بضعة عشر رجلا مفارقا للإسلام ولرسوله ــ ﷺ ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ لا تقولوا الراهب ولكن قولوا الفاسق .

إنه أتى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ حين قدم المدينة قبل أن يخرج إلى مكة ، فقال :

ــ ما هذا الدين الذى جئت به ؟

ــ جئت بالحنيفية دين إبراهيم .

ــ فأنا عليها .

ــ إنك لست عليها .

ــ بلى ، إنك أدخلت يا محمد فى الحنيفية ما ليس منها .

ــ ما فعلتُ ولكن جئت بها بيضاء نقية .

ــ الكاذب أماته الله طريدا غريبا وحيدا .

ــ أجل فمن كذب ففعل الله تعالى به .

وجاء أبو عامر الفاسق مع قريش يوم خرجت لغزو المسلمين عند ماء بدر وهو يرجو أن يستأصل رسول الله ــ ﷺ ــ وصحبه . إنه كان يعد قريشا

أن لو لقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان .

فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر فى الأحابيش وعُبدان أهل مكة ، فنادى :

— يا معشر الآوس أنا أبو عامر .

— فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

— لقد أصاب قومى بعدى شر .

ثم قاتلهم قتالا شديدا ثم رماهم بالحجارة ، وهزمت قريش و لم يدب اليأس فى قلب الفاسق بل راح يؤجج نار العداوة فى قلوب سادات قريش ، فلما افتتح رسول الله — ﷺ — مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف بعث إلى بعض أصحابه من الأوس فقال لهم :

— ابنوا لى مسجدا واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمدا وأصحابه من المدينة .

وخرج أبو عامر الفاسق ، وخرج معه علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وكنانة بن عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفى ، ودخلوا على هرقل ملك الروم وراحوا يزينون له غزو محمد قبل أن يستفحل أمره وقبل أن يسير إلى الشام يفتحها كما فتح مكة .

وراح حزام بن خالد وثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير وأبو حبيبة بن الأرعد وعباد بن حنيف وحارثة وجارية وابناه مجمع وزيد ونبتل بن حارث ولحاد بن عثمان ووديعة بن ثابت يبنون مسجدا إلى جوار مسجد قباء ، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله — ﷺ — فقالوا :

— إنا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه .

كان رسول الله — ﷺ — يتجهز لغزوة تبوك فقال لهم :

— إنى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

وانطلق عليه السلام إلى تبوك وقال الذين بنوا المسجد تنفيذا لأوامر أبى عامر الفاسق مستهزئين بمسجد قباء :

— نصلى فى مربط حمار ! لا لعمر الله .

كانت أرض مسجد قباء لامرأة كانت تربط فيه حمارها ، فراحوا يسخرون . فلما بنى مسجد ضرار صرف عن مسجد قباء جماعة وصلوا بذلك المسجد ، فكان به تفريق للمؤمنين فكان المنافقون يجتمعون فيه ويعيبون النبى — ﷺ — يستهزئون به .

وانقضت أيام تبوك وأقبل رسول الله — ﷺ — حتى نزل بذى أروان ، محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، فجاءه الذين بنوا مسجد ضرار وطلبوا منه أن يأتيهم ليصلى فيه . فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم فأوحى إليه : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفُن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جُرُف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تَقطَّع قلوبهم والله عليم حكيم »(١) .

---

(١) التوبة ١٠٧ — ١١٠ .

فدعا رسول الله — ﷺ — مالك بن الدخشم ومعن بن عدىّ وعامر بن يسكر والوحشى قاتل حمزة وقال لهم :

— انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه .

فخرجوا ، وانطلق مالك وأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرّقوه وهدموه وتفرق عنه أهله .

كان ذلك بين المغرب والعشاء ، فلما حان أوان صلاة العشاء ارتفع صوت المؤذن من مسجد قباء ، فذهب الناس إلى المسجد الذى أسس على التقوى وصلوا فيه خلف رسول الله — ﷺ — .

ومات أبو عامر الفاسق فى الشام فاختصم فى ميراثه إلى قيصر علقمة بن علاثة وكنانة بن عبد ياليل ، فقال قيصر :

— يرث أهل المدر أهلُ المدر .

فورثه كنانة بن عبد ياليل بالمدر دون علقمة .

وأمات الله الكاذب طريدا غريبا وحيدا .

٧

الرجال والولدان فى الطرقات ينتظرون قدوم رسول الله ــ ﷺ ، والنساء على أسطح الدور وفرح القلوب قد انعكس على الوجوه . ولاح النقع فى الأفق فارتفعت هتافات الترحيب وانطلقت من الحناجر أهازيج النصر المبين ، فجيوش الروم قد تقهقرت إلى الشام وآثرت الفرار على أن تلقى محمدا ــ ﷺ ــ وجنده من المؤمنين .

وتقدم رسول الله ــ ﷺ ــ وقد أطرق رأسه خضوعا لله رب العالمين ، فما إن لمحه الناس حتى هرعوا إليه يسلمون عليه فكان يرد تحياتهم فى ترحيب ، وخف الأطفال يتعلقون بركابه بل ركب بعضهم أمامه وخلفه ، ولا غرو فهو أبو هذه المدينة التى أحبها وأحبته .

ومد عليه السلام بصره إلى المدينة فقال :

ــ هذه طابة أسكنّيها ربى ، تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولما رأى جبل أحد قال :

ــ هذا أحد جبل يحبنا ونحبه .

كان صاحب قلب كبير وسع الناس ووسع كل ما وقعت عليه عيناه من خلق الله .

واستمر رسول الله ــ ﷺ ــ فى سيره والناس من حوله يهللون حتى بلغ المسجد فنزل عن راحلته ، وصلى فى مسجده ركعتين بعد أن عانق على بن أبى

طالب الذى تركه فى المدينة وأصر على بقائه بها لما عاد عبد الله بن أبى بن سلول بأصحابه وأبى الخروج إلى تبوك ، فلم يكن من الحكمة أن يترك ابن أبى وحده ليفسد الناس فى غيبة رسول الله — ﷺ .

ودخل رسول الله — ﷺ — بيت فاطمة وألقى السلام على الزهراء والحسن والحسين وقبل أمامة بنت زينب الحبيبة ، ثم راح يدور على نسائه .

وجلس رسول الله — ﷺ — فى مسجده فجاءه رهط من المنافقين وجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله — ﷺ — منهم علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله واستغفر لهم ، ولكن الله أنزل فيهم : « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لِم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين . لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون »[١] .

وأحس كعب بن مالك عرق الخجل يتفصد من كل جسمه . إنه ما تخلف عن رسول الله — ﷺ — فى غزوة غزاها قط ، ولكنه كان قد تخلف عنه فى

---

(١) التوبة ٤٢ — ٤٨ .

غزوة بدر وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله — ﷺ — إنما خرج يريد عير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد .

ولقد شهد مع رسول الله — ﷺ — العقبة ودافع عنه يوم أحد دفاع المستميت ، وكان له كظله عليه السلام فى غزوة الخندق ، وتأهب المسلمون لغزوة تبوك ولم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عنه فى تلك الغزوة ، وما اجتمعت له راحلتان قط حتى اجتمعتا فى تلك الغزوة .

وكان رسول الله — ﷺ — قلما يريد غزوة يغزوها الا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله — ﷺ — فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا واستقبل غزو عدد كثير ؛ فجلَّى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته وأخبرهم خبره بوجهه الذى يريد ، والمسلمون من تبع رسول الله — ﷺ — كثير لا يدونهم حافظ فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك ما لم ينزل فيه وحى من الله .

وغزا رسول الله — ﷺ — تلك الغزوة حين طابت الثمار وأُحبت الظلال ، فتجهز رسول الله وتجهز المسلمون معه ، وجعل كعب بن مالك يغدو ليتجهز معهم فيرجع ولم يقض حاجة فيقول فى نفسه : أنا قادر على ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتمادى به حتى شمَّر بالناس الجد ، فأُصبح رسول الله — ﷺ — غاديا والمسلمون معه ولم يقض كعب من جهازه شيئا فقال : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فغدا بعد أن فصلوا ليتجهز فرجع ولم يقض شيئا ، ثم غدا فرجع فلم يقض شيئا ، فلم يزل يتمادى به حتى أسرعوا .

وتفرّط[1] الغزو فهم أن يرتحل فيدركهم — وليته فعل — فلم يفعل ، وجعل إذا خرج فى الناس بعد خروج رسول الله — ﷺ — فطاف فيهم يحزنه

---

(١) تفرط الغزو : أى فات وسبق .

أنه لا يرى إلا رجلا مطعونا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء .

ولم يذكره رسول الله — ﷺ — حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك :

— ما فعل كعب بن مالك ؟

فقال رجل من بنى سلمة :

— يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عِطفيه .

فقال معاذ بن جبل :

— بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا .

فسكت رسول الله — ﷺ .

وبلغ كعب بن مالك أن رسول الله — ﷺ — قد توجه قافلا من تبوك ، فحضره حزنه فجعل يتذكر الكذب ويقول :

— بماذا أخرج من سخطة رسول الله — ﷺ — غدا ؟

وراح يستعين على ذلك كل ذى رأى من أهله ، فلما قيل إن رسول الله — ﷺ — قد أشرف قادما ذهب عن كعب الباطل وعرف أنه لا ينجو منه إلا بالصدق ، فأجمع أن يصدقه .

وقدم رسول الله — ﷺ — وجلس للناس ، فلما فعل ذلك جاء المخلَّفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

وجاء كعب بن مالك فسلم عليه ، فتبسم رسول الله — ﷺ — تبسم المغضب ثم قال له :

— تعاله .

فجاءه يمشى حتى جلس بين يديه فقال له :

ـــ ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟

ـــ إنى يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى وليوشكن الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد علىّ فيه إنى لأرجو عقباى من الله فيه ، ولا والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أما هذا فقد صدقت فيه ، فقم حتى يقضى الله فيك .

فقام وسار معه رجال من بنى سلمة فاتبعوه فقالوا له :

ـــ والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بما اعتذر به إليه المخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ـــ ﷺ ـــ لك .

فوالله ما زالوا به حتى أراد أن يرجع إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيكذب نفسه . ثم قال لهم :

ـــ هل لقى هذا أحد غيرى ؟

ـــ نعم . رجلان قالا مثل مقالتك وقيل لهما مثل ما قيل لك .

ـــ من هما ؟

ـــ مرارة بن الربيع العمرى من بنى عمرو بن العوف ، وهلال بن أبى أمية الواقفى .

ذكروا له رجلين صالحين فيهما أسوة ، فصمت حين ذكروهما له . وقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لأصحابه :

ـــ لا تكلموا رجلا منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم .

فأعرض عنهم رسول الله ـــ ﷺ . إنه حرمان عام وألم ممض وعذاب نفسى فقد حرمت على الثلاثة الراحة النفسية ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم حتى تنكرت لهم أنفسهم والأرض فما هى بالأرض التى كانوا يعرفونها .

خمسون ليلة مضت والرجال الثلاثة يقاسون الإعراض ، فاستكان مرارة ابن الربيع وهلال بن أبى أمية وقعدا فى بيوتهما ، وأما كعب بن مالك فكان أشب القوم وأجلدهم فكان يخرج ويشهد الصلوات مع المسلمين ويطوف بالأسواق ولا يكلمه أحد ، ويأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فيقول كعب فى نفسه :

ـــ هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟

ثم يصلى قريبا منه فيسارقه النظر ، فإذا أقبل كعب على صلاته نظر إليه وإذا التفت نحوه أعرض عنه ، حتى إذا طال ذلك عليه من جفوة المسلمين مشى حتى تسور جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس عليه فسلم عليه فوالله ما رد عليه السلام فقال :

ـــ يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟

فسكت . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد فناشده فسكت عنه . فعاد فناشده فقال :

ـــ الله ورسوله أعلم .

ففاضت عينا كعب بن مالك ووثب فتسور الحائط ثم غدا إلى السوق ، فبينا هو يمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنه من نبط الشام ممن قدم بالقمح يبيعه بالمدينة يقول :

ـــ من يدل على كعب بن مالك ؟

فجعل الناس يشيرون له إليه حتى جاءه فدفع إليه كتابا من ملك غسان فإذا فيه : « أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيعة ، فالحق بنا نُواسِك » .

قال كعب حين قرأها :

ـــ وهذا من البلاء أيضا . قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فىّ رجل من أهل الشرك .

فعمد كعب بالكتاب إلى تنور فأحرقه ، فأقام الرجال الثلاثة على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتى كعبا فقال :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ يأمرك أن تعتزل امرأتك .

ـــ أطلقها أم ماذا ؟

ـــ لا ، بل تعتزلها ولا تقربها .

وأرسل إلى صاحبيه بمثل ذلك ، فقال كعب لامرأته :

ـــ الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاض .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقالت :

ـــ يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتكره أن أخدمه ؟

ـــ لا ، ولكن لا يقربنك .

ـــ والله يا رسول الله ما به من حركة إلىّ ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا وقد تخوفت على بصره .

فقال لكعب بعض أهله :

ـــ لو استأذنت رسول الله لامرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه .

ـــ والله ما أستأذنه فيها ، ما أدرى ما يقول رسول الله ـــ ﷺ ـــ لى فى ذلك إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

فلبثوا بعد ذلك عشر ليال ، فكمل لهم خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ المسلمين عن كلامهم ، ثم صلى كعب الصبح صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتهم قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت وضاقت عليه نفسه ، وقد كان ابتنى خيمة فى ظهر سلع فكان يكون فيها ، إذ سمع صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته :

ـــ يا كعب بن مالك أبشر .

فخر كعب ساجدا وعرف أن قد جاء الفرج .

آذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ الناس بتوبة الله على الثلاثة حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشرونهم وركّض رجل إليه فرسا وسعى ساع من أسلم حتى أوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءه الذى سمع صوته يبشره نزع ثوبيه فكساهما إياه بشارة والله ما يملك يومئذ غيرهما ، وانطلق أناس نحو صاحبيه مبشرين .

واستعار كعب ثوبين فلبسهما ، ثم انطلق يتيمم رسول الله ـــ ﷺ ، وتلقاه الناس يبشرونه بالتوبة يقولون :

ـــ لِيَهنك توبة الله عليك .

حتى دخل المسجد ورسول الله ـــ ﷺ ـــ جالس وحوله الناس ، فقام إليه طلحة بن عبيد الله فحياه وهنأه ، ووالله ما قام رجل إليه من المهاجرين غيره ، فلما سلم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال له ووجهه يبرق من السرور :

ـــ أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك .

ـــ أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟

كان رسول الله إذا استبشر كأن وجهه قطعة قمر ، قال وقد أشرق وجهه :

ـــ بل من عند الله .

فلما جلس كعب بين يديه وقد غمره البشر قال :

ـــ يا رسول الله إن من توبتى إلى الله عز وجل أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

ـــ أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك .

ـــ إنى ممسك بسهمى الذى بخيبر ... يا رسول الله . إن الله قد نجانى بالصدق وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت .

وأنزل الله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾(١) .

وكان عويمر العجلانى مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى غزوة تبوك ، فلما عاد إلى داره وجد امرأته خولة بنت عمه قيس حبلى وإنه ما قربها منذ أربعة أشهر .

فأتى عاصم بن عدى وكان سيد بنى عجلان فقال :

ـــ كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فيقتلونه أم كيف

---

(١) التوبة ١١٧ ، ١١٨ .

يصنع ؟ سل لى رسول الله ـ ﷺ .

فأتى عاصم النبى ـ ﷺ ـ فسأله ، فكره النبى عليه السلام تلك المسألة وعابها حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ـ ﷺ ، فسأله عويمر فقال له عاصم :

ـ لم تأتنى بخبر .

وراح الغيظ ينهش صدر عويمر فقال :

ـ والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن ذلك .

فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال :

ـ يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا إن تكلم جلدتموه وإن قتله قتلتموه أو سكت سكت على غيظ .

وقذف زوجه بشريك بن سحماء ابن عمه وقال :

ـ وجدته على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر .

ـ اتق الله فى زوجتك وابنة عمك ، فلا تقذفها بالبهتان .

ـ يا رسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر .

ودعا ـ ﷺ ـ بالمرأة وقال لها :

ـ اتقى الله ولا تخبرينى إلا بما صنعت .

ـ يا رسول الله إن عويمر رجل غيور ، وإنه يأتى وشريكا يطيل السهر ويتحدث . حملته الغيرة على أن قال ما قال .

فدعا عليه السلام شريكا وقال له :

ـ ما تقول ؟

ـ يا رسول الله إن عويمرا رجل غيور .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾[1] .

فأمر رسول الله — ﷺ — أن ينادى الصلاة جامعة ، فلما صلى العصر واجتمع الناس قال — ﷺ — لعويمر :

— قد أنزل الله فيك وفى صاحبتك قرآنا ، فاذهب فأت بها .

وجاء عويمر وخولة وبدأ اللعان فقال عويمر :

— أشهد بالله أن خولة زانية وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنها حبلى من غيرى وإنى لمن الصادقين ... أشهد بالله أنى ما قربتها منذ أربعة أشهر وإنى لمن الصادقين ... لعنة الله على عويمر إن كان من الكاذبين .

ثم أمره بالقعود وقال لخولة :

— قومى .

فقامت فقالت :

— أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمر لمن الكاذبين .. أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين .. أشهد بالله إنى لحبلى منه وإنه لمن

---

(١) النور ٦ — ١٠ .

الكاذبين .. أشهد بالله أنه ما رآنى قط فى فاحشة وإنه لمن الكاذبين .

وتلكأت ونكصت وتفصد العرق منها وزاغت عيناها حتى ظن أنها ترجع ، فقد تذكرت أنه ـ ﷺ ـ قال لها إن اللعنة موجبة للعذاب فى الآخرة وعذاب الدنيا أهون ، ثم خطر لها أنها ستفضح قومها سائر الأيام فقالت وهى تكاد أن تنهار :

ـ إن غضب الله على خولة إن كان من الصادقين ..

ففرق رسول الله ـ ﷺ ـ بينهما ، قال له :

ـ لا سبيل لك عليها .

ووضعت خولة غلاما كان بضعة من شريك ، فقال ـ ﷺ :

ـ لولا ما سبق فى كتاب الله تعالى لكان لى ولها شأن .

٨

أذن بلال فانسكب صوته فى آذان المسلمين ، كأنه السحر ففتحت أبواب الدور وخرج الناس فى عماية الصبح إلى مسجد الرسول . وألقى عثمان بن عفان نظرة إشفاق على زوجه أم كلثوم ثم هبط ليصلى الفجر خلف رسول الله ـــ ﷺ .

كانت أم كلثوم ذابلة اللون قد نال منها الوهن فتمددت فى فراشها تصيخ السمع ، فصوت بلال يداعب أذنيها ويوقظ روحها فتحاول أن تنهض لكن الجسد ضعيف لا يقوى على النهوض ، وبلغ مسامعها تكبير المصلين فاغرورقت عيناها بالدموع وشرد خيالها ليعيد إلى ذهنها الماضى البعيد . إنها ترى دارهم فى مكة والطاهرة سيدة نساء قريش حاضنة الإسلام تداعبها فى عطف شديد . وملأت صفحة رأسها صورة خديجة فرقت رقة جعلت عبراتها تسيل على خديها ، وداعب خيالها ذلك اليوم الذى حفر فى أغوار نفسها : رأت أباها العظيم يوم أن عاد من غار حراء يرتجف وأمها تغمره بعطفها وحنانها حتى سكن روعه ، وآمنت به خديجة وصدقت بما جاءه من الله ، وشهدت هى وأخواتها شهادة الحق ، إنها لتذكر أول يوم نمن فيه وقد أشرقت أفئدتهن بنور اليقين ، إنهن لم تغمض لهن عين من شدة الانفعال وإن أم أيمن كانت تسألهن عن ذلك الحدث العظيم فكن يهمسن لها بما سمعن من رسول الله ـــ صلوات الله عليه ـــ وخديجة أم المؤمنين .

أم أيمن ! لقد استشهد زوجها زيد فى مؤتة واحتضن رسول الله — ﷺ — ابنهما أسامة . إنه حب رسول الله عليه السلام . وتذكرت أم كلثوم أنها لم تعقب وأن عثمان يشتهى أن يكون له نسل من النبى ، فأختها رقية وضعت فى دار الهجرة طفلها عبد الله بن عثمان ولكن عبد الله مات طفلا بنقرة من ديك فملأ جوانحها أسى ، فهى تحس أن روحها تكاد أن تفارق جسدها و لم تنجب لعثمان ما يربط الأسباب بينه وبين نبيه الحبيب .

وطوى خيالها السنين فعادت إلى تلك الأيام التى كان أبوها عليه السلام يدعو الناس فيها سرا إلى دين الله . إنها ترى فى وضوح أبا بكر الصديق وقد جاء إلى دارهم ومعه عثمان بن عفان ، لقد خفقت أفئدة كل من فى الدار سرورا ، وداعب خيالها فى ذلك اليوم أمنية أن يأتى أبو لهب إلى أبيها لينطق شهادة الحق فأختها رقية تحت عتبة بن أبى لهب ، وهى ترقب زفافها إلى أخيه عتيبة ، ولكن العداوة اشتدت بين أبيها وبين عمه أبى لهب ، وقد أججتها أم جميل حمالة الحطب وقالت لولديها :

— رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد .

و لم يستطع أعداء الدين الجديد أن يقفوا فى سبيله ، فرأوا أن يشغلوا أباها بناته فقالوا :

— إنكم قد فرّغتم محمدا من همه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن .

فمشوا إلى أبى العاص بن الربيع فقالوا له :

— فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

كان أبو العاص يحب زينب ، إنه لا يطيق فراق ابنة الخالة وإنه إذا بعد عنها راح يقرض الشعر يشكو بعادها ، فقال :

— لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

ومشوا إلى عتبة بن أبى لهب فقالوا له :

ــ طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة من قريش شئت .

ــ إن زوجتمونى بنت إبان بن سعيد بن العاص أو بنت سعيد بن العاص فارقتها .

وزوجوه بنت سعيد بن العاص وإن أم كلثوم لترى أختها رقية وقد عادت إلى دار أبيها حزينة ، وإنها لترى أمها خديجة وقد استقبلتها بين أحضانها .

وتذكرت عتيبة فغامت صفحة وجهها بسحابة كدر ، فلم يكتف عتيبة بأن طلقها بل ذهب إلى أبيها وأهانه على الملأ فدعا عليه النبى ــ ﷺ ــ أن يسلط الله عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه وهم نيام حوله .

إن عتبة ومعتب ابنى أبى لهب أسلما يوم فتح مكة ؛ جاء بهما العباس إلى أبيها فشهدا أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله . ففيم كانت عداوة السنين وكفاح الحق ؟ إنها إرادة الله ولا راد لمشيئته فقد أنزل سبحانه وتعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد ﴾(١) . كتب الله على أبى لهب الشقاء فما كان له أن يسلم وجهه لله ، وقد مات على الكفر ليصلى النار الكبرى التى لا يموت فيها ولا يحيى .

وطفت على ذهنها ذكريات زواج عثمان من رقية . لقد تهللت خديجة بالفرح لذلك الزواج ولكن الكفار أبوا أن يعرف ذلك الزواج الاستقرار ، فالحكم عم عثمان أذاقه من العذاب ألوانا حتى هاجر عثمان ورقية بدينهما إلى

---

(١) سورة المسد .

الحبشة .

ورأت نفسها فى شعب أبى طالب تقاسى مع أمها الحبيبة وأختها فاطمة الزهراء أهوال الحصار . إنها كانت تتلوى من الجوع وكانت ترى الأسى المرتسم على وجه أبيها الحبيب فتربو آلام نفسها على آلام الجوع ، وانقضت سنوات المقاطعة الثلاث وقد خلفت فى النفوس والأجسام آثارا ، فقد لحق بأمها الحبيبة البوار فماتت بعد أن عادت إلى بيتها فى مكة .

وأخفت أم كلثوم وجهها براحتيها : إنها لا تحتمل رؤية خديجة أم المؤمنين وهى تجود بأنفاسها ، فأبوها النبى القوى لم يحتمل أن يحضر موتها ، إنها كانت تناديه وهو واقف بباب حجرتها لا يجرؤ على الدخول فدموعه تغلبه وقلبه يتمزق من الأسى .

ورأت الدار من بعدها موحشة خلاء وإن كانت هى والزهراء وأم أيمن يذهبن ويجئن فى أرجائها . إنها دار بلا روح ، سراج بلا زيت ، قلب بلا حب . وزاد فى وطأة الأحزان أن رسول الله — ﷺ — كان يدخل الدار شاردا يتلفت فى أرجائها لكأنما يبحث عن وزيره الذى مضى .

وتقلبت أم كلثوم فى فراشها وندت من بين شفتيها آهة خافتة كأنما كانت ذوب نفسها ، وأسبلت جفنيها على عينيها من الضعف ولكن الصور ظلت تترادف على خيالها ، فرأت رقية وقد رفت روحها على شفتيها وهتافات النصر يوم بدر تدوى فى الخارج ، إنها انزوت فى ركن تسح الدموع بينا أكبت الزهراء على مضجع أختها تبكى ، وإنها لترى أباها الثاكل يدخل الغرفة وفى وجهه آيات الحزن ، ويذهب إلى الزهراء ويرفعها من فوق أختها يمسح دموعها بطرف ثوبه .

ورأت « أم عياش » خادم النبى تدعوها للقاء أبيها عليه السلام ، وترى

نفسها تذهب إلى النبى الكريم . إنه يخبرها أنه سيزوجها عثمان بن عفان . وصمتت وكان السكوت علامة الرضا ، فزوجها من عثمان على مثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها .

وانتقلت من بيت أبيها الملاصق للمسجد إلى بيت عثمان على بعد خطوات من مسجد الرسول ، إنها تسمع أذان بلال وابن أم مكتوم. وكثيرا ما كان يأتى لزيارتها الحسن والحسين وأمهما الزهراء ورسول الله ـ ﷺ وهو يحمل على ذراعه أمامة بنت زينب ، ويمشى بين يديه على بن أبى العاص بن الربيع ، فقد كانت زينب تشكو النزيف الذى كان يعاودها مذ نخس هبار بن الأسود بعيرها وهى فى طريقها من مكة إلى المدينة فألقاها على أديم الصحراء فأسقطت وأهراقت الدماء .

ورأت نفسها وقد خرجت مع زوجها عثمان لما خرج رسول الله ـ ﷺ ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار يريدون العمرة . إنها لتذكر ما قال عليه السلام لسفراء قريش الذين جاءوا يسألونه ما الذى جاء به . إنه قال : إنه لم يأت يريد حربا وإنما جاء زائرا للبيت .

دعا أبوها عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء به ، فقال :

ـ يا رسول الله إنى أخاف قريشا على نفسى وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها ، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى : عثمان بن عفان .

وجاهدت أم كلثوم لتفتح عينيها ولكن جفنيها ظلا مسبلتين ، وكانت ترى الأحداث بعين بصيرتها . إنها ودعت زوجها فى ذلك اليوم وداعا حارا وابتهلت إلى الله من أعماقها أن يحفظه ، وباتت قلقة أرقة وإذا فى معسكر

المسلمين زئير وزمجرة وغضب . وألقت سمعها إلى الأصوات الغاضبة فبلغ أذنيها أن عثمان قد قتل .

أنهارت كما ينهار الجدار وأحست نارا تشوى كبدها ، وذاقت مرارة الترمل وحر المصيبة فما كان فى القوم مثل عثمان الرجل الذى تستحى منه ملائكة السماء ، وبكت و لم يرقأ لها دمع ، وسمعت أباها وهو يقول حين بلغه أن عثمان قد قتل :

ـــ لا نبرح حتى نناجز القوم .

فثارت الدموع حارة فى عروقها وودت لو تستطيع أن تخرج من خبائها لتبايع رسول الله تحت الشجرة على الموت ، ولكن البيعة كانت للرجال .

وأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل ، فدخل البشير عليها يزف إليها البشرى فاستشعرت راحة وإن ظل قلبها يخفق فى شدة ، ووقفت بباب خيمتها تنتظر أوبة رجلها .

وأتى عثمان واستقبله النبى ـــ ﷺ ـــ بالترحاب ، وراح المسلمون يسألونه عما كان من قريش وهى ترنو إليه من بعيد فى حب عميق ترجو أن يطير إليها ليريح قلبها الولهان ، فهى تحبه بكل عواطفها .

و لم تستطع أم كلثوم أن تطلق عنان خيالها للذكريات البهيجة . إنها تلتقط أنفاسها من ثقب أبرة وذكريات الموت تلح عليها . إنها ترى زينب وقد لفظت آخر أنفاسها ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يذرف الدمع وهو صامت ، ثم يدور على عقبيه ويغادر غرفتها مطرقا .

وأجهشت أم كلثوم بالبكاء . جاهدت ضعفها لتذرف آخر دمعة لا جزعا من الموت فقد كانت على يقين من أنها على الحق المبين ، بل إشفاقا على أبيها حليف الأحزان الذى كان يقبر فلذات كبده فلذة بعد فلذة .

ودخلت عليها أم عياش فألفتها فى النزع الأخير ، فأرسلت إلى الرجال فى المسجد فأسرع عثمان إلى داره فإذا بأم كلثوم تعالج سكرات الموت ، فراح ذو النورين يناديها فى وجد وهو مشفق عليها وعلى نفسه . كان يفزعه أن ينقطع بموتها نسبه برسول الله — ﷺ .

وجاء رسول الله — ﷺ — وأبو بكر الصديق وعمر وعلى وبعض الأنصار . ودخل عليه السلام على ابنته وهى تلتقط آخر أنفاسها فدمعت عيناه ولم يتحرك لسانه بما يغضب الرب ، فقد كان للبشرية أسوة حسنة .

وجاءت أسماء بنت عميس وكانت زوجة جعفر بن أبى طالب ، فلما استشهد جعفر فى مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق . وجاءت صفية بنت عبد المطلب ونساء المهاجرين والأنصار . وغسلتها أسماء وصفية وأم عطية وقال لهن الرسول :

— اغسلنها وترا ثلاثا أو خمسا أو أكثر من ذلك .

وأعطاهن إزاره لتكفن فيه ، وحمل جثمان أم كلثوم إلى المسجد فأجهشت نساء الرسول بالبكاء ، وبكت الزهراء على أختها الغالية . وصلى رسول الله — ﷺ — على ابنته ومن خلفه أصحابه يغالبون دموعهم .

وانطلقت الجنازة إلى البقيع ووضعت أم كلثوم فى قبرها . ونزل فى حفرتها على بن أبى طالب والفضل بن العباس وأسامة بن زيد . وأراد أناس أن ينزلوا معهم فقال — ﷺ :

— لا ينزل فى قبرها أحد قارف أهله الليلة . أفيكم أحد لم يقارف أهله الليلة ؟

فقال أبو طلحة :

— أنا يا رسول الله .

— انزل .

وقبرت أم كلثوم وعثمان بن عفان غارق فى حزنه تجرى دموعه على خديه ، وعاد الناس من البقيع وقد غشيهم حزن عميق ، ورأى رسول الله — ﷺ — عثمان بن عفان وهو يسير مطرقا وفى وجهه وله ، فدنا منه وقال :

— لو كانت عندنا ثالثة لزوجناكها يا عثمان .

٩

قدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف فأعاد إلى الناس الذكريات عن عروة بن مسعود الثقفى سيد بنى ثقيف وزعيم الطائف الذى كان يحسب أن ثقيفا لا ترد له طلبا .

إن رسول الله ــ ﷺ ــ حاصر الطائف وكان عروة غائبا عنها ، كان يتدرب على استعمال المنجنيق فى أرض غير أرضه . فلما انصرف عليه السلام عن الطائف عاد عروة إلى أهله وألقى إليهم سمعه ، فإذا به يحس أنوار اليقين تملأ فؤاده فخرج يتبع أثر رسول الله ــ ﷺ ــ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم . وسأل رسول الله ــ ﷺ ــ أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ إنهم قاتلوك .

ــ يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم .

كان عروة فيهم محببا مطاعا ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم . فلما أشرف لهم على عِلِّية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة :

ــ ما ترى فى دمك ؟

قال فى صوت واه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة :

ــ كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلى ، فليس فىَّ إلا ما فى

الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم .

فدفنوه معهم ، وقال رسول الله — ﷺ :

— إن مثله فى قومه كمثل صاحب ياسين فى قومه .

وقدم أبو مليح بن عروة وقارب بن سواد على رسول الله — ﷺ — حين قتل عروة يريدان فراق ثقيف وأن لا يجامعهم على شيء أبدا ، فأسلما فقال لهما رسول الله — ﷺ :

— تولّيا من شئتما .

فقالا :

— نتولى الله ورسوله .

وكان أبو سفيان بن حرب خالهما ، وكان — ﷺ — خبيرا بالنفوس . إنه يعلم أن أبا سفيان بن حرب يحب الفخر وأن يكون له من الأمر شيء ، فقال لهما :

— وخالكما أبا سفيان بن حرب .

فقالا :

— وخالنا أبا سفيان بن حرب .

وأصبح وليهما الله ورسوله وأبا سفيان بن حرب .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهرا تفكر فى الإسلام الذى انتشر فى مكة وفى ربوع أرض العرب ، فساور القلق زعماءهم وساداتهم وراحوا يقلبون الرأى فى رءوسهم وما كان ذلك كافيا ، فعزموا على أن يتشاوروا بينهم ليستقروا على أمر .

وكان عمرو بن أمية أخو بنى علاج مهاجرا العبد ياليل بن عمرو لشيء كان

بينهما ، وكان عمرو بن أمية من أدهى العرب فمشى إلى عبد ياليل بن عمرو حتى دخل داره ، ثم أرسل إليه إن عمرو بن أمية يقول لك اخرج إلىّ ، فقال عبد ياليل للرسول :

ــ ويلك ! أعمرو أرسلك إلىّ ؟

ــ نعم وها هو ذا واقفا فى دارك .

ــ إن هذا الشيء ما كنت أظنه ، لعمرو كان أمنع فى نفسه من ذلك .

فخرج إليه فلما رآه رحب به ، فقال له عمرو :

ــ إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا فى أمركم .

واجتمع سادات ثقيف يديرون قداح الرأى بينهم ، وقال بعضهم لبعض :

ــ أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سِرب[1] ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ؟!

فأتمروا بينهم وأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ رجلا كما أرسلوا عروة ، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير وكان من سن عروة بن مسعود وعرضوا ذلك عليه ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة . فقال :

ــ لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا .

فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة ، فبعثوا مع عبد ياليل الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب ، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص بن بشر بن عبد

---

(١) السرب : المال الراعى وهو أيضا الطريق والنفس .

دهمان أخا بنى يسار ، وأوس بن عوف أخا بنى سالم بن عوف ، ونُمير بن خرشة بن ربيعة أخا بنى الحارث . فخرج بهم عبد ياليل وهو سيد القوم وصاحب أمرهم ، ولم يخرج بهم إلا خشية من مثل ما صنع بعروة بن مسعود لكى يشغل كل رجل منهم إذا رجعوا إلى الطائف رهطه .

فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة ألفَوا بها المغيرة بن شعبة يرعى فى نوبته ركاب أصحاب رسول الله — ﷺ ، وكانت رِعيتها نوَبا على أصحابه — ﷺ . فلما رآهم ترك الركاب عند الثقفيين ووثب يشتد ليبشر رسول الله — ﷺ — بقدومهم عليه . ولقى أبو بكر الصديق المغيرة بن شعبة قبل أن يدخل على رسول الله — ﷺ — فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البيعة والإسلام بأن يشرط لهم رسول الله — ﷺ — شروطا ويكتتبوا من رسول الله — ﷺ — كتابا فى قومهم وبلادهم ، فقال أبو بكر للمغيرة :

— أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله — ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه .

فدخل أبو بكر على رسول الله — ﷺ — فأخبره بقدومهم عليه . ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فهو ثقفى وإن إسلام ثقيف لأحب إليه من حمر النعم فراح يعاونهم على إنزال ما معهم عن ظهور الإبل ويعلمهم كيف يحيون رسول الله — ﷺ — فأبوا إلا أن يحيوه — ﷺ — بتحية الجاهلية .

وضرب عليه السلام عليهم قبة فى ناحية مسجده ، وراح خالد بن سعيد ابن العاص يمشى بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فلم يأتوا ليعلنوا على الملأ إسلامهم دون قيد أو شرط بل كانت لهم شروط وما كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليقبلها .

كان الطعام يأتيهم من عند رسول الله — ﷺ — فكانوا لا يطعمون حتى

يأكل منه خالد ، فقد كانوا يخشون الغدر وما كانوا على صواب فإنهم وإن كانوا لم يعلنوا إسلامهم بعد ، فهم عند أحلم الناس وأوفى الناس وأصدق الناس .

سألوا رسول الله — ﷺ — أن يدع لهم الطاغية وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله — ﷺ — ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة فسنة ويأبى عليهم حتى سألوا شهرا واحدا بعد مقدمهم فأبى عليهم أن يدعها شيئا مسمى .

كانوا يرتجفون فرقا من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام . أتصبح اللات فى غمضة عين أثرا بعد عين وقد كان العرب قبل مبعث محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يقسمون بها ويقدمونها على كل الآلهة ؟! إنهم فزعوا يوم جاء أبرهة ليهدمها وأرسلوا معه من يقوده إلى الحرم لينقذوا إلاهتهم الحبيبة ، فضحوا ببيت الله الحرام فى سبيل بقائها ، أيتركون أصحاب محمد يدكونها على أعين الناس ؟

وكثرت المشاورات والتقمت الأفواه الآذان واشتد الجدل وراح المغيرة بن شعبة يؤكد لهم أن اللات إن هى إلا صخرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، وأن لا فرق بينها وبين العزى ومناة وقد أصبحتا كأمس الدابر ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، واستمر خالد بن سعيد يغدو بينهم وبين رسول الله — ﷺ — فأبى رسول الله — ﷺ — عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

وسألوه عليه السلام أن يعفيهم من الصلاة وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى

دين لا صلاة فيه .

فقالوا :

— يا محمد فسنؤتيكها وإن كانت دناءة .

كانوا فى ناحية المسجد فكانوا يسمعون القرآن ويرون الناس إذا صلوا ، وكانوا يغدون إلى رسول الله — ﷺ — كل يوم ويخلفون عثمان بن أبى العاص عند أسبابهم . كان عثمان يلقى سمعه إلى القرآن فيحس أنوار اليقين تنير فؤاده وكان يمد عينيه إلى المصلين فتهفو نفسه إلى أن يقف معهم خلف الرسول الأمين . فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبى — ﷺ — يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، وإذا وجد النبى — ﷺ — نائما ذهب إلى أبى بكر الصديق . وكان يكتم ذلك عن أصحابه فأعجب ذلك رسول الله — ﷺ — فأحبه ، وقال أبو بكر لرسول الله — ﷺ — وهو يحدثه عن عثمان بن أبى العاص :

— يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن .

واجتمع رسول الله — ﷺ — ووفد ثقيف ، وجلس خالد بن سعيد بن العاص ليكتب ورسول الله عليه السلام يملى عليه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين : إن عِضاه وجّ[1] وصيْد حرام لا يعضد ، من وجد يفعل شيئا من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه ، فإن تعدى ذلك فإنه يؤخذ فيُبلغ به النبى . محمد رسول الله) .

وصاموا مع رسول الله — ﷺ — ما بقى من رمضان فكان بلال يأتيهم

---

(١) عضاه : جمع عضاهة وهى الشجرة العظيمة ، ووج : موضع ناحية الطائف .

بفطورهم وسحورهم من عند رسول الله — ﷺ ، حتى إذا ما تأهبوا للانصراف قالوا :

— يا رسول الله أمر علينا رجلا يؤمنا .

فأمر عليهم عثمان بن أبى العاص .

كان عثمان من أحدثهم سنا ولكنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن . وقد أهله ذلك لأن يكون إماما لقومه ، فالإسلام لا ينظر إلى السن ولا إلى لون البشرة ولا إلى القرابة فلا فضل لأحد فيه على أحد إلا بالتقوى .

وجاء رسول الله — ﷺ — ليودع وفد ثقيف وليبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم اللات ، فتقدم أبو مليح بن عروة يسأل رسول الله — ﷺ — أن يقضى عن أبيه عروة بن مسعود دينا كان عليه من مال اللات . فقال رسول الله — ﷺ :

— نعم .

وشجع ذلك قارب بن الأسود أن يسأل رسول الله — ﷺ — أن يقضى دين الأسود من مال اللات كما قضى دين عروة ، وقد كان عروة والأسود أخوين لأب وأم ، فقال قارب لرسول الله — ﷺ :

— وعن الأسود يا رسول الله فاقضه .

— الأسود مات مشركا .

فقال قارب :

— يا رسول الله لكن يَصِل مسلما ذا قرابة ، إنما الدين على وأنا الذى أطلب به .

فأمر رسول الله — ﷺ — أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود من

مال الطاغية ، وراح — ﷺ — يوصى عثمان بن أبى العاص ويقول :

— يا عثمان تجاوز فى الصلاة واقدُر الناس بأضعفهم ، فإن فيهم الكبير والصغير والضعيف وذا الحاجة .

وتوجه وفد ثقيف إلى بلادهم راجعين وفيهم أبو سفيان بن حرب والمغيرة ابن شعبة ، فرسول الله — ﷺ — ما بعثهم إلا لأن لهم صلة بالقوم ؛ فأبو سفيان خال بنى عروة بن مسعود والمغيرة من القوم ، فإذا أراد السفهاء أن يتحرشوا بهما فسيجدان من يمنعهما . وعادت المخاوف تؤرق الوفد فلن يقبل السفهاء والنساء والذرارى هدم اللات وهم ينظرون ، فقال قائل منهم :

— أنا أعلمكم بثقيف . اكتموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال وأخبروهم أن محمدا — ﷺ — سألنا أمورا عظيمة أبيناها عليه . سألنا أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

فلما جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا :

— جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر بالسيف وذان له الناس وعرض علينا أمورا شدادا ، أن نهدم الطاغية وأن نترك الزنى والربا وشرب الخمر .

— والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبدا .

— أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال ورموا حصنكم .

فمكثت ثقيف يومين تتهيأ للقتال وترميم الحصون ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم فقالوا :

— والله ما لنا من طاقة فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل .

— لقد أجبناه وأسلمنا .

— لم كتمتمونا ؟

— أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان .

وأراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان لهدم اللات فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال :

ــ ادخل أنت على قومك .

فتقدم المغيرة بن شعبة وحوله قومه خشية أن يرمى كما رمى عروة ، وخرج نساء ثقيف حسرا مكشوفات الرءوس يبكين على الطاغية فما منهنْ إلا من جاءت إليها فى المسرات وفى الملمات لشكرها على ما أعطت ، أو للابتهال إليها لتطيل أيامها على الأرض .

وانهارت الدموع من مآقيهن وقلن :

لِتبــــكين دُفـــاع أسلمهـــا الـــرُّضاع
لم يحسنـــوا الـــمِصاع

إنهن يبكين « دُفاع » اللات التى كانت تدافع عنهم ، فقد أسلمها اللئام الذين لم يحسنوا الضرب بالسيوف فى سبيل الربة ، وسرن والهات ينتظرن أن تحدث معجزة تنقذ الربة بنت الله من أيدى المعتدين .

وتقدم المغيرة وكسر بابها فأحس الناس كأنما قد خلع أفئدتهم من صدورهم ، وراح يصعد على الصنم وقد تعلقت به الأعين يرقبون ما ينزل به من عقاب فإنه وقر فى ضمائرهم أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك ، وأراد المغيرة أن يسخر من ثقيف فقال لأصحابه :

ــ لأضحكنكم من ثقيف .

فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها ، فصاح الذين لم يشرق الإسلام فى صدورهم فى فرح :

ــ أبعد الله المغيرة ، قتلته الربة ، والله لا يستطيع هدمها .

وارتج الطائف بالصياح والسرور ، وذاع الخبر وانتشر انتشار الريح وقال

الناس :

ــ إن اللات قد صرعت المغيرة .

وطار النبأ إلى الدور وإلى الحصون وإلى الحقول ، فجاء الناس مهطعين يتدافعون بالمناكب وللات يهللون وأقبلوا على المغيرة يقولون :

ــ كيف رأيت يا مغيرة ؟! دونكها إن استطعت ، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها .

فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم :

ــ يا خبثاء والله ما قصدت إلا الهزء بكم .

ــ دونكها إن استطعت .

ــ قبحكم الله ، إنما هى لكاع حجارة ومدر ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه .

وصعد المغيرة يضربها بالفأس فراحت تتناثر والنساء ينظرن فى حسرة ويقلن فى أسف وحزن :

ــ واها لك . آها لك !.

وسوى المغيرة الصنم بالأرض ولكن سادن اللات أبى أن يعترف بأن اللات إن هى إلا حجارة ، فقال ليعيد الثقة فى الربة التى تزعزعت فى قلوب من كانوا مؤمنين بها قبل أن يقضى معول المغيرة على أوهامهم :

ــ ليغضبن الأساس فليخسفن بهم .

وراح المغيرة يهدم الأساس الذليل ، فما غضب ولا ثار ولا خسف بأعدائه الأرض ، وأخذ مال اللات وحليها فانصرفت النسوة وقد أطرقن رءوسهن ، فقد كن عائدات من مأتم الوهم الكبير الذى عاش عليه آباؤهم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا حجارة بعد أن فسد دين أبيهم إبراهيم خليل

الرحمن .

وذهب المغيرة يحمل مال اللات وحليها إلى أبى سفيان وقال له :

— إن رسول الله — ﷺ — قد أمرك أن تقضى عن عروة والأسود دينهما .

فقضى أبو سفيان دين عروة بن مسعود ودين أخيه الأسود ، ودخلت ثقيف فى دين الله فلم يكن قوم من العرب أصح إسلاما منهم .

١٠

قال جبريل للنبي — ﷺ :

— إن النجاشي توفى فصل عليه .

وذاع فى دور النبى صلوات الله وسلامه عليه أن النجاشى قد مات فثارت فى نفوس أهل البيت الذكريات ، فشردت أم سلمة بنت زاد الركب أم المؤمنين فرأت نفسها مع زوجها أبى سلمة بن عبد الأسد بن هلال قد خرجا مع عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله وجماعة من المسلمين قاصدين الحبشة فرارا من اضطهاد قريش .

إنها ما كادت تستقر هناك حتى جاءت الأنباء أن أهل مكة قد أسلموا . كانت فى شوق إلى العودة إلى مرتع الصبا والشباب فانطلقت هى وزوجها إلى المراكب مع المنطلقين من المسلمين إلى مكة الحبيبة الوطن الغالى الذى تهوى إليه أفئدتهم جميعا ، وراحوا يتعجلون الأيام حتى إذا ما بلغوا مرفأ مكة نزلوا إلى الأرض الحبيبة وقد خفقت قلوبهم وجدا وخفوا إلى رواحلهم وانسابوا فى معبد الله ، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا فلم يدخل منهم أحد فيها إلا بجوار أو مستخفيا .

إنها تتذكر أنها وزوجها قد دخلا فى جوار أبى طالب بن عبد المطلب فأم أبى سلمة برّة بنت عبد المطلب ، فكان على أبى طالب أن يحميهما كما يحمى ابن أخيه محمدا — ﷺ — وإن كانا مسلمين ، فالعصبية فى قريش كانت أقوى

من الدين .

وطاف بذهنها عثمان بن مظعون ، إنه دخل بجوار من الوليد بن المغيرة فلما رأى عثمان ما فيه أصحاب رسول الله — ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد قال :

— والله إن غدُوِّى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

— يا أبا عبد شمس وَفت ذمتك ، لقد رددت إليك جوارك .

— لم يا بن أخى ؟ لعله آذاك أحد من قومى .

— لا ، ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

— فانطلق إلى المسجد فاردد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد :

— هذا عثمان قد جاء يرد علىّ جوارى .

— صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

— ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

قال عثمان :

— صدقت .

قال لبيد :

ـــ وكل نعيم لا محالة زائل .

ـــ كذبت . نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد :

ـــ يا معشر قريش والله ما كان يُؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم :

ـــ إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا ، فلا تجدن فى نفسك من قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

ـــ أما والله يا بن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

ـــ بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

ـــ هلم يا بن أخت إن شئت فعد إلى جوارك .

ـــ لا .

وخطر على قلبها ما كان من أمر زوجها ، فأبو سلمة لما استجار بأبى طالب مشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا له :

ـــ يا أبا طالب لقد منعت منا ابن أخيك محمدا ، فما لك ولصاحبنا تمنعه منه ؟

ـــ إنه استجار بى وهو ابن أختى ، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى .

فقام أبو لهب فقال :

ــ يا معشر قريش والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ ، ما تزالون توثّبون عليه في جواره من بين قومه ، والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه في كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد .

ــ بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة .

إنها لتذكر أنها كانت وزوجها في أوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وأن أبا سلمة كان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، فإن قريشا آذته بعد أن قدم من الحبشة ، فلما بلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا ، إنه حملها على بعيره وحمل معها ابنه سلمة ثم خرج بها يقود بها بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا :

ــ هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟

فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوها منه يكاد كبدها أن ينفطر . وغضب عند ذاك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة فقالوا :

ــ لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

فتجاذبوا ابنها سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسها بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجها أبو سلمة إلى المدينة ففرّق بينها وبين زوجها وبين ابنها .

سنة أو قريبا من سنة كانت تخرج فيها كل غداة فتجلس بالأبطح فما تزال تبكي حتى مر بها رجل من بني عمها ــ أحد بني المغيرة ــ فرأى ما بها فرحمها فقال لبني المغيرة :

ــ ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

فقالوا لها :

ــ الحقى بزوجك إن شئت .

ورد بنو عبد الأسد إليها عند ذلك ابنها ، فارتحلت بعيرها ثم أخذت ابنها فوضعته فى حجرها ثم خرجت تريد زوجها بالمدينة وما معها أحد من خلق الله ، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . إنه كان على الكفر وكانت بيده مفاتيح الكعبة ، وإن صوته ليرن فى أذنيها الساعة لكأنما قد عاد الزمن عشر سنوات :

ــ إلى أين يا بنت أبى أمية ؟

ــ أريد زوجى بالمدينة .

ــ أوما معك أحد ؟

ــ لا والله . إلا الله وبُنَىّ هذا .

ــ والله ما لك من مترك .

إن ذلك الحديث قد حفر فى أغوار نفسها ، وإنها لترى عثمان بن طلحة بعين بصيرتها وهو يأخذ بخطام البعير فينطلق معها يهوى بها ، وغمغمت :

ــ فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه .

إنه إذا بلغ المنزل أناخ بها ثم استأخر عنها ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيرها فحط عنه ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى عنها إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرها فقدمه فرحَله ثم استأخر عنها وقال :

ــ اركبى .

فإذا ركبت واستقرت على بعيرها أتى فأخذ بخطامه فقادها حتى ينزل بها ، فلم يزل يصنع ذلك بها حتى أقدمها المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقُباء قال :

ـــ زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا إلى مكة .

وظلت أم سلمة تحملق فى سقف حجرتها فى بيت رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم قالت :

ـــ والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

ذكريات كثيرة أثارها نبأ موت النجاشى فى وجدان أم سلمة ، وفى الحجرة المجاورة كانت أم حبيبة أم المؤمنين تعود بذاكرتها إلى أيام الحبشة . إنها تزوجت عبيد الله بن جحش بعد أن أسلم ـــ وكان قد دخل فى النصرانية من قبل ـــ وقد فرت معه بدينها إلى الحبشة ، فقابل هناك الرهبان فارتد إلى النصرانية وكان يمر بأصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهم هناك من أرض الحبشة فيقول :

ـــ فقّحنا وصأصأتم[1] .

إنها ظلت على دينها ، فلما مات عبيد الله بأرض الحبشة رأت رؤيا تفتحت لها كل آمالها ، سمعت فى النوم هاتفا يهتف بها « يا أم المؤمنين » . فطار خيالها إلى المدينة حيث كان الرسول ـــ ﷺ ـــ ؛ إنها بشرت بأنها ستصبح ذات يوم زوجا لنبى الإسلام عليه السلام .

وأطرقت تصيخ السمع إلى الماضى البعيد ، إنها تسمع الساعة أبرهة جارية النجاشى وهى تزف إليها البشرى فيبدو على وجهها انفعالات البشرى لكأنما تسمعها لأول مرة :

---

(١) أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر و لم تبصروا بعد . وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه لينظر صأصأ لينظر . وقوله فقح : فتح عينيه .

— أرسل رسول الله — ﷺ — إلى مولاى ليزوجه إياك ، وإن مولاى يسألك أن توكلى من يزوجك .

— وكلت خالد بن سعيد بن العاص .

— وخفق قلب أم حبيبة بين جنبيها وشكرت الله على أن اصطفاها زوجة لنبيه ، فإنها نعمة كبرى أن تصبح أم المؤمنين ، وعادت إلى ذاكرتها ما قالته لها أبرهة بعد أن تمت الخطبة :

— أنا صاحبة دهن الملك وثيابه وقد صدقت محمدا رسول الله وآمنت به وحاجتى إليك أن تقرئيه منى السلام ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر .

إن رسول الله — ﷺ — يراه عليها وعندها فلا ينكره .

وأهاج نبأ موت النجاشى ذكريات الحبشة فى وجدان أم حبيبة ، وخرج النبأ من دور النبى — ﷺ — إلى دور المهاجرين والأنصار ، وفى دار أبى بكر الصديق راحت زوجه أسماء بنت عميس تجرى وراء ذكرياتها ، إنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبى طالب . وما كاد المسلمون يستقرون بها حتى أرسلت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة ذلك الذى أرادت قريش دفعه لأبى طالب ليكون بدلا عن النبى — ﷺ — إذا قتلوه .

وراحت تتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه رسول النجاشى إلى المسلمين يطلبهم ، لقد علموا بما كان من عمرو ومن عمارة فقد قدما إلى النجاشى هدية وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين وإن جعفرا قال لأصحابه :

— أنا خطيبكم اليوم .

عاد جعفر إليها بعد أن قابل النجاشى متهلل الوجه وراح يقص عليها ما كان من هزيمة عمرو وصحبه . إنه قال لها إنه سار والذين معه من المسلمين فى ردهات القصر حتى إذا ما بلغوا باب قاعة العرش صاح وقال :

ـــ جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله .

فقال النجاشى :

ـــ نعم . يدخل بأمان الله وذمته .

ودخل جعفر وأصحابه فإذا بعمرو بن العاص عن يمين النجاشى وعمارة ابن الوليد عن يساره ، فقال جعفر :

ـــ السلام عليكم ورحمة الله .

فقال عمرو بن العاص للنجاشى :

ـــ ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك ؟

فقال النجاشى :

ـــ ما منعكم أن تسجدوا وتحيونى بتحيتى التى أُحيًّا بها ؟!

فقال جعفر :

ـــ إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

ـــ و لم تفعل ذلك ؟

ـــ لأن الله أرسل فينا رسولا وأمرنا إلا نسجد إلا لله عز وجل ، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام . فحييناك بالذى يحيى به بعضنا بعضا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

فقال عمرو بن العاص :

ـــ إنهم يخالفونك فى ابن مريم ولا يقولون إنه ابن الله جل وعلا .

قال :

ـــ فما تقولون فى ابن مريم وأمه ؟

قال جعفر :

ـــ نقول كما قال الله عز وجل روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء .

فقال النجاشى :

ـــ يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون . أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى فى الإنجيل .

وأهاج نبأ موت النجاشى ذكريات أيام الحبشة فراحت تنثال على رأس أسماء بنت عميس التى استشهد زوجها العزيز فى مؤتة ، فتزوجها أبو بكر الصديق من بعده ، فما كان المسلمون يتركون أزواج الشهداء دون عائل فقد كانوا يعلمون أن النساء فى حاجة إلى الزوج حاجتهم إلى الطعام والشراب .

ونكأ خبر موت النجاشى جرح قلب عمرو بن العاص . إن سادات قريش بعثوه وعمارة بن الوليد إلى النجاشى ليطلبا منه أن يسلمهما المسلمين الذين فروا إلى أرضه : إنه أخذ معه زوجه وكان عمارة رجلا جميلا فتن امرأته وهوته . إنه يحاول أن يطرد أشباح الماضى عن رأسه ولكن الذكريات راحت تلح عليه ، إنه يرى نفسه وهو فى السفينة وإلى جواره امرأته وعمارة بن الوليد يقبل نحوهما وهو يترنح ، وإنه ليسمع صوت عمارة وهو يقول له فى صوت أشبه بفحيح الأفاعى :

ـــ مر امرأتك فلتقبلنى .

ويدوى فى السكون صوته كقرع الطبول :

ـــ ألا تستحى ؟

إنه يرى عمارة وهو يتقدم نحوه ويراه وهو يحمله ويلقى به فى البحر ، وإن صوته وهو يصيح يرن فى أعماق ذاته . إنه ناشد أصحاب السفينة أن ينقذوه

وناشد عمارة أن يأخذ بيده ، إنه ليرى الأيدى وهى تمتد إليه وتنتشله من اليم ، وأغمض عينيه حتى لا يرى ما كان ولكن الصور ظلت تتتابع فى خياله رغم أنفه ، والأصوات تسرى فيه كالهمس وكزمجرة البحر مرات وهو يتلوى من الآلم يود لو يجد شيئا يشغله عن تلكم الأفكار التى تعذبه وتضنيه .

ـــ قبلى ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه .

وغطى وجهه براحتيه ومسح جبينه لعله يمحو ما فى رأسه من خيالات ؛ ولكن الذكريات راحت تتدفق دون انقطاع . إنهم أتوا أرض الحبشة وهو لا يستطيع أن ينسى ما كان فى السفينة ولا بد أن يثأر لما لحقه من إهانة .

إنه مكر بعمارة وراح الحديث الذى دار بينهما فى ذلك اليوم يتفجر فى أعماقه :

ـــ أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال ، فتعرض لزوجة النجاشى لعلها أن تشفع لنا عنده .

ـــ أفعل .

وخيل إليه أن صوت عمارة كان كسوط يلهب حواسه ، وأخذ يقنع نفسه أن ذلك كان منه قبل أن يُسلم وأن الإسلام يجب ما قبله ، ولكن شبح عمارة كان يأخذ بتلابيبه ؛ إنه جاء إليه يخبره أن زوجة النجاشى أهدت إليه من عطرها ، وهو يرى نفسه وهو ينسل إلى النجاشى ويقول له :

ـــ إن صاحبى هذا صاحب نساء وإنه يريد أهلك ، وهو عندها الآن .

فبعث النجاشى فإذا عمارة عند امرأته فقال :

ـــ لولا أنه جارى لقتلته ، ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل .

ـــ ألقاه النجاشى فى الأدغال مع الوحوش يرد معها إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت .

وهز عمرو بن العاص رأسه ليطرد ما فيه من صور ، ولكن مكره بعمارة بن الوليد استمر يلاحقه . لقد أثلج صدره فى ذلك اليوم لما حمل عمارة إلى رءوس الجبال فإذا بذلك الفرح ينقلب إلى وخز يخز ضميره كلما تذكر أحداث الحبشة ، وبعث فى عين ذاته شعره الذى خاطب به عمارة لكأنما نشر من قبر سحيق :

إذا المرء لم يتـــرك طعامـــا يحبـــه
ولم ينـــه قلبـــا غاويـــا حـــيث يممـــا

قضى وطـــرا منـــه وغـــادر سبـــة
إذا ذكـــرت أمثـــالها تملأ الفمـــا

وأهاج خبر موت النجاشي ذكريات الحبشة فى وجدان عمرو بن العاص ، ولم ينثن طيف عمارة بن الوليد عنه فى اليقظة وفى المنام .

وعاد عمرو بن أمية الضمرى بخياله إلى تلكم الأيام التى بعثه فيها رسول الله — ﷺ — إلى النجاشي فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه وكتب معه كتابا : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلمٌ أنت ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى . فخلقه الله من روحه ونفحه كما خلق آدم بيده ونفحه . وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله . وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى) .

ويرى عمرو بن أمية الضمرى نفسه وهو يسير فى ردهات قصر النجاشي ومن

حوله كبار موظفى القصر وقد زينت الجدران بـرءوس الأسود والنمور والغزلان ، وفرشت الأرض بجلود فاخرة ، حتى إذا بلغ باب قاعة العرش نادى :

ـــ بالباب عمرو بن أمية الضمرى رسول محمد رسول الله .

ـــ مرحبا بك . ادخل .

ويرى نفسه وهو يتقدم مرفوع الرأس ويلقى على النجاشى تحية الإسلام فيرد عليه بتحية الإسلام ويرحب به ويجلسه عن يمينه ويتلقى منه كتاب رسول الله ـــ ﷺ . فما ينتهى منه حتى يسارع باستدعاء كاتبه العربى ويملى عليه :

(بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله من النجاشى الأصحم بن أبجر . سلام عليك يا نبى الله ورحمة الله وبركاته من الله الذى لا إلـه إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى . فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُفروقا . إنه كما قلت وقد عرفنا ما بعثت به إلينا . وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فاشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك بابنى إرها بن الأصحم بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك يا رسول الله) .

إنه يرى بخياله النجاشى وهو يختم الكتاب بخاتمه ووجهه خاشع وقد انعكس عليه الإيمان العميق ، ويراه وهو يطوى الكتاب فى انفعال ثم يقدمه إليه فى أدب جم ويسأله أن يقرىء رسول الله ـــ ﷺ ـــ السلام .

وعاش عمرو بن أمية لحظات فى الوليمة التى أولمها النجاشى فى قصره لما زوج أم حبيبة بنت أبى سفيان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ، ورأى

نفسه وهو يخرج من الحبشة ومعه جعفر بن أبى طالب وأصحابه وأم حبيبة أم المؤمنين فى سفينتين حتى قدموا مرفأ المدينة ، ثم ركبوا الظهر إلى المدينة فوجدوا رسول الله — ﷺ — بخيبر مع من خرج إليه ، وأقامت أم حبيبة حتى قدم رسول الله فدخلت عليه .

ذكريات كثيرة أثارها خبر موت النجاشى فى رءوس الذين هاجروا إلى الحبشة فى الهجرتين ، وأفكار تطوى الزمن فيمتزج الماضى بالحاضر فى وجدان أناس صنعوا تاريخ حقبة من أهم حقب الإسلام ، وحوار ظل مشبوبا إلى أن أمر رسول الله — ﷺ — أصحابه أن يحضروا وصَفَّهم ثم تقدم رسول الله — ﷺ — وقال لهم :

— إن الله أمرنى أن أصلى على النجاشى وقد توفى فصلوا عليه .

١١

وهن عظم عبد الله بن أبى بن سلول واشتعل رأسه شيبا و لم يخب حقده على رسول الله ـ ﷺ ـ بل اشتد مرض قلبه فهو لا يفتأ يذكر أن محمدا عليه السلام قدم المدينة لما كان هو سيد أهلها ، لا يختلف عليه فى شرفه فى قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله على رجل من أحد الفريقين غيره .

كان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاء محمد بن عبد الله مهاجرا إلى يثرب وهم على ذلك ، فلو أن هجرة رسول الله ـ ﷺ ـ تأخرت شهرا أو بعض شهر لكان أول ملك على يثرب ، ولنعم بالسيادة وعز الملك وجاه السلطان .

انصرف قومه عنه إلى الإسلام فامتلأ قلبه ضغينة ، ورأى أن رسول الله ـ ﷺ ـ استلبه ملكا فراح يكيد لرسول الله ـ صلوات الله عليه ـ سرا وجهرا . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق .

مرض سعد بن عبادة فركب رسول الله ـ ﷺ ـ إليه على حمار فوقه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد خلفه ، فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل مزاحم أطُمه وحوله رجال من قومه . فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ استحيا من أن يجاوزه حتى ينزل ، فنزل فسلم ثم جلس قليلا ، فتلا القرآن ودعا إلى الله عز وجل وذكَّر بالله وحذر ، وبشر وأنذر ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى إذا فرغ رسول الله ـ ﷺ ـ من مقالته قال :

— يا هذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا ؛ فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدِّثه إياه ومن لم يأتك فلا تفتَّه به ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه .

فقال عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا عنده من المسلمين :

— بلى فاغشَنا به وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له .

فقال عبد الله بن أبى حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمُك لا تزل
تذل ويصرعك الذين تُصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن جُذَّ يوما ريشه فهو واقع

وقام رسول الله — ﷺ — فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله ابن أبى ، فقال سعد بن عبادة :

— والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئا ، لكأنك سمعت شيئا تكرهه .

— أجل .

ثم أخبره بما قال ابن أبى فقال سعد :

— يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا .

وظل التاج يتخايل لابن أبى كلما أمد الله رسوله بنصره ، فلم يكن يفرح بنصر المؤمنين بل كان يصاب بحزن ثقيل إذا مست المسلمين حسنة ، إنه كاد يموت غما لما تم النصر للمسلمين ببدر ، وزاد قلبه مرضا لما جمع رسول الله —

ﷺ — يهود بني قينقاع فى سوقهم وقال لهم :

— يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

كان يهود بنى قينقاع حلفاء ابن أبى فكان يتحرق شوقا إلى أن تنشب الحرب بين محمد عليه السلام وبين اليهود ، وكان يمنى النفس بانتصار اليهود على عدوه ، وعادت الأمانى تداعبه بأن وضع التاج على رأسه قد دنا ، فلما أنزل الله تعالى فى يهود بنى قينقاع : « قل للذين كفروا ستُغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار[١] . ازدادت رغبته فى نصر اليهود على المسلمين . فلو تحقق ذلك لتزعزع إيمان المؤمنين بقرآن محمد ، ولسهل عليه أن يطرد ذلك الذى جاء ليسلبه ملكه .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله — ﷺ ، فحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه ، فكاد قلب ابن أبى أن ينفطر و لم يستطع أن يكتم عواطفه فقال :

— يا محمد أحسن فى موالىّ .

فأبطأ عليه رسول الله — ﷺ ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— أرسلنى .

---

(١) آل عمران ١٢ ، ١٣ .

وغضب رسول الله — ﷺ — حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال :

— ويحك ! أرسلنى .

— لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، إنى والله امرؤ أخشى الدوائر .

ولم يشأ رسول الله — ﷺ — أن يحدث انقساما فى مجتمعه الجديد الذى كان ينمو مع الأيام ، فقال :

— هم لك .

كان عبد الله بن أبى يتلمس الأسباب ليطعن الإسلام طعنة قاتلة ، ولكن رسول الله — ﷺ — كان يفوت عليه تدبيره وكان يغفر له إساءاته ويرفق به ، فقد جاء الله برسوله إلى المدينة وأهلها ينظمون الخرز لابن أبىّ ليتوجوه ملكا عليهم .

رأى ابن أبىّ يوم أحد أن يقيم المسلمون بالمدينة وأن يدعوا عدوهم يدخل عليهم ويقاتلوه فيها ، لا لأنه كان يؤمن بأن ذلك فى مصلحة المسلمين بل لأنه كان يرى أن انكسار المسلمين فى المدينة فيه سحق لقوتهم ، وأن هزيمتهم لو وقعت ستكون قاضية ، فلما استقر الرأى على الخروج لم يخضع لرأى الأغلبية بل قال :

— أطاعهم وعصانى ، ما يدرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ؟

ووجد سببا لينخذل عن رسول الله لعل رجوعه بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والرِّيب يفت فى عضد جيش المسلمين ، فتتحقق هزيمتهم التى كانت شغله الشاغل ومحور تفكيره وتدبيره .

إنه كان يظهر الطاعة والرضا ويضمر العداوة والبغضاء ، فإذا جلس

رسول الله — ﷺ — يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام عبد الله بن أبى فقال :

— أيها الناس ، هذا رسول الله — ﷺ — بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا .

فلما عاد رسول الله — ﷺ — من أحد قام عبد الله بن أبى ليعطى من طرف لسانه للمسلمين حلاوة ويلج فى النفاق ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا :

— اجلس أى عدو الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتخطى الرقاب وهو يقول :

— والله لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال :

— مالك ؟ ويلك !

— قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبوننى ويعنفوننى لكأنما قلت هجرا أن قمت أشدد أمره .

— ويلك ! ارجع يستغفر لك رسول الله — ﷺ — .

— والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

كان يظهر الإيمان بلسانه وكان الكفر يملأ قلبه ، وكان يعيش على أمل أن ينتصر حلفاؤه من اليهود على رسول الله — ﷺ — وأن يقضى على الإسلام فى المدينة ، فيعود إليه نفوذه ويعود إليه التاج الذى سلبه إياه محمد بن عبد الله يوم أن هاجر إلى يثرب .

وغدر يهود بنى النضير ودبروا قتل رسول الله — ﷺ — لما ذهب إليهم ، فقد خلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

كان رسول الله إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدا فقالوا :

— فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟!

فصعد أحدهم ليلقى عليه صخرة ، فأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة وكانت الحرب بين المسلمين وبين بنى النضير .

وراح عبد الله بن أبى بن سلول يعض أصابعه من الغيظ ، فلو أن الصخرة قد هوت على محمد بن عبد الله لأراحت اليهود وأراحته من الرجل الذى سلبه التاج وسلبه قلوب الناس حتى قلب ابنه عبد الله .

وتحصن بنو النضير من رسول الله — ﷺ — فى الحصون وحاصرهم رسول الله عليه السلام ، ورأى ابن أبى أن يشد أزر اليهود فهم أمله الأخير ، فبعث إلى اليهود أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وقذف الله فى قلوب بنى النضير الرعب وسألوا رسول الله — ﷺ — أن يجليهم ويكف عنهم . وخرج بنو النضير إلى خيبر وإلى الشام و لم يحرك عبد الله ابن أبى ساكنا . إنه كان يخشى بطش المسلمين وإنه يريد الدنيا ليحقق أحلامه الأرضية ، فكان دمه غاليا يخشى أن يهدر قبل أن يحقق الوهم الذى استولى على لبه ، وهو أن يصير ملكا على الأوس والخزرج جميعا .

وكان بين الحين والحين ينفس بلسانه عن حقده الدفين ، فقد قاتل رسول الله — ﷺ — بنى المصطلق ونصر الله رسوله ، فلما جاء الليل تزاحم الناس على الماء فتشابك أجير عمر بن الخطاب وسنان بن وبر الجهنى حليف بنى عوف من الخزرج ثم اقتتلا ، فصرخ الجهنى :

— يا معشر الأنصار .

وصرخ أجير عمر :

ـــ يا معشر المهاجرين .

فغضب عبد الله بن أبى فقال :

ـــ أوَقد فعلوها ؟ لقد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأُول : سمِّن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

ـــ هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وبلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما قال كبير المنافقين ، فلما علم ابن أبى أن رسول الله قد بلغه ما قال مشى إليه فحلف بالله إنه ما قال ولا تكلم بما بلغ نبى الإسلام عليه السلام . فأنزل الله قرآنا يكذبه فأوجع ذلك قلب ابنه عبد الله ، فأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرَ بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

ـــ بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا .

وأحسن رسول الله ـــ ﷺ ـــ صحبته ، ولكنه لم يستطع أن يبرأ من مرض قلبه فإنه خاض فى حديث الإفك وراح يرمى عائشة أم المؤمنين بالفاحشة ويوسع الأرض إذاعة بما افتراه ليزلزل كيان رسول الله ـــ ﷺ ـــ

وليقوض أركان ذلك الدين الذى كان الصخرة التى تتحطم عليها آماله ، وعاش أياما وهو يتهلل بالفرح ولكن الله أنزل براءة عائشة من فوق سبع سموات وتوعد الذين جاءوا بالإفك بعذاب عظيم .

وأمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الناس أن يتجهزوا للخروج لقتال الروم ، فخرج عبد الله بن أبى فى رجال من قومه وضرب على حدة عسكره أسفل من عسكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن خروجه ليؤيد المسلمين بل لتثبيط هممهم ، فراح يوسوس لهم لا تنفروا فى الحر . فلما أبى المسلمون إلا أن ينفروا فى الحر ابتغاء مرضاة الله تخلف عبد الله وهو يرجو أن يضرب الروم المسلمين ضربة قاصمة ليعود إليه المجد والتاج ، فلما جاء الحق وظهر أمر الله كاد يموت من الغم لولا بقية من أمل فى أن تأتى الأيام بما يشتهيه .

ولم تحقق الأيام أمانيه ، إنه ناء بأحقاد قلبه فسقط فى فراشه ليلتقط أنفاسه فلم يشخص ببصره إلى السماء يلتمس من ربه المغفرة ويتوب إليه من وسوسات نفسه الأمارة بالسوء ، ولكنه عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه على رأس الأوس والخزرج للحج . إن رجاله قد ناموا معه فى رحالهم بعد أن حجوا وما درى أن بعضهم قد واعدوا محمد بن عبد الله ليقابلوه عند العقبة . إنه ما انقضى ثلث الليل حتى خرجوا من رحالهم لميعاد ابن عبد الله يتسللون تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا فى الشعب عند العقبة .

آه لو انكشف أمرهم فى تلك الليلة لقضى على الفتنة قبل أن يشتد عودها ، ولما ضاع منك الملك والتاج ، إنهم دبروا أمرهم وبايعوا محمد بن عبد الله على نصره ، فلما أصبح الناس غدت عليهم جلّة قريش حتى جاءوهم فى منازلهم فقالوا :

— يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجوه من

بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فقال فى ثقة :

ـــ ان هذا أمر جسيم ما كان قومى ليتفوتوا على بمثل هذا وما علمته كان .

وأحس وهو فى فراش الموت مرارة فى فمه ، إن غروره قد قتله . كان على ثقة بمكانته فى قومه وما خطر له على قلب أن ناسا من قومه يدبرون أمرا وراء ظهره ، فقد اختاروه طائعين ليكون لهم ملكا وإنهم يتأهبون لتتويجه ، فلو أن بادرة من الشك خامرته لفحص عن الأمر ولعرف حقيقة ما كان بين محمد بن عبد الله وبين النقباء الاثنى عشر عند العقبة ، ولأخمد جذوة الثورة قبل أن تتأجج وتأتى على آماله وأمانيه .

وانبعثت من جوفه ضحكات ساخرة ، وترادفت على رأسه صور انتصارات رسول الله ـــ ﷺ ـــ فزادت آلام نفسه فجعل يضرب رأسه بكف واهنة ليطرد الأفكار المضنية التى تعذبه وتلهب روحه بسياط أشد قسوة من النار .

ورأى عبد الله بن عبد الله بن أبى أن أباه فى النزع الأخير ، فنزل به حزن ثقيل لأن أباه يموت منافقا و لم يشرح الله للإسلام صدره ، فغدا يتوسل إلى أبيه أن يتوب إلى الله توبة نصوحا وأن يسأله المغفرة ، ولكن أباه لج فى عناده فأشاح بوجهه عن ابنه الذى أشرق قلبه بأنوار اليقين .

وخرج عبد الله بن عبد الله بن أبى يعدو إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وسأله فى انفعال شديد أن يستغفر لأبيه ، كان ـــ ﷺ ـــ يحب عبد الله وكان يعرض عن إساءات أبيه فهو لا ينسى أنه حرمه الملك والسلطان . فراح يستغفر لابن أبى فأحس ابنه عبد الله كأن كابوسا انزاح عن صدره .

و لم يطل فرح الابن فقد أنزل الله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(١) فأطرق عبد الله ونياط قلبه تتمزق ، فهو يحب أباه بكل خلجة من خلجات نفسه وهو يرجو له أن يتطهر من نفاقه قبل أن يلقى ربه ، ولكن الأب أصر على الكفر والعصيان إرضاء لغروره وكبريائه .

ومات عبد الله بن أبى بن سلول و لم ييأس ابنه عبد الله بل ظل متعلقا بأمل ، فلعل صلاة رسول الله — ﷺ — على أبيه تشفع له عند ربه ، فأتى رسول الله عليه السلام وقال له :

— أعطنى قميصك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له .

فأعطاه عليه السلام قميصه ، ثم قال :

— آذنى حتى أصلى عليه .

وكفنه عبد الله بن أبى فى قميص رسول الله — ﷺ — وحان أوان الصلاة على أبيه ، فقام إليه فلما وقف يريد الصلاة عليه ، جذبه عمر بن الخطاب وتحول حتى وقف فى صدره فقال له :

— يا رسول الله أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى بن سلول القائل كذا يوم كذا والقائل كذا يوم كذا ؟

وراح يعدد أيامه ورسول الله — ﷺ — يتبسم حتى إذا أكثر عمر قال عليه السلام :

— يا عمر أخّر عنى ، إنى قد خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فلو أعلم أنى

---

(١) التوبة ٨٠ .

قد زدت على السبعين غفر له لزدت .

ثم صلى عليه رسول الله — ﷺ — ومشى معه حتى قام على قبره حتى فُرغ منه ، فعجب عمر لنفسه ولجرأته على رسول الله — ﷺ — والله ورسوله أعلم ، وظل يؤنب نفسه فما كان إلا يسيرا حتى أنزل الله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾[1] فأفرخ روع عمر ونزلت على قلبه السكينة وحمد الله رب العالمين .

وكلم عمر رسول الله — ﷺ — فيما فعل بعبد الله بن أبى ، فقال عليه السلام :

— وما يغني عنه قميصي وصلاتى من الله ! والله إنى كنت أرجو أن يُسلم به ألف من قومه .

---

(١) التوبة ٨٤ .

١٢

آن أوان الحج وقد رفرف الإسلام على مكة ؛ الكعبة قد طهرت من الأصنام لما جاء الحق وزهق الباطل ، وقريش تصلى لله رب العالمين ولكن بعض القبائل التى لم تعتنق الإسلام كانت على شركها وكانت توقر البيت العتيق وتحج إليه ، فسيجتمع المسلمون والمشركون فى بين واحد وفى وقت واحد ، وسيلبى كل فريق بتلبيته وإنه لأمر لا يستقيم ولا يتساوق مع ما ينبغى أن يكون فى أول بيت وضع للناس ليكون منارة للتوحيد .

كان التوحيد هو الأصل وقد جاء الشرك لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وقد أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل لعبادة الله وحده ، فإن كان الناس قد أشركوا بربهم وعبدوا آلهة مع الله ، فقد جاء الإسلام ليعيد ملة إبراهيم وليطهر بيت الله من الأصنام والأوثان للطائفين والقائمين والركع السجود .

وعاد البيت الحرام سيرته الأولى ، عاد منارة للتوحيد فأصبح حج المشركين البيت وإقامة شعائرهم فيه شيئا غير مقبول ولا يساغ ، وكان بعض فقراء المشركين من الرجال والنساء يطوفون بالبيت عرايا لأن الحمس من قريش قالوا إنه لا يجوز الحج فى ملابس اقترفت فيها الخطايا وكانوا يبيعون الحجاج ثيابا جديدة ، فالذين كانوا لا يملكون ثمن الثياب كانوا يخلعون ما عليهم ويطوفون بالبيت كما ولدتهم أمهاتهم ؛ وإنه لشىء يتنافى مع كرامة الإنسان وما جاء الإسلام إلا ليحفظ للناس كرامتهم .

وبات الأمر يحتاج إلى تشريع ليكون بيت الله خالصا لله ، ولكن للمشركين عهدا بينهم وبين رسول الله — ﷺ — أن لا يُصَد عن البيت أحد جاءه ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام . وكانت هناك عهود بينه عليه السلام وبين قبائل من العرب إلى آجال مسماة .

كانت رغبة رسول الله — ﷺ — أن يحج البيت وقد تطهر من الشرك والمشركين ومن العراة الذين يثيرون اشمئزاز كل ذى ذوق سليم ، فبعث أبا بكر أميرا على الحج من سنة تسع ليقيم للمسلمين حجهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، فخرج أبو بكر ومن معه من المسلمين .

واجتمع المسلمون والمشركون فى أسواق مجنة وذى المجاز وعكاظ ، وقام شعراء المسلمين ينشدون الشعر فى محاسن الإسلام ، وجعل القراء يتلون القرآن فرفرف الإسلام على الأسواق و لم يعد هناك شك أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أين اليوم من الأمس ؟ فاليوم يهرع الناس ليلقوا السمع إلى خطباء المسلمين بينا كان محمد عليه السلام لما أمره ربه بتبليغ رسالته يخرج إلى الأسواق يعرض نفسه على القبائل فلا يجد منهم إلا الإعراض المبين .

وأنزل الله على عبده : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين * وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسولُهُ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم * إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا و لم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين * فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مَرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم * وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون * كيف يكون للمشركين عهدٌ عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين * كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون * اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون * لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون * فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون * وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم * أم حسبتم أن تُتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون * ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[١] .

---

(١) التوبة ١ — ١٨ .

وراح رسول الله — ﷺ — يتلو على المسلمين فى مسجده ما أنزل عليه من ربه ، فقالوا :

— يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبى بكر الصديق .

فقال عليه السلام :

— لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى .

ثم دعا على بن أبى طالب فقال له :

— اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

فخرج علىّ كرم الله وجهه على ناقة رسول الله — ﷺ — العضباء . حتى أدرك أبا بكر بالطريق . فلما رآه أبو بكر بالطريق قال :

— أأمير أم مأمور ؟

— بل مأمور .

ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية . وراح الرجال الذين لم يشرح الله صدورهم بعد للإسلام يرنون إلى المسلمين فى عجب وإعجاب ، وأخذ بعضهم يصغى إلى كلام الله فيستشعر كأن أنوارا من السماء تنسكب فى عين ذاته وفى أعماق وجدانه ، وبذرت فى قلوب بعض القبائل فكرة شد الرحال إلى مدينة الرسول للإصغاء إلى حكمته وإعلان الإسلام والتسليم لله .

وجاء يوم النحر وقد اجتمع الناس جميعا فى منى فقام علىّ بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله — ﷺ — فقال :

— أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ،

ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله — ﷺ — عهد فهو له إلى مدته .

وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله — ﷺ — عهده إلى مدته فهو له إلى مدته .

إن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام وقادة العرب لا ينكرون ذلك ، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله — ﷺ — وخلافه . فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله — ﷺ — ولا عداوته ، رأت قبائل العرب أن تبعث إليه — صلوات الله وسلامه عليه — الوفود لتدين له وتعلن إسلامها .

وأحس حسان بن ثابت شاعر الرسول أن قريشا بعد إسلامها قد تستحوذ على المجد كله . فراح حسان بعدد أيام الأنصار مع النبى — ﷺ — ويذكر مواطنهم معه فى أيام غزوه :

ألستُ خير معـــدّ كلّهـــا نفـــرا
ومـــعشرًا إن هموا عمُّـــوا وإن حصلـــوا

قـــوم هـــمُ شهِـــدوا بـــدرا بأجمعهـــم
مع الـرسول فمـا آلـوا[١] ومـا خذلـوا

وبايعـــوه فلـــم ينـــكثْ بـــه أحـــدٌ
منهم ولم يَك فى إيمانهم دخـــــــل[٢]

---

(١) ما ألوا : ما قصروا . ويروى : « ما آلوا » بالمد ، أى ما أبطئوا .

(٢) دخل : فساد .

ويوم صبَّحهم فى الشِّعب من أحد
ضرب رصين[١] كحرِّ النار مشتعلُ

ويوم ذى قَرَد يوم استثار بهم
على الجياد ، فما خاموا وما نكلوا[٢]

وذا العشيرة جاسوها[٣] بخيلهم
مع الرسول عليها البيض والأسَل

ويوم ودّان أجلوا أهله رَقَصا[٤]
بالخيل حتى نهانا الحزنُ والجبل

وليلةً طلبوا فيها عدوَّهمُ
لله والله يجزيهم بما عملوا

وغزوةً يوم نجد ثم كان لهم
مع الرسول بها الأسلاب والنَّفَل

وليلة بحُنين جالدوا معه
فيها يعَلُّهم[٥] بالحرب إذ نَهلوا

وغزوة القاع فرَّقنا العدوَّ به
كما تُفرَّق دون المشرب الرُّسل

---

(١) رصين : ثابت محكم .

(٢) خاموا ونكلوا : جبنوا عن هيبة وفزع

(٣) جاسوها : وطئوها ، والبيض : السيوف . والأسل : الرماح .

(٤) الرقص : ضرب من المشى ، وهو الخبب . والحزن : ما ارتفع من الأرض .

(٥) يعلهم : أى يكررها عليهم ، من العلل ، وهو الشرب الثانى . النهل : الشرب الأول .

ويوم بُويعَ كانوا أهل بيعته
على الجلاد فآسَوه وما عَدَلوا
وغزوة الفتحِ كانوا فى سريَّته
مُرابطين فما طاشوا وما عَجِلوا
ويوم خيبر كانوا فى كتيبته
يمشون كلهم مُستبسل[1] بطل
بالبيض تَرْعش فى الأيمان عارية
تعوَجّ فى الضرب أحيانا وتعتدل
ويوم سار رسول الله مُحتسِبا
إلى تبوك وهم راياته الأوَل
وساسة الحرب إن حربٌ بدَت لهم
حتى بدت لهم الإقبال والقَفل[2]
أولئك القوم أنصار النبى وهم
قومى أصير إليهم حين أتَّصل[3]
ماتوا كراما ولم تُنكَث عهودهم
وقتلهم فى سبيل الله إذ قُتِلوا

وقال حسان بن ثابت أيضا :

كنا ملوك الناسِ قبل محمد
فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل

---

(١) مستبسل : موطن نفسه على الموت .

(٢) القفل : الرجوع .

(٣) حين أتصل : حين أنتسب .

وأكرمنـــا الله الـــذى لـــيس غيـــرَهُ
إلٰـــهٌ بأيـــام مضت مـــا لها شَكْـــل(١)

بـــنصر الإلٰـــه والـــرسول ودينـــه
وألبسنـــاه اسما مضى مـــا لـــه مِثْـــل

أولـٰئك قومـــى خيـــرُ قـــوم بأسْرهـــم
فمـــا عُـــدَّ مـــن خير فقومـــى لـــه أهـــل

يَربُّـون(٢) بالمعـروف معـروف مـن مضى
ولـــيس عـــليهم دون معروفهـــم قفـــل

إذا اختُبطـــوا(٣) لم يُفـــحشوا فى نديِّهـــم
ولـــيس على سؤالهم عندهـــم بُخْـــل

وإن حاربـــوا أو سالموا لم يُشبَّهـــوا
فحـــربهم حتـــفٌ وسِلمهـــم سَهْـــل

وجارُهـــم مُـــوف بعليـــاء بيتـــه
لـــه مـــا ثـــوى فينـــا الكرامـــةُ والبـــذل

وحاملهـــم مـــوف بكـــل حمالـــة(٤)
تحمَّـــلَ لا غـــرم عـــليها ولا خَـــذلُ

وقائلهـــم بـــالحق إن قـــال قائـــل
وحملهـــم عَـــودٌ(٥) وحكمهـــم عَـــدل

---

(١) شكل : مثل . (٢) يربون : يصلحون .

(٣) اختبطوا : قصدوا فى مجلسهم .

(٤) الحمالة : ما يتحمله الإنسان من غرم فى دية .

(٥) عود : قديم متكرر .

ومنـــا أمير المسلـــمين حياتـــه
ومـن غَسَّلتـه مـن جنابتـه الـرُّسل[١]

وقال حسان بن ثابت أيضا :

قومـــى أولـــئك إن تسألى | كـرام إذا الضيف يومـا ألم[٢]
عظـام القـدور لأيسارهـم | يكبُـون فيها المسِن السَّنِـم
يـؤاسون جارهـم فى الغنـى | ويحمـون مولاهـم إن ظُلِـم
فكانـوا ملـوكا بـأرضيهم | ينـادون عضبا بأمـر عشم[٣]
ملوكا على الناس . لم يمُلكوا | من الدهر يوما كحل القسم[٤]
فأنبـوا بعـاد وأشياعهـا | ثمود وبـعض بقايـا إرم[٥]
بـيثرب قـد شيـدوا فى النخيـل | حصونـا ودجِّـن فيها النعَـم[٦]
نـواضح قـد علَّـمتها اليهو | د(عل) إليك وقـولا هلـم[٧]
وفيما اشتهوا مـن عصير القطـا | ف[٨] والعيش رخوا على غيرهم

---

(١) أمير المسلمين : يعنى سعد بن معاذ . ومن غسلته : يعنى « حنظلة » الذى غسلته الملائكة حين استشهد يوم أحد . والرسل هنا : الملائكة .

(٢) ألم : نزل .

(٣) غشم : من الغشم ، وهو أسوأ الظلم .

(٤) يريد بحل القسم : فترة قصيرة .

(٥) فأنبوا : فأنبئوا ، فخفف الهمزة ، وإرم : هى عاد الأولى .

(٦) دجن فيها النعم : اتخذت فى البيوت ، والداجن : كل ما ألف الناس كالحمام والدجاج ونحو ذلك ، والنعم : الإبل والبقر والغنم .

(٧) النواضح : الإبل التى يستقى منها الماء ، وعل : زجر تزجر به الإبل ، وهلم : أقبل .

(٨) القطاف : اسم لما يقطف من العنب وغيره .

فسرنـــــا إليهم بأثقالنــــــا　　على كل فحل هجـان قَطِـم[١]
جنبنــا بهن جيــاد الخيـــو　　ل قد جللوهـا جـلال الأدم[٢]
فلمــا أناخــوا بجنبــى صِرار　　وشدوا السروج بلى الحزم
فمــا راعهــم غير معــج الخيــو　　ل والزحف من خلفهم قد دهم[٣]
فطـاروا سراعـا وقـد أفزعـوا　　وجئنــا إليهم كـأسد الأجـــم
على كل سلهبـة[٤] فى الصبـا　　ن لا يشتكــــن نحول السأم
وكل كمـيت مطـار الفـؤاد　　أمين الفصوص كمثل الزلم[٥]
عليـه فـوارس قــد عـــودوا　　قراع الكمـاة وضرب البهم[٦]
ملـوك إذا غشمـوا فى البـــلا　　د لا ينكلــون ولكــن قــدم
فأبنــا[٧] بساداتهم والـــنساء　　وأولادهــــم فيهم تقــتسم
ورثنــا مساكنهم بعدهــــم　　وكنـا ملـوكا بها لم نـــرم[٨]
فلمـا أتانـا الـرسول الرشيــ　　د بـالحق والنـور بعـد الظلـم
قلنــا صدقت رسول المليـك　　هلــم إلينـــا وفينـــا أقــم
فنشهــد أنك عبـد الإلــٰـه　　أرسلت نـــورا بديــــن قيم

---

(١) الهجان : الأبيض . وقطم : هائج يشتهى الضراب .

(٢) جنبنا : قدنا ، وجللوها : غطوها ، والأدم : الجلد .

(٣) معج الخيول : سرعتها ، ودهم : جاء غفلة على غير استعداد .

(٤) سلهبة : الفرس الطويلة .

(٥) مطار الفؤاد : ذكى الفؤاد ، والفصوص : مفاصل العظام ، وأمين الفصوص : قويها ، والزلم : القدح .

(٦) الكماة : الشجعان ، والبهم : الأبطال الشجعان .

(٧) أبنا : رجعنا .

(٨) لم نرم : لم نتحول .

فإنــــا وأولادنــــا جنّـــــة　　نقـــيك وفى مالنـــا فاحتكـــم
فنحـــن أولـــئك إن كذبـــوك　　فنـــــاد نـــــداء ولا تحتشم
ونـــاد بما كـــنت أخفيتـــه　　نـــداء جهـــارا ولا تكـــتتم
فسار الغـــــواة بأسيافهـــــم　　إليـــه يظنـــون أن يخترم(١)
فقمنـــــا إليهم بأسيافهـــــم　　نجالـــــد عنــــه بغـــاة الأمم
بكـــل صقيـــل لــــه ميعــــة　　رقيق الذباب عضوض خذم(٢)
إذا مــا يصادف صم العظـــا　　م لم يـــنب عنها ولم ينثلـــم
فـــذلك مــا ورثتنـــا القـــرو　　م مجدا تليـــدا وعِـــزًا أشم(٣)
إذا مـــر نسل كفـــى نسلـــه　　وغادر نسلا إذا مـا انـــفصم(٤)
فمــا إن مــن النــاس إلا لنـــا　　عليـه وإن خـــاس فضل النعـم

---

(١) يخترم : يهلك .

(٢) له ميعة : أى له صقال يشبه الماء فى صفائه ، والذباب : حد طرف السيف ، وخذم : قاطع .

(٣) القروم : السادة ، والتليد : القديم ، والأشم : المرتفع .

(٤) انفصم : انقطع وانقرض .

١٣

أتم الناس الحج المؤمنون والمشركون ، ودخلت السنة التاسعة من الهجرة وبدأت وفادات العرب على رسول الله ــ ﷺ ، وذلك أن العرب إنما كانوا ينتظرون فتح مكة وإسلام هذا الحى من قريش . فلما فتح الله عز وجل على رسوله ــ ﷺ ــ مكة وأسلم من أسلم من قريش ، وفدت عند ذلك وفادات العرب من كل قبيلة وجهة ودخلوا فى دين الله أفواجا .

وإن وفود القبائل أو وفود بعض رجال من القبائل على رسول الله ــ ﷺ ــ لم ينقطع مذ جهر بدعوته فى مكة إلى أن تدفقت الوفود على المدينة فى عام الوفود ، فأبو ذر الغفارى قدم ــ ومعه أهل غفار ــ على النبى ــ ﷺ ــ وهو بمكة فأسلم نصفهم قبل أن يقدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة ، وكان يؤمهم خُفاف بن إيماء بن رحضة الغفارى وكان سيدهم ، وقال بقيتهم :

ــ إذا قدم رسول الله ــ ﷺ ــ أسلمنا .

فقدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة فأسلم بقيتهم ، وجاءت أسلم فقالوا :

ــ يا رسول الله إخواننا ، نسلم على الذى أسلموا عليه .

كانت غفار إخوان أسلم فلما أسلمت غفار أسلموا ، فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ غفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله .

وقدم ضماد بن ثعلبة الأزدى مكة ، وهو رجل من أزدشنوءة كان صديقا

للنبى — ﷺ — فى الجاهلية ، وكان يتطيب ويرقى فسمع سفهاء الناس يقولون :

— إن محمدا مجنون .

فقال :

— آتى هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدى .

فلقى محمدا — ﷺ — فقال :

— إنى أرقى من هذه الرياح وإن الله يشفى على يدى من يشاء ، فهلم .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله .

— تالله لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات ، فهلم يدك أبايعك على الإسلام .

فبايعه رسول الله — ﷺ — وقال له :

— وعلى قومك ؟

— وعلى قومى .

فبعث رسول الله — ﷺ — سرية فمروا بقوم ضماد ، فقال صاحب الجيش للسرية :

— هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟

فقال رجل منهم :

— مطهرة .

ردوها عليهم فإنهم قوم ضماد .

وقدم قيس بن مالك بن سعد بن مالك على رسول الله — ﷺ — وهو بمكة فقال :

— يا رسول الله لأومن بك وأنصرك .

— مرحبا بك ، أتأخذونني بما فيّ يا معشر همدان ؟

— نعم بأبى أنت وأمى .

— فاذهب إلى قومك فإن فعلوا فارجع أذهب معك .

فخرج قيس إلى قومه فأسلموا وتوجهوا إلى القبلة ، ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— قد أسلم قومى وأمرونى أن آخذ .

كان ذلك قبل الهجرة وما كان الله قد أذن لرسوله بالهجرة ، فقال رسول الله — ﷺ :

— نِعم وافد القوم قيس .. وفَيت وفّى الله بك .

ومسح بناصيته وكتب عهده على قومه همدان .

وقدم مكة الطفيل بن عمرو الدوسى وكان رجلا شريفا شاعرا لبيبا ، فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من أن يلقى السمع إلى محمد — ﷺ — لأن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجه ، فما زالوا به حتى أجمع على ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فأبى الله إلا أن يسمعه بعض القرآن فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر وما يخفى علىّ الحسن مع القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ وإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

وذهب إلى النبى — ﷺ — فعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن ،

فأسلم الطفيل بن عمرو وأسلمت دوس بإسلامه .

وقدم على رسول الله — ﷺ — وهو بمكة ، عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وسألوه — ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة — فلما فرغوا من مسألته — ﷺ — دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله تعالى وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم :

— خيبكم الله من ركب ! بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركبا أحمق منكم !

فقالوا لهم :

— سلام عليكم لا نجاهِلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيرا .

فأنزل الله تعالى قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[1] .

ووفد على رسول الله — ﷺ — بعد الهجرة وقبل فتح مكة تسعة رهط

---

(١) القصص ٥٢ — ٥٥ .

من بنى عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، منهم ميسرة بن مسروق والحارث ابن الربيع وقنان بن دارم وبشر بن الحارث بن عبادة وهدم بن مَسعدة وسباع ابن زيد وأبو الحصن بن لقمان وعبد الله بن مالك وفروة بن الحصين بن فضالة ، فأسلموا فدعا لهم رسول الله — ﷺ — بخير وقال :

— ابغونى رجلا يَعشر كم أعقد لكم لواء .

فدخل طلحة بن عبيد الله فعقد لهم لواء وجعل شعارهم : يا عشرة .

وقدم ثلاثة نفر من بنى عبس على رسول الله — ﷺ — فقالوا :

— إنه قدم علينا قوم فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواش هى معاشنا ، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلم يلتكم من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد[1] وجازان[2] .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبى — ﷺ — وثب رجل من بنى أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فرّاص فحطمه ، ثم وفد إلى النبى — ﷺ — بعد الهجرة فأسلم وقال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى وخلفت فراصا بدار هوان
شددت عليه شدة فتركته كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه أجبت رسول الله حين دعانى
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا وألقيت فيها كلكلى وجرانى[3]

---

(١) صمد : اسم ماء للضباب .

(٢) جازان : موضع فى طريق صنعاء .

(٣) الكلكل : الصدر ، والجران : باطن العنق . فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل ألقى جرانه على الأرض .

فمن مبلغ سعد العشيرة أنني ... شربت الذى يبقى بآخر فان

وجاء إلى المدينة من جهينة عمرو بن مرة الجهنى ، وكان لهم صنم وكانوا يعظمونه وكان عمرو سادنه ، فلما سمع رسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى قدم على النبى — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاءه به عليه السلام من حلال وحرام ، فقال :

شهدت بأن الله حق وأنني ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا ... إليك أجوب الوعث بعد الدكادك[1]
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وقدم على رسول الله — ﷺ — نفر من مزينة منهم خزاعى بن عبد نُهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة منهم فيهم بلال بن الحارث والنعمان ابن مُقرّن ، وما دار بخلد النعمان أنه سيحارب الفرس وأنه سيستشهد فى نهاوند . ثم خرج خزاعى إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان بن ثابت وقال له :

— اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلغ خزاعيا رسولا ... بأن الذم يغسله الوفاء
وأنك خير عثمان بن عمرو ... وأسناها إذا ذكر السناء
وبايعت الرسول وكان خيرا ... إلى خير وآداك[2] الثناء
فما يعجزك أو ما لا تطقه ... من الأشياء لا تعجز عداء

---

(١) الدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) آدى الشيء : كثر ، وآداه ماله : كثر حتى ثقل عليه .

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

ـــ يا قوم ! قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

ـــ فإنا لا ننبو عليك[١] .

فأسلموا ووفد منهم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ أربعمائة وذلك فى شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ الهجرة فى دارهم وقال :

ـــ أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

فرجعوا إلى بلادهم وقد دفع رسول الله ـــ ﷺ ـــ لواء مزينة يوم الفتح إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل .

وجاء أفضل وافد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ قدم ضمام بن ثعلبة من أهل نجد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أصحابه . وكان ضمام رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أصحابه فقال :

ـــ أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أنا ابن عبد المطلب .

ـــ أمحمد ؟

ـــ نعم .

ـــ يا بن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجد فى نفسك .

ـــ لا أجد فى نفسى فاسأل عما بدا لك .

---

(١) ننبو عليك : لا نمتنع عما تريده منا .

ـــ أنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟

ـــ اللهم نعم .

ـــ فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

ـــ اللهم نعم .

ـــ فأنشدك الله إلـٰهك وإلـٰه من كان قبلك وإلـٰه من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلاة الخمس ؟

ـــ نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

ـــ فإنى أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قوم بنى سعد بن بكر فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به :

ـــ بئس اللات والعزى !

ـــ مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !.

ـــ ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران ، إن الله قد بعث رسولا وأنزل

عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه . وإنى أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم فى حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة رأسهم مسعود بن رخيلة بن نويرة بن طريف ، فنزلوا شعب سَلع فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمر لهم بأحمال التمر فقالوا :

— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

وقدم الأشعريون وهم قبيلة كبيرة باليمن على رسول الله — ﷺ — وهم خمسون رجلا ، منهم أبو موسى الأشعرى ومنهم رجلان من عك ، وقدموا فى سفن فى البحر وخرجوا بمرفأ مكة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — فى سفره بخيبر ، فلقوه — ﷺ — فبايعوه وأسلموا . فقال رسول الله — ﷺ — :

— الأشعرون فى الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بنى سَليم يقال له قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله . ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكاهن وكلام معاول حِمير، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم، فأطيعونى وخذوا بنصيبكم

منه .

ووفد رجل منهم يقال له قُدد بن عمار على النبى — صلى الله عليه وسلم — وعاهده على أن يأتيه بألف من قومه على الخيل ، وأنشد يقول :

شددت يمينى إذ أتيت محمدا   بخير يد شدت بحجزة مئزر

وذاك امرؤ قاسمته نصف دينه   وأعطيته كف امرىء غير أعسر

وإن امرأ فارقته عند يثرب   لخير نصيح من معد وحمير

ثم أتى قومه فأخبرهم الخبر وكان عام الفتح ، فخرج معه تسعمائة وخلف فى الحى مائة . وأقبل يريد النبى — صلى الله عليه وسلم — فنزل به الموت فأوصى إلى ثلاثة رهط من قومه وهم عباس بن مرداس وأمره على ثلاثمائة وجبَّار بن الحكم وأمره على ثلاثمائة والأخنس بن يزيد وأمره على ثلاثمائة وقال :

— إيتوا هذا الرجل حتى تقضوا العهد الذى فى عنقى .

ثم مات فمضوا حتى قدموا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— أين الرجل الحسن الوجه الطويل اللسان الصادق الإيمان ؟

— يا رسول الله ! دعاه الله فأجابه .

وأخبروه خبره فقال :

— أين تكملة الألف الذين عاهدنى عليهم ؟

— خلف مائة فى الحى مخافة حرب[1] كان بيننا وبين بنى كنانة .

— ابعثوا إليها فإنه لا يأتيكم فى عامكم هذا شىء تكرهونه .

فبعثوا إليها فأتته بالهدّة بين مكة والطائف ، وقال بنو سليم لرسول الله — صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الحرب مؤنثة وقد تذكر إذا أريد بها القتال .

ـــ اجعلنا فى مقدمتك واجعل لواءنا أحمر وشعارنا مُقدَّم .

ففعل ذلك بهم ، وكان فى القوم غاوى بن عبد العزى وكان يخدم صنما لبنى سليم ، فرأى يوما ثعلبين يبولان عليه فقال :

أرب يبـول الثعلبـان بـرأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

ثم شد عليه فكسره ، وأتى النبى ـــ ﷺ ـــ فقال له :

ـــ ما اسمك ؟

ـــ غاوى بن عبد العزى .

ـــ أنت راشد بن عبد ربه .

فأسلم وحسن إسلامه وشهد الفتح ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ خير بنى سليم راشد .

وعقد له على قومه .

وكانت الخنساء الشاعرة قد قدمت على رسول الله ـــ ﷺ ـــ مع قومها من بنى سليم فأسلمت معهم وكان عليه السلام يستنشدها ويعجبه شعرها فكانت تنشده وهو يقول :

ـــ هيه يا خناس !

ويومى بيده .

وقدم عمير بن أقضى فى عصابة من أسلم فقالوا :

ـــ لقد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك ، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتنا ، فإنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر فى الشدة والرخاء .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ أسلم سالمها الله ، وغفار غفر الله لها .

وكتب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأسلم ، ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن ساحل البحر والسهل كتابا فيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى ، وكتب الصحيفة ثابت بن قيس وشهد أبو عبيدة وعمر بن الخطاب .

وقدم رفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامى ثم أحد بنى الضبيب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتابا فيه : (هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله ، فمن أقبل ففى حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين) . فأجابه قومه وأسلموا .

وبعث فروة بن عمرو بن نافرة الجذامى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رسولا بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء واسم رسوله مسعود بن سعد وهو من قومه ، فقرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كتابه وقبل هديته وأجاز رسوله باثنتى عشرة أوقية ونش . والونش نصف أوقية ، وكتب إلى فروة جواب كتابه .

وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام فلما بلغ الروم إسلامه طلبوه فحبسوه عندهم ، فقال فى محبسه ذلك :

طرقت سليمى موهنا[١] أصحابى ... والروم بين الباب والقروان

صد الخيال وساءه ما قد رأى ... وهممت أن أغفى وقد أبكانى

لا تكحلن العين بعدى أثمدا[٢] ... سلمى ولا تدينّ للإتيان

ولقد علمت أبا كبيشة أننى ... وسط الأعزة لا يحص[٣] لسانى

---

(١) الموهن : بعد منتصف الليل .

(٢) الأثمد : حجر للكحل .

(٣) يحص : يقطع .

فلئن هلكت لتفقدن أخاكم ... ولئن بقيت لتعرفن مكانى
ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى ... من جودة وشجاعة وبيان

فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم بفلسطين يقال له عفراء قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها ... على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل[(١)]
على ناقة لم يضرب الفحل أمها ... مشذبة أطرافها بالمناجل

ولما قدموه ليضربوا عنقه قال :

أبلغ سراة المؤمنين بأننى ... سلم لربى أعظمى ومقامى

كانت وفود القبائل تقدم على رسول الله — ﷺ — مذ أمره الله أن ينذر قومه إلى أن فتح الله على رسوله مكة ، فلما تم فتح مكة وخرج رسول الله — ﷺ — لغزو الروم وبلغ تبوك وألقى الله فى قلوب الروم الرعب فانسحبوا دون أن يلقوا رسول الله — ﷺ — تدفقت وفود القبائل إلى المدينة فى السنة التاسعة من هجرته عليه السلام ودانت له القبائل ، وأنزل الله على عبده : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[(٢)] . وقد سميت تلك السنة بعام الوفود .

---

(١) الرواحل فى الأصل الإبل : ويريد بإحدى الرواحل الخشبية التى صلب عليها .
(٢) سورة النصر .

التذييـــل

مات موسى عليه السلام وقد بلغ مائة وعشرين سنة ، و لم تكل عينه ولا ذهبت نضارته كما تقول توراة المنفي . وقبل أن يموت لم ينس الذين كتبوا التوراة أن يصعدوه إلى الجبل ليرى الأرض الموعودة : « وصعد موسى من عربات مؤاب إلى جبل نبُو إلى رأس الفسجة الذى قبالة أريحا ، فأراه الرب جميع الأرض من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالى وأرض أفرايم ومنسَّى (ابنى يوسف) وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربى ، والجنوب والدائرة بقعة أريحا مدينة النخل إلى صوغر . وقال له الرب : هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلا : لنسلك أعطيها . قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر . فمات هناك موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، ودفنه فى الأجواء فى أرض مؤاب مقابل بيت فغور ، و لم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم » .

بهذا الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية تنتهى الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود . وإذا درسنا هذا الإصحاح بإمعان نجد رواية تاريخية كتبها كاتب التوراة لا يمكن أن تكون وحيا ، فالكاتب يقول : فمات موسى عبد الرب فى أرض مؤاب حسب قول الرب ، وهذا الخبر وكل ما بعده حتى نهاية الإصحاح هو قرار من الكاتب ، فلا يعقل أن موسى عليه السلام قال بعد موته : « وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات و لم تكل عينه

ولا ذهبت نضارته ، فبكى بنو إسرائيل موسى فى عربات مؤاب ثلاثين يوما ، فكملت أيام بكاء مناحة موسى .

ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يديه ، فسمع له بنو إسرائيل وعمل كما أوصى الرب موسى .

و لم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه فى جميع الآيات والعجائب التى أرسله الرب ليعملها فى أرض مصر بفرعون وجميع عبيده وكل أرضه ، وفى كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التى صنعها موسى أمام أعين جميع إسرائيل » .

واضح أن عجُز الإصحاح الرابع والثلاثين من إنشاء الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، وواضح أن الأسفار الخمسة التى يعترف بها السامريون واليهود والمفروض أنها قد نزلت على موسى قد أعيد كتابتها فى عصر السبى فدس فيها الذين كتبوا التوراة فى المنفى كثيرا من أساطير البابليين والفراعنة ، وخططوا لعودتهم إلى فلسطين فجعلوا الرب يسرف فى الحديث عن الأرض التى أقسم لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يجعلها ميراثا لذريتهم . و لم يكتفوا بذلك بل جعلوا الرب ينزل فى سحابة ويعيد الوعد لموسى والذين معه ، وإن كثرة حديث الرب عن أرض الميراث يثير الشك ، بل يؤكد أن تلك الأقوال قد وضعها أحبار اليهود على لسان الرب ، فليس من المعقول ولا المقبول أن يكرر الرب وعده فى كل إصحاح من إصحاحات سفر التثنية . ويا ليته يذكر ذلك الوعد لأن بنى إسرائيل كانوا سامعين مطيعين بل لأنهم كانوا فاسقين !

وهنا حقائق ولا ريب فى الأسفار الخمسة المفروض أنها أوحيت إلى موسى ولكنها حقائق مزجت بأساطير الشعوب وأحلام الأحبار وأطماع الكهان .

وإن دارس الإنجيل يلحظ أن السيد المسيح لم يستشهد بإصحاح من

إصحاحات التوراة ، بل كان يقول : قال موسى ... وأنا أقول ... فما جاء فى تلك الأسفار ليس وحيا سماويا بل ما وقر فى الأذهان وفى الصدور مما أوحى إلى موسى عليه السلام ، وقد كتب بأقلام أناس تشربوا عادات البابليين والمصريين القدماء ، وقد فاضت أفئدتهم بالحقد على البشر جميعا لما هم فيه من ذل وهوان .

وبعد الأسفار الخمسة يستمر الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى تسجيل تاريخ بنى إسرائيل ، إنهم لا ينسون الأرض الموعودة ، وإن ربهم لا يتوانى لحظة عن ذكر تلك الأرض وإعادة الوعد كأنما قد فرغ من شئون الأرض والسماء ولم يعد له من شأن غير ذلك الوعد الذى قطعه على نفسه إكراما لهؤلاء العصاة الذين قال عنهم لموسى عليه السلام إنهم سينسون كل ما فعله لهم ويعبدون سواه .

وها هو ذا الرب يخاطب يشوع ويعيد له الوعد كأنما يشوع لم يكن مع موسى عليه السلام يوم قال الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نزل فى سحابة وأعاد الوعد إلى موسى وإلى قومه : « وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى ، من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم .. » . إصرار عجيب من الرب كأنما كل ما يعرف من الأرض هى هذه المنطقة ، بل إصرار عجيب من الذين كتبوا التوراة بأيديهم . إنهم يكررون بمناسبة وبلا مناسبة نفس الوعد بنفس الألفاظ بنفس الحدود ليستقر فى الوجدان أن رغباتهم مشيئة إلـٰهية ينبغى أن تطأطئ لها

الرءوس وأن تطاع .

ويرسل يشوع بن نون جاسوسين فينطلقان إلى بيت زانية اسمها راحاب ويضطجعان هناك . وإن ما يثير الدهش أن التوراة تنظر إلى الاضطجاع مع زانية نظرة لا استنكار فيها ؛ فيهوذا أبو اليهود جميعا يضطجع مع زوج ابنه وهو يحسبها زانية ، ثم يرسل من يسأل الناس عنها دون مبالاة ، وجاسوسا يشوع ابن نون — ومن المفروض أنهما من مؤمني بني إسرائيل — يذهبان إلى زانية ويضطجعان هناك . وإن البابليين كانوا لا يرون عيبا فى التسرية بالبغايا بل كانوا يحترمون البغايا لأنهن كن كعشتار إلـٰهة اللذة وقد أخذ الذين كتبوا التوراة فى المنفى عن البابليين احترام البغايا واحترام الذين يمارسون الزنى معهن !

هل يعقل أن إلـٰها غيورا يذكر الاضطجاع مع البغايا دون أن يغضب أو يثور ؟ لو أن عشتار هى التى أوحت مثل ذلك القول لصدقناه ، أما رب غيور مثل يهوه رب موسى عليه السلام فلا يعقل أنه يوحى بمثل ذلك الدنس ويرضى عنه .

ويروى كاتب سفر يشوع كيف حمل الكهنة تابوت العهد ، وكيف انحسرت مياه الأردن لما لمست أقدامهم الماء ، وكيف حمل اثنا عشر رجلا من أسباط إسرائيل — رجلا من كل سبط — حجارة من قاع النهر تذكارا لبنى إسرائيل لانفلاق المياه أمام تابوت عهد الرب . ونسى الذى يكتب هذا الإصحاح أنه يكتب وحيا فقال : ونصب يشوع اثنى عشر حجرا فى وسط الأردن تحت موقف أرجل الكهنة حاملى تابوت العهد ، وهى هناك إلى هذا اليوم » .

ويأمر الرب يشوع أن يصنع لنفسه سكاكين من صوان وأن يختن بنى

إسرائيل لأن الذين ولدوا فى التيه لم يختنوا . وهذا أمر محير فقد جعل الرب الختان عهدا بينه وبين بنى إسرائيل وأمرهم أن يختنوا أولادهم فى اليوم السابع من مولدهم ، فهل تعذر على بنى إسرائيل أن يختنوا أولادهم ؟ وإذا كان رجال الحرب لم يختنوا أكانوا يعيشون بلا عهد بينهم وبين ربهم ؟! إن الرب الذى تصوره الذين كتبوا التوراة فى المنفى يهتم جدا بالختان ، حتى إنه يقول بعد أن يتم ختان الرجال : « اليوم قد دحرجت عنهم عار مصر » .

وعلموا الفصح وانقطع المن عنهم لما أكلوا من غلة الأرض ، ثم حملوا تابوت العهد وداروا به حول المدينة سبع مرات فى سبعة أيام : « ... وكان فى اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات . فى ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات ، وكان فى المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب : اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة . فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب ، راحاب الزانية فقط تحيا ، هى وكل من معها فى البيت لأنها قد خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما ، وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تُحرَّموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلة إسرائيل محرمة وتكدروها . وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدسا للرب وتدخل فى خزانة الرب . فهتف الشعب وضربوا بالأبواق ، وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافا عظيما فسقط السور فى مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة » .

إنها أمنية الذين كانوا فى الأسر . إنهم لا يريدون أن يخوضوا حربا للعودة إلى فلسطين بل يتمنون أن ينفخ الكهنة فى الأبواق السبعة وأن يهتف الشعب هتافا عظيما فيجد نفسه فى أرض فلسطين . أمنية ليست عزيزة على الرب

ولكنها ليست من سنته ، فإن الله ينصر من ينصره . فالمسلمون قد حاربوا الكفار يوم بدر وأبلوا بلاء حسنا فأيدهم الله بنصره : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[١] . ودارت معركة رهيبة لا هوادة فيها يوم أحد بين المسلمين وقريش وقد محص الله فيها الذين آمنوا واتخذ منهم شهداء . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾[٢] . ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾[٣] .

إن المؤمنين حقا يقاتلون ويجاهدون ويستشهدون ويصبرون حتى يأتى النصر من عند الله ، أما أن تسقط أسوار المدن إذا ما نفخ فى الأبواق وصاحت الأصوات صيحات مدوية فإنه وهم الحالمين .

ويعود الذين كتبوا التوراة إلى الشكوى من الرب عندما ينكسرون فى معركة مثلما فعلوا لما أمرهم موسى أن يقاتلوا أعداءهم : « ... وهربوا أمام أهل عاى ، فضرب منهم أهل عاى نحو ستة وثلاثين رجلا ولحقوهم من أمام الباب إلى شاريم وضربوهم فى المنحدر . فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء . فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا ترابا على رءوسهم . وقال يشوع : « آه يا سيد الرب ، لماذا عبَّرت هذا الشعب الأردن تعبيرا لكى تدفعنا إلى يد الأموريين ليبيدونا . ليتنا ارتضينا وسكنا فى عبر الأردن . أسألك يا سيد . ماذا أقول

---

(١) آل عمران ١٢٣ .

(٢) آل عمران ١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) آل عمران ١٤٦ .

بعد ما حول إسرائيل قفاه أمام أعدائه . فيسمع الكنعانيون وجميع سكان الأرض ويحيطون بنا ويقرضون اسمنا من الأرض . وماذا تصنع لاسمك العظيم » .

كلام لا يمكن أن يصدر عن رجل يوحى إليه ، إنه كلام رجل ليس له عزم وليست له ثقة فى ربه ، وإنه نفس ما قيل فى البرية . ألا يزال بنو إسرائيل فى شك من ربهم حتى بعد معجزة عبور الأردن ؟! لقد كان الشك فى قلوب الذين كتبوا الكتاب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

وقاد يشوع بنى إسرائيل لحرب عاى وتظاهر بالهزيمة فخرج جميع رجال عاى فى أثر بنى إسرائيل ، وكان هناك كمين من بنى إسرائيل خلف المدينة فدخل الرجال المدينة وأحرقوها كما أمرهم الرب — بزعمهم — وقتل بنو إسرائيل جميع سكان عاى وصلبوا ملكها . وبنى يشوع مذبحا للرب إلٰه إسرائيل . ويقول الذين كتبوا التوراة إن ذلك المذبح بنى « كما أمر موسى عبد الرب بنى إسرائيل ، كما هو مكتوب فى سفر توراة موسى » . ولا يوجد فى التوراة سفر باسم سفر توارة موسى ولعلهم يقصدون سفر اللاويين فهو السفر الذى وصف الرب لموسى فيه — حسب زعمهم — كيفية بناء المذبح .

« ولما سمع جميع الملوك الذين فى عبر الأردن فى الجبل وفى السهل وفى كل ساحل البحر الكبير إلى جهة لبنان — الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحِوِّيون واللبوسيون — اجتمعوا معا لمحاربة يشوع وإسرائيل بصوت واحد » .

وتنشب حروب بين بنى إسرائيل وبين ملوك المنطقة ، ويرمى الرب أعداء بنى إسرائيل بحجارة عظيمة من السماء ويسلط عليهم البرد ، ثم يكلم يشوع

الزب « يوم أسلم الرب الأموريين أمام بنى إسرائيل وقال أمام عيون إسرائيل : يا شمس دومى على جيعون ويا قمر على وادى أيلون . فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه . أليس ذلك مكتوبا فى سفر يا شر ... » .

وننقب فى التوراة عن سفر ياشر فنكتشف أن ليس له وجود ، فهل كان هناك سفر بهذا الاسم ثم رفع ؟ وماذا كان يحوى ذلك السفر ؟. ومن ذا الذى رفعه ولماذا رفعه ؟ أسئلة ليس لها جواب .

وينطلق يشوع بن نون يفتح المدن ويقتل الرجال ويشعل فى المدن النيران باسم الرب إلٰه إسرائيل : « فلا تكون عليهم رأفة بل يبادوا كما أمر الرب موسى » .

ولا يختلف الإصحاح الثانى عشر من سفر يشوع عن البلاغات الحربية ، فهو يذكر الملوك الذين انتصر عليهم بنو إسرائيل فى تفصيل : « وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع وبنو إسرائيل فى عبر الأردن غربا من بعل جاد فى بقعة لبنان إلى الجبل الأقرع الصاعد إلى سعير ، وأعطاها يشوع لأسباط إسرائيل ميراثا حسب فرقهم . فى الجبل والسهل والعربة والسفوح والبرية والجنوب الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون — ملك أريحا واحد — ملك عاى التى بجانب بيت إيل واحد . ملك أورشليم واحد . ملك حبرون واحد . ملك يرموث واحد . ملك ... » .

أليس هذا بلاغا حربيا وليس بوحى سماوى ، إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا ولا شك يتلذذون وهم يكتبون سفر يشوع ، فالزهو بقوة الآباء ونصر الله يشع من بين السطور . كانوا يحلمون بالمجد التالد ويتمنون لو أن تلك الأيام تعود .

« وشاخ يشوع . تقدم فى الأيام . فقال له الرب : أنت قد شخت . تقدمت فى الأيام » . ولا يعقل بعد هذه المقدمة أن الرب سينسى وعده ، فلا

عمل له فى الأرض إلا تنفيذ ذلك الوعد ، أو هكذا صوره الذين كتبوا التوراة بأيديهم حتى يخيل لقارئ التوراة أنه ليس إلـٰه بنى إسرائيل بل قائدهم الحربى ومؤسس ملكهم بلا سند من عدل وقانون . اسمعه يقول أو إذا أردت الدقة فاسمع بماذا أنطقه الذين كتبوا التوراة فى المنفى : « وقد بقيت أرض كثيرة جدا للامتلاك . هذه هى الأرض الباقية . كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشَّجور الذى هو أمام مصر إلى تخم عقرون شمالا تحسب للكنعانيين أقطاب الفلسطينيين الخمسة : الغزى والأشدودى والأشقلونى والجتى والعقرونى والعويين ، من التيمن كل أرض للكنعانيين ومغارة التى للصيدونيين إلى أفيق إلى تخم الأموريين . وأرض الجِبْليين وكل لبنان نحو شروق الشمس من بعل جاد تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة . جميع سكان الجبل من لبنان إلى مسرفوت مايم جميع الصيدونيين . أنا أطردهم من أمام بنى إسرائيل ، إنما أقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكا كما أمرتك ... » .

لم يكتفوا بأن جعلوا الرب مهندس مساحة بل جعلوه يقسم الأرض بالقرعة ، يستقسم بالأزلام ، سبحان الله عما يصفون .

وإن الذى يقرأ الإصحاح الثالث عشر والإصحاح الرابع عشر والإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع فى إمعان يجد أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد أخذوا حدود المناطق التى نزل بها أسباط بنى إسرائيل وجعلوها أوامر من موسى عليه السلام تلقاها من ربه ، فما من شيء فى إسرائيل حتى بناء المذبح وصنع الفطير وتابوت العهد إلا بأوامر من السماء ، فما أيسر أن يضع أحبار اليهود الكلام على لسان الرب أو يجعلوه يهتم بتوافه الأشياء ، فقد زعموا أن الرب علمهم كل شيء ، حتى كيفية وضع الفطير صفوفا على المذبح !

وينتهى سِفر يشوع بموته ويبدأ سفر القضاة يروى ما كان من بنى يهوذا : « وكان بعد موت يشوع أن بَنى إسرائيل سألوا الرب قائلين من منا يصعد إلى

الكنعانيين أولا لمحاربتهم ؟ فقال الرب : يهوذا يصعد . هو ذا قد دفعت الأرض ليده ... » .

الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا من نسل يهوذا أبى اليهود ، وقد بدءوا فى هذا الإصحاح يلقون الأضواء على يهوذا ليمهدوا لمجده ، فجعلوه أو بمعنى أصح جعلوا بنيه يأخذون أورشليم ، وأور معناها مدينة وشليم معناها سلام ، فهى مدينة السلام أو بيت المقدس . ولم تعرف بهذا الاسم إلا فى عهد سليمان لما بنى الهيكل بها فكيف استخدم الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الاسم قبل أن يولد داود وسليمان ؟! كانوا يكتبون تاريخا لا وحيا يوحى ، فكانوا يقولون مرة إن يشوع دفن فى جبل حارس ، وفى إصحاح آخر يقولون إنه دفن فى جبل سارح . ورووا أكثر من رواية فى سبب تسمية بئر سبع ، وسجلوا أحداثا متناقضة ولا لوم عليهم ولا تثريب ما داموا يكتبون ما حفظته الذاكرة من وقائع ماضية مضت عليها سنون طويلة قبل عصر التدوين .

ويعود ملاك الرب فى الإصحاح الثالث يذكر بنى إسرائيل بما أنعم الله عليهم ، ولكن بنى إسرائيل قد اندمجوا فى الكنعانيين : « واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم . فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ونسوا الرب إلـٰههم وعبدوا البعليم والسوارى ، فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين » .

وبعد ثمانى سنين يتخلص بنو إسرائيل من هذه العبودية ، ولكن ما إن تنقضى أربعون سنة حتى يعودوا إلى الشرك بالله فعبدوا عجلون ملك مؤاب ثمانى عشرة سنة بعد أن هزمهم . إنهم مع الله ما داموا منتصرين أما إذا انهزموا فسرعان ما يعبدون الذى هزمهم ، ولا غرو فهم أهل دنيا لا صلة بينهم وبين الاستشهاد والآخرة وما أعد للمتقين ، فقد زعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى لم يبشروا بالبعث والحياة الآخرة .

وقتل إهود عجلون واستولى بنو إسرائيل على مؤاب واستراحت الأرض ثمانين سنة ، ولعلها قد استراحت من كفرهم وعقوقهم وشرهم .

إنهم لا يستطيعون أن يحافظوا على عبادة الله طويلا فهى عبادة مرتبطة بمنفعة ، فإذا جاءهم النفع عن سبيل آخر فسرعان ما يعبدون الذى جلب لهم النفع أو قهرهم . فبعد أن مات إهود ــ حسب زعمهم ــ عادوا يعملون الشر فى عينى الرب فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان حتى قامت دبورة وكانت قاضية بنى إسرائيل فى ذلك الوقت تدعو إلى الثورة على ملك كنعان ، وخرجت مع الخارجين حتى كان النصر ، فصارت دبورة نبية من أنبياء بنى إسرائيل .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يرضون عن الرب إذا نصرهم ، ويولونه ظهورهم إذا حاقت بهم هزيمة . إنهم جعلوا دبورة وباراق اللذين شاركاها فى الحرب يترنمان بمجد الرب : « لأجل قيادة القواد فى إسرائيل ، لأجل انتداب الشعب باركوا الرب . اسمعوا أيها الملوك وأصغوا أيها العظماء . أنا أنا للرب أترنم ، أزمر للرب إلـٰه إسرائيل . يارب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء أدوم الأرض ارتعدت . السماوات أيضا قطرت . كذلك السحب قطرات ماء . تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إلـٰه إسرائيل » .

ويستمر الذين كتبوا التوراة يصفون فى النشيد ما كان بين بنى إسرائيل وبين الجبابرة والعماليق ، وما انقضى على ذلك النصر أربعون سنة حتى عاد بنو إسرائيل إلى الجهالة فدفعهم الرب ليد مديان سبع سنين . فيقوم رجل يدعوهم إلى الله ويقودهم إلى النصر فيصبح نبيا من أنبياء بنى إسرائيل . فما من رجل أو امرأة يسدى يدا إلى إسرائيل حتى يصبح نبيا يروى فعاله فى التوراة الكُتَّاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله .

وسرعان ما يتنكب بنو إسرائيل طريق الرب ويعبدون بعلا إلـٰـه السوريين : ﴿ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[1] . ونسرد إصحاحات القضاة الحروب التى نشبت بين بنى إسرائيل وملوك فلسطين ، فما سكتت الحرب بينهم أبدا ، فقد كان بنو إسرائيل مغتصبين للأرض وإن أرادوا أن يلبسوا ذلك الاغتصاب ثوبا دينيا ، جعلوا الرب يعدهم بتلك الأرض وأنطقوه فى كل إصحاح من إصحاحات التوراة التى كتبوها بأيديهم بذلك الوعد .

وكان البابليون يذبحون أبناءهم قربانا لآلهتهم ، وقد رأى إبراهيم خليل الرحمن فى المنام أنه يذبح ابنه ، فلما هم بذبحه فداه الله بذبح عظيم ، وقد انقرضت عادة ذبح الأبناء بين المؤمنين ولكن تلك العادة ظلت راسخة فى أذهان الذين كتبوا التوراة ، أو أنها تجددت لما حملوا إلى المنفى ورأوها فى أرض بابل فاستغلوها عند إعادة كتابة التوراة : « فكان روح الرب على يفتاح فعبر جلعاد ومُنسَّى وعبر مصفات جلعاد ومن مصفاة جلعاد عبر إلى بنى عمون ، ونذر يفتاح نذرا للرب قائلا : إن دفعت بني عمون ليدى فالخارج الذى يخرج من أبواب بيتى للقائى عند رجوعي بالسلامة من عند بنى عمون يكون للرب وأصعده محرقة ، ثم عبر يفتاح إلى بنى عمون لمحاربتهم فدفعهم الرب ليده فضربهم من عروعير إلى مجينك إلى منيت : عشرين مدينة وإلى آيل الكروم ضربة عظيمة جدا ، فذل بنو عمون أمام بنى إسرائيل .

ثم أتى يفتاح إلى المصفاة إلى بيته ، وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص وهى وحيدة . لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها ، وكان لما رآها مزق ثيابه وقال : آه يا بنتى قد أحزنتنى حزنا وصرت بين مكدرى لأنى قد فتحت فمى إلى الرب ولا يمكننى الرجوع . فقالت له : يا أبى هل فتحت فاك إلى الرب فافعل بى كما

---

(١) الصافات ١٢٥ ، ١٢٦ .

خرج من فيك بما أن الرب قد انتقم لك من أعدائك بنى عمون . ثم قالت لأبيها : فليُفعل لى هذا الأمر . اتركنى شهرين فأذهب وأنزل على الجبال وأبكى عذراويّتى أنا وصاحباتى . فقال : اذهبى . وأرسلها إلى شهرين فذهبت هى وصاحباتها وبكت عذراويتها على الجبال . وكان عند نهاية الشهرين أنها رجعت إلى أبيها ففعل بها نذره الذى نذر . وهى لم تعرف رجلا . فصارت عادة فى إسرائيل أن بنات إسرائيل يذهبن من سنة إلى سنة لينحن على بنت يفتاح الجلعادى أربعة أيام فى السنة » .

قدماء المصريين يلقون بعذراء كل سنة لإلـٰههم النيل ، والبابليون يقدمون أبكارهم على المذبح قربانا للآلهة ، ويفتاح الجلعادى يحرق ابنته البكر قربانا للرب . إنها أساطير الشعوب قد دسها الذين كتبوا التوراة فى سفر القضاة لكيلا يخلو تاريخ بنى إسرائيل من مأساة عاشها شعب من الشعوب الذين عاشوا بينهم ، أو من حكمة أو لمحة أدبية ، فقد كان هدفهم ألا يكون لشعب من شعوب الأرض فضل يفوق فضلهم ، حتى الجنس أغرقوا توراتهم فيه ليفوق أنبياؤهم عشتار إلـٰهة اللذة البابلية والسورية ، وباسنت إلـٰهة اللذة عند قدماء المصرين .

و لم يكن بنو إسرائيل على وفاق دائما فكثيرا ما كانت تثور حروب بينهم « واجتمع رجال أفرايم وعبروا إلى جهة الشمال وقالوا ليفتاح : لماذا عبرت لمحاربة بنى عمون و لم تدعنا للذهاب معك . نحرق بيتك عليك بنار ، فقال لهم يفتاح : صاحب خصام شديد كنت أنا وشعبى مع بنى عمون وناديتكم فلم تخلصونى من يدهم ، ولما رأيت أنكم لا تخلصون وضعت نفسى فى يدى وعبرت إلى بنى عمون فدفعهم الرب ليدى فلماذا صعدتم على اليوم هذا لمحاربتى ؟

وجمع يفتاح كل رجال جلعاد وحارب أفرايم ، فضرب رجال جلعاد أفرايم

لأنهم قالوا : أنتم منفلتو أفرايم . جلعاد بين أفرايم ومنسَّى . فأخذ الجلعاديون مخاوض الأردن لأفرايم . وكان إذا قال منفلتو أفرايم : دعونى أعبر . كان رجال جلعاد يقولون له : أأنت أفرايمى ؟ فإن قال : لا . كانوا يقولون له : قل إذًا شِبُّولت . فيقول سبولت و لم يتحفظ للفظ بحق ، فكانوا يأخذونه ويذبحونه على مخاوض الأردن . فسقط فى ذلك الوقت من أفرايم إثنان وأربعون ألفا ، وقضى يفتاح لإسرائيل ست سنين ، ومات يفتاح الجلعادى ودفن فى إحدى مدن جلعاد » . « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »[1] .

ويروى الإصحاح الثالث عشر من سفر القضاة ولادة شمشون بعد أن رأت أمه ملاك الرب وبشرها به : « ونزل شمشون إلى تمنة ورأى امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين ، فصعد وأخبر أباه وأمه وقال : قد رأيت امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين ، فالآن خذاها لى امرأة . فقال له أبوه وأمه : أليس فى بنات إخوتك وفى كل شعبى امرأة حتى إنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغُلف ؟ فقال شمشون لأبيه : إياها خذ لى لأنها حسنت فى عينى . و لم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب لأنه كان يطلب علة من الفلسطينيين . وفى ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلطين على إسرائيل » .

هذا القول يستحق سؤال . إن موسى عليه السلام أوصى قومه قبل أن يموت ـــ حسب أقوال الذين كتبوا التوراة ـــ بألا يتزوجوا من الفلسطينيين . فكيف لم يطع شمشون الذى اصطفاه الرب للانتقام من الفلسطينيين أوامر موسى رجل الرب ؟ يقول الذين كتبوا التوراة إن شمشون كان يلتمس بذلك الزواج علة للانتقام من الفلسطينيين ، فمتى كان بنو إسرائيل يلتمسون علة إذا آنسوا فى أنفسهم قوة للبطش بأعدائهم ؟ إن دعوى التماس العلة تتنافى مع

---

(١) الحشر ١٤ .

القول بأن المرأة قد حسنت فى عينى شمشون ، فما دامت قد صادفت هوى فى نفسه فقد طلب الزواج منها استجابة لدواعى الهوى لا لأنه كان يلتمس سببا لإنقاذ بنى إسرائيل من الذل المهين .

« فنزل شمشون وأبوه وأمه إلى تمنة وأتوا إلى كروم تمنة ، وإذا بشبل أسد يزمجر للقائه ، فحل عليه روح الرب فشقه كشق الجدى وليس فى يده شىء . و لم يخبر أباه وأمه بما فعل فنزل وكلم المرأة فحسنت فى عينى شمشون ، ولما رجع بعد أيام لكى يأخذها مال لكى يرى رمة الأسد ، وإذا دبرّ من النحل فى جوف الأسد مع عسل . فاشتار منه على كفه وكان يمشى ويأكل . وذهب إلى أبيه وأمه وأعطاهما فأكلا ، و لم يخبرهما أنه من جوف الأسد اشتار العسل .

ونزل أبوه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان . فلما رأوه أحضروا ثلاثين من الأصحاب فكانوا معه . فقال لهم شمشون : لأحاجينكم أحجية ، فإذا حللتموها لى فى سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . وإن لم تقدروا أن تحلوها لى تعطونى أنتم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب . فقالوا له : حاج أحجيتك فنسمعها . فقال لهم : « من الآكل خرج أكل ، ومن الجافى خرجت حلاوة » .

ألا تذكرك هذه الأحجية بافتتاح مسرحية أوديب ؟ إن بنى إسرائيل كانوا على صلة بأدب اليونان والرومان أن كانوا فى المنفى . إنهم قرءوا ولا ريب الأدب اليونانى والرومانى وقد اطلعوا على حكم الشيخ اليونانى ورموزه وأمثاله فقلدوها وقلدوا « الاسفنكس » فى مسرحية أوديب ، وإن الأسلوب الذى كتب به الذين كتبوا التوراة لما قصوا قصة شمشون لا يختلف عن أسلوب ألف ليلة وليلة : « فلم يستطيعوا أن يحلوا الأحجية فى ثلاثة أيام ، وكان فى اليوم السابع أنهم قالوا لا مرأة شمشون : تملقى رجلك لكى يظهر لنا الأحجية لئلا

تحرقك وبيت أبيك بنار . ألتسلبونا دعوتمونا أم لا ؟ » . أليس الحق فى جانبهم ؟ أيعقل أن نبيا اصطفاه الله يقامر ببعض رموز مستغلا حادثا قد وقع له لا علم لأحد به ؟ : « فبكت امرأة شمشون لديه وقالت : إنما كرهتنى ولا تحبنى ، قد حاجيت بنى شعبى أحجية وإياى لم تخبر . فقال لها : هو ذا أبى وأمى لم أخبرهما فهل إياك أخبر ؟! فبكت لديه السبعة الأيام التى فيها كانت الوليمة ، وكان فى اليوم السابع أنه أخبرها لأنها ضايقته فأظهرت الأحجية لبنى شعبها . فقال له رجال المدينة فى اليوم قبل غروب الشمس أى شىء أحلى من العسل وما أجفى من الأسد ... » .

ولننظر الآن ماذا فعل الرجل الذى اصطفاه الرب : « ... وأمسك ثلاثمائة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنبا إلى ذنب ووضع مشعلا بين كل ذنبين فى الوسط ، ثم أضرم المشاعل نارا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون ... » .

وأحب شمشون دليلة وعرفت أن سر قوته فى شعره ، لأن الموسى لم تمسه فهو نذير الله . وتخون دليلة حبيبها وتقص شعره ، ومن عجب أن الله يفارقه كأنما كانت الروح تسرى فى شعره ، فأخذه الفلسطينيون وسملوا عينيه ووضعوه فى السجن . وذات يوم بينما كانوا يلعبون فى الملعب أتوا بشمشون ليسخروا منه ، فلما توسط المكان قال للغلام الذى كان يقوده : دعنى ألمس الأعمدة التى يقوم عليها البيت ، وكان البيت مملوءا رجالا ونساء ، وكان هناك جميع أقطاب الفلسطينيين وعلى السطح نحو ثلاثة آلاف رجل وامرأة .

وقبض شمشون على العمودين اللذين كان البيت قائما عليهما وقال : لتمت نفسى مع الفلسطينيين . وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته .

قصة طريفة مأخوذة من الأدب الإسرائيلى ولكنها لا يمكن أن تكون وحيا ، فلا يعقل أن الرب يروى فى بساطة أن شمشون لما ذهب إلى غزة رأى هناك امرأة زانية فدخل إليها ، ولا يمكن أن نتصور أن الرب يقص قصة لا تخرج منها البشرية بعبرة . إن شمشون لم يضع موسى على رأسه لأنه نذر للرب فهل كل من يطلق شعره وينذر للرب يكون مثل شمشون ؟ إنها قصة من خيال الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد أن قرءوا قصص جلجاميش البابلية ومغامرات آلهة بابل وأساطير أبطالها .

ونترك إصحاحات سفر القضاة وما فيها من أقاصيص والتأرجح بين غضب الرب ورضاه وسفر راعوث ، ولا أدرى حكمة سرد قصتها فى التوراة غير أنها أنجبت عوبيد وهو أبو يسَّى ويسى أبو داود وداود فى نظر الذين كتبوا التوراة فى المنفى هو أول ملك من نسل يهوذا ، وإنه لشىء عظيم عند الذين كتبوا التوراة أن يكون ملكا من أن يكون نبيا ، فما أكثر الأنبياء فى بنى إسرائيل وما أعظم الملوك ما دامت جنتهم أرضية .

ونقرأ معا سفر صموئيل الأول فنعلم أن الرب بعد أن كان إلـٰه إسرائيل أصبح رب الجنود ، وأن ألقانة بن يَرُوحام بن أليهو بن تُوحَوَ بن صوف له امرأتان إحداهما حنة والأخرى فنِنَّة ، وأن لفننة أولادا أما حنة فلم يرزقها الله الولد ، فابتهلت إلى الرب وقالت : « يا رب الجنود إن نظرت نظرا إلى مذلة أمتِك وذكرتنى و لم تنس أمتك بل أعطيت أمتك زرع بشر فإنى أعطيه للرب كل أيام حياته ، ولا يعلو رأسه موسى » . ووضعت حنة ذكرا ودعتـه صموئيل ، « قائلة لأنى من الرب سألته » .

وبعد أن فطمت حنة صموئيل قدمت للرب ثلاثة ثيران ودقيقا وزق خمر ، ووهبت صموئيل للمعبد ، وكان عالى كاهن المعبد وكان أبناؤه يأخذون لحوم الذبائح ولا يحرقون الشحم للرب : « وشاخ عالى جدا وسمع بكل ما عمله

بنوه بجميع إسرائيل وأنهم كانوا يضاجعون النساء المجتمعات فى باب خيمة الاجتماع » ، وكان صموئيل يعبد الرب وينام مع الكاهن فى المعبد . وذات يوم ناداه الرب ثلاث مرات وهو يحسب أن الكاهن عالى يناديه فيذهب إليه ، فيقول له عالى : « لم أدع يا بنى ، ارجع اضطجع . وعاد الرب فدعا صموئيل ثالثة . فقام وذهب إلى عالى وقال هأنذا لأنك دعوتنى . ففهم عالى أن الرب يدعو الصبى ، فقال عالى لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع . فذهب صموئيل واضطجع فى مكانه .

فجاء الرب ووقف ودعا كالمرات الأولى : صموئيل صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع . فقال الرب لصموئيل : هو ذا أنا فاعل أمرا فى إسرائيل . كل من سمع به تطن أذناه . فى ذلك اليوم أقيم على عالى كل ما تكلمت به على بيته . ابتدىء وأكمل . وقد أخبرته بأنى أقضى على بيته إلى الأبد من أجل الشر الذى يعلم أن بنيه قد أوجبوا به اللعنة على أنفسهم و لم يردعهم ، ولذلك أقسمت لبيت عالى أنه لا يكفر عن شر بيت عالى بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد » .

الرب يقف كما يقف الإنسان وينادى على النائم ويغفر الذنوب لا بتوبة نصوح بل بذبيحة ، وهو يقبل الخمر ، فما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون . « واضطجع صموئيل إلى الصباح وفتح أبواب بيت الرب ، وخاف صموئيل أن يخبر عالى بالرؤيا فدعا عالى صموئيل وقال : يا صموئيل ابنى . فقال : هأنذا . فقال : ما الكلام الذى كلمك به ؟ لا تخف عنى » . وأخبر صموئيل عالى بما أوحى إليه ، وكبر صموئيل وكان الرب معه ، وعرف جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع أن صموئيل صار نبيا للرب . ونشبت الحرب بين الفلسطينيين وبين إسرائيل ، وانكسرت إسرائيل :

« وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين ؟ لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل فى وسطنا ويخلصنا من أعدائنا ، فأرسل الشعب إلى شيلوه وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود ... » .

أصبحت إسرائيل فى أرض اللبن والعسل كما يقول الذين كتبوا التوراة ، فأصبحوا فى غنى عن الرب الرازق ، ولكنهم كانوا فى حرب على الدوام مع الفلسطينيين ، فهم فى حاجة إلى رب ينصرهم على أعدائهم ، فأصبح الرب رب الجنود فهم فى غنى عنه فى كل شيء إلا الحرب .

ودارت الحرب وتابوت عهد الرب مع الإسرائيليين ، وعلى الرغم من ذلك : « انكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته » وكانت الضربة عظيمة جدا وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف رجل ، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالى حفنى وفينحاص » .

ومات عالى لما سمع أن تابوت العهد قد أخذه الفلسطينيون ، ووجمت إسرائيل وقالوا : « قد زال المجد من إسرائيل » .

انهزمت إسرائيل ولكن تابوت العهد الذى وضع فى أشدود انتقم من الأشدوديين ونقل التابوت إلى جت ، فأصاب أهالى جت بالبواسير كما فعل بأهالى أشدود ، فأرسل التابوت إلى عقرون ففزع منه الناس ، خافوا أن يذوقوا الموت بسببه وقد ضربوا بالبواسير ، فأفتى الكهنة والعرافون برد التابوت ورشوة إلٰه إسرائيل بذهب ، ففعلوا ذلك ، ففرح إسرائيل برد تابوت الرب ، ولا شك أن فرحهم كان أكبر بالصندوق الذى ملىء ذهبا .

أيعقل إن إسرائيل وتابوت العهد يحاربون وينهزمون ثم ينتصر تابوت العهد وحده على الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه بلا حرب إلى إسرائيل بعد سبعة أشهر ؟! أيمكن أن يصدق مؤمن أن هذا وحى الله ؟ إن الله ينصر من ينصره وما كان ليحارب عن قوم يأتون النساء على باب بيته ، على باب خيمة

الاجتماع ، ولكنها أحلام الذين كتبوا التوراة فى المنفى .

وكان بنو إسرائيل يعبدون بعلا وعشتار فقال لهم صموئيل : إن كنتم بكل قلوبكم راجعين إلى الرب فانزعوا الآلهة الغربية والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده ، فينقذكم من يد الفلسطينيين . فنزع بنو إسرائيل البعليم والعشتاروت وعبدوا الرب وحده » .

وانتصر صموئيل على الفلسطينيين واستعاد المدن التى أخذها الفلسطينيون من إسرائيل ، ولولا ذلك النصر لما كان لصموئيل ذكر فى التوراة ، فكل من انتصر على الفلسطينيين جعلوه نبيا يقضى بين بنى إسرائيل .

وكان لما شاخ صموئيل أن جعل بنيه قضاة لإسرائيل ، وأخذ ابناه الرشوة ولم يحكما بالعدل فجاء شيوخ إسرائيل إلى صموئيل وقالوا له : « هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا فى طريقك . فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب . فساء الأمر فى عينى صموئيل إذ قالوا أعطنا ملكا يقضى لنا ، وصلى صموئيل إلى الرب فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوت الشعب فى كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياى رفضوا حتى لا أملك عليهم ، حسب كل أعمالهم التى عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركونى وعبدوا آلهة أخرى . هكذا هم عاملون بك أيضا . فالآن اسمع لصوتهم ، ولكن اشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذى يملك عليهم .

فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب ، وقال : هذا يكون قضاء الملك الذى عليكم ، يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبّازات ، ويأخذ حقولكم وكرمكم

وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطى لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملكم لشغله . ويُعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا ، فتصرخون فى ذلك اليوم من وجه ملككم الذى أخذتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب فى ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا : لا بل يكون علينا ملك . فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا . فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به فى أذنى الرب . فقال الرب لصموئيل : اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا . فقال صموئيل لرجال إسرائيل اذهبوا كل واحد إلى مدينته » . .

أليس أمر إسرائيل عجبا ؟! تابوت الرب يحارب وحده الفلسطينيين ويرغمهم على أن يعيدوه إلى أعدائهم ثم يطلب بنو إسرائيل ملكا ليخرج أمامهم ويحارب حروبهم ؟ وهل يستطيع ذلك الملك أن يفعل أكثر مما فعل تابوت العهد ؟ وإذا وقع ذلك الملك فى الأسر أيستطيع وحده أن يضرب الفلسطينيين وأن يرغمهم على أن يعيدوه ومعه صندوق ملىء ذهبا ؟! إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عاجزون عن صياغة قصة محبوكة تقود مقدماتها إلى نتائجها الطبيعية ، وإنهم جاهلون ماهية الرب وقدرته ، فقد جعلوا صموئيل يسمع كلام الشعب ويتكلم به فى أذنى الرب ، كأنما الرب فى حاجة إلى من ينقل إليه كلام الناس : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إن الله بكل شىء عليم »[1] .

كان النبى يدعى الرائى ، وقد وقع اختيار صموئيل الرائى بوحى من الله على

---

(١) المجادلة ٧ .

شاؤل ، فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس شاؤل وقبله « واستدعى صموئيل الشعب إلى الرب إلى المصفاة وقال لبنى إسرائيل : هكذا يقول الرب إلـٰه إسرائيل : إنى أصعدت إسرائيل من مصر وأنقذتكم من يد المصريين ومن يد جميع الممالك التى ضايقتكم ، وأنتم قد رفضتم اليوم إلـٰهكم الذى هو مخلصكم من جميع الذين يسيئون إليكم ويضايقونكم وقلتم له بل تجعل علينا ملكا ، فالآن امثلوا أمام الرب حسب أسباطكم وألوفكم . فقدم صموئيل جميع أسباط إسرائيل فأخذ سبط بنيامين ثم قدّم سبط بنيامين حسب عشائره فأخذت عشيرة مطرى وأخذ شاؤل بن قيس ، ففتشوا عليه فلم يوجد ، فسألوا أيضا من الرب هل يأتى الرجل أيضا إلى هنا ؟ فقال الرب : هو ذا قد اختبأ بين الأمتعة . فركضوا وأخذوه من هناك فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق . فقال صموئيل لجميع الشعب : أرأيتم الذى اختاره الرب لكم ؟ إنه ليس مثله فى جميع الشعب . فهتف كل الشعب وقالوا : ليحيى الملك . فكلم صموئيل الشعب بقضاء المملكة وكتبه فى السفر ووضعه أمام الرب ... » .

والله إنه لشىء محير . بنو إسرائيل يرفضون إلـٰههم ويطلبون ملكا ، فيستجيب لهم الإلـٰه المرفوض ويختار لهم ذلك الملك ويعاون على اختياره نبى الله صموئيل ! هل يعقل أن نبيا يطيع قومه فى معصية وياليتها معصية عادية ، إنها رفض حكم الله والتماس ملك أرضى يقضى بينهم . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى يتلهفون على ملك يعيدهم إلى أرض فلسطين فأساءوا الأدب مع ربهم ، ما دام ذلك الرب لا يحملهم إلى الأرض التى يطمعون فيها .

وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر صموئيل الأول بداية التفريق بين بنى إسرائيل ورجال يهوذا وإن كان ذلك التفريق سابقا لأوانه ، فلم يشتد ساعد اليهود وهم بنو يهوذا إلا بعد أن صار الملك لداود ولابنه سليمان من بعده ، فإنه

لما أوشكت الحرب تنشب بين أهل عمان وبنى إسرائيل .. « فوقع رعب الرب على الشعب ، فخرجوا كرجل واحد وعدهم (شاول) فى بازق فكان بنو إسرائيل ثلاثمائة ألف ورجال يهوذا ثلاثين ألفا » .

وانتصر صموئيل وشاول على أعداء بنى إسرائيل ، ونصب شاول ملكا على إسرائيل وصار مسيح الرب « وأخذ شاول الملك على بنى إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه مؤاب وبنى عمون وأدوم وملوك صوبة والفلسطينيين ، وحيث توجه غلب » .

وقال الذين كتبوا التوراة إن رب الجنود أمر شاول أن يحارب العماليق وأن يقتل رجالهم ونساءهم ، فخرج شاول فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف رجل من يهوذا ، فقتل كل الرجال واستحيى كل ما هو جيد من الغنم والبقر والخراف ، وقتل كل ما هو هزيل وحقير .

وقد بلغ الذين كتبوا التوراة منتهى السفاهة لما كتبوا : « وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلا : ندمت على أنى قد جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائى ولم يُقم كلامى ، فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله » . علام الغيوب يندم على أنه اختار شاول ملكا ، عالم الغيب والشهادة لم يكن يعرف سريرة الرجل الذى اختاره لملك إسرائيل . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى تخبطوا تخبطا أعمى عندما كتبوا سفر صموئيل الأول ، جعلوا الرب مع علمه أن بنى إسرائيل يرفضون حكمه ويلتمسون حكم ملك يختار ذلك الملك ويأمر نبيه أن يمسحه ثم يعود ويندم على اختياره لذلك الملك .

صورة مضطربة لا تستقيم لمنطق ، ونقائص تنسب إلى رب العزة سبحانه وتعالى عما يصفون . أفليس لهم قلوب يبصرون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

ويذهب صموئيل بأمر الرب إلى بيت لحم وهو يرتجف من شاول ، ويزعم

أنه ذاهب ليذبح للرب بينا كان منطلقا ليمسح غلاما من أبناء يسّى . وعرض يسى أبناءه على صموئيل فرفضهم جميعا ، وسأل عما إذا كانوا قد كملوا فقال يسى : « بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم . فقال صموئيل ليسى : أرسل وأت به ، لأننا لا نجلس حتى يأتى إلى هنا . فأرسل وأتى به ، وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر ، فقال الرب : قم امسحه لأن هذا هو . فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه فى وسط إخوته . وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعدا ، ثم قام صموئيل وذهب إلى الرامة .

وذهب روح الرب من عند شاول وبغته روح ردىء من قبل الرب !

(هذا كلام الذين كتبوا التوراة بأيديهم) .

فقال عبيد شاول له : هو ذا روح ردىء من قبل الله يبغتك . فليأمر سيدنا عبيده قدامه أن يفتشوا على رجل يحسن الضرب بالعود ويكون إذا كان عليك الروح الردىء من قبل الله أنه يضرب بيده فتطيب .

(أهذا وحى أم كلام كهان أم كدية زار ؟) .

فقال شاول لعبيده : انظروا لى رجلا يحسن الضرب وأتوا به إلىّ . فأجاب واحد من الغلمان وقال : هو ذا قد رأيت ابنا ليسى البتلحمى يحسن الضرب ، وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . فأرسل شاول رسلا إلى يسى يقول : أرسل إلى داود ابنك الذى مع الغنم . فأخذ يسى حمارا حاملا خبزا وزق خمر وجدى معزى وأرسلهما بيد داود ابنه إلى شاول .. فجاء داود إلى شاول ووقف أمامه فأحبه جدا وكان له حامل سلاح . فأرسل شاول إلى يسى يقول : ليقف داود أمامى لأنه وجد نعمة فى عينى . وكان عندما جاء الروح من قبل الله على شاول أن داود أخذ العود وضرب بيده فكان يرتاح شاول ويطيب ويذهب عنه الروح الردىء » .

أهذه وظيفة رجل الرب معه ؟! وهل إذا أراد الله بشاول سوءا يستطيع عود

داود أن يرده عنه ؟ إن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بأساطير بابل وبالأرواح الشريرة التى كانت تطرد بالبخور وبالأغانى والأناشيد . ومن أين عرف عبيد شاول أن روحا شريرة من قبل الرب قد حلت به ؟.

ووقف جيش شاول على جبل ووقف جيش الفلسطينيين على جبل والوادى بينهم ، « فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جلياث من جت طوله ست أذرع وشبر ، وعلى رأسه خوذة من نحاس ، وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس ، وجرموقا نحاس على رجليه ، ومزراق نحاس بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين ، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد ، وحامل الترس كان يمشى قدامه . فوقف ونادى صفوف إسرائيل وقال لهم : لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب ؟ أما أنا الفلسطينى وأنتم عبيد لشاول . اختاروا لأنفسكم رجلا ولينزل إلى فإن قدر أن يحاربنى ويقتلنى نصير لكم عبيدا . وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون أنتم لنا عبيدا وتخدموننا .

ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى هذا ارتاعوا وخافوا جدا .

وكان الفلسطينى يتقدم ويقف صباحا ومساء أربعين يوما ، فقال يسى لداود ابنه : خذ لإخوتك (وكانوا ثلاثة فى جيش شاول) إيفة من هذا الفريك وهذه العشر خبزات واركض إلى المحلة إلى إخوتك . وهذه العشر القطعات من الخبز قدمها لرئيس الألف وافتقد سلامة إخوتك وخذ منهم عربونا . وكان شاول وهم وجميع رجال إسرائيل فى وادى البطم يحاربون الفلسطينيين .

فبكر داود صباحا وترك الغنم مع حارس وحمل وذهب كما أمر يسى وأتى إلى المتراس والجيش بخارج إلى الاصطفاف وهتفوا للحرب . واصطف

إسرائيل والفلسطينيون صفا مقابل صف . فترك داود الأمتعة التى معه بيد حافظ الأمتعة وركض إلى الصف وأتى وسأل عن سلامة إخوته . وفيما هو يتكلم إذا برجل مبارز اسمه جلياث الفلسطينى من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود . وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جدا فقال رجال إسرائيل : أرأيتم هذا الرجل الصاعد ليعيِّر إسرائيل هو صاعد ، فيكون أن الرجل الذى يقتله يغنيه الملك غنى جزيلا . ويعطيه بنته ويجعل بيت أبيه حرا فى اسرائيل » .

ويضرب داود جلياث بالمقلاع : « ومد داود يده إلى الجراب وأخذ منه حجرا ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطينى فى جبهته فسقط على وجهه ، فأسرع داود إليه فقتله » .

وإن قارئ هذه القصة ليقف حائرا يتساءل : ألم يأخذ شاول داود ليضرب له بالعود ؟ فكيف عاد إلى رعى غنم أبيه ؟ وهل كان داود غلاما أو رجلا لما قتل جلياث ؟ فشاول يقول له : لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطينى لتحاربه لأنك غلام ، بينا يقول غلام شاول لما كلمه عن داود : وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه . إن قارئ التوراة كثيرا ما تنتابه حيرة ويتساءل : هل يكتب التوراة أكثر من كاتب ؟ إن كل الدلائل تدل على أن أكثر من واحد قد اشتركوا فى كتابتها وإلا لما وجدت المتناقضات التى تفيض بها التوراة .

إن القرآن الكريم قد روى هذه القصة ، فشاول هو طالوت وجلياث هو جالوت ، وإن عبارات القرآن تنبض بالحياة وتشع إيمانا : « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم

والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، قالوا أنّى يكون له المُلك علينا ونحن أحق بالمُلك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إنّ فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله المُلك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين »[1] .

قتل داود جلياث ، ومع أن داود كان يضرب العود لشاول فإن الذين كتبوا التوراة ينسون ذلك فيقولون عند عودة داود برأس جلياث : « فقال له شاول : ابن من أنت يا غلام ؟ فقال : داود بن عبدك يسى البتلحمى » . عجيب أمر شاول أو عجيب أمر الذين كتبوا التوراة . أنسى شاول الخبز وزق الخمر والجدى كل هذه الأشياء التى حملها داود معه هدية للملك يوم جاءه ليضرب العود ليطرد الروح الشريرة التى كانت تحل به من قبل الرب ؟! ألم يحبه جدا وكان له حامل سلاح ؟! فكيف نسيه وكيف يسأل عنه !

وكعادة كتاب التوراة جعلوا الغدر شيمة الأنبياء ، فقد خرجت النساء من جميع مدن إسرائيل يرقصن احتفالا بالنصر وارتفعت أصواتهن بالغناء . فكان

---

(١) البقرة ٢٤٦ — ٢٥١ .

مديحهن لداود يفوق مديحهن لشاول ، فحقد شاول على داود : « وقال شاول لداود : هو ذا ابنتى الكبيرة مَيرب أعطيك إياها امرأة . إنما كن لى ذا بأس وحارب حروب الرب ، فإن شاول قال لا تكن يدى عليه . بل لتكن عليه يد الفلسطينيين ، فقال داود لشاول : من أنا وما هى حياتى وعشيرة أبى فى إسرائيل حتى أكون صهر الملك ؟ » .

و لم يتزوج داود ميرب وأحبت ميكال ابنة شاول داود : « فأخبروا شاول فحسن الأمر فى عينيه ، وقال شاول : أعطيه إياها فتكون له شركا وتكون يد الفلسطينيين عليه . وقال شاول لداود ثانية تصاهرنى اليوم » . وكان مهر داود مائة غلفة من الفلسطينيين أعداء الملك « وكان شاول يتفكر أن يوقع داود بيد الفلسطينيين » . فخرج داود ورجاله لقتال الفلسطينيين فقتل منهم مائتى رجل ، وأتى داود بغلفهم وتزوج ميكال .

يقول كتاب التوراة فى الإصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الأول ، إن أحد غلمان الملك قال له وهو يحدثه عن داود : « قد رأيت ابنًا ليسى البتلحمى يحسن الضرب وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه » . ثم يعودون ليقولوا فى الإصحاح الثامن عشر : «وكان شاول يخاف داود لأن الرب كان معه » . ولما قتل داود مائتين من الفلسطينيين قالوا : « فرأى شاول وعلم أن الرب مع داود .. وعاد شاول يخاف داود بعد وصار شاول عدوا لداود كل الأيام » . لقد علم شاول ثلاث مرات أن الرب مع داود فكيف خطر له على قلب أن الرب يتخلى عن رجله ويتركه لأعدائه الغلف يقتلونه تنفيذا لرغبة ملك حقود ! شتان بين شاول فى التوراة وطالوت فى القرآن المجيد . فشاول التوراة اصطفاه الرب وهو كاره لذلك الاصطفاء ثم ندم على أن جعله ملكا على إسرائيل ، أما طالوت فى القرآن فقد اصطفاه الله على

علم والله يعطى ملكه من يشاء وقد زاده بسطة فى العلم والجسم ، وآية علمه أنه لما هم بقتال الأعداء عرف أين يتوجه ومن يدعو فوقف هو ورجاله المؤمنون يدعون ربهم : « ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين »(١) .

كانت أفئدة الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد ملئت حقدا على كل شىء ، فانعكس ذلك الحقد على كل ما كتبوه فإذا بتصرفات الملوك الذين اصطفاهم الله بل والأنبياء الذين بعثوا لهداية البشر تنبض بالحقد بل بالخسة فى كثير من الأحيان .

« وكلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود ، وأما يوناثان بن شاول فسر بداود جدا ، فأخبر يوناثان داود قائلا : شاول أبى ملتمس قتلك ، والآن فاحتفظ على نفسك إلى الصباح وأقم فى خفية واختبئ ، وأنا أخرج وأقف بجانب أبى فى الحقل الذى أنت فيه وأكلم أبى عنك وأرى ماذا يصير وأخبرك ، وتكلم يوناثان عن داود حسنا مع شاول أبيه وقال له : لا يخطئ الملك إلى عبده داود لأنه لم يخطئ إليك ، ولأن أعماله حسنة لك جدا فإنه وضع نفسه بيده وقتل الفلسطينى فصنع الرب خلاصا عظيما لجميع إسرائيل . أنت رأيت وفرحت فلماذا تخطئ إلى دم برىء بقتل داود بلا سبب ؟ فسمع شاول لصوت يوناثان وحلف شاول : حى هو الرب لا يقتل . فدعا يوناثان داود وأخبره يوناثان بجميع هذا الكلام ، ثم جاء يوناثان بداود إلى شاول فكان أمامه كأمس وما قبله .

وعادت الحرب تحدث فخرج داود وحارب الفلسطينيين وضربهم ضربة عظيمة فهربوا من أمامه . وكان الروح الردىء من قبل الرب على شاول وهو

---

(١) البقرة ٢٥٠ .

جالس فى بيته ورمحه بيده . وكان داود يضرب بالعود فالتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى إلى الحائط ، ففر من أمام شاول فضرب بالرمح إلى الحائط . فهرب داود ونجا تلك الليلة . فأرسل شاول رسلا إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه فى الصباح . فأخبرت داودَ ميكالُ امرأته قائلة : إن كنت لا تنجو بنفسك هذه الليلة فإنك تقتل غدا . فأنزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا » .

« فهرب داود ونجا وجاء إلى صموئيل فى الرامة واخبره بكل ما عمل به شاول ، وذهب هو وصموئيل وأقاما فى نايوت . فأخبر شاول وقيل له : هو ذا داود فى نايوت فى الرامة . فأرسل شاول رسلا لأخذ داود ، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبئون وصموئيل واقفا رئيسا عليهم كان روح الله على رسل شاول فتنبئوا هم أيضا ، وأخبروا شاول فأرسل رسلا آخرين فتنبئوا هم أيضا ، ثم عاد شاول فأرسل رسلا ثالثة فتنبئوا هم أيضا ، فذهب هو أيضا إلى الرامة وجاء إلى البئر العظيمة التى عند سيخو وسأل وقال : أين صموئيل وداود ؟ فقيل ها هما فى نايوت فى الرامة . فذهب إلى هناك إلى نايوت فى الرامة فكان عليه أيضا روح الله فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت فى الرامة . فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانطرح عريانا ذلك النهار كله وكل الليل ، لذلك يقولون : إن شاول أيضا بين الأنبياء » .

أكانت النبوة عدوى حتى إن كل من يقترب من صموئيل يتنبأ وتحل عليه روح الله ؟ أم كانت النبوة فى نظر الذين كتبوا التوراة الانقطاع للعبادة ؟ وإن كان شاول من الأنبياء أتليق الأفعال التى نسبوها إليه بنبى ؟ وإذا كانت روح الله عليه فلماذا ندم الرب لأنه اصطفاه ملكا لبنى إسرائيل ؟ إنها أقاويل كهان اهتزت فى أذهانهم صفات الله تعالى لما اختلطت بصفات آلهة البابليين وقدماء

المصريين وما وصل إليهم من صفات آلهة اليونان والرومان ، فقد كانوا فى بابل فى تلك العهود الساسانية التى تسربت فيها الآداب اليونانية والرومانية إلى العراق وإيران .

وعلى الرغم من أن شاول قد تنبأ — على زعم الذين كتبوا التوراة — فإن قلبه لم يبرأ من عداوة داود . إنه يريد قتله ، فيرسل يوناثان إلى داود أن يهرب من وجه أبيه فيفر داود إلى أخيمالك الكاهن ، ثم إلى أخيش ملك جت . فلما يحس بالخطر يتظاهر بالجنون أمام الملك ، ثم يلجأ إلى مغارة « فلما سمع إخوته وجميع بيت أبيه نزلوا إليه هناك واجتمع إليه كل رجل متضايق وكل من كان عليه دين وكل رجل مر النفس فكان عليهم رئيسا ، وكان معه نحو أربعمائة رجل .. » .

شاول — على رأى الذين كتبوا التوراة — كان نبيا ، وكان داود نبيا ، فهل يمكن أن نتصور أن نبيين أرسلهما الله يتنازعان السلطة الأرضية ؟ وهل ذلك النزاع الذى شب بين النبيين يمكن أن يكون قدوة للبشر ؟ إن شاول زوّج داود ابنته ولم تكن نيته خالصة فلم يزوجه إياها لأنه داود النبى . وما أراد بذلك الزواج وجه الله أو حتى وجه يهوه ، بل أراد بذلك الزواج أن يكون داود فى قبضة يده يسحقه أنَّى شاء . إنها أخلاق أنبياء بنى إسرائيل كما تصورها الذين كتبوا التوراة فى المنفى .

وراح شاول يتتبع داود : « ... وكان هناك كهف فدخل شاول لكى يغطى رجليه ، وداود ورجاله كانوا جلوسا فى مغابن الكهف ، فقال رجال داود له : هو ذا اليوم الذى قال لك عنه الرب : هأنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن فى عينيك ، فقام داود وقطع طرف جبة شاول سرا ، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعه طرف جبة شاول . فقال لرجاله : حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى مسيح الرب فأمد يدى إليه لأنه

مسيح الرب هو . فوبخ داود رجاله بالكلام و لم يدعهم يقومون على شاول . وأما شاول فقام من الكهف وذهب فى طريقه ، ثم قام داود بعد ذلك وخرج من الكهف ونادى شاول قائلا : يا سيدى الملك . ولما التفت شاول إلى ورائه خر داود على وجهه إلى الأرض وسجد . وقال داود لشاول : لماذا تسمع كلام الناس ... ؟ » . داود النبى يخر ساجدا لبشر بينا دحية الكلبى لما أرسله رسول الله — ﷺ — إلى هرقل بكتاب وأشاروا عليه أن يسجد لقيصر أبى وقال : لا أسجد إلا لله . إن داود لم يخر ساجدا لشاول ولا ريب ولكنها خيالات الذين كتبوا التوراة فى المنفى الذين كانوا يخرون سجّدا لقورش ودارا وأخشويروش وكل أكاسرة الفرس الذين أحسنوا إليهم بعد أن علمهم « زرادشت » احترام أهل الكتاب .

وقال شاول لداود : أنت أبر منى . لأن داود أتيحت له فرصة القضاء على شاول ولكنه لم يفعل ، ولم يكن هم شاول إلا الدنيا فقد التمس من داود أن لا ينقطع نسله من بعده ولا يبيد اسمه من بيت أبيه . ومات شاول وقام داود ونزل إلى برية فاران .

وتزوج داود أبيجايل ، امرأة رجل أراد أن يؤدبه داود ولكن أبيجايل خرجت تستعطف داود فقبل شفاعتها ، وبعد أن مات زوجها أرسل إليها رسله يعرض عليها الزواج فتهللت بالفرح وخرجت إليه . ثم اتخذ داود امرأة أخرى زوجة و لم يحرك تعدد أزواج داود أقلام المستشرقين الحاقدين على الإسلام ونبى الإسلام ، فما كتب أحد منهم حرفا واحدا ينتقد أنبياء التوراة الذين أسرفوا فى عدد الزيجات وإن سودوا الصفحات لانتقاد نبى الإسلام الذى جاء ليحدد الزواج الذى كان بلا حدود ، فما كانوا يقصدون وجه الحقيقة وما كانوا محايدين كما يحاولون أن يوهموا الناس على الدوام ، بل كان الغرض يملأ عقولهم والحقد يفيض فى أفئدتهم والافتراء يتدفق من أسنة أقلامهم ، فهم

ألد الخصام .

وجعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى نبيهم شاول يستعين بالجان ويحضر صموئيل الذى مات : « ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل شاول من الرب فلم يجبه لا بالأحلام ولا بالأوريم ولا بالأنبياء ، فقال شاول لعبيده : فتشوا لى على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها . فقال له عبيده : هو ذا امرأة صاحبة جان فى عين دور . فتنكر شاول ولبس ثيابا أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا إلى المرأة ليلا وقال : اعرفى لى بالجان وأصعدى لى من أقول لك . فقالت له المرأة : هو ذا أنت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض ، فلماذا تصنع شركا لنفسى لتميتها ؟ فحلف لها شاول بالرب قائلا : حى هو الرب إنه لا يلحقك إثم فى هذا الأمر . فقالت المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدى إلىّ صموئيل . فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة شاول قائلة : لماذا خدعتنى وأنت شاول ؟ فقال لها الملك : لا تخافى فماذا رأيت ؟ فقالت المرأة لشاول : رأيت آلهة يصعدون من الأرض . فقال لها : ما هى صورته ؟ فقالت : رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة . فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد . فقال صموئيل لشاول : لماذا أقلقتنى بإصعادك إياى ؟ فقال شاول : لقد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى و لم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع . فقال صموئيل : ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ؟ وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدى وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود . لأنك لم تسمع لصوت الرب و لم تفعل حُمُوَّ غضبه فى عماليق ، لذلك قد فعل الرب بك هذا الأمر اليوم ... » .

ألا يذكرك الاستعانة بالجن لإقامة الميت من قبره بحكايات ألف ليلة

وليلة ؟! وألا يحيرك أمر شاول ؟ إن الله اصطفاه ملكا لبنى إسرائيل ثم ندم على ذلك ، ثم عاد وجعله نبيا ثم فارقه وعاداه ! أيمكن أن يختار الرب نبيا ثم يعزله ؟! إن قصة شاول كما رواها الذين كتبوا التوراة بأيديهم إن دلت على شيء فإنما تدل على أن إلـٰه إسرائيل لا يعلم الغيب وأنه يتخبط فى اختيار أنبيائه وأنه يصطفى بعضهم دون علم ، فإذا نطقوا بهوى نفوسهم طردهم من رحمته وناصبهم العداء .

إنهم تصوروا إلـٰه إسرائيل كملك أرضى من الملوك الذين عاشوا بالقرب منهم يقدمون إليهم بنات اليهود الجميلات ، إنه يختار ثم يتضح له سوء اختياره فيندم ثم يصب جام غضبه على من وقع عليه الاختيار .

لماذا حقد الذين كتبوا التوراة على شاول ؟ لأنه قد هزم من الفلسطينيين . إنهم يجعلون كل من انتصر منهم على الفلسطينيين نبيا ، أما الذين هزموا فيسلب منهم كل مجد وكل اصطفاء ويطردون من رحمة إلـٰه إسرائيل .

تأثر الذين كتبوا التوراة فى بابل بمعتقدات البابليين ومعتقدات المصريين وأخذوا أساطيرهم ودسوها فى توراتهم . ويقول برستد فى كتابه فجر الضمير : « هذا ولدينا الآن الأدلة الوافرة على أن التطور الدينى الذى أحرزه العبرانيون بعد عودتهم من المنفى (فى بابل) كان متأثرا بتعاليم « زروستر » (زرادشت) ، وأنه يجب لذلك أن نضيف إلى المؤثرات الدولية التى تعرضت لها الخلقيات العبرانية ، التعاليم التى جاء بها هذا النبى « الميدى الفارسى » العظيم « زروستر » (زرادشت) .

وكان قد نما قبل ظهور الملكية العبرانية فى أواخر القرن الحادى عشر مجموعة كبيرة من الأمم المتحضرة على طول الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . تقع بين بلاد الحيثيين شمالا وتخوم مصر جنوبا . والأرجح أن أهم هذه الشعوب من وجهة تاريخ المدينة هم الفينيقيون .

وقد كانت بعض العناصر الهامة فى المدنيتين البابلية والمصرية القديمة عاملا جوهريا فى تكييف الحياة والثقافة فى مدن الساحل الفينيقى الزاهرة التى كانت تتألف منها المراكز التجارية الفينيقية ، ومن ثم كان من السهل أن تدخل هذه الخيوط الأجنبية فى نسيج ثوب الحياة العبرانية ، وعلى أية حال فنحن لا نعلم شيئا تقريبا عن نوع التطور الخلقى عند الفينيقيين .

وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين ، كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين . كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية . وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر البابليين فى الفن والأدب والدين إلى العبرانيين .

يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يبسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقى قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م .

ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا فى فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م ، بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون .

والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية .

وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التى أنشىء معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها فى تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . والواقع الذى لا شك فيه أن اللغة التى وجدها العبرانيون الفاتحون ، وهى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم ، وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة . ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى » .

« كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أديب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة . ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا مدة قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى طيبة (الأقصر) « مرنبتاح » (منفتاح) بن رعمسيس الثانى قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة . فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقولة : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان ذلك الحادث فى « عهد القضاة » وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام القومى ، فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة

التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلأ على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل بعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإلـٰه القبيلة » .

واستمرت الحرب مشتعلة الأوار بين الفلسطينيين والعبرانيين فقتل الفلسطينيون شاول وبنيه ، وأسر العمالقة زوجتى داود ، وساقوا النساء والأطفال معهم و لم يقتلوا الرجال كما يفعل اليهود لما ينتصرون على أعدائهم ، فجاء داود وخلص الأسرى من الفلسطينيين . « وكان بعد موت شاول ورجوع داود من مضاربة العمالقة أن داود أقام فى صِقلَّغ يومين وفى اليوم الثالث إذا برجل أتى من المحلة من عند شاول وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب ، فلما جاء إلى داود خر إلى الأرض وسجد . فقال له داود : من أين أتيت ؟ فقال له : من محلة إسرائيل نجوت . فقال له داود : كيف كان الأمر ؟ فقال : إن الشعب قد هرب من القتال وسقط أيضا كثيرون من الشعب وماتوا ومات شاول ويوناثان ابنه أيضا . فقال داود للغلام الذى أخبره : كيف عرفت أنه قد مات شاول ويوناثان ابنه ؟ فقال الغلام الذى أخبره : اتفق أنى كنت فى جبل جلبوع وإذا شاول يتوكأ على رمحه وإذا بالمركبات والفرسان يشدون وراءه ، فالتفت إلى ورائه فرآنى ودعانى فقلت : هأنذا . فقال لى : من أنت ؟ فقلت له : عماليقى أنا . فقال لى : قف علىّ واقتلنى لأنه قد اعترانى الدوار لأن كل نفسى بعد فىّ . فوقفت عليه وقتلته لأنى علمت أنه لا يعيش بعد سقوطه ، وأخذت الإكليل الذى على رأسه والسوار الذى على ذراعه وأتيت بهما إلى سيدى ههنا » .

هذه رواية الإصحاح الأول من سفر صموئيل الثانى عن موت شاول ، وهى تتناقض مع ما جاء فى الإصحاح الحادى والثلاثين « ... واشتدت

الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسى فانجرح جدا من الرماة ، فقال شاول لحامل سلاحه : استل سيفك واطعنى به لئلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنونى ويقبحونى . فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جدا ، فأخذ شاول السيف وسقط عليه ، ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول سقط هو أيضا علىَ سيفه ومات معه . فمات شاول وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله فى ذلك اليوم معا . ولما رأى رجال إسرائيل الذين فى عبر الوادى والذين فى عبر الأردن أن رجال إسرائيل قد هربوا وأن شاول وبنيه قد ماتوا . تركوا المدن وهربوا فأتى الفلسطينيون وسكنوا بها » .

الرواية الأولى تقول إن غلاما قتل شاول وجاء بالخبر إلى داود ، والرواية الثانية تقول إن شاول قد انتحر خشية أن يمثل به . وهذا التضارب يؤكد أن التوراة التى كتبت فى المنفى قد كتبها أكثر من واحد فتضاربت أقوالهم وإن نهلوا جميعا من الأدب البابلى والأدب المصرى القديم وسلبوا لغة الكنعانيين وأساطير الشعوب .

وأمر داود بضرب عنق العماليقى لأنه قتل مسيح الرب .

ورثا داود بهذه المرثاة شاول ويوناثان ابنه ، وقال إن يتعلم بنو يهوذا نشيد القدس . هو ذا مكتوب فى سفر ياشر :

الظبى يا إسرائيل مقتول على شوامخك ، كيف سقط الجبابرة ؟ لا تخبروا فى جت . لا تبشروا فى أسواق أشقلون لئلا تفرح بنات الفلسطينيين ، لئلا تشمت بنات الغلف .

ويعود الذين كتبوا التوراة يذكرون سفر ياشر وإن لم يظهر ذلك السفر بين أسفار التوراة : « وكان بعد ذلك أن داود سأل الرب قائلا : أأصعد إلى إحدى مدائن يهوذا ؟ فقال له الرب : اصعد . فقال داود : إلى أين أصعد ؟ فقال إلى حبرون . فصعد داود إلى هناك وامرأتاه أخينوعم اليزرعيلية وأبيجايل امرأة

نابال الكُرملى . وأصعد داود رجاله الذين معه كل واحد وبيته وسكنوا فى مدن حبرون . وأتى رجال يهوذا ومسحوا هناك داود ملكا على بيت يهوذا » .

كان داود من نسل يهوذا وكان أول ملك فى بيت يهوذا ، ولما كانت جنة اليهود أرضية فالملك عندهم أفضل من النبوة ، فراح اليهود يؤكدون صفة الملك لداود أكثر من تأكيدهم لنبوته . وقد بدأ بتولية داود انقسام دولة بنى إسرائيل إلى دولتين ، دولة إسرائيل ودولة اليهودية .

أصبح داود ملكا على اليهودية ، « وأما أبنير بن نير رئيس جيش شاول فأخذ ايشبوشت بن شاول وعبر به إلى محنايم وجعله ملكا على جلعاد وعلى الأشوريين وعلى بزرعيل وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل » .

ونشب قتال بين عبيد أبنير وعبيد داود هُزم فيه أبنير ورجال إسرائيل شر هزيمة ، « وكانت الحرب طويلة بين بيت شاول وبيت داود وكان داود يذهب يتقوى وبيت شاول يذهب يضعف . وولد لداود بنون فى حبرون وكان بكره أمنون من أخينوعيم البزرعيلية ، وثانيه كيلآب من أبيجايل امرأة نابال الكرملى ، والثالث أبشالوم بن معكة بنت تلماى ملك جَشُور ، والرابع أدونيًا ابن حجْيث ، والخامس شفطيا ابن أبطال ، والسادس بترعام من عجلة امرأة داود . هؤلاء ولدوا لداود فى حبرون » .

ولم يغضب المستشرقون الذين دأبوا على مهاجمة نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لأنه تزوج أكثر من واحدة ، فزواج داود لست زوجات حتى الآن فى حبرون لا يثير تساؤلا ولا دهشة ، أما زواج محمد عليه الصلاة والسلام من أمهات المسلمين صلة للرحم وضنًّا بهن على المهانة فأمر يستحق أن يشرع المستشرقون والحاقدون أسنة أقلامهم لطعنه وتجريحه وافتراءاتهم للنيل من نبى الرحمة ، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل ذرات من الرماد فى منبع الطهر

وإن تعجب فاعجب لزعمهم أن داود أبى أن يتم صلح بينه وبين أبنير قبل أن يأتيه أبنير بميكال بنت شاول وهو يعلم أنها زوجة رجل آخر : « فأرسل أبنير من فوره رسلا إلى داود قائلا : لمن هي الأرض ، يقولون اقطع عهدك معى وهو ذا يدى معك لرد جميع إسرائيل إليك . فقال حسنا . أنا أقطع معك عهدا إلا انى أطلب منك أمرا واحدا وهو ألا ترى وجهى ما لم تأت أولا بميكال بنت شاول حين تأتى لترى وجهى . وأرسل داود رسلا إلى ايشبوشت بن شاول يقول : أعطنى امرأتى ميكال التى خطبتها لنفسى بمائة غلفة من الفلسطينيين . فأرسل ايشبوشت وأخذها من عند رجلها من فلطيئيل بن لايش . وكان رجلها يسير معها ويبكى وراءها إلى بحوريم . فقال له أبنير : اذهب ، ارجع . فرجع » .

تزوج رسول الله — ﷺ — زينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد لحكمة ظاهرة ، للقضاء على عادة جاهلية ظالمة ، لتأكيد معنى سام هو أن الناس سواسية لا فرق بين حر وعبد وشريف ووضيع ، وأن الناس جميعا لآدم لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . فقام الحاقدون على الإسلام منذ ذلك الوقت و لم يقعدوا منددين بذلك الزواج ، أما ما زعمه الذين كتبوا التوراة من أن داود قد انتزع زوجة من أحضان زوجها فلم يحرك منهم ساكنا . وقد تعمدوا أن تخونهم الذاكرة لما هاجموا زواج محمد — ﷺ — من بنت عمته زينب بنت جحش ، فلو أنهم تذكروا هذه الحادثة التى جاءت فى كتابهم المقدس لجفت أقلامهم ولتفصد منهم عرق الخجل لو كانوا يخجلون !

« وكان كلام أبنير إلى شيوخ إسرائيل قائلا : قد كنتم منذ أمس وما قبله تطلبون داود ليكون ملكا عليكم ، فالآن افعلوا ، لأن الرب كلم داود قائلا : إنى بيد داود عبدى أخلص شعبى إسرائيل من يد الفلسطينيين ومن أيدى جميع أعدائهم » .

إسرائيل شعب الله ، هكذا يزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أما الشعوب الأخرى فأمم كلاب البشرية ، والرب رب إسرائيل لا هو رب الناس ولا هو إلـٰه الناس ولا هو ملك يوم الدين ، فالذين كتبوا التوراة لا يؤمنون باليوم الآخر وهم يعبدون إلـٰه إسرائيل ليطيل أيامهم فى الأرض وينصرهم على أعدائهم ويسوق إليهم ثروة الشعوب ليملئوا خزائنهم بالذهب والفضة .

وقتل أبنير غدرا وهو يدعو لداود ، فماذا فعل نبى الله الذى بعثه الله ليعلم الناس مكارم الأخلاق ؟ زعم الذين كتبوا التوراة فى بابل أن داود شق الثياب وأمر الناس أن يشقوا ثيابهم بل وأن يلطموا : « فقال داود ليوآب ولجميع الشعب الذى معه : مزقوا ثيابكم وتنطقوا بالمسوح والطموا أمام أبنير . وكان داود الملك يمشى وراء النعش . ودفنوا أبنير فى حبرون ورفع الملك صوته وبكى على قبر أبنير وبكى جميع الشعب » .

وأصبح داود ملكا على إسرائيل كلها ودخل أورشليم ، وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم إلـٰه إسرائيل قائد جيوشهم وراسم خططهم : « وسمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكا على إسرائيل فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا على داود ، ولما سمع داود نزل إلى الحصن . وجاء الفلسطينيون وانتشروا فى وادى الرفائيين . وسأل داود من الرب قائلا : أأصعد إلى الفلسطينيين . أتدفعهم ليدى ؟ . فقال الرب لداود : أصعد لأنى دفعا أدفع الفلسطينيين ليدك . فجاء داود إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك . وقال : قد اقتحم الرب أعدائى أمامى كاقتحام المياه ، لذلك دعى اسم ذلك الموضع بعل فراصيم وتركوا هناك أصنامهم فنزعها داود ورجاله .

ثم عاد الفلسطينيون فصعدوا أيضا وانتشروا فى وادى الرفائيين ، فسأل داود من الرب فقال : لا تصعد بل در من ورائهم وهلم عليهم مقابل أشجار البَكا . وعندما تسمع صوت خطوات فى رءوس البكا حينئذ احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محلة الفلسطينيين . ففعل

داود كذلك كما أمره الرب وضرب الفلسطينيين من جبع إلى مدخل جازر » .

إن قارئ التوراة يلمس أن الرب قد خلق الفلسطينيين لعداوته وليبطش بهم إكراما لشعبه إسرائيل ، سواء أحسن بنو إسرائيل إلى الله أو تنكبوا الطريق ، وسواء أكان الفلسطينيون على الهدى أو فى ضلال مبين . إنه إلٰـه متحيز إلى إسرائيل ، أو بمعنى أصح إنه إلٰـه فى خدمة إسرائيل . وهذا تصور مريض للذين كتبوا التوراة فى المنفى فقد بلغ بهم الغرور أن سخروا الرب لخدمة مآربهم ، وبلغ بهم السفه وسوء الأدب مع الرب أن جعلوا داود يغتاظ من بعض تصرفات الرب بل ويشك فى نواياه نحوه . ففى الإصحاح السادس من صموئيل الثانى خرج داود وجميع الشعب ليحملوا تابوت الرب من بيت أبيناداب « ... وكان عُزَّة وأخيو ابنا أبيناداب يسوقان العجلة الجديدة فأخذوها من بيت أبيناداب الذى فى الأكمة مع تابوت الله . وكان أخيو يسير أمام التابوت وداود وكل بيت إسرائيل يلعبون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو بالعيدان وبالرباب وبالدفوف وبالجنوك وبالصنوج ولما انتهوا إلى بيدر ناخون مد عُزَّة يده إلى تابوت الله وأمسكه لأن الثيران انشمصت . فحمى غضب الرب على عزة وضربه الله هناك لأجل غفلة فمات هناك لدى تابوت الله . فاغتاظ داود لأن الرب اقتحم عزة اقتحاما وسمى ذلك الموضع فارص عزة إلى ذلك اليوم ، وخاف داود من الرب فى ذلك اليوم وقال : كيف يأتى إلى تابوت الرب ؟ و لم يشأ داود أن ينقل تابوت الرب إليه فى مدينة داود ، فمال به داود إلى بيت عويد أدوم الجَتى . وبقى تابوت الرب فى بيت عويد أدوم الجتى ثلاثة أشهر وبارك الرب عويد أدوم وكل بيته » .

أكان داود فى شك من بركة تابوت الله ؟ أم أن داود كان يخشى غضب الله عليه لما اغتاظ من الرب لهلاك عزة ؟ إنه لم يطمئن إلى بركة تابوت الله إلا بعد أن أخبر أن البركة حلت ببيت عويد : « فأخبر الملك داود وقيل له : قد بارك

الرب بيت عويد أدوم وكل ماله بسبب تابوت الله . فذهب داود وأصعد تابوت الله من بيت عويد أدوم إلى مدينة داود بفرح . وكان كلما خطا حاملو تابوت الرب ست خطوات تذبح ثورا معلوفا . وكان داود يرقص بكل قوته أمام الرب . وكان داود متنطقا بأفود من كتان . فأصعد داود وجميع بيت إسرائيل تابوت الرب بالهتاف وبصوت البوق ، ولما دخل تابوت الرب مدينة داود أشرفت ميكال بنت شاول من الكوة ورأت الملك داود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته فى قلبها . فأدخلوا تابوت الرب وأوقفوه فى مكانه فى وسط الخيمة التى نصبها له داود ، وأصعد داود محرقات أمام الرب وذبائح سلامة ، ولما انتهى داود من إصعاد المحرقات وذبائح السلامة بارك الشعب باسم رب الجنود . وقسم على جميع الشعب على كل جمهور إسرائيل رجالا ونساء ، على كل واحد رغيف خبز وكأس خمر وقرص زبيب ، ثم ذهب كل الشعب كل واحد إلى بيته ، ورجع داود ليبارك بيته .

فخرجت ميكال بنت شاول لاستقبال داود وقالت : ما كان أكرم ملك إسرائيل اليوم حيث تكشف اليوم فى أعين إماء عبيده كما يتكشف أحد السفهاء . فقال داود لميكال : إنما أمام الرب الذى اختارنى دون أبيك ودون كل بيته ليقيمنى رئيسا على شعب الرب إسرائيل . فلعبت أمام الرب وإنى أتصاغر دون ذلك وأكون وضيعا فى عينى نفسى . وأما عند الإماء التى ذكرت فأتمجد ، ولم يكن لميكال بنت شاول ولد إلى يوم موتها » .

جعل الذين كتبوا التوراة ميكال بنت شاول تحتقر داود لأنه رقص من الوجد أمام الرب ولم يجعلوها تحتقره لأنه انتزعها من أحضان زوجها ليتخذها زوجة ، ولا غرو فانتزاع امرأة من زوجها لم يكن شيئا يثير الغضب فى نفوس الذين كانوا يقدمون نساءهم شهوة للأكاسرة ليجلبوا رضاهم على بنى إسرائيل .

واسمع ماذا يقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم عن الرب ، لقد جعلوه يشتهى أن يسكن بيتا عوضا عن الخيمة التى كان يسكنها : « وكان لما سكن الملك فى بيته وأراحه الرب من كل الجهات من جميع أعدائه ، أن الملك قال لناثان النبى : انظر ، إنى ساكن فى بيت من أرز وتابوت الله ساكن داخل الشُقَق . فقال ناثان للملك : اذهب افعل كل ما بقلبك لأن الرب معك . وفى تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلا : اذهب وقل لعبدى داود هكذا قال الرب : أأنت تبنى لى بيتا لسكناى ، لأنى لم أسكن فى بيت منذ يوم أصعدت بنى إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كنت أسير فى خيمة وفى مسكن . فى كل ما سرت مع جميع بنى إسرائيل هل تكلمت بكلمة إلى أحد قضاة إسرائيل الذين أمرتهم أن يرعوا شعبى إسرائيل قائلا : لماذا لم تبنوا لى بيتا من الأرز ؟ والآن فهكذا تقول لعبدى داود . هكذا قال رب الجنود أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى إسرائيل ، وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعدائك من أمامك وعملت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين فى الأرض ... » .

لماذا حدث الرب النبى ناثان و لم يحدث داود مباشرة وقد سبق أن استشاره داود فى حرب الفلسطينيين فأشار عليه ووعده بالنصر بل رسم له خطة الهجوم ؟ وهل يعقل أن الرب يذكر داود بما أكرمه به ليقنع داود ببناء بيت له من الأرز ؟ وهل الرب فى حاجة إلى مسكن من الأرز أو الذهب ؟ « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون »(١) .

وحارب داود أعداءه حتى بلغ دمشق وأقام فى أورشليم ، وأرسل يوآب وعبيده معه وجميع بنى إسرائيل لمحاربة بنى عمون « وكان فى وقت المساء أن

---

(١) الزمر ٦٧ .

داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا . فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد : أليست هذه بتشبع بنت ألبعام امرأة أوريا الحثى ؟ فأرسل داود رسلا وأخذها ، فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إنى حُبلى . فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إلى أوريا الحثى . فأرسل يوآب أوريا إلى داود . فأتى أوريا إليه فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب . وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك . فخرج أوريا من بيت الملك وخرجت وراءه حصة من عند الملك . ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين لم ينزل أوريا إلى بيته . فقال داود لأوريا : أما جئت من السفر ! فلماذا لم تنزل إلى بيتك ؟ فقال أوريا لداود : إن التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون فى الخيام ، وسيدى يوآب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتى إلى بيتى لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتى ، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر . فقال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره وخرج عند المساء ليضطجع فى مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفى الصباح كتب داود مكتوبا إلى يوآب ورسله بيد أوريا ، وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت . وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريا الحثى أيضا . فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب . وأوصى الرسول قائلا : عندما تفرغ من الكلام مع

الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك وقال لك لماذا دنوتم من المدينة للقتال ؟ أما علمتم أنهم يرمون من على السور ؟ من قتل أبيمالك بن بريوشت ؟ ألم ترمه امرأة بقطعة رحى من على السور فمات فى ناباص . لماذا دنوتم من السور ؟ فقل : قد مات عبدك أوريا الحثى أيضا .

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب ، وقال الرسول لداود : قد تجبر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنا عليهم إلى مدخل الباب . فرمى الرماة عبيدك من على السور فمات البعض من عبيد الملك ، ومات عبدك أوريا الحثى أيضا . فقال داود للرسول هكذا تقول ليوآب : لا يسَوِّئ عينيك هذا الأمر ، لأن السيف يأكل هذا وذاك . شدد قتالك على المدينة وأخربها وشدده .

ولما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب » .

زعم الذين كان الدنس مداد أقلامهم أن داود عليه السلام قد زنى بامرأة قائد من قواده أثناء أن كان يجاهد فى سبيل الله فحملت منه سفاحا ، و لم يكتف بذلك بل أرسله فى مقدمة الجيش ليقتل وقد قتل . ونسى هؤلاء المفترون أن الله كلم داود وأوحى إليه ، وأن ما نسبوه إلى الرجل لا يمكن أن يصدر عن رجل صالح لا عن رجل اصطفاه الله ، ومما يؤسف له أن بعض المؤرخين الإسلاميين قد قبلوا هذا الافتراء ورووا قصة داود كما جاءت فى توراة المنفى ، مع أن الإمام على بن أبى طالب كان يحد الذى يروى هذه الرواية فيجلده ثمانين جلدة ، أربعين لافتراء الزنى وأربعين لأن الافتراء كان فى حق نبى .

وقد أفتى داود فتوى فى حق غنى له تسع وتسعون نعجة ولرجل فقير نعجة واحدة ، وقد أخذ الغنى نعجة الفقير ، فجعلوا تلك الفتوى تخدم قصتهم

المفتراة : « فأرسل الرب ناثان إلى داود ، فجاء إليه وقال له : كان رجلان فى مدينة واحدة واحد منهما غنى والآخر فقير ، وكان للغنى غنم وبقر كثيرة جدا ، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها وكبرت معه ومع بنيه جميعا . تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وتنام فى حضنه وكانت له كابنة ، فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيئ للضيف الذى جاء إليه ، فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ للرجل الذى جاء إليه فحمى غضب داود على الرجل جدا وقال لناثان : حى هو الرب : إنه يُقتل الرجل الفاعل ذلك ورد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولأنه لم يشفق .

فقال ناثان لداود : أنت هو الرجل . هكذا قال الرب إلٰـه إسرائيل ، أنا مسحتك ملكا على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا . وإن كان ذلك قليلا كنت أريد كذا وكذا ، لماذا احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ؟ قد قتلت أوريا الحثى بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، وإياه قتلت بسيف بنى عمون . والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتنى وأخذت امرأة أوريا الحثى لتكون لك امرأة . هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس لأنك أنت فعلت بالسر وأنا أفعل هذا الأمر قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس ... » .

لندع ما أفتى به داود ، أو بمعنى أصح ما وصفه الذين كتبوا التوراة بأيديهم على لسان داود ، فهى فتوى ملؤها الغضب والثورة ، فهل من يسرق نعجة من جاره يقتل ؟ وفى أى شرّع هذا ؟ إن أمر هذه الفتوى هين ولكن الأمر الذى يفزع البشرية جمعاء أن الرب يقابل الفاحشة بالفاحشة ، بل إنه يفوق البشر

فى التردى فى حمأة الرذيلة . إنه يتهم داود — على زعم الذين كتبوا التوراة — أنه ارتكب خطيئته سرا ولكن الرب ينذر داود بأنه سيأخذ نساءه أمام عينيه ويدفعهن إلى قريبه ليزنى بهن على أعين الناس فى عين الشمس . أى جهارا نهارا ، ولم يذكر لنا الذين كتبوا التوراة ما إذا كان سيفعله قريب داود فى نساء داود بأمر الرب وتدبيره سيعتبر زنى أو سيكتب له فى الدنيا حسنات ، فيمد الله فى عمره ويمد خزائنه بالذهب ؟!

إن القرآن الكريم قد رد للرسل والأنبياء كراماتهم التى دنسها كتَّاب التوراة فى المنفى عن قصد أو متأثرين بالرذيلة التى كانوا يتمرغون فيها ، فدارس التوراة يخيل إليه أحيانا أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بالحياة الماجنة التى كانوا يحيونها فى بابل ، وأحيانا أنهم كانوا يبذلون الجهود لينفوا النبوة عن داود وسليمان ويؤكدوا لهما الملك ، فالملك كان حلم المشردين فى بابل ، أما النبوة فقد كانت منتشرة فيهم على حسب ما يزعمون .

وقد مجد القرآن الكريم داود عليه السلام بما هو أهله ، فلا يعقل أن رجلا يصطفيه ربه ويوحى إليه بفعل مثل تلك الأفعال التى افتراها كتاب التوراة : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط واهدنا إلى سواءالصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعَزّنى فى الخطاب . قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخُلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب . فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلفَى وحُسن

مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يَضِلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[١]) .

« ... ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا »[٢] .

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدّر فى السَّرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير »[٣] .

وجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم داود يصوم للرب ليحقق له أمنية فإذا لم تتحقق يفطر ، فلما مرض الذى ولدته امرأة أوريا لداود نذر لله صوما : « فسأل داود الله من أجل الصبى وصام داود صوما ودخل وبات مضطجعا على الأرض . فقام شيوخ بيته عليه ليقيموه عن الأرض فلم يشأ و لم يأكل معهم خبزا . وكان فى اليوم السابع أن الولد مات . فخاف عبيد داود أن يخبروه بأن الولد قد مات لأنهم قالوا : هو ذا لما كان الولد حيا كلمناه فلم يسمع لصوتنا ، فكيف نقول له قد مات ، ورأى داود عبيده يتناجون ففطن داود أن الولد قد مات ، فقال داود لعبيده : هل مات الولد ؟ فقالوا مات . فقام داود عن الأرض واغتسل وادّهن وبدل ثيابه ودخل بيت الرب وسجد ، ثم جاء إلى بيته وطلب فوضعوا له خبزا فأكل ، فقال له عبيده : ما هذا الأمر الذى فعلت ؟ لما كان الولد حيا صمت وبكيت ، ولما مات الولد قمت وأكلت خبزا ... » .

ترى ماذا كان رد داود ؟ أقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ أحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، إنه قال ــ على حسب زعم الذين كتبوا التوراة ــ « لما كان الولد حيا صمت وبكيت لأنى قلت : من يعلم ؟ ربما يرحمنى الرب

---

(١) ص ١٧ ــ ٢٦ . (٢) الإسراء ٥٥ .

(٣) سبأ ١٠ ، ١١ .

ويحيا الولد . والآن قد مات فلماذا أصوم ؟ هل أقدر أن أرده بعد . أنا ذاهب إليه وأما هو فلا يرجع إلىّ » .

أيمكن أن يتصور عقل أن داود صام وبكى من أجل ابنه الذى كان ثمرة الزنى ؟ إن كل ما جاء عن داود فى التوراة من خيال عقول مريضة لا تفرق بين النبوة والملك وإن كانت تفضل الملك على النبوة ، ولا تميز بين الحلال والحرام ولا تعرف حقيقة الرسالة وعصمة الأنبياء .

إن الزانى يرجم فى شريعة موسى ، وقد قام جدل حول ذلك بين محمد ـ ﷺ ـ وبين يهود المدينة انتهى بأن اعترف أحبار اليهود برجم الزانى ، فما بال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ووصموا الأنبياء بكل نقيصة مروا على ما زعموه من زنى داود بتشبع امرأة أوريا مرور العابثين بكل القيم الأخلاقية ؟ فما استنكروا الفعلة ولا حتى أشاروا إلى توبته وأنه ظل يبكى ندما حتى نبت الزرع من دموعه كما زعم بعض المؤرخين الإسلاميين الذين اغترفوا من التوراة دون حرص .

« وعزى داود بتشبع امرأته ودخل إليها واضطجع معها ، فولدت ابنا فدعاه سليمان والرب أحبه ... » .

إن الرب أوحى إلى داود فأبى الذين كتبوا التوراة فى بابل إلا أن يجعلوه ملكا ينتزع الزوجات من أزواجهن ، وأحب الرب بيت داود وأحب سليمان فكيف جعل الذين كتبوا التوراة أحباء الله يتصرفون ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا غارقين فى الذل والعار ، وكان أشراف فارس وبابل يتسرون بنسائهم لا يعرفون حلالا من حرام ، فكانوا متأثرين بالبيئة التى وجدوا فيها لما كتبوا قصص الأنبياء ، فما ارتفع نبى من أنبيائهم عن الدنس الذى كانوا فيه يلغون ، وما هام نبى منهم فى عالم الطهر وقرع أبواب ملكوت الله لأن الذين كتبوا التوراة كانوا يخوضون فى الخطايا فهل ننتظر من فاقد الشىء أن يعطيه ؟!

« وجرى بعد ذلك أنه كان لأبشالوم بن داود أخت جميلة اسمها ثامار ، فأحبها أمنون بن داود ، وأحصر أمنون للسقم من أجل ثامار أخته لأنها كانت عذراء ، وعسر فى عينى أمنون أن يفعل لها شيئا . وكان لأمنون صاحب اسمه يوناداب بن مشمعى أخى داود . وكان يوناداب رجلا حكيما جدا ، فقال له : لماذا يا بن الملك أنت ضعيف هكذا من صباح إلى صباح ؟ أما تخبرنى ؟ فقال له أمنون : إنى أحب ثامار أخت أبشالوم أخى . فقال يوناداب : اضطجع على سريرك وتمارض ، وإذا جاء أبوك ليراك فقل له : دع ثامار أختى فتأتى وتطعمنى خبزا وتعمل أمامى الطعام لأرى فآكل من يدها .

واضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه ، فقال أمنون للملك : دع ثامار أختى فتأتى وتصنع أمامى كعكتين فآكل من يدها . فأرسل داود إلى ثامار قائلا : اذهبى إلى بيت أمنون أخيك واعملى له طعاما .

فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع ، وأخذت العجين وعجنت كعكا أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل . وقال أمنون : أخرجوا كل إنسان عنى . فخرج كل إنسان عنه ، ثم قال أمنون لثامار : إيتى بالطعام إلى المخدع ، فآكل من يديك ، فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها : تعالى اضطجعى معى يا أختى ، فقالت له : لا يا أخى لا تذلنى ، لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل . لا تعمل هذه القباحة . أما أنا فأين أذهب بعارى ، وأما أنت فتكون كواحد من السفهاء فى إسرائيل . والآن كلم الملك فإنه لا يمنعنى منك . فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها » .

أستغفر الله العظيم . إن قلمى ليضطرب فى يدى وأنا أكتب قصة ابن داود مع أخته بنت داود ، ولكن ما حيلتى وأنا أنقل عن كتاب مقدس يحترمه كل

اليهود وكل المسيحيين . أأقول إن زواج الأخ من الأخت كان معروفا عند الفراعين ، وأن الذين كتبوا التوراة كانوا متأثرين بتلك العادة الفرعونية ؟ إنها كانت مقصورة على الملوك للحفاظ على الدم الملكى النبيل ، وما كانت سائدة بين سواد الشعب ، وكان الأخ يتزوج أخته ولا يغتصبها . وإن تعجب فاعجب لقول الذين كتبوا التوراة إن الرجل الذى وسوس لابن داود طريقة استدراج أخته إلى الخطيئة قد وصف بأنه كان رجلا حكيما جدا . أهذه إحدى حكمه يا كتاب التوراة فى المنفى ؟ الحمد لله أننا لم نعرف عنه إلا حكمة واحدة .

وإن قول الأخت لأخيها : « والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك » . يثير سؤالا : أكان زواج الأخ من الأخت معترفا به فى البلاط الملكى اليهودى أم أن ذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى بابل وكانوا متأثرين بعادات المجوس التى تجيز زواج المحارم ؟ وفى رأيى أن قصة ابن داود مع أخته بنت داود من وضع كتاب التوراة الذين كانوا يرون زواج الأخ من الأخت أمرا مشروعا فى أرض السبى .

واغتصب الأخ أخته واستمرأت الأخت ذلك الاغتصاب ، « ثم أبغضها أمنون بغضة شديدة جدا حتى أن البغضة التى أبغضها إياها كانت أشد من المحبة التى أحبها إياها . وقال لها أمنون : قومى انطلقى . فقالت له : لأى سبب ؟ هذا الشر بطردك إياى هو أعظم من الآخر الذى عملته بى ، فلم يشأ أن يسمع لها . بل دعا غلامه الذى كان يخدمه وقال له : اطرد هذه عنى خارجا وأقفل الباب وراءها . وكان عليها ثوب ملون لأن بنات الملك العذارى كن يلبسن جُبَّات مثل هذه . فأخرجها خادمه إلى الخارج وأقفل الباب وراءها . فجعلت ثامار رمادا على رأسها ومزقت الثوب الملون الذى عليها ووضعت يدها على رأسها وكانت تذهب صارخة ، فقال لها أبشالوم أخوها : هل كان

أمنون أخوك معك ؟ فالآن يا أختي اسكتي ... » .

وعلم الملك داود بما فعل ابنه بابنته فلم يحرك ساكنا ، وقتل أبشالوم أخاه أمنون بما فعل بأخته . فناح داود على أمنون الذى يستحق أكثر من الرجم لو كان هناك ما هو أقسى من الرجم ، وهرب أبشالوم من وجه أبيه ، وكما هى عادة كتاب التوراة أغلقوا قلب داود عن رؤية الصواب وجعلوا امرأة ترشده إلى طريق الحق فعفا عن أبشالوم . وأراد أبشالوم أن يكون قاضيا لإسرائيل فوقف على باب الملك داود يفصل فى قضايا بنى إسرائيل بالعدل فأحبه الشعب . ولما انقضت أربعون سنة طلب أبشالوم من أبيه الملك أن يذهب من أورشليم إلى حبرون لينقطع لعبادة الرب فقبل طلبه ، وما كان أبشالوم الذى صوره الذين كتبوا التوراة فى المنفى لينقطع للعبادة فلا بد من أن يرتكب خيانه ، فالعقول المريضة التى كتبت التوراة لا تعرف الاستقامة : « وأرسل أبشالوم جواسيس فى جميع أسباط إسرائيل قائلا إذا سمعتم البوق فقولوا : قد ملك أبشالوم فى حبرون . وانطلق مع أبشالوم مائتا رجل من أورشليم قد دعوا وذهبوا ببساطة و لم يكونوا يعلمون شيئا ... » .

وعلم داود بمؤامرة أبشالوم ففر هو وعبيده وترك عشر نساء سرارى لحفظ القصر ، وحمل الشعب تابوت الرب وتركوا أورشليم ، ولكن داود أمر صادوق الكاهن أن يعود بتابوت الرب إلى المدينة « وأما داود فصعد فى مصعد جبل الزيتون . كان يصعد باكيا ورأسه مغطى ويمشى حافيا وجميع الشعب الذين معه غطى كل واحد رأسه وكانوا يصعدون وهم يبكون » .

ونشبت الحرب بين داود وابنه أبشالوم ، فانتصر داود وقتل أبشالوم ، و جاء الخبر إلى داود : « فانزعج الملك وصعد إلى علية الباب وكان يبكى ويقول هكذا وهو يتمشى : « يا ابنى أبشالوم ! يا ابنى يا ابنى أبشالوم ! يا ليتنى مت عوضا عنك يا أبشالوم ، ابنى ابنى » .

أيمكن أن نصدق أن داود قد جزع مثل ذلك الجزع لموت ابنه الذى شق عصا الطاعة وجعل قلوب إسرائيل شتى ؟ أين هذا الموقف الذى إن دل على شيء فإنما يدل على عدم إيمان بقضاء الله وقدره من موقف محمد ـــ ﷺ ـــ لما مات ابنه إبراهيم ، كان لداود أبناء غير أبشالوم و لم يكن لمحمد ـــ عليه صلوات الله وسلامه ـــ من البنين غير إبراهيم . كان محمد عليه السلام واثقا من أن الأبناء وديعة يستردها صاحبها فى أى وقت يشاء ، وكانت العين تدمع ولا ينطق اللسان بما يغضب الرب . أما الذين كتبوا التوراة بأيديهم فقد كانت الدنيا هى الحياة ولا حياة بعدها فكان الموت فى أعينهم أبشع ما يمكن أن يصيب إنسانا ، فبالموت الذى لا بعث بعده تنقضى الآلام والآمال ، وعلى حسب فهمهم لهذه الحياة جعلوا داود يجزع جزعا لموت ابنه لا يليق بنبى بله بحكيم لا يوحى إليه يفهم حقيقة الوجود وكنه الحياة .

ومنذ عهد داود بدأ كتاب التوراة يفرقون بين إسرائيل واليهودية ، فقد انقسمت المملكة إلى مملكتين : مملكة إسرائيل وهى تناهض داود ، ومملكة يهوذا وهى تؤيد داود لأن داود كان أول ملك من نسل يهوذا .

وقد اضطربت قصة داود فى أيدى الذين كتبوا التوراة اضطرابا محيرا ، فبينا هو ينتزع النساء من أحضان أزواجهن ، وبينا هو يسطو على الأعراض ويبكى ابنه الذى كان ثمرة الزنى ، إذا به يناجى الرب كما يناجيه الصالحون الذين تكاد تنفطر أفئدتهم رهبة من الله : « وكلم داود الرب بكلام هذا النشيد فى اليوم الذى أنقذه فيه الرب من أيدى كل أعدائه ومن يد شاول فقال : الرب صخرتى وحصنى ومنقذى . إنه صخرتى به أحتمى . ترسى وقرن خلاصى . ملجئى ومناصى . مخلصى من الظلم تخلصنى ، أدعو الرب الحميد فأتخلص من أعدائى ، لأن أمواج الموت اكتنفتنى . سيول الهلاك أفزعتنى . جبال الهاوية أحاطت بى . شرك الموت أصابتنى . فى ضيقى دعوت الرب وإلى إلـٰهى

صرخت فسمع من هيكله صوتى وصراخى دخل أذنيه ، فارتجت الأرض وارتعشت . أسس السماوات ارتعدت وارتجت لأنه غضب . صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السماوات ونزل وضباب تحت رجليه . ركب على كروب وطار ورئى على أجنحة الريح ... » .

جسّم الذين كتبوا التوراة فى بابل الإلـٰه ووصفوه لكأنما كانوا يصفون مردوخ أو نانا أو شماش أو أيا من آلهة البابليين ، الدخان يصعد من أنفه والكلام ينفذ إليه من أذنيه ، وينزل من السماء والضباب تحت قدميه ، ويركب متن الريح . وما قدروا الله حق قدره ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

وإن أعجب ما فى دعاء داود أن الذين افتروا عليه وجعلوه يغتصب بتشبع امرأة أوريا راحوا يرددون عبارات رضا الرب عليه وطهارة اليد وحفظ العهد وإطاعة الله . وإنه لتناقض عجيب بين أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، ولا غرو فما برأت توراتهم من التناقض وما عرفت الأخذ عن ينابيع طهر الرسالات وعصمة الأنبياء . وكيف يغترفون من معين طاهر وهم يسبحون فى بحور الرجس ويضربون فى سبل الضلال ؟!

قال داود فى دعائه : « ... خلصنى لأنه سر بى . يكافئنى الرب حسب برى . حسب طهارة يدى يرد علىّ . لأنى حفظت طرق الرب ولم أعص إلـٰهى . لأن جميع أحكامه أمامى وفرائضه لا أحيد عنها . وأكون كاملا لديه وأتحفظ من إثمى . فيرد الله على كبّرى وطهارتى أمام عينيه » .

إن داود يقول إنه لم يعص إلـٰهه وهو صادق ، ويقول إنه طاهر وهو صادق ، ويقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم إنه اغتصب امرأة أوريا واغتصب امرأة أخرى قبلها ، وأنه سكت على فعلة ابنه الشنعاء يوم اغتصب أخته وهم كاذبون ، فقد كانوا يصورون حياتهم التى يحيونها فى قصور الملوك فى العراق

ويلصقونها ظلما بأنبياء الله ليوهموا أنفسهم أنهم والأنبياء سواء ، وليخففوا عن اليهود الذين كانوا فى المنفى وطأة العار .

نالت توراة المنفى من جميع الأنبياء بلا استثناء وجعلتهم يرتكبون حماقات يرتفع عنها المتقون من عباد الله . وجاء القرآن المجيد ليعيد إلى أنبياء الله كرامتهم وعصمتهم فقد اصطفاهم علام الغيوب لرسالاته ، وما كان القدير العليم ليصطفى من الناس رسلا يشركون به ويعبدون معه آلهة أخرى أو رسلا يغرقون فى الحرام حتى الآذان . إن الله يقول فى محكم كتابه . « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[١] . فلم يتبع داود عليه السلام الهوى ولكن الذين كتبوا التوراة بأيديهم ضلوا عن سبيل الله .

وبنى داود مذبحا للرب وذبح القرابين ليرش الكهنة الدم إرضاء للرب ، وليحرقوا الذبائح لأن الرب تسره رائحة الشواء ، وهذا كله من زعم الذين كتبوا التوراة ، فداود عليه السلام يعلم أن الله لا ينال دماء الذبائح ولا لحومها ولكن يناله التقوى من عباده ، وليس من المعقول أن يكون الملك الأهناسى المجهول الاسم الذى أوصى ابنه « مريكارع » قبل عهد داود عليه السلام بأكثر من ألف عام أشد معرفة بالله من أنبياء بنى إسرائيل إذ يقول له : « إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولا من ثور الرجل الذى يرتكب الظلم » .

وتستمر أساطير الذين كتبوا التوراة فى إفساد عقول البشر ، فانظروا كيف يجلبون الدفء لداود عليه السلام لما شاخ « وشاخ الملك داود ، تقدم فى الأيام ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ ، فقال له عبيده ليفتشوا لسيدنا الملك

---

(١) سورة ص ٢٦ .

على فتاة عذراء فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع فى حضنك فيدفأ سيدنا الملك . ففتشوا على فتاة جميلة فى جميع تخوم إسرائيل فوجدوا أبيشج الشونمية فجاءوا بها إلى الملك ، وكانت الفتاة جميلة جدا فكانت حاضنة الملك وكانت تخدمه ولكن الملك لم يعرفها » .

هكذا كان استهلال الإصحاح الأول من سفر الملوك ، فالذين كتبوا التوراة يعز عليهم أن يموت داود وقلبه يهوى إلى الرفيق الأعلى ، بل يأبون إلا أن يموت فى أحضان عذراء ، وحاول أدونيا بن داود أن يكون ملكا على إسرائيل ويهوذا ، ولكن بتشبع تدخل على داود وتسجد له وتستطيع بمعاونة ناثان النبى أن تنصب سليمان ملكا فى عهد أبيه ، و لم تذكر التوراة سببا معقولا لتولية سليمان الملك و لم يكن أكبر أبناء داود ، ولكن القرآن الكريم يذكر أن سليمان أوتى من الحكمة ما يؤهله للحكم : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين . ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . »[١] .

ونسى الذين كتبوا التوراة الآخرة ويوم الدين ، وتأثروا بالبابليين الذين يقولون إن الموتى يذهبون إلى الأرض التى لا رجعة منها ، فلما مات داود لم يقولوا إنه ذهب إلى ربه بل لم يقولوا إنه ذهب ليرقد فى حضن أبيه إبراهيم كما يرقد الصالحون من بنى إسرائيل واليهود ، بل قالوا : « ولما قربت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلا : أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها ، فتشدد وكن رجلا . احفظ شعائر الرب إلٰهك إذ تسير فى طرقه وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه وشهاداته كما هو مكتوب فى شريعة موسى لكى تفلح فى كل ما تفعل وحيثما توجهت ... » .

---

(١) الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ .

إن الناس يدعون ربهم خوفا وطمعا بيد أن الذين كتبوا التوراة فى بابل يدعون ربهم — على لسان أنبيائهم — طمعا فحسب ، يطلبون منه أن يطعمهم ويكسوهم وأن يهزم أعداءهم وأن يثبت ملكهم ، فإن فعل عبدوه وإن لم يفعل بخلوا بعبادته وأعرضوا عنه .

وقد طلب أدونيا من بتشبع أن تتوسط له لدى سليمان ليزوجه أبيشج الشونمية التى كانت تدفىء أباه ، فلم يقبل سليمان الطلب وقتل أخاه . وإن زواج الابن من امرأة أبيه كان معروفا فى الجاهلية وكان يطلق عليه زواج المقت وقد حرمه الإسلام . وبطش سليمان بيوآب قائد جيش أبيه وهو متعلق بقرون المذبح فى خيمة الرب .

« وصاهر سليمان فرعون ملك مصر وأخذ بنت فرعون وأتى بها إلى مدينة داود إلى أن أكمل بناء بيته وبيت الرب وسور أورشليم حواليها ، إلا أن الشعب كانوا يذبحون فى المرتفعات (عادة بابلية) لأنه لم يبن بيت لاسم الرب إلى تلك الأيام . وأحب سليمان الرب سائرا فى فرائض داود أبيه إلا أنه كان يذبح ويوقد فى المرتفعات . وذهب الملك إلى جبعون ليذبح هناك ، لأنها هى المرتفعة العظمى . وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح ، فى جبعون تراءى الرب لسليمان فى حلم ليلا ، وقال الله : اسأل ماذا أعطيك ، فقال سليمان إنك قد فعلت مع عبدك داود أبى رحمة عظيمة حسبما سار أمامك بأمانة وبر واستقامة قلب معك فحفظت له هذه الرحمة العظيمة وأعطيته ابنا يجلس على كرسيه كهذا اليوم ، والآن أيها الرب إلٰهى أنت ملّكت عبدك مكان داود أبى وأنا فتى صغير لا أعلم الخروج والدخول ، وعبدك فى وسط شعبك الذى اخترته شعب كثير لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، فأعط عبدك قلبا فهيما لأحكم على شعبك وأميز بين الخير والشر لأنه من يقدر أن يحكم على شعبك العظيم هذا ؟ فحسن الكلام فى عينى الرب لأن سليمان سأل هذا

الأمر ، فقال له الله من أجل أنك قد سألت هذا الأمر و لم تسأل لنفسك أياما كثيرة ولا سألت لنفسك غنى ولا سألت أنفس أعدائك بل سألت لنفسك تمييزا لتفهم الحكم ، هو ذا قد فعلت حسب كلامك ، هو ذا أعطيتك قلبا حكيما مميزا حتى إنه لم يكن مثلك قبلك ولا يقوم بعدك نظيرك ، وقد أعطيتك أيضا ما لم تسأله : غنى وكرامة حتى إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك ، فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك .

فاستيقظ سليمان وإذا هو حلم . وجاء إلى أورشليم ووقف أمام تابوت عهد الرب وأصعد محرقات وقرب ذبائح سلامة وعمل وليمة لكل عبيده » .

إن أمر الذين كتبوا التوراة بأيديهم يحير أولى الألباب ، فقد جعلوا الرب يقول لسليمان عن أبيه داود : « فإن سلكت فى طريقى وحفظت فرائضى ووصاياى كما سلك داود أبوك فإنى أطيل أيامك » . فهل اغتصاب زوجة قائده الذى زعموه يتفق مع قولهم إن داود سلك طريق الرب كما شهد الله بذلك؟ إنهم افتروا على داود — عليه السلام — بغير حق وألصقوا به نقائض كانوا يقاسون منها فى المنفى ليخرسوا صوت الضمير ، إن كانت لهم ضمائر تؤنبهم على ارتكاب الفواحش وعصيان الله .

و لم يعد الله سليمان بجنات عرضها السماوات والأرض بل اكتفى بأن وعده بإطالة أيامه على الأرض ، وهذا غاية مراد كتبة التوراة من رب العباد .

وروى كتاب التوراة قصة المرأتين اللتين احتكمتا إلى سليمان فى ولد تدعيه كل منهما لنفسها : « فقال الملك : هذه تقول هذا ابنى الحى وابنك الميت . وتلك تقول : لا بل ابنك الميت وابنى الحى . فقال الملك : ايتونى بسيف . فأتوا بسيف إلى بين يدى الملك . فقال الملك : اشطروا الولد الحى اثنين وأعطوا نصفا للواحدة ونصفا للأخرى . فتكلمت المرأة التى ابنها الحى

إلى الملك ، لأن أحشاءها اضطرمت على ابنها وقالت : استمع يا سيدى . أعطوها الولد الحى ولا تميتوه ، وأما تلك فقالت : لا يكون لى ولا لك . اشطروه . فأجاب الملك وقال : أعطوها الولد الحى ولا تميتوه فإنها أمه ، ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذى حكم به الملك خافوا الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه لإجراء الحكم » .

كتاب التوراة فى المنفى قالوا إن الله خاطب سليمان فى الحلم وقالوا إن الله آتى سليمان الحكمة . ترى هل سينجو سليمان من حقدهم على الأنبياء جميعا ومن افتراءاتهم على الأنبياء جميعا دون تفريق ؟ سنقرأ معا ما كتبوه فى سفر الملوك الأول ، فسليمان عندهم ملك فحسب ، يفعل ما يفعله ملوك الساسانيين : « وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر . كانوا يقدمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته . وكان طعام سليمان لليوم الواحد ثلاثين كُرّ سميذ ، وستين كر دقيق ، وعشرين ثيران مسمنة ، وعشرين ثورا من المراعى ، ومائة خروف ، وما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز المسمن . لأنه كان متسلطا على كل عبر النهر من تفسح إلى غزة على كل ملوك عبر النهر ، وكان له صلح مع جميع جوانبه حوليه ، وسكن يهوذا وإسرائيل آمنين كل واحد تحت كرمته وتحت تينته من دان إلى بئر سبع كل أيام سليمان ، وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مركباته ، واثنا عشر ألف فارس . وهؤلاء الوكلاء كانوا يمتارون للملك سليمان ولكل من تقدم إلى مائدة الملك سليمان كل واحد فى شهره ، لم يكونوا يحتاجون إلى شيء وكانوا يأتون بشعير وتبن للخيل والجياد إلى الموضع الذى يكون فيه كل واحد حسب قضائه .

وأعطى الله سليمان حكمة وفهما كثيرا جدا ورحبة قلب كالرمل الذى على شاطئ البحر ، وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق وكل

حكمة مصر وكان أحكم من جميع الناس ، من إيثان الأزراحى وهيمان وكلكول ودردع بنى ما حول ، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه . وتكلم بثلاثة آلاف مثل وكانت نشائده ألفا وخمسا ، وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان إلى الزوفا النابت فى الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته » .

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال يأيها الناس عُلِّمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين . وحُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين »(١) .

إن الله قال لسليمان فى التوراة : « إنه لا يكون رجل مثلك فى الملوك كل أيامك » . وجاء فى القرآن الكريم : « قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب »(٢) .

إن ملك سليمان فى توراة المنفى من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر ، وهى رقعة من الأرض ملكها كثير من الملوك قبل سليمان وبعده . بل

---

(١) النمل ١٥ — ١٩ .

(٢) سورة ص ٣٥ — ٤٠ .

إن عمر بن الخطاب كان يحكم رقعة من الأرض أوسع من تلك الرقعة بكثير ، فإذا كانت الأرض هى المقصودة بملك سليمان فعبارة التوراة تصبح لا معنى لها ، أما القرآن فقد أوضح الملك الذى لا ينبغى لأحد بعد سليمان ، إنه تسخير الريح ومعرفة منطق الطير وتسخير الشياطين ، وهو ملك لا ينبغى لأحد حتى لو ملك العالم .

ويذكر كتاب التوراة فى فخر طعام سليمان فى اليوم ، أنه لا يقل فخامة عن طعام بختنصر أو أخشويرش وهذا هو بيت القصيد من ذكر ذلك الطعام ، فهم يحلمون بملك أكثر من حلمهم بنبوة أو رسالة ، فالملك يوطد سلطانهم فى الأرض وهى دنياهم وأخراهم وجنتهم وجحيمهم ومحور آمالهم وآلامهم ، أما النبوة فتقتصر على التنبؤ بما سيكون وإرشادهم إلى طريق الرب ، وهم ليسوا فى حاجة إلى ذلك الرب ما دام سلطانهم فى الأرض قويا .

كان إلٰه إسرائيل يعيش فى خيمة وكان يتحرق شوقا إلى أن يبنى له مسكن من خشب الأرز وأن يكون له قصر كقصور الأغنياء ، وقد بث داود هذه الرغبة ، فلما ملك سليمان بدأ فى بناية بيت الرب : « وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكا مكان أبيه ، لأن حيرام كان محبا لداود كل الأيام فأرسل سليمان إلى حيرام يقول : أنت تعلم داود أبى أنه يستطع أن يبنى بيتا لاسم الرب إلٰهه بسبب الحروب التى أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه ، والآن قد أراحنى الرب إلٰهى من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر . وهأنذا قائم على بناء بيت لاسم الرب إلٰهى كما كلم الرب داود أبى قائلا : إن ابنك الذى أجعله مكانك على كرسيك هو يبنى البيت لاسمى . والآن فأمر أن يقطعوا لى أرزا من لبنان ويكون عبيدى مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها حسب كل ما تقول ، لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب من الصيدونيين .

فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح جدا وقال : مبارك اليوم الرب الذى أعطى داود ابنا حكيما على هذا الشعب الكثير . وأرسل حيرام إلى سليمان قائلا : قد سمعت ما أرسلت به إلىّ أنا أفعل كل مسرتك فى خشب الأرز وخشب السرو . عبيدى ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر وأنا أجعله أرماثا فى البحر إلى الموضع الذى تعرفنى عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله ، وأن تعمل مرضاتى بإعطائك طعاما لبيتى ، فكان حيرام يعطى سليمان خشب أرز وخشب سرو حسب كل مسرته ، وأعطى سليمان حيرام عشرين ألف كر حنطة طعاما لبيته وعشرين كر زيت رض . هكذا كان سليمان يعطى حيرام سنة فسنة والرب أعطى سليمان حكمة كما كلمه ، وكان صلح بين حيرام وسليمان وقطعا كلاهما عهدا .

وسخّر الملك سليمان من جميع إسرائيل وكانت السخرة ثلاثين ألف رجل . فأرسلهم إلى لبنان عشرة آلاف فى الشهر بالنوبة . يكونون شهرا فى لبنان وشهرين فى بيوتهم . وكان أدونيرام على التسخير . وكان لسليمان سبعون ألفا يحملون وثمانون ألفا يقطعون فى الجبل . ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل : ثلاثة آلاف وثلاثة مائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل . وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة ؛ حجارة كريمة لتأسيس البيت حجارة مربعة ، فنحتها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهيأوا الأخشاب والحجارة لبناء البيت » .

يقول كتاب التوراة إن سليمان سخر ثلاثين ألف رجل لبناء هيكل الرب ، والأقرب إلى المنطق — إن كان شعب إسرائيل شعبا متدينا — أن يتطوع المؤمنون لبناء بيت الله التماسا للثواب . وإن قدماء المصريين قد بنوا الأهرام لتكون مثوى للآلهة الفراعين ، وفى رأيى أنهم كانوا يتهللون بالفرح لاشتراكهم فى بناء مقابر الآلهة . إن فكرة السخرة فى بناء بيوت الآلهة فكرة

خاطئة ، فالناس يتطوعون لهذا العمل طمعا فى رضا الرب . ولكن لما كانت فكرة المثوبة قد التوت فى أذهان كتاب التوراة بعد أن نسوا ثواب الآخرة ، فإن أى عمل فى بناء بيت الرب لا يمكن من وجهة نظرهم إلا أن يكون سخرة ، ما دام الأجر الذى يناله العامل فى دنياه هو الأكل والشرب والمأوى ؛ جزاء الإنعام .

ووصف كتاب التوراة أبعاد الهيكل ثم قالوا : « وكان كلام الرب إلى سليمان قائلا : هذا البيت الذى أنت بانيه إن سلكت فى فرائضى وعملت أحكامى وحفظت كل وصاياى للسلوك بها فإنى أقيم معك كلامى الذى تكلمت به إلى داود أبيك ، وأسكن فى وسط بنى إسرائيل ولا أترك شعبى إسرائيل » .

ما هو مدلول هذا الكلام ؟ هل اصطفاه ربه أو وضعه تحت الاختبار ؟! وهل يمكن أن يكون وحى الله لغير الأنبياء ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الله يحدث الناس حديث بعضهم إلى بعض . إنهم جعلوا داود ملكا يرتكب المعاصى ولا يقام عليه الحد ثم جعلوا الله يحدثه فى ود كأنما قد رضى الله عن معاصيه المفتراة . أقوال متضاربة لا يمكن أن تستقيم مع مكارم الأخلاق ، بله النبوة وعصمة الأنبياء .

ووصف كتاب التوراة الهيكل وصفا دقيقا ، والذى يوقف النظر فى ذلك الوصف أن صحن الهيكل « كان قائما على اثنى عشر ثورا : ثلاثة متوجهة إلى الشمال وثلاثة متوجهة إلى الغرب وثلاثة متوجهة إلى الجنوب وثلاثة متوجهة إلى الشرق » . فما صلة اليهود بالثيران ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بالعجول المجنحة التى كانت تزين مدن آشور ، وقد وصفوا الهيكل بعد أن أشعل بختنصر فيه النيران فاختلط عليهم الأمر ، فوصفوا هيكلا من هياكل الآشوريين أو البابليين وهم يحسبون أنهم يصفون هيكل سليمان . فمن

غير المقبول أن يقيم سليمان بحر هيكله على اثنى عشر ثورا إلا إذا كان بنو إسرائيل ظلوا يعبدون العجل حتى بعد أن غادروا أرض الفراعين .

وفى وصف الهيكل نجد كتاب التوراة يذكرون فى زهو ما فى بيت الرب من ذهب ، فالذهب معبود اليهود الحق فى كل عصر . وإن ادّعوا أن ربهم يهوه أو أى رب آخر يسهر على مصالحهم ثمنا للحوم القرابين التى تحرق له لأن رائحة الشواء تسره أو ثمنا للدماء التى يتعطش لها على الدوام : « وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب فى المذبح من ذهب ، والمائدة التى عليها خبز الوجوه من ذهب ، والمنائر خمسا عن اليمين وخمسا عن اليسار أمام المحراب من ذهب خالص ، والأزهار والسرج والملاقط من ذهب ، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص » .

ويبدأ احتفال نقل تابوت العهد من صهيون مدينة داود إلى الهيكل : « حيث جمع سليمان شيوخ إسرائيل وكل رءوس الأسباط رؤساء الآباء من بنى إسرائيل إلى الملك سليمان فى أورشليم لإصعاد تابوت عهد الرب فى مدينة داود وهى صهيون . فاجتمع إلى الملك سليمان جميع رجال إسرائيل فى العيد فى شهر أيتانيم ، هو الشهر السابع . وجاء جميع شيوخ إسرائيل وحمل الكهنة التابوت وأصعدوا تابوت الرب وخيمة الاجتماع مع جميع آنية القدس التى فى الخيمة فأصعدها الكهنة واللاويون . والملك سليمان وكل جماعة إسرائيل المجتمعين إليه معه أمام التابوت كانوا يذبحون من الغنم والبقر ما لا يحصى ولا يعد من الكثرة ، وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه فى محراب البيت فى قدس الأقداس إلى تحت جناحى الكروبين ، لأن الكروبين بسطا أجنحتهما على موضع التابوت ، وظلل الكروبان التابوت وعصيه من فوق ، وجذبوا العصى فتراءت رءوس العصى من القدس أمام المحراب ولم تـرـ خارجا ، وهى هناك إلى هذا اليوم . لم يكن فى التابوت إلا لوحا الحجر اللذان

وضعهما موسى هناك فى حوريب حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر ، وكان لما خرج الكهنة من القدس أن السحاب ملأ بيت الرب ولم يستطع الكهنة أن يقفوا للخدمة بسبب السحاب لأن مجد الرب ملأ بيت الرب .

حينئذ تكلم سليمان . قال الرب إنه يسكن فى الضباب إنى قد بنيت لك بيت سُكنى مكانا لسكناك إلى الأبد .. » .

هذا زعم الذين كتبوا التوراة ، فسليمان الذى أوتى الحكمة لا يمكن أن يتصور أن الله يعيش فى السحاب وأنه بعد أن بنى الهيكل أصبح للرب مسكن يأوى إليه ، فما قدروا الله حق قدره ، ومن هذا الزعم جاء اعتقاد اليهود أن من يعيش فى القدس يعيش مع الله ، وأن الذى يبيت خارج بيت المقدس فهو بعيد عن الله . وهنا يثور سؤال : هل يحاسب الله الذين يعيشون فى بيت المقدس وحدهم فإن أحسنوا أحسن إليهم وإن أساءوا أساء إليهم أو يحاسب الناس كافة ؟ وإن كان يحاسب الناس جميعا فمن أين له العلم بأعمالهم ما دام يعيش فى الهيكل ؟ كان الملك أمل الذين فى المنفى فجعلوا إلـٰههم ملكا يعيش فى قصر موشى بالذهب ، وقد أطلقوا على ذلك القصر الهيكل !

إن صورة سليمان فى التوراة مادية بينا صورته فى القرآن روحية وإن منحه الله ملكا لا ينبغى لأحد بعده . لم تطغ أبهة الملك وتسخير الرياح والشياطين له على نقاوة روحه ولم تطفىء نور الله الذى أشرق فى قلبه .

ولما كان التضارب هو سمة الذين كتبوا التوراة فإنهم جعلوا سليمان فى مناجاته لربه يقرر أن السماوات لا تسع الله فبالحرى البيت الذى بناه ، وإنها مناجاة لا تتسق مع ما سبقها من القول بأن الرب يعيش فى السحاب ، وأن سليمان قد بنى الهيكل ليكون مسكنا للرب إلى الأبد ، ولا تتساوق مع ما بعدها من أن سليمان بعد أن كلمه الله وبعد أن بنى لله بيتا قد مال إلى نساء

الأمم وزاغ قلبه عن الإيمان وعبد آلهة الأمم ، ولنقرأ معا دعاء سليمان : « ووقف سليمان أمام مذبح الرب تجاه كل جماعة إسرائيل وبسط يديه إلى السماء وقال : أيها الرب إلٰه إسرائيل ليس إلٰه مثلك فى السماء من فوق ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم . الذى قد حفظت لعبدك داود أبى ما كلمته به فتكلمت بفمك وأكملت بيدك هكذا اليوم ، والآن أيها الرب إلٰه إسرائيل احفظ لعبدك داود أبى ما كلمته به قائلا لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامى كما سرت أنت أمامى ، والآن يا إلٰه إسرائيل فليتحقق كلامك الذى كلمت به عبدك داود أبى ، لأنه هل يسكن الله حقا على الأرض ؟ هو ذا السماوات وسماء السماوات لا تسعك فكم بالأقل هذا البيت الذى بنيت . فالتفت إلى صلاة عبدك وإلى تضرعه أيها الرب إلٰهى . واسمع الصراخ والصلاة التى يصليها عبدك أمامك اليوم.. لتكون عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت إن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع ، واسمع تضرع عبدك وشعب إسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع ، واسمع أنت فى موضع سكناك فى السماء وإذا سمعت فاغفر ، إذا أخطأ أحد إلى صاحبه ووضع عليه حَلفا ليحلفه وجاء الحلف أمام مذبحك فى هذا البيت ، فاسمع أنت فى السماء واعمل واقض بين عبيدك إذ تحكم على المذنب فتجعل طريقه على رأسه ، وتبرر البار إذ تعطيه حسب بره . إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطيئة شعبك إسرائيل وأرجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لآبائهم » .

الذين كتبوا التوراة بأيديهم جعلوا داود ينتزع النساء من أحضان

أزواجهن ثم عادوا يقولون إن الرب قال لداود : لا يعدم لك أمامى رجل يجلس على كرسى إسرائيل إن كان بنوك ، إنما يحفظون طرقهم حتى يسيروا أمامى كما سرت أنت أمامى . فهل الزعم بان داود اعتدى على بتشبع زوجة أوريا وأنها حبلت منه وهى فى عصمة رجل آخر من دلائل السير فى طريق الله ، أم أن السير فى سبيل الله عند الذين كتبوا التوراة هو انتصار داود على أعدائه وذلك يغفر له كل خطاياه المزعومة ؟ وهل ينتظر الرب أن يسير سليمان فى نفس الطريق ليباركه ويبارك خطاياه ؟ فما أقل الطهر فى كل ما كتبه كتاب توراة المنفى .

كان شاغلهم الأكبر تأكيد وعد الله فى كل صفحة من صفحات التوراة ، فجعلوا سليمان يتهل إلى ربه قائلا : إذا انكسر شعبك إسرائيل أمام العدو لأنهم أخطأوا إليك ثم رجعوا إليك واعترفوا باسمك وصلوا وتضرعوا إليك نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء واغفر خطية شعبك وأرجعهم إلى الأرض التى أعطيتها لآبائهم . فهل يعقل أن سليمان ناجى ربه ليرجع شعبا إلى أرض لم يخرجوا منها بعد ؟! إنهم خرجوا بعد عصر سليمان الزاهر ، وما خطر الخروج لهم على قلب وهم فى أوج مجدهم ، ولكنهم عندما وضعوا التوراة وهم فى المنفى كانوا يتحرقون شوقا إلى العودة إلى فلسطين فوضعوا على ألسنة أنبيائهم ابتهالات تفضح التزوير .

خلق الله الإنسان وهو أعلم بما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، لذلك يدعو الناس الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم وفى كل مكان ، ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى قصروا دعاء التوبة على الهيكل : « إذا أغلقت السماء و لم يكن مطر لأنهم أخطأوا إليك ثم صلوا فى هذا الموضع واعترفوا باسمك ورجعوا عن خطيتهم لأنك ضايقتهم ، فأسمع أنت من السماء واغفر خطية عبيدك وشعبك إسرائيل فتعلمهم الطريق الصالح الذى يسلكون

فيه ، وأعط مطرا على أرضك التى أعطيتها لشعبك ميراثا . إذا صار فى الأرض جوع إذا صار وباء إذا صار لفح أو يرقان أو جردا جردم ، أو إذا حاصره عدوه فى أرض مدنه فى كل ضربة وكل مرض . فكل صلاة وكل تضرع تكون من أى إنسان كان من كل شعبك إسرائيل الذين يعرفون كل واحد ضربة قلبه فيبسط يديه نحو هذا البيت ، فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واعمل وأعط كل إنسان حسب كل طرقه كما تعرف قلبه ، لأنك أنت وحدك قد عرفت قلوب بنى البشر لكى يخافوك كل الأيام التى يحيون فيها على وجه الأرض التى أعطيت لآبائنا » .

إصرار من الذين كتبوا التوراة على أن السماء سكن الله وعلى أن الهيكل مكان الدعاء الوحيد الذى يستجيب الله فيه للداعين . ﴿ الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(١) .

ويستمر سليمان فى الابتهال لربه على لسان الذين كتبوا التوراة ، فيقرر أن إسرائيل هم شعب الله وأن على الله أن يغفر لهم خطاياهم ما دام الله قد اصطفاهم لما كلم موسى عليه السلام : « إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه فى الطريق الذى ترسلهم فيه وصلّوا إلى الرب نحو المدينة التى اخترتها والبيت الذى بنيته لاسمك ، فاسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم إذا أخطأوا إليك ، لأنه ليس إنسان لا يخطىء ، وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم سابوهم إلى أرض العدو بعيدة أو قريبة ، فإذا ردوا إلى قلوبهم فى الأرض التى يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك فى أرض سابيهم قائلين قد

---

(١) البقرة ٢٥٥ .

أخطأنا وعوَّجنا وأذنبنا ، ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم فى أرض أعدائهم الذين سبوهم وصلوا إليك نحو أرضهم التى أعطيت لآبائهم نحو المدينة التى أخطرت والبيت الذى بنيت لاسمك ، فاسمع فى السماء مكان سكناك صلاتهم وتضرعهم واقض قضاءهم ، واغفر لشعبك ما أخطأوا به إليك وجميع ذنوبهم التى أذنبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحموهم ، لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر من وسط كور الحديد ، لتكون عيناك مفتوحتين نحو تضرع عبدك وتضرع شعبك إسرائيل فتصغى إليهم فى كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثا من جميع شعوب الأرض كما تكلمت عن يد موسى عبدك عند اخراجك آباءنا من مصر يا سيدى الرب » .

أهذه ابتهالات سليمان أم ابتهالات الذين كانوا فى المنفى ؟ من أين جاءت لسليمان فكرة سبى الشعب الإسرائيلى و لم يكن السبى قد وقع بعد ؟ وهل يخطر السبى على قلب رجل دانت له الشعوب من حوله ؟ إنها أمانى الذين كتبوا التوراة فى المنفى وضعوها على لسان سليمان ، إنها دعواتهم التى كانوا يتمنون أن يستجيب الله لها ، وإنها دعواهم العريضة بأنهم ميراث الله وأنهم شعب الله وأن أرض فلسطين قد منحها الله لهم مكافأة على شرورهم وعلى كفرهم وعلى آثامهم التى تندى لها جباه البشرية خجلا ، ولكنه الغرور قاتله الله .

كان سليمان يعلم أن الله رب العالمين وليس رب إسرائيل وحدهم ، وأن الناس كلهم من آدم وأن لا فرق بين بنى إسرائيل وبين الأمم ، ولكن الذين عبدوا أنفسهم غرورا فى المنفى راحوا يعبرون عن خفايا نفوسهم على ألسنة أنبياء الله . وقد تطاولوا فى الافتراء فوضعوا على لسان رب العزة أقوالا لا تتسم بالعدل ولا بالمنطق ولا بمكارم الأخلاق ، سبحان الله عما يصفون وتعالى علوا

كبيرا .

وانتهت صلاة سليمان وتصرمت أيام الاحتفالات : « وكان لما أكمل سليمان بناء بيت الرب وبيت الملك وكل مرغوب سليمان الذى سر أن يعمل ، أن الرب تراءى لسليمان ثانية كما تراءى له فى جبعون وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعك الذى تضرعت به أمامى . قدست هذا البيت الذى بنيته لأجل وضع اسمى فيه إلى الأبد وتكون عيناى وقلبى هناك كل الأيام ، وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة حسب كل ما أوصيتك وحفظت فرائضى وأحكامى فإنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد كما كلمت داود أباك قائلا : لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل » .

أين عقول الذين كتبوا التوراة ؟! يقولون على لسان الرب وهو يخاطب سليمان : وأنت إن سلكت أمامى كما سلك داود أبوك بسلامة قلب واستقامة . يقولون ذلك دون أن تضطرب الأقلام فى أيديهم بعد أن زعموا أن داود ارتكب معصية الزنا جهارا نهارا ، فهل ما زعموه من أنه اغتصب بتشبع يدل على سلامة القلب والاستقامة ؟ إن كانت عقول الذين كتبوا التوراة قد طاشت فأين عقول الذين قرأوا التوراة منذ زمن السبى إلى الآن ؟ هل أغلقوا عقولهم أم قبلوا تلك المزاعم على أنها شيء مقدس لا يناقش ؟ إن الأخلاق الفاضلة هى الأخلاق الفاضلة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، فلماذا يريد المتحمسون لتوراة المنفى أن نكيل الأخلاق الفاضلة بمكيالين وأن نقيسها بمقياسين ، مقياس البيئة فى أيام أنبياء بنى إسرائيل والعادات والتقاليد فى تلك الأزمنة ، ومقياس البيئة فى زماننا وما ورثناه من أخلاق فاضلة على مر العصور ؟

إن مستوى الأخلاق عند الفرعونى حتى قبل عصر أنبياء قدماء المصريين

كان أرفع من ذلك المستوى الهابط الذى تنضح به توراة المنفى ، فالحقيقة التى لا تحتمل الجدل أن الذين كتبوا التوراة كانوا أذلاء فى بابل وكانوا يلغون فى الخطايا وكانت نساؤهم محظيات للملوك والأغنياء ، فأرادوا أن يعزوا أنفسهم فألصقوا التهم الدنيئة بأنبياء بنى إسرائيل ليصبح الجميع فى الانحلال سواء ..

« إن كنتم تنقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى ولا تحفظون وصاياى فرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها ، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتهم إياها والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلا وهزأة فى جميع الشعوب ، وهذا البيت يكون عبرة ، كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون : لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ؟ فيقولون : من أجل أنهم تركوا الرب إلٰههم الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها ، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر » .

هذا وصف حال الذين حاربهم بختنصر وحملهم من فلسطين إلى العراق بعد عصر سليمان . وقد وضع الذين كتبوا التوراة ذلك الوصف الذى وقع فعلا على لسان إلٰههم ليوهموا بنى إسرائيل أن ذلك كان وعيد ربهم وليوحوا إليهم العودة إلى طريق الرب ، ليعود إليهم هيكلهم الذى أهانه بختنصر ، وإن تلك العبارات إن أكدت شيئا فإنها تؤكد أن الشعب الذى عبد نفسه غرورا قد عبد آلهة البابليين كما عبد آلهة الفراعين من قبل ، وأنه شعب ليس معصوما وأنه سرعان ما يحيد عن طريق الله ، فلماذا لا تحمر وجوههم خجلا لما يزعمون أنهم شعب الله المختار ؟!

« وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة ، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها ، فأخبرها سليمان بكل

كلامها . لم يكن أمرا مخفيا عن الملك لم يخبرها به . فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذى بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد . فقالت للملك : صحيحا كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك ، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى ، فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته . طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك . ليكن مباركا الرب إلٰهك الذى سر بك وجعلك على كرسى إسرائيل ، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد جعلك ملكا لتجزى حُكما وبرا . وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة ، لم يأت بعد ذلك مثل ذلك الطيب فى الكثرة الذى أعطته ملكة سبأ للملك سليمان ، وكذا سفن حيرام التى حملت ذهبا من أوفير أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرا جدا وبحجارة كريمة ، فعمل سليمان خشب الصندل درابزينا لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين ، لم يأت ولم يُر مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم . وأعطى الملك سليمان لملكة سبأ كل مشتهاها الذى طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان ، فانصرفت وذهبت إلى أرضها هى وعبيدها » .

هذه صورة للقاء بين سليمان وملكة سبأ فى التوراة ، وهو لقاء مادى بين ملك وملكة . إنها أخذت بطعام سليمان ومائدته وملابس جنده ولم تر حكمة سليمان أو سلطانه وقد عرف منطق الطير وأعطاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . أما لقاء سليمان وملكة سبأ فى القرآن فإنه لقاء مثير ، يبرز الناحية الروحية ويؤكد سلطان سليمان وحكمته وتسخير الجن وقدرة من عنده علم من الكتاب ، وكلها برهان مبين على أن مُلك سليمان لا ينبغى لأحد من بعده

حتى لو حكم الدنيا بأسرها : « وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينِّى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إلـٰه إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل

لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لُجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمتُ مع سليمــان لله رب العالمين »[١] .

سليمان فى القرآن نبى مرسل وفى التوراة ملك أوتى الحكمة وقد حدثه الله وباركه لأنه بنى فى القدس هيكل الرب . وقد ناجى سليمان فى الهيكل ربه مناجاة صادرة من قلب مؤمن ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عز عليهم أن يستمر الرجل الذى أوتى الحكمة عبدا مؤمنا لربه حتى آخر أيامه بل جعلوه يكفر بالله ، و لم يشفع له عندهم أنه الذى بنى بيت الرب ، فهم قد عبدوا آلهة الأمم فى أرض بابل وأشركوا بالله فحق على الأنبياء جميعا أن يشركوا بالله مثلهم . إنهم كانوا يعكسون شرك أفئدتهم على ما كانوا يكتبون : « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ومؤابيات وعمونيــات وأشوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الــرب لبنــى إسرائيل : لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السرارى . فأمالت نساؤه قلبه وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، و لم يكن قلبه كاملا مع الرب إلــهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورت (عشتار) إلــهة الصيدونيين وملكوم ربة العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب و لم يتبع الرب تماما كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المؤابين على الجبل الذى تجاه أورشليم ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن . فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إلــه إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن

---

(١) النمل ٢٠ ـــ ٤٤ .

لا يتبع آلهة أخرى ، فلم يحفظ ما أوصى به الرب . فقال الرب لسليمان : من أجل أن ذلك عندك و لم تحفظ عهدى و فرائضى التى أوصيتك بها فإنى أمزق المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك . إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك من أجل داود أبيك بل من يد ابنك أمزقها . على أنى لا أمزق منك المملكة كلها بل أعطى سبطا واحدا لابنك لأجل داود عبدى ولأجل أورشليم التى اخترتها » .

حتى سليمان الذى بنى هيكل الرب لم ينج من حقد الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فقد زعموا أنه مال إلى آلهة نسائه اللاتى تزوجهن من غير بنى إسرائيل ، وإنه لقول عجيب . فهل يعقل أن يعبد سليمان عشتار إلـٰهة اللذة والقسوة بعد أن خاطبه الرب مرتين حسب زعمهم ؟ وهل يعقل أنه بعد أن بنى لله بيتا أن يبنى بيوتا للأصنام فى المرتفعات كما كان يفعل البابليون ؟ ولماذا لم يحاول سليمان أن يهدى أزواجه إلى عبادة إلـٰهه وهو الذى ناجى ربه مناجاة حارة لا تصدر إلا عن قلب سليم ؟ وكيف يزعمون أن الرب قال لسليمان إنه لا يمزق مملكته جزاء على شركه به فى أيامه إكراما لأبيه داود وهم الذين زعموا أن داود قد زنى بامرأة أوريا وبامرأة أخرى قبلها ، فهل رب إسرائيل يرضى عن الزنى ويباركه ؟ لقد تضاربت أقوالهم ، قالوا مرة إن الله غضب على ما فعله داود وأنه قد رأى أن ينتقم من داود بأن يسمح للرجال بأن يزنوا فى بيت داود فى عين الشمس ، وحاشا لله أن يرضى عن أن تشيع الفاحشة بين الناس أو أن يجازى الفاحشة بالفاحشة . وقالوا مرات إن الله قد أخر عذابه إكراما لداود الذى عرف طريق الرب ، فهل اغتصاب نساء الآخرين هو السبيل إلى رضا الله ؟!

إن القرآن الكريم قد أخبر أن ملكة سبأ قد أسلمت مع سليمان لله رب

العالمين[١] ، وهو قول يتساوق مع شخصية سليمان الذى أوحى الله إليه أن يبنى له بيتا ، فالمقدمات تتفق مع النتائج ، أما أن يكفر سليمان بعد أن يبنى بيت الله فهو قول لا يسيغه عقل وهو اتهام لله سبحانه وتعالى بالجهل بالغيب . فكيف يصطفى الله رجلا ليبنى بيته وهو يعلم أن ذلك الرجل سينحرف عن طريقه إكراما لزوجاته وسراريه الألف ؟!

إن محمدا — ﷺ — تزوج مشركات ويهودية ونصرانية وقد هداهن جميعا إلى الصراط المستقيم ، فكيف يميل قلب سليمان إلى آلهة نسائه بعد أن عرف قلبه النور ؟ وكيف يكفر سليمان بعد أن أوحى الله إليه ما أوحى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ... »[٢] . « ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد إنه أواب »[٣] .

كتبت التوراة فى المنفى بعد عهد داود وسليمان ، فكان التدوين بعد أن وقعت الأحداث فى إسرائيل وبعد أن حمل بختنصر اليهود إلى العراق ، فأراد الذين كتبوا التوراة أن يكون لكل حدث تاريخى سبب دينى . فإذا كان ملك سليمان قد انتقل من بعده إلى آخرين فلا بد أن يكون سبب ذلك أن سليمان كفر بربه حتى أذهب الملك من بيته إلى أحد عبيده ، فرضا الرب لا يكون فى إسرائيل إلا بالتمكين فى الأرض ، ما دامت جنتهم أرضية .

« وأقام الرب خصما لسليمان هدد الأدومى ، كان من نسل الملك فى أدوم . وحدث لما كان داود فى أدوم عند صعود يوآب رئيس الجيش لدفن القتلى وضرب كل ذكر فى أدوم — لأن يوآب وكل إسرائيل أقاموا هناك ستة

---

(١) جاء ذلك فى سورة النمل ٤٤ .

(٢) البقرة ١٠٢ .　　　　(٣) سورة ص ٣٠ .

أشهر حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم — أن هدد هرب هو ورجال أدوميون من عبيد أبيه معه ليأتوا مصر وكان هدد غلاما صغيرا . وقاموا من مديان وأتوا إلى فاران وأخذوا معهم رجالا من فاران وأتوا إلى مصر إلى فرعون ملك مصر فأعطاه بيتا وعين له طعاما وأعطاه أرضا . فوجد هدد نعمة فى عينى فرعون جدا وزوجه أخت امرأته أخت تحفنبس الملكة . فولدت له أخت تحفنبس حنوبث ابنه ، وفطمته تحفنبس فى وسط بيت فرعون . وكان حنوبث فى بيت فرعون بين بنى فرعون . فسمع هدد فى مصر بأن داود قد اضطجع مع آبائه وبأن يوآب رئيس الجيش قد مات ، فقال هدد أطلقنى فأنطلق إلى أرضى . فقال له فرعون : ماذا أعوزك عندى حتى إنك تطلب الذهاب إلى أرضك ؟ فقال : لا شيء وإنما أطلقنى .

وأقام الله له خصما آخر رزون بن اليداع الذى هرب من عند سيده هدد عزر ملك صوبة . فجمع إليه رجالا فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا فى دمشق ، وكان خصما لإسرائيل كل أيام سليمان مع شر هدد ، فكره إسرائيل وملك على أرام .

ويربعام بن ناباط أفرايمى من صردة عبد لسليمان واسم أمه صروعة ، وهى امرأة أرملة رفع يده على الملك ، وهذا هو سبب رفعه يده على الملك : أن سليمان بنى القلعة وسد شقوق مدينة داود أبيه . وكان الرجل يربعام جبار بأس . فلما رأى سليمان الغلام أنه عامل شغلا أقامه على كل أعمال بيت يوسف ، وكان فى ذلك الزمان لما خرج يربعام من أورشليم أنه لاقاه أخيًّا الشيلونى النبى فى الطريق وهو لابس رداء جديدا وهما وحدهما فى الحقل ، فقبض أخيًّا على الرداء الجديد الذى عليه ومزقه اثنتى عشرة قطعة . وقال ليربعام خذ لنفسك عشر قطع لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل ، هأنذا أفرق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط ويكون له سبط واحد من أجل

عبدى داود ومن أجل أورشليم المدينة التى اخترتها من كل أسباط إسرائيل ، لأنهم تركونى وسجدوا لعشتورت إلٰهة الصيدونيين وليكموش إله الموآبيين وللمكوم إلٰه بنى عمون ولم يسلكوا فى طرقى ليعملوا المستقيم فى عينى وفرائضى وأحكامى كداود أبيه . ولا آخذ كل المملكة من يده بل أصيره رئيسا كل أيام حياته لأجل داود عبدى الذى اخترته الذى حفظ وصاياى وفرائضى . وآخذ المملكة من يد ابنه وأعطيك إياها أى الأسباط العشرة وأعطى ابنه سبطا واحدا ليكون سراج لداود عبدى كل الأيام أمامى فى أورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى فيها . وآخذك تملك حسب كل ما تشتهى نفسك وتكون ملكا على إسرائيل . فإذا سمعت لكل ما أوصيك به وسلكت فى طرقى وفعلت ما هو مستقيم فى عينى وحفظت فرائضى ووصاياى كما فعل داود عبدى ، أكون معك وأبنى لك بيتا آمنا كما بنيت لداود وأعطيك إسرائيل ، وأذل نسل داود من أجل هذا ولكن لا كل الأيام » .

هل نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما زعموه من أن داود أغضب الرب واغتصب بتشبع زوجة أوريا الحثى وأن الرب قد هدد داود بأن يُزنى فى أهل بيته فى عين الشمس ؟ وهل كان ما زعموه هو سبيل الله الذى لا يفتأ رب إسرائيل يذكره لداود كلما أراد أن يكافئ بيت داود على استقامة داود ، ام ان أكثر من كاتب كتب التوراة دون أن يطلع على ما كتبه غيره ؟!

أقوال لا تستقيم مع منطق الأحداث ولو صدرت عن قصاص لا نتقد على تخبطه وعلى عدم وضوح تصرف شخوص روايته وتناقض تصرفاتها .

وزعموا أن سليمان كفر فهل يمكن أن يرتد إلى الوثنية ؟! إن الله — فى زعمهم — حدث سليمان مرتين فهل يعقل أن المرء يكفر بعد وحى الله ؟ وهل يعقل أن الله يحدث عبدا من عباده دون اصطفاء ؟!

إن مزاعم الذين كتبوا التوراة فى المنفى تطعن فى علم رب إسرائيل

بالغيب ، فلو كان يعلم الغيب لما اصطفى أناسا لبناء بيته يرتدون عن دينه ويكفرون به ، ولما صب غضبه عليهم بعد إذ هداهم .

دونت أحداث هذا العصر فى المنفى بعد أن مات سليمان وبعد أن انتزع يربعام الملك من رحبعام بن سليمان وبعد أن وقعت وقائع ذلك الزمان ، فجعلوا أخيًّا النبى يتنبأ بكل ما وقع بعد أن صبغوه بأفكارهم الحاقدة وما وقر فى أذهانهم من كفر سليمان ، فلولا ذلك الكفر الذى زعموه ما خرج الملك من بيته وما نزعه رب إسرائيل من يد ذريته ، فالمُلك والملك وحده هو آية رضا الرب فى عرف الذين كتبوا توراة المنفى .

« وطلب سليمان قتل يربعام فقام يربعام وهرب إلى مصر إلى شيشنق ملك مصر ، وكان فى مصر إلى وفاة سليمان . وبقية أمور سليمان وكل ما صنع وحكمته أما هى مكتوبة فى سفر أمور سليمان » .

هل الحكمة تقود إلى عبادة عشتار وآلهة الوثنيين بعد أن يشرق فى القلب نور الله ؟ إن كل ما ألصقه كتبة التوراة بسليمان يبعده عن الحكمة ، فمن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . وإن ما نسب إلى سليمان يجعله يحيد عن طريق الخير ويغرق فى الشر حتى أذنيه ، فهل أخطأ كتبة التوراة لما نسبوا إليه الحكمة أو أخطأوا لما زعموا أنه كفر ؟ فالحكمة والكفران بعد إشراق أنوار اليقين فى القلب لا يتفقان .

وذكر كتبة التوراة أن حكمة سليمان مكتوبة فى سفر أمور سليمان ، ولا يوجد فى التوراة سفر بهذا الاسم . فهل كانت التوراة تضم ذلك السفر ثم رفع منها ؟ وإذا كان قد رفع فما سبب رفعه ومن ذا الذى يملك عدم إثباته إن كان ما فى التوراة من وحى الله ؟!

وكل ما ذكره كتاب التوراة أن سليمان قد مات بعد أن حكم أربعين عاما : « وكانت الأيام التى ملك فيها سليمان فى أورشليم على كل إسرائيل

أربعين سنة ، ثم اضطجع سليمان مع آبائه ودفن فى مدينة داود أبيه وملك رحبعام ابنه عوضا عنه » . أما موت سليمان فى القرآن فيختلف كل الاختلاف عن موته فى التوراة واضطجاعه مع آبائه : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »(١) .

ولنترك سليمان عليه السلام فى رحاب الله يترقب نزول القرآن الكريم ليبرئه من افتراءات كتاب التوراة الذين كانت أفئدتهم مفعمة بالحقد على الأنبياء جميعا وكان مداد أقلامهم الصديد ، ولا غرو فقد كانوا أسرى فى بابل فكانوا يرسفون فى العبودية والعذاب المهين ، ولنر ماذا كان مصير يربعام الذى وعد الله أن يعطيه عشرة أسباط من أسباط إسرائيل ؟ وهل نجا من مرض قلوب كتاب التوراة؟

« وذهب رحبعام إلى شكيم لأنه جاء إلى شكيم جميع إسرائيل ليملكوه ، ولما سمع يربعام بن نباط وهو فى مصر — لأنه هرب من وجه سليمان الملك وأقام يربعام فى مصر — وأرسلوا فدعوه . أتى يربعام وكل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين : إن أباك قسّى نيرنا وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا فنخدُمك . فقال لهم اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضا ثم ارجعوا إلى . فذهب الشعب . فاستشار الملك رحبُعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حى قائلا كيف تشيرون أن أرد جوابا إلى هذا الشعب ؟ فكلموه قائلين : إن صرت اليوم عبدا لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلاما حسنا يكونون لك عبيدا كل الأيام ، فترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه ، وقال لهم : بماذا تشيرون أنتم فنردّ جوابا على هذا الشعب الذين كلمونى

---

(١) سبأ ١٤ .

قائلين : خفف من النير الذى جعله علينا أبوك ؟ فكلمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين : هكذا تقول لهذا الشعب الذين كلموك قائلين إن آباك ثقَّل نيرنا وأما أنت فخفف من نيرنا . هكذا تقول لهم : إن خنصرى أغلظ من متنَى أبى . والآن أبى حمَّلكم نيرا ثقيلا وأنا أزيد على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب .

فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام فى اليوم الثالث كما تكلم الملك قائلا ارجعوا إلىّ فى اليوم الثالث . فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه . وكلمهم حسب مشورة الأحداث قائلا : أبى ثقَّل نيركم وأنا أزيد كم على نيركم . أبى أدبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب . ولم يسمع الملك للشعب لأن السبب كان من قبل الرب ليقيم كلامه الذى تكلم به الرب عن يد أخيَّا الشيلونى إلى يربعام بن نباط . فلما رأى كل إسرائيل أن الملك لم يسمع لهم رد الشعب جوابا على الملك قائلين : أى قسم لنا فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى ؟ إلى خيامك يا إسرائيل . الآن انظر إلى بيتك يا داود . وذهب إسرائيل إلى خيامهم . وأما بنو إسرائيل الساكنون فى مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ، ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذى على التسخير فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات . فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم . فعصى إسرائيل على بيت داود إلى هذا اليوم ولما سمع جميع إسرائيل بأن يربعام قد رجع أرسلوا فدعوه إلى الجماعة وملكوه على جميع إسرائيل ، ولم يتبع بيت داود إلا سبط يهوذا وحده » .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين مملكة إسرائيل وعليها يربعام الذى اختاره الله حسب زعم كتبة التوراة ، ومملكة يهوذا ، وكانت مملكة إسرائيل تضمر العداوة لبيت داود حتى عصر التدوين ، وقد كانت كراهية إسرائيل لبيت داود هى الباعث على الافتراءات التى ألصقها كتاب التوراة بداود وسليمان ،

فالدافع إلى تلويث داود وسليمان دافع سياسى ، وإن ذلك الانقسام الذى حدث فى إسرائيل هو آية الاضطراب الذى تموج به توراة المنفى ، فالإسرائيلى الذى كان يشترك فى كتابة التوراة فى بابل كان ينفث حقده على بيت داود ، بينا اليهودى يسكب عواطف الحب على كتاباته ، فجاءت شخصية داود مضطربة كل الاضطراب . ففى بعض الإصحاحات نجد داود زانيا يغتصب النساء من أحضان أزواجهن ، وفى إصحاحات أخر نجده رجل الرب الذى يحمد له الله أنه يسير فى طريق الرب والرشاد . وكان سليمان عجيبا غريبا فهو يبنى الهيكل للرب إلـه إسرائيل ، ثم يرتد بعد أن أوحى إليه ليعبد الأوثان والأصنام ! صفات متضاربة لا يمكن أن تتصف بها نفس مطمئنة اتصلت بالله أو عرفت نور السماوات والأرض .

انقسمت إسرائيل إلى مملكتين وبدأت بينهما الحروب : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » ؛ فسبط يهوذا حارب باقى الأسباط ليمكن لابن سليمان فى الأرض : « ولما جاء رحبعام إلى أورشليم جمع كل بيت يهوذا وسبط بنيامين مائة وثمانين ألف مختار محارب ليحاربوا بيت إسرائيل ويردوا المملكة لرحبعام ابن سليمان ، وكان كلام الله إلى شمعيا رجل الله قائلا : كلّم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلا : هكذا قال الرب : لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بنى إسرائيل ، ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندى هذا الأمر . فسمعوا لكلام الرب ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب » .

زعم الذين كتبوا التوراة أن الرب أمر اليهود بعدم محاربة إسرائيل لأنه اختار يربعام لحكم إسرائيل فما دام الله يعلم الغيب فلا شك فى أنه اختار الرجل الصالح الذى يعرف طريقه وسيقود إسرائيل إلى الصراط المستقيم . ولكن يربعام لم ينج من لعنة كتبة التوراة ، جعلوه — بعد أن اختاره الله — يعبد

الأصنام ، وإن هذا الأمر ليحير قارئ التوراة فما يدرى حكمة تكفير كل من اختاره الله ليحكم إسرائيل . أيريد هؤلاء الأحبار أن يؤكدوا أن رب إسرائيل لا يعلم الغيب ، أم يريدون أن يقولوا إنهم وقد عبدوا الأصنام فى المنفى وأنبياء بنى إسرائيل وأصفياء الله سواء بسواء !

« وبنى يربعام شكيم فى جبل أفريم وسكن بها ، ثم خرج من هناك وبنى فنوئيل . وقال يربعام فى قلبه : الآن ترجع المملكة إلى بيت داود . إن صعد هذا الشعب ليقربوا ذبائح فى بيت أورشليم يرجع قلب هذا الشعب إلى سيدهم إلى رحبعام ملك يهوذا ويقتلونى ويرجعوا إلى رحبعام ملك يهوذا . فاستشار الملك وعمل عِجْلَى ذهب وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم . هو ذا آلهتك يا إسرائيل الذين أصعدوك من أرض مصر . ووضع واحدا فى بيت إيل وجعل الآخر فى دان . وكان هذا الأمر خطية ، وكان الشعب يذهبون إلى أمام أحدهما حتى إلى دان . وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بنى لاوى ، وعمل يربعام فى الشهر الثامن فى اليوم الخامس عشر من الشهر كالعيد الذى فى يهوذا وأصعد على المذبح . هكذا فعل فى بيت إيل بذبحه للعجلين اللذين عملهما ، وأوقف فى بيت إيل كهنة المرتفعات التى عملها ، وأصعد على المذبح الذى عمل فى بيت إيل فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن الذى ابتدعه من قلبه فعمل عيدا لبنى إسرائيل وصعد على المذبح ليوقد » .

مسكين أنت يا يربعام ، فرق الرب ملك سليمان وأعطاك عشرة أسباط وترك لابن سليمان سبط يهوذا وسبط بنيامين . وقد أخبرك نبى الله بإرادة الرب ثم تخشى بعد ذلك أن يعود الملك إلى بيت داود فتكفر بالرب وتعبد الأصنام . هكذا أراد لك الذين كتبوا التوراة فى المنفى فقلوبهم تخفق بالحقد على كل الناس ، لم ينج من مرض أفئدتهم نبى أوحى إليه أو ملك اختاره الرب

وطعنوا إيمان كل الناس لأن إيمانهم تزعزع فى قصور ملوك بابل وإيران ، واضطربت فى أيديهم الموازين فبخسوا كل أعمال الصالحين . وعجزوا عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان ما دامت سرائرهم قد فاضت بالمرارة والحقد على أنبياء إسرائيل ورب إسرائيل الذين لم يمنعوا كارثة السبى » .

لم تكن وحدك الذى تنكب طريق الله فى التوراة ، لقد حاد عنه من سبقوك من أنبياء وملوك اختارهم الله لبنى إسرائيل وسيحيد عنه أنبياء وملوك بعدك ، فالسلوك ليس سلوك الأنبياء والملوك ولكنه مرض قلوب الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى .

ولنر الآن ما هو مآل رجل الرب الذى جاء ليعنف يربعام على شركه وحرق المحرقات لغير الله : « وإذا برجل الله قد أتى من يهوذا بكلام الرب إلى بيت إيل ويربعام واقف لدى المذبح لكى يوقد . فنادى نحو المذبح بكلام الرب وقال : يا مذبح يا مذبح هكذا قال الرب : هو ذا سيولد فى بيت داود ابن اسمه يوشيا ويذبح عليك كهنة المرتفعات الذين يوقدون عليك وتحرق عليك عظام الناس . وأعطى فى ذلك اليوم علامة قائلا : هذه هى العلامة التى تكلم بها الرب ، هو ذا المذبح ينشق ويذرى الرماد الذى عليه . فلما سمع الملك كلام رجل الله الذى نادى نحو المذبح فى بيت إيل مد يربعام يده عن المذبح قائلا : أمسكوه . فيبست يده التى مدها نحوه و لم يستطع أن يردها إليه . وانشق المذبح وذرى الرماد من على المذبح حسب العلامة التى أعطاها رجل الله بكلام الرب . فأجاب الملك وقال لرجل الله : تضرع إلى وجه الرب إلٰهك وصل من أجلى فترجع يدى إلىّ . فتضرع رجل الله إلى وجه الرب فرجعت يد الملك إليه وكانت كما فى الأول . ثم قال الملك لرجل الله : ادخل معى إلى البيت وتقوت فأعطيك أجرة . فقال رجل الله للملك : لو أعطيتنى نصف بيتك لا أدخل معك ولا اكل خبزا ولا أشرب ماء فى هذا الموضع ، لأنى هكذا

أوصيت بكلام الرب قائلا : لا تأكل خبزا ولا تشرب ماء ولا ترجع فى الطريق الذى ذهبت فيه . فذهب فى طريق آخر و لم يرجع فى الطريق الذى جاء فيه إلى بيت إيل .

وكان نبى شيخ ساكنا فى بيت إيل ، فأتى بنوه وقصوا عليه كل العمل الذى عمله رجل الله ذلك اليوم فى بيت إيل وقصوا على أبيهم الكلام الذى تكلم به إلى الملك ، فقال لهم أبوهم : من أى طريق ذهب ؟ وكان بنوه قد رأوا الطريق الذى سار فيه رجل الله الذى جاء من يهوذا . فقال لبنيه : شدوا لى على الحمار . فشدوا له على الحمار فركب عليه وسار وراء رجل الله فوجده جالسا تحت البلوطة فقال له : أنت رجل الله الذى جاء من يهوذا ؟ فقال : أنا هو . فقال له : سر معى إلى البيت وكل خبزا . فقال : لا أقدر أن أرجع معك ولا أدخل معك ولا آكل خبزا ولا أشرب معك ماء فى هذا الموضع ، لأنه قيل لى بكلام الرب : لا تأكل خبزا ولا تشرب هناك ماء ولا ترجع سائرا فى الطريق الذى ذهبت فيه.فقال له : أنا أيضا نبى مثلك وقد كلمنى ملاك الرب قائلا : ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزا ويشرب ماء . كذب عليه فرجع معه وأكل خبزا فى بيته وشرب ماء » .

أسلوب فى التفكير لا يتغير ، نبى يكذب على رجل الله ويمكر به حتى يقع فى الخطيئة . لماذا كذب النبى ؟ وما حكمة كذبه إن كان للكذب حكمة ؟ وإذا كان النبى يكذب فمن ذا الذى لا يكذب؟ وما هى الحكمة الأخلاقية التى يريد كتاب التوراة فى المنفى أن يسوقوها للمؤمنين بتوراتهم ؟ ولماذا مكر النبى برجل الله ، وما هو ثواب هذا العمل الدنىء ؟ رجل الله نفذ وصية الله — على فرض أن ذلك قد حدث — فلماذا يخرج النبى الشيخ فى أثره ليخدعه ويزعم له أنه أوحى إليه وأن الله يأمره بأن يدخل معه ويأكل ويشرب فى الموضع الذى نهى عن الأكل والشرب فيه ؟

حكايات تنضح بخبث نفوس الذين كتبوها ، وحاشا لله أن يرسل أنبياء يكذبون على الناس ويكذبون على الله ويمكرون بالناس ليوقعوهم فى الخطايا عامدين . ومادية طاغية نسبوها إلى الرب ، فأى إلٰه هذا الذى لا يهتم إلا بالأكل والشرب وينهى عن الأكل والشرب فى مكان ما ولا ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ؟ إلٰه تشوى له لحوم الذبائح ويناله الدماء ولا يهتم بتقوى عباده !

تفكير أفسده ذل الأسر وعادات البابليين الذين عاش كتاب التوراة فى وسطهم وتأثروا بدياناتهم . مادية طغت على الروح بعد أن نسى كتاب التوراة اليوم الآخر وآمنوا بأن ثواب أعمالهم فى إطالة أعمارهم على الأرض ورغد العيش ، وأسلوب واحد فى التفكير لا هم له إلا تعقب الصالحين لتمريغهم فى نفس الوحل الذى كانوا فيه يتمرغون .

كذب نبى الله على رجل الله و لم ينقطع الوحى عنه جزاء وفاقا على ذلك الكذب بل استمر الرب يوحى إليه ، كأنما كان الرب راضيا عن ذلك الكذب ، ومن الغريب أن الرب أنزل غضبه على رجل الله المخدوع و لم ينزل غضبه على الكاذب الخادع : « وبينما هما جالسان على المائدة كان كلام الرب إلى النبى الذى أرجعه . فصاح إلى رجل الله الذى جاء من يهوذا قائلا : هكذا قال الرب : من أجل أنك خالفت قول الرب و لم تحفظ الوصية التى أوصاك بها الرب إلٰهك ، فرجعت وأكلت خبزا وشربت ماء فى الموضع الذى قال لا تأكل فيه خبزا ولا تشرب ماء ولا تدخل جثتك قبر آبائك . ثم بعد ما أكل خبزا وبعد أن شرب شد له على الحمار — أى للنبى الذى أرجعه — وانطلق . فصادفه أسد فى الطريق وقتله وكانت جثته مطروحة فى الطريق والحمار واقف بجانب والأسد واقف بجانب الجثة ، وإذا بقوم يعبرون فرأوا الجثة مطروحة فى الطريق والأسد واقف بجانب الجثة ، فأتوا وأخبروا فى المدينة التى كان النبى

الشيخ ساكنا بها . ولما سمع النبى الذى أرجعه عن الطريق قال : هو رجل الله الذى خالف قول الرب ، فدفعه الرب للأسد فافترسه وقتله حسب كلام الرب الذى كلمه به ، وكلم بنيه قائلا : شدوا لى على الحمار ، فشدوا ، فذهب ووجد جثة مطروحة فى الطريق والحمار والأسد واقفين بجانب الجثة ولم يأكل الأسد الجثة ولا افترس الحمار . فرفع النبى جثة رجل الله ووضعها على الحمار ، ورجع بها ودخل النبى الشيخ المدينة ليندبه ويدفنه ، فوضع جثته فى قبره وناحوا عليه قائلين : آه يا أخى . وبعد دفنه إياه كلم بنيه قائلا : عند وفاتى ادفنونى فى القبر الذى دفن فيه رجل الله بجانب عظامه ضعوا عظامى ، لأنه تماما سيتم الكلام الذى نادى به بكلام الرب نحو المذبح الذى فى بيت إيل ونحو جميع بيوت المرتفعات التى فى مدن السامرة ، بعد هذا الأمر لم يرجع يربعام عن طريق الردية بل عاد فعمل من أطراف الشعب كهنة مرتفعات من شاء ملأ يده فصار من كهنة المرتفعات ، وكان من هذا الأمر خطية لبيت يربعام وكان لإبادته وخرابه عن وجه الأرض » .

كان السيد المسيح يقول : احذروا الأنبياء الكذبة . وما أكثر الأنبياء الكذبة فى توراة المنفى ! وكان بنو إسرائيل ومن بعدهم اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وإن قارئ التوراة لا يجد فيهم صفة واحدة تؤهلهم لذلك الاختيار ، فما أن يصطفى رب إسرائيل نبيا حتى يرتد ذلك النبى عن طريق الله ويعبد آلهة المرتفعات ، وما من نبى مرت أيامه بسلام وهو متفرح فى الله وبالله . إنهم جميعا تنكبوا الصراط المستقيم — أو بمعنى أصح هكذا صورتهم عقول الذين كتبوا التوراة بأيديهم — فإذا كانت هذه التوراة التى بين أيدينا هى قياس مقدار تقوى أنبياء إسرائيل وشعب إسرائيل واليهودية ، فما أقل نصيب هذا الشعب من طهارة النفوس — وإن اهتموا بطهارة الملابس والأبدان وقشور الطهارة وماديتها ، وما أقل استحقاق هذا الشعب لما زعم من أنه شعب الله ولكنه

الغرور الذى دفعهم إلى أن يعبدوا أنفسهم وأن يحسبوا أنهم وحدهم الناس : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير »[١] . « قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل . لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون »[٢] .

ولنستمر فى قراءة سفر الملوك الأول : « فى ذلك الزمن مرض أبيًّا بن يربعام ، فقال يربعام لامرأته : قومى غيرى شكلك حتى لا يعلموا أنك امرأة يربعام واذهبى إلى شيلوه ، هو ذا هناك أخيًّا النبى الذى قال عنى إنى أملك على هذا الشعب ، وخذى بيدك عشرة أرغفة وكعكا وجرة عسل وسيرى إليه وهو يخبرك ماذا يكون للغلام » . إنه نبى يهودى لا يتنبأ إلا إذا أخذ أجر تنبؤه ، وما أيسره من أجر يقدمه ملك : عشرة أرغفة وكعك وجرة عسل . « ففعلت امرأة يربعام هكذا وقامت وذهبت إلى شيلوه ودخلت بيت أخيا ، وكان أخيا لا يقدر أن يبصر لأنه قد غامت عيناه بسبب شيخوخته . وقال الرب لأخيا : هو ذا امرأة يربعام آتية لتسأل منك شيئا من جهة ابنها لأنه مريض فقل لها كذا وكذا ، فإنها عند دخولها تتنكر . فلما سمع أخيا جس رجليها وهى داخلة فى الباب قال : ادخلى يا امرأة يربعام ، لماذا تتنكرين وأنا مرسل إليك بقول قاس ؟ اذهبى قولى ليربعام هكذا قال الرب إله إسرائيل ، من أجل أنى قد رفعتك من وسط الشعب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل وشققت المملكة من بيت

---

(١) المائدة ١٨ .

(٢) المائدة ٧٧ — ٨٠ .

داود وأعطيتك إياها و لم تكن كعبدى داود الذى حفظ وصاياى والذى سار ورائى بكل قلبه ليفعل ما هو مستقيم فقط فى عينى ، وقد ساء عملك أكثر من جميع الذين كانوا قبلك فسرت وعملت لنفسك آلهة أخرى ومسبوكات لتغيظنى وقد طرحتنى وراء ظهرك ، لذلك هأنذا جالب شرا على بيت يربعام وأقطع ليربعام كل بائل بحائط محجوزا ومطلقا فى إسرائيل ، وأنزع آخر بيت يربعام كما ينزع البعر حتى يفنى ، من مات ليربعام فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء لأن الرب تكلم . وأنت فقومى وانطلقى إلى بيتك وعند دخول رجلك المدينة يموت الولد ، ويندبه جميع إسرائيل ويدفنونه ... » .

لا تؤاخذوهم عندما يذكرون استقامة داود فقد نسوا الإفك الذى نسبوه إليه أو لعلهم لا يرون فى اغتصاب بتشبع امرأة أوريا الحثى عملا يغضب رب إسرائيل ونساؤهم تغتصب كل ليلة فى بلاط الملوك وقصور الأشراف وبيوت من يملكون الذهب المعبود .

كفر يربعام الذى اختاره رب إسرائيل ليكون ملكا على شعبه إسرائيل ، و لم يكن أحسن حالا من سليمان الذى زعموا أنه كفر — وما كفر سليمان — ففيم كان تمزيق المملكة وتنصيب يربعام على إسرائيل — على عشرة أسباط من بنى إسرائيل — ما دام الكفر هو غاية الجميع ؟! كفر يربعام ملك إسرائيل فماذا كان حال رحبعام بن سليمان ملك اليهودية ؟ : « أما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا ، وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك ، وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل ، واسم أمه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطأوا بها ، وبنوا هم أيضا لأنفسهم مرتفعات وأنصابا وسوارى على كل مرتفع وتحت كل شجرة

خضراء ، وكان أيضا مأبونون فى الأرض . فعلوا كل أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل » .

كفر يربعام وأشرك بالله فكفرت إسرائيل ، وكفر رحبعام فكفرت اليهودية وصارت إسرائيل بمملكتيها أمة كافرة تعبد الأصنام ، وانتشر فيها الفساد وكثر فيها المأبونون وصاروا كقوم لوط ، وبعد كل ذلك يزعمون أن الله فضلهم على العالمين وأنه اصطفاهم دون الناس : « أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[١] .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أفسدوا عقول كثير من الذين آمنوا بتوراتهم ، وإن المؤرخين لا يؤمنون إلا بما هو مكتوب أو محفور قد أخذوا هذه التوراة وحللوها على أنها دليل تطور العبرانيين من الشرك إلى الوحدانية ، ولم يخطر لهم أن الوحدانية كانت دين إبراهيم خليل الرحمن قبل العبرانيين ثم انتقلت إلى بنى إسرائيل واليهود ، فلما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ارتدوا إلى الوثنية فى عصر تدوين توراة المنفى وإن حسبوا أنهم يعيشون فى عصر انتفاضة دينية .

ومن الذين استقرءوا توراة المنفى عند دراسته للتطور الخلقى عند الشعوب جيمس هنرى برستد فى كتابه « فجر الضمير » ، ففى الفصل السابع عشر من كتابه يتحدث عن مصادر إرثنا الخلقى ، فبعد أن يسهب فى فضل مصر القديمة فى ظهور المبادئ الخلقية ويتحدث عن أثر المدنية البابلية ويخرج بنتيجة أن الفلسطينيين لم يأخذوا عن البابليين شيئا يذكر من معتقداتهم وآرائهم الدينية ، وأن العبرانيين قد اتصلوا خلال أسرهم فى الشرق — وهم فى مرحلة متأخرة من مراحل تقدمهم الدينى — اتصالا وثيقا بالمدنية الفارسية ووقفوا على الكثير من ديانة (زروستر) زرادشت .

---

(١) آل عمران ٨٧ .

إن برستد يسير على نظرية علماء المقارنة بين الأديان القائلة بأن الإنسان يرتقى فى الديانات كما يرتقى فى الصناعات ، فيبدأ بالشرك ثم يرتقى إلى الوحدانية ، وهذه النظرية تخالف النظرية الدينية الإسلامية التى تقول إن الإنسان كان على علم ما دام الله قد خلق آدم وعلمه الأسماء كلها ، ثم يطول على الناس العهد فتقسو قلوبهم فتغمر الأساطير الوحدانية فيشرك الناس بربهم فيبعث الله رسولا يرد الناس إلى الإسلام دين الوحدانية فلما يطول على الناس الأمد تقسو قلوبهم فيرتدون إلى الوثنية فيبعث الله رسولا ليعيدهم إلى جادة الصواب ، أى أن الوحدانية هى الأساس ثم الشرك فالوحدانية ثم الشرك فالوحدانية وهذه النظرية يؤيدها الواقع التاريخى لتطور البشرية .

ويروى برستد أن العبرانيين كانوا أيام يعقوب شعبا متبربرا ، وأن موسى المصرى هو أول زعيم قوى خلص العبرانيين من نير ظلم الفراعين وأنه ليس بنبى مرسل ، وقد يكون معذورا ما دام يعتمد على توراة المنفى فى استقاء معلوماته ؛ أما القرآن الكريم فلا يتفق مع الآراء التى خلص إليها برستد ، فالقرآن يقرر أن يعقوب كان يؤمن بوحدانية الله وبالبعث بعد الموت ، وأن موسى كان نبيا مرسلا يدعو إلى الله وحده ، وأن توراة المنفى إنما هى ردة وأن اليهود كتبوها بأيديهم بعد أن حرق بختنصر توراة الله وأبادها . يقول برستد : « ... وأما فى بلاد فلسطين التى احتلها العبرانيون فيما بعد ، فإن الكنعانيين الذين كانوا يسكنون هذه البلاد قبل العبرانيين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو المتحضر تبلغ أكثر من ألف سنة حينما غزا العبرانيون البلاد » .

وقد عرفنا من النقوش التاريخية البابلية والمصرية القديمة ، وكذلك من الحفائر الأثرية شيئا كثيرا عن هذه المدنية الفلسطينية الراقية النامية السابقة لعهد العبرانيين ، كما أنه كان للثقافة البابلية كما ذكرنا من قبل أثر هام خالد فى فلسطين الكنعانية ، وعن طريق الكنعانيين — بوجه خاص — وصل أثر

البابليين فى الفن والأدب والدين إلى العبرانيين ، يضاف إلى ذلك أن هذا الإقليم كان منذ زمن بعيد واقعا تحت نفوذ الحضارة المصرية القديمة . فقد بدأ المصريون يسطون سيطرتهم على الساحل الفينيقى قبل أن يطأ العبرانيون فلسطين بأكثر من ألفى سنة ، إذ اقتحمت الجيوش المصرية فلسطين قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م . ولما فتح الفراعنة المصريون آسيا الغربية ووصلوا فى فتحهم إلى نهر الفرات فى خلال القرن السادس عشر ق . م . بقيت فلسطين مستعمرة فى أيديهم أكثر من أربعة قرون . والواقع أنهم حكموا فلسطين مدة قرنين بعد دخول العبرانيين فيها ، وبذلك بلغت المدنية الكنعانية مرتبة سامية فى القرون التى احتلتها فيها مصر . فلما غزاها العبرانيون كانت قد صبغت مرارا وتكرارا بالعناصر المصرية ، وكان من نتائج ذلك أن العبرانيين حينما دخلوا فلسطين صاروا على اتصال مباشر بتلك الحضارة الكنعانية المركبة التى أنشئ معظمها من العناصر البابلية والمصرية القديمة معا . هذا فضلا عن أن تلك المدنية الكنعانية بمرورها فى تجارب اجتماعية طويلة ، كسبت كذلك عناصر ثقافية كثيرة من صنع الكنعانيين أنفسهم . الواقع الذى لا شك فيه أن اللغة التى وجدها العبرانيون والفاتحون هى اللغة الكنعانية لغة البلاد وقتئذ ، قد اتخذها العبرانيون أنفسهم لغة لهم وهى التى انحدرت إلينا فيما بعد فى ثوب اللغة العبرانية التى كتبت بها التوراة ، ومما يؤسف له أننا لا نعرف شيئا يذكر عن التاريخ الخلقى لذلك الشعب قبل الغزو الإسرائيلى .

وبتلخيصنا لموقف فلسطين من نواحيه المختلفة ، نرى أن تلك البلاد من الوجهة الجغرافية تقع على جسر طبيعى ضيق بين البحر الأبيض المتوسط من جهة والصحراء الغربية من جهة أخرى ، وهو جسر يقع بين قارتين طالما اتخذ طريقا عاما لربط إفريقية بآسيا منذ عهد ما قبل التاريخ .

أما من الوجهة السياسية فإن فلسطين كانت قديما كما هى الآن كرة

قدم دولية .

أما من الناحية الثقافية فإنها كما أوضحنا الآن كانت داخلة ضمن الإقليم التجارى الذى طالما كانت المعاملات البابلية تسيطر عليه ، كما كانت فى الوقت نفسه تقع مباشرة فى ظل صرح المدنية المصرية العظيمة . فالقوم الذين استقروا فى أرض فلسطين لم يجدوا أنفسهم فى وسط حضارة قديمة تكونت بالإقليم نفسه ومصبوغة إلى حد كبير بالصبغة المصرية القديمة فحسب ، بل كانوا يطلّون أيضا على مدنيات أعرض منها بكثير على كلا الجانبين فى آسيا وأفريقية ، فمن هذه البيئة الدولية البعيدة الأثر بالشرق الأدنى الذى كان يضم فلسطين بين جوانحه نشأت تلك الأفكار الخلقية التى غذّت العالم الغربى فى النهاية بالآراء الخلقية السائدة فيه الآن ؛ إذ وصلت إلينا عن طريق بقايا الأدب العبرانى وهو الذى كانت محتوياته الخلقية كما أسلفنا بعيدة كل البعد عن أن تكون من أصل عبرانى محض .

ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقى العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيا منزو فى الركن الجنوبى الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، فإن هذا الشعب لم يقم له نظام قومى خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ ق . م . ، ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير . وعلى أثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزأين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء ، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا ، وأما الجزء الآخر فإنه بعد أن مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها فى حياة قلقة شبه مستقلة تداولته فيها أيدى ممالك الشرق العظيمة قديما ، قد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ ق . م . بزمن قليل ، بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة — أو حياة جزء منهم — التى بدأت لأقل من ثلاثين سنة قبل عام ١٠٠٠ ق . م .

ـــ قد مكثت حوالى أربعة قرون وربع قرن وختمت فى باكورة القرن السادس قبل الميلاد . أى أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبا فى النصف الأول من الألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحى ، وفى تلك الفترة كان تقدم الثقافة فى مصر وفى بابل قد نضب معينه وصار يعد خبرا من أخبار التاريخ القديم .

وإنه لمن المستحيل علينا طبعا أن نضمِّن هذا الكتاب المحدود الحجم التاريخ الدينى والخلقى للعبرانيين القدامى حتى ولو بطريق التلخيص . على أن مهمتنا فى هذا الكتاب تضطرنا إلى الكشف عن العوامل الأجنبية الهامة التى عملت فى التطور الخلقى عندهم . ولكى نتمكن من القيام بذلك يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا بعض الحقائق البارزة فى التاريخ العبرانى . إذا كنا نريد حقا معرفة العناصر الأجنبية فى التطور الخلقى العبرانى .

كان ظهور العبرانيين لأول مرة فى ميدان التاريخ فى خطابات « تــل العمارنة » التى يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ ق . م . بقليل ، أى فى عهد يسبق بكثير أى أدب عبرانى وصل إلينا .

وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التى كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر ، حيث كانوا يدخلون هناك فى سلك الجنود المرتزقة ، ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئا منذ قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصرى الذى أقامه فى « طيبة » (الأقصر) « مرنبتاح » بن « رعمسيس الثانى » قبل سنة ١٢٠٠ ق . م . بنحو عشر سنين أو عشرين سنة ، فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله : « وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت » .

وقد كان هذا الحادث فى عهد القضاة وقت أن كانت الحياة العبرانية القومية لا تزال خاملة لا تكاد تعرف شيئا من الحكم المركزى أو النظام

القومى ؛ فقد كان العبرانيون لا يزالون متأثرين كل التأثر بحياة القرون الطويلة التى قضوها فى الرعى وتلمس الكلأ على حدود الصحراء قبل أن يدخلوا فلسطين ، فكانوا لا يزالون متمسكين بالعادات الساذجة المتبربرة الشائعة بين قبائل الصحراء ، بل ببعض التقاليد القريبة من الوحشية التى تلازم الحياة الفطرية مثل ذبحهم الولد البكر قربانا لإلـٰه القبيلة . وهذه الآلهة المحلية قد تكون مثل الشيطان الرجيم الذى كان فى ظنهم يسكن فوق قمة الجبل أو عند غدير الماء ، على غرار جنّى الليل المعتم الذى صارعه يعقوب (عليه السلام) عند غدير «جابوك » حتى أجبره على الفرار فزعا قبل انبثاق الفجر .

ومثل هذا الجنّى المحلى كان يطلق عليه فى الصحراء الواقعة جنوبى « يهوده » اسم « إيل » ، وهذا اللفظ ليس اسم علم وإنما هو الكلمة السامية القديمة التى كانت تطلق على أى إلـٰه محلى . وقد انحدر إلينا فى اسم « إسرائيل » وهو الاسم الذى أطلقه على « يعقوب » الكائن الذى صارعه . وقد بقى لنا كذلك فى طائفة من الأسماء مثل « ميخائيل » ومعناه الذى يشبه الإلـٰه . « وفى الأنحاء الشمالية من كنعان » كانت الآلهة المحلية عند الكنعانيين تسمى « بعولا » أو « أربابا » .

يقول برستد إن يعقوب صارع جنى الليل عند غدير « جابوك » وأن ذلك الجنى يطلق عليه اسم « إيل » ، وبرستد معذور فهو لم يستطع أن يتصور أن إنسانا يصارع إلـٰها فى كتاب مقدس ، وإن كانت الأساطير البابلية تفيض بمثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر ، فالإيل هو الله وكان الصراع بين الله وبين يعقوب فى توراة المنفى المتأثرة بأساطير البابليين وكان النصر ليعقوب .

كان برستد يقرأ التوراة التى بين يديه دون أن يخطر له على قلب أنها كتبت على أنقاض توراة الله التى اندثرت يوم غزا بختنصر إسرائيل ، وكان مستريحا إلى النتائج التى خلص إليها لأنها تتفق مع مبادىء علماء المقارنة بين الأديان وإن

اختلفت مع السنن الدينية التى قامت عليها كل الأديان ، وهى المعرفة فطول العهد فالردة إلى الوثنية فإرسال رسول ينفض عن الحقيقة ركام الأساطير ، حتى إذا ما أشرقت الحقيقة وطال على الناس الأمد قست قلوبهم فعادت الأساطير لتطمر الحقيقة فردة إلى الوثنية فإرسال رسول من لدن رب العالمين لتبدأ الدورة الدينية ، حتى كان الإسلام وكان وعد الله بحفظ الذكر الحكيم .

ولنعد إلى ما كتبه برستد فى كتابه فجر الضمير : « ومن الواضح أن بعض العبرانيين الرحل كانوا قد استعبدوا بعد لجوئهم إلى مصر فى زمن قحط حدث عندهم ، وقد قام من بينهم عبرانى امتاز بحسن سياسته وقوة قيادته البارعة ، ونصب نفسه عليهم وخلصهم من العبودية ، وبذلك صار يعد أول قائد عبرانى عظيم وصل إلينا اسمه .

ومن المهم أن نلاحظ أن موسى — وهو اسم ذلك القائد — كان اسما مصريا ، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة « مُس » ومعناها « طفل » وهى مختصرة من اسم مركب كامل كالأسماء « أمن مس » ومعناها « آمون طفل » أو « بتاح مس » ومعناها « بتاح طفل » وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل « آمون أعطى طفلا » أو « بتاح أعطى طفلا » . وقد لقى اختصار الاسم إلى كلمة « طفل » قبولا منذ زمن مبكر ، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم « مس » (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة . ولا شك فى أن والد « موسى » كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصرى مثل « آمون » أو « بتاح » ، ثم زال ذلك الاسم الإلهى تدريجيا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى « موسى » .

هذا هو رأى برستد فى تسمية موسى (عليه السلام) ، وهناك آراء أخرى تخالف هذا الرأى ، فقد قيل إن مو معناها ماء وشا معناها شجر ، ولما كان

الطفل قد وجد فى الماء بين الشجر فقد أطلق عليه موشى ، وعلى أى حال فقد صار موسى فى الإسلام رسولا من ذوى العزم . ويقول برستد : « على أن ما أظهره « موسى » من الحذق فى القيادة مع الشجاعة والمهارة فى تخليص شعبه من العبودية الأجنبية ، وكذلك حادثة التخليص نفسها التى صاحبتها بعض الكوارث الطبيعية التى قضت على الجيش المصرى المقتفى لآثار « موسى » ومن تبعه ــ كل ذلك لقى مكانة لا تمحى فى المعتقدات العبرانية ، وجعل للعبرانيين إرثا أصليا من الفخار كان هو أقدم الأسباب التى ألفت بينهم وجعلت منهم أمة واحدة » .

توراة المنفى لا توحى بأكثر مما استخلصه برستد منها ، فموسى فيها لا يزيد على قائد عبرانى خلص قومه من ذل العبودية ، فقد عجزت تلك التوراة على أن تصور حياة موسى الروحية . ولولا القرآن الكريم الذى وضح رسالة موسى وصلته الطيبة برب الكون لما كان موسى أكثر من زعيم من بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن برستد يستعمل كلمة « عبرانى » عوضا عن كلمة بنى إسرائيل واليهود ، فهو لا يريد أن يدخل فى تحديد الفرق بين بنى إسرائيل واليهود ، وإن لفظة « عبرانى » لا تدل دلالة أكيدة علمية صحيحة على بنى إسرائيل واليهود ، فقد استعملت لكل من عبر النهر من العراق إلى الشام قبل عبور إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولم يكن إبراهيم عليه السلام من بنى إسرائيل ولا يهوديا فهو أبو إسماعيل وإسحاق ، أبو العرب وبنى إسرائيل جميعا ، وما اليهود إلا سبط من أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

ويقول برستد : « وفى خلال مرحلة مبكرة من مراحل تلك الأحداث تخلف « موسى » فى الصحراء جنوبى فلسطين عند قبيلة من القبائل البدوية التى تعرف بأهل « مدين » ، وكان مكثه هناك كثيرا وبخاصة مع أحد خدامهم المقدسين الذى يدعى شعيب Jethro حتى إنه عرف عنه شيئا عن

إلـٰههم المحلى « يهوه »[١] .

وهذا الإقليم الممتد من « سيناء » شمالا ، وبخاصة على طول الأخدود العظيم الذى نتج فيه « البحر الميت » ووادى نهر الأردن ، تتوافر فيه البيئـات الجيولوجية الدالة على وقوع ثوران بركانى حديث نوعا . ولا شك فى أن الرواية العبرانية التى ذكرت فى سفر التكوين (١٩ : ٢٣ — ٢٨) عن تخريب « سدوم » و « عمورة » ، وهما مدينتان كانتا فى تلك البقعة بالنار والكبريت » من السماء ، ليست إلا إشارة مبهمة عن حدوث انفجار بركانى لم تنس ذكراه القبائل المحلية فى العهد العبرانى المبكر .

وقد صحب خروج العبرانيين من مصر خوارق جاء وصفها فى كتاب العهد القديم ، لا شك فى أنها ذات صبغة بركانية ، فالمظهر الغريب الذى ظهر به « يهوه » فى صورة « عمود نار » أو « عمود من دخان » ، ثم تجليه فوق « طور سيناء » نهارا محدثا « للرعد والبرق والسحاب الكثيف » هى بالبداهة ظواهر بركانية ، وعلى ذلك كان من المعترف به منذ زمن أن « يهوه » ليس إلا إلـٰها محليا للبراكين وكان مقره المختار « طور سيناء » ، ولكن العبرانيين تخلوا بتأثير من « موسى » عن آلهتهم « الوهيم »[٢] القدامى واتخذوا « يهوه » لهم إلـٰها واحدا .

---

(١) وقد أدى ازدياد تقديس هذا الإسم عند اليهود إلى أنهم لفظوا بكلمة عبرانية تدل على « رب » بدل كلمة «يهوه » وهذا الاستعمال أدى فى النهاية إلى فقدان النطق القديم لكلمة « يهوه » وصارت حروفها الأربعة ساكنة « ى هـ ف ه » تلفظ بإضافة الحركات التى تستعمل مع كلمة « رب » فى العبرية ، وبذلك أصبحت كلمة « يهوه » تلفظ جهوفه « يهوفاه » وهو صورة لهذا الاسم ليس له أصل قديم قط .
(فجر التاريخ : بريستد — ترجمة سليم حسن)

(٢) ألوهيم : جمع كلمة إيل .

على أنه لا بد من باعث آخر دعا إلى ذلك الانقلاب العظيم أقوى من تأثير « موسى » قائدهم الكبير . فمن الواضح أن التخلص من النير المصرى كان مصحوبا ببعض الظواهر الرهيبة التي عزيت إلى بطش « يهوه » الشديد . وإن الرأى القائل بحدوث انفجار بركانى فى « سيناء » حينما ضاق الخناق على العبرانيين فى خروجهم يجد من الأسباب ما يبرره ، إذ يمكن أن نفرض أن الزلزال الذى صحب ذلك الانفجار وموجة المد التى نتجت عن ذلك ، هما اللذان أفضيا إلى ابتلاع الجنود المصريين الذين كانوا يتعقبون أثر القـــوم الفارين .

ومهما يكن من أمر فإن الاعتقاد بأن العبرانيين عندما دخلوا منطقة « يهوه » الواقعة بالقرب من جبل سيناء نجاهم هو ببعض المظاهر العظيمة لقوته وعطفه قد احتل مكانة ثابتة فى المعتقدات العبرانية المأثورة ، وحينما أقيم محراب ذلك الإلـه بعد مضى زمان طويل على ذلك فى « بيت المقدس » صوره عباده من الإسرائيليين بأنه آت من « سينا » فى قوة وأبهة ليتخذ مثواه فوق جبل « صهيون » .

يفترض برستد افتراضات ليواكب بين مذهبه المادى فى تحليل التاريخ الدينى وأحداث التوراة ، و لم يبد أى شك فى توراة المنفى و لم يناقش موضوع تدوين التوراة بعد موت موسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة ، و لم يكشف عن أثر الأساطير البابلية والفرعونية فى عقلية الذين كتبوا التوراة بأيديهم ، وعيب الذين يستنطقون الكتب المقدسة التى كتبت بعد موت أصحاب الرسالات بمئات السنين أنهم يفترضون أن تلك الكتب لا يأتيها الباطل من بين يديها فيصمون أحيانا رسل الله بالشرك ، ولا يرفعون أصابع الاتهام فى وجه الذين دونوا تلك الكتب بعد أن زاغت قلوبهم عن الإيمان الصحيح .

جعلوا موسى عليه السلام يستعين بثعبان من نحاس ليشفى الناس ، وجعلوا السيد المسيح الذى جاء ليسخر من عقيدة القرابين أكبر قربان فى تاريخ البشرية ، فالذين عبثوا بالكتب المقدسة كانوا متأثرين بالمجتمع الذى كانوا يعيشون فيه وبعقائد ذلك المجتمع . وكل دراسة عن الكتب المقدسة بعيدة عن دراسة الزمن الذى دونت فيه ومعتقدات الناس فى ذلك الزمن والأساطير التى كانت ذائعة وقت التدوين فهى دراسة مبتورة تشوه الحقيقة ولا تخدم التاريخ .

ولا يعرف القرآن الكريم يهوه ولا الإيل بل يقرر فى وضوح أن للكون ربا واحدا هو رب آدم ورب نوح ورب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ومحمد والأنبياء جميعا والمرسلين ، ورب الناس رب العالمين ، له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فهو الذى نجى بنى إسرائيل من آل فرعون ، فإن كانت الزلازل والبراكين قد ثارت وأغرقت فرعون وجنوده فقد أتى ذلك بأمر الله ، وإلا كيف نعلل هذه الدقة فى التوقيت ؟ ولماذا ننسب الخوارق إلى الصدفة إذا كنا نؤمن بأن لهذا الكون ربا يدبر أمره وأن له الأمر جميعا ؟!

إن برستد لا يرى فى شرك بنى إسرائيل بالله ردة عن التوحيد الذى عرفه آباؤهم ، لأنه لو اعترف بذلك لهدم نظرية علماء المقابلة بين الأديان القائلة بترقى الإنسان فى الدين . ويثور سؤال : هل كان إبراهيم موحدا أو كان من المشركين ؟ والجواب : كان إبراهيم خليل الرحمن يعبد الله وحده ، وقد اعترفت توراة المنفى بهذه الحقيقة ، وعلى ذلك سبق التوحيد الشرك ، فإن كان بنو إسرائيل قد أشركوا بالله بعد أن عرفوا الواحد القهار ، فهذه ردة لا تتفق مع نظرية علماء المقابلة بين الأديان وإن اتفقت كل الاتفاق مع النظرية القرآنية القائلة بالتوحيد فالشرك فإرسال رسول يعيد الناس إلى التوحيد ، وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى بنى إسرائيل بعد أن عبدوا العجل أسوة بقدماء

المصريين ليعيدهم أولا إلى التوحيد ثم يخلصهم من ذل آل فرعون المهين .

ويقول برستد : « أما آلهة العبرانيين القدامى (إيل) التى لم يكن لها لون ولا أسماء أعلام يستدل بها على كل منها وليس لها شخصية ولا أصل تاريخى ، فإنهم استمروا طويلا منافسين ضعفاء لإلـٰههم « يهوه » بعد أن استوطن الإسرائيليون فلسطين . وأما الآلهة التى كانت أشد بأسا فى مناهضة « يهوه » فهم « البعول » الكنعانيون ، وبالرغم من أن العبرانيين كانوا قد اتخذوا « يهوه » إلـٰههم القومى فإنه كان يوجد الكثير من بينهم من تمسك باعتقاده فى الآلهة الأخرى مثل البعول ، وكثيرا ما كانوا يتخذونها معبودات لهم من دون إلـٰههم . على أن وجود نفس اسم « يهوه » كأنه علم مثل « أبوللـو » أو « المريخ » لدليل على وجود آلهة أخرى لها أسماء أعلام مثله ، ونجد فى التعليم الأول الذى وضعه « يهوه » نفسه لبنى إسرائيل أنه كان يعلم بوجود الآلهة الأخرى ولذلك قال : « لن تكون لكم آلهة أخرى قبلى » .

وزعم برستيد بأن « الإيل » كانت آلهة العبرانيين القدامى فهو زعم مردود إن كان يقصد بالعبرانيين بنى إسرائيل واليهود وحدهم ، « فالإيل » كان رب إبراهيم وقد نسب إليه ابنه إسماعيل قبل أن يعرف يعقوب باسم إسرائيل ، والإيل عند إبراهيم هو الله وحده رب الناس إلـٰه الناس ، ولا أعتقد أنه كانت هناك منافسة بين « الإيل » و « يهوه » ولا يمكن تصور مثل هذه المنافسة إلا إذا أمكن أن نتصور أن هناك منافسة بين الله والرحمن . ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . لقد عبد بنو إسرائيل البعول آلهة الكنعانيين والقرآن المجيد يؤيد هذه الحقيقة : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين »[١] .

إن المتصوفين عند ذكر الله يقولون : هو ، فهل يعقل أن نقول أن هناك منافسة بين الله وبين هو ، وأن الله وهو إلـٰهان متنافسان فى دين الإسلام ؟! وإذا

---

(١) الصافات ١٢٥ .

نادى المسلمون ربهم بقولهم يا ألله ونادى المتصوفون ربهم بقولهم يا هو ، فهل يقال إن المسلمين يعبدون ربا غير رب المتصوفين ؟! إن ما فعله موسى — إن كان قد أطلق على ربه اسم « يهوه » — لا يختلف فى كثير عما فعله المتصوفون المسلمون ، وإن « الإيل » و« يهوه » و« الرب » فى كل لغات العالم ما دامت تشير إلى خالق السماوات والأرض وما بينهما فهى من أسماء الله ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

ويسير برستد على هدى نظرية علماء المقارنة بين الأديان فيقول : « وقد كان سير الإسرائيليين فى الانتقال من عبادة آلهة عدة إلى عبادة إلـٰه واحد لجميع العالم بطيئا تدريجيا حتى لقد استغرق عدة قرون . كما نجد كذلك أن تصور العبرانيين فيما يختص بأخلاق إلـٰههم قد مر فى عدة أطوار منذ الوقت الذى كانوا فيه مبتهجين بقوة إلـٰههم الطبيعى التى كانت تحطم الكنعانيين وتذبحهم ، إلى أن وصلوا إلى تصور الإله أبا رحيما عادلا . وإن الذى يجعل فى استطاعتنا للآن أن نتعرف بعض الخطوات فى ذلك التطور الذى به تخطى الإسرائيليون فى تفكيرهم إلـٰه الطبيعة ، هو كتابات الأنبياء العبرانيين بوجه خاص ، حيث يتبين لنا أن ذلك الإلـٰه مع استمراره فى حمل إلـٰه البركان القديم « يهوه » فإن الشعب العبرانى أخذ ينظر إليه تدريجيا بمثابة قوة فعالة فى المجتمع البشرى .

ولا بد أن النشأة المصرية القديمة التى يرجع إليها الفضل فى جعل موسى قائدا عظيما قد ساهمت فى إدراكه لتلك الصور الواجبة (ليهوه) فى حياة قومه ، فإننا نرى مثلا أن نشأة « موسى » فى مصر وتسميته باسم مصرى جعلاه يحض مواطنيه على الأخذ بشعيرة الختان وهى عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل ، ويرجع عهدها إلى ما لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو تزيد قبل عصره ، وتنسب المعتقدات العبرانية

دائما أصل تلك الشعيرة إلى « موسى » (عليه السلام) . هذا وإن اتخاذ موسى لعادة مصرية مقدسة واعتبارها علامة لبنى إسرائيل مع أنها شعيرة ألفها بداهة فى مصر منذ نعومة أظفاره ، يعد فى الوقت نفسه برهانا قاطعا على أنه كان يستقى تعاليم مما كان يعرفه عن الديانة المصرية القديمة . على أن « موسى » لم يكن عبدا لمحاكاة التقليد المصرى القديم ، ويظهر لنا ذلك عندما نراه اتخذ عن أهل « مدين » يهوه إلـٰها له . ولما كان أهل « مدين » قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة فى الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لآلهتهم ، فإنه ترك « يهوه » دون أن يصنع له صورة أو تمثالا ما ، كما كان الحال عند أهل « مدين » من قبل » .

وللأسف فإن برستد يغالط فى حقائق وردت فى التوراة — وإن كانت هى نبراس دراسته — ليبرهن على نظريته القائلة بأن موسى عليه السلام أخذ تعاليمه عن قدماء المصريين ، فهو يزعم أن الختان شعيرة اتخذها موسى عليه السلام عند قدماء المصريين لتكون علامة بين بنى إسرائيل ، بينما تقول التوراة إن الختان شعيرة إبراهيم خليل الرحمن وأنه أمر بختان الذكور فى اليوم السابع من مولدهم ، وقد ختن إسماعيل وهو ابن ثلاث عشر سنة ، وختن إسحاق فى السابع من مولده ، وقد سبق أن قلت إن الختان كان معروفا عند البابليين وإنها عادة كانت منتشرة بين قوم إبراهيم ، وأن خليل الرحمن لا بد أنه اختتن قبل أن يهاجر إلى ربه ، وأن دعوى أن الختان علامة بين الرب وبين بنى إسرائيل إن هى إلا من ثمرة عقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ليكون لبنى إسرائيل فضل على العالمين .

وزعم أن أهل مدين لم يصنعوا لإلـٰههم تمثالا لأنهم قوم بدو سذج ليس لهم من المهارة فى الفنون ما يمكنهم من صنع تماثيل لإلـٰههم ، وأن موسى لم يصنع تمثالا لإلـٰهه اقتداء بأهل مدين ، ودارس التوراة يكتشف هذا الزيف ، فرب إسرائيل قد نهى عن صنع التماثيل حتى لا يرتد عباده إلى الوثنية وعبادة الأصنام

والأوثان ، فعدم صنع موسى تمثالا لربه يعود إلى أن صناعة التماثيل كانت محرمة عليه ، و لم تمنع عدم المهارة الفنية الأقوام السذج من اتخاذ صخرة رمزا للإلـٰه ، وإن ما فعله بنو إسرائيل بعد موسى من صنع تمثال لإلـٰههم إن هو إلا ردة ، فالمطلق لا يمكن تجسيده وإذا جسد لم يعد مطلقا ، فصنع التماثيل للإلـٰه ليس تقدما دينيا بل هو نكسة فى المفهوم الدينى الذى يقرر أن كل ما خطر على بالك فالله على خلاف ذلك .

لم يصنع موسى تمثالا لربه فقد كان يقدر الله حق قدره ، ولكن برستد وجد فيما كتبه كتَّاب التوراة عن موسى شيئا من الوثنية فلم يحاول أن ينفى عن موسى عليه السلام تلك المزاعم بل سارع يفسر ذلك بأن موسى لم ينس التماثيل الدينية المصرية : « على أننا نجد أن « موسى » كان يتمسك ببعض الذكريات عن التماثيل الدينية المصرية ، فقد كان هو نفسه يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك فى أنها كانت فى صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » ، كما كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس . وكان هذا الثعبان بطبيعة الحال أحد تلك الثعابين المقدسة العديدة فى مصر . وقد بقيت صورة ذلك الإلـٰه المصرى القديم عند العبرانيين إلى ما بعد استيطانهم فلسطين بزمن طويل ، واستمروا فى إطلاق البخور له مدة خمسة قرون بعد عهد « موسى » ، و لم يبعد من البيت المقدس إلا فى حكم « حزقيائيل » فى أواخر القرن الثامن ق . م . (سفر الملوك الثانى ١٨ : ٤) .

على أنه قد احتفظ العبرانيون إلى العهد المسيحى بقول مأثور عندهم يقرر أن « موسى » كان متفقها « فى كل حكمة المصريين » (الإصحاح السابع الآية ٢٢) ، وهو قول لا يكاد يوجد ما يدعو إلى الشك فى صحته ، على أنه لم يكن فى مقدورنا إلا فى السنين الأخيرة أن نفهم المصادر التى وصلت إلينا عن حياة المصريين القدماء فهما كافيا ندرك به أن « حكمة المصريين » كانت

قبل كل شيء عبارة عن التأملات والتدبرات الاجتماعيـة ، ولا شك أن « موسى » كان ملما بأقوال أولئك الأنبياء الاجتماعيين الذين كانت أقدم كتاباتهم ــ كما ذكرنا فيما سبق ــ متداولة بين المصريين منذ ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى فى تعليم قومه . ومن البديهى أن رجلا مثله نشأ محاطا بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزاما عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود به قومه » .

إن برستد يقرر أشياء يحاول أن يلبسها ثوب الحقيقة ، فهو يقول إن موسى كان يحمل عصا سحرية عظيمة لا شك فى أنها كانت فى صورة ثعبان ، فمن أين جاء بهذا التأكيد ؟ إنه كان يحمل عصا ليهش بها على غنمه ، عصا مثل كل عصى الرعاة ، فمن ذا الذى حول العصا إلى صورة ثعبان ؟ وإن كان بين أصحاب موسى فنان قادر على تحويل العصا إلى هيئة ثعبان فهل كان موسى عليه السلام يسمح له بذلك وهو الذى قال لبنى إسرائيل فى وصاياه : « محظور عليك أن تصنع لنفسك تمثالا منحوتا أو (صورة) أى شكل فى السماء أو فى الأرض أو الماء » .

إنه يحاول أن يربط بين العصا وبين تحولها إلى ثعبان بقدرة الله تتلقف ثعابين السحرة ، فجعل العصا على صورة ثعبان تسكن فيها قوة « يهوه » . « وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى »[1] .

وزعم برستد أن موسى عليه السلام كان ينصب ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وقد يكون معذورا فى هذا الزعم فهذا ما تقرره توراة المنفى ، ولكن كان عليه أن يناقش هذه الدعوى الظالمة وبين يديه نفس توراة

---

(١) طه ١٩ ــ ٢١ .

المنفى التى تعترف بأن موسى عليه السلام حظر على بنى إسرائيل صنع التماثيل ، فكيف ينهى عن شيء ثم يفعله ؟!

إن فكرة الثعبان النحاسى التى جاءت فى التوراة استهوت برستد لأنها أتاحت له فرصة الربط بين ذلك الثعبان والثعابين المقدسة المصرية ، فلم يحاول أن يميط اللثام عن زيف الفكرة بل تلقفها ليدلل بها على نظريته بأن موسى عليه السلام كان متأثرا فى كل تعاليمه بالديانة المصرية القديمة .

عبد بنو إسرائيل العجل وموسى عليه السلام بينهم ، فهل نستدل من ذلك أن موسى عليه السلام قد عبد العجل ؟ كان بنو إسرائيل متأثرين بالديانة المصرية القديمة وقد بعث الله إليهم موسى عليه السلام ليعيدهم إلى عبادة الله وحده ، ولولا دعوته إلى عبادة رب الناس إلـٰه الناس لما كان هناك من سبب لنشوب العداوة بينه وبين فرعون ما دام كان يدعو إلى ديانة الفراعين .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا متأثرين بديانة المصريين القدماء وقد زعموا أن موسى عليه السلام قد اتخذ ثعبانا من النحاس البراق ليشفى به الناس ، وهو زعم لا يمكن لعقل سليم أن يتصوره إذا ما عرف أن موسى عليه السلام كان ينهى عن صنع التماثيل ، وأن ذلك جاء فى توراة المنفى التى عادت تقرر اتخاذ موسى لتمثال ثعبان . وإنه لزعم لا يقبله عقل إذا عرف أن موسى الذى يدعو إلى عبادة الله وحده يتخذ ثعبانا دون أن يدرى أن ذلك شرك بربه . وأن حزقيال يكتشف بعده بمئات السنين أن ذلك الثعبان ليس من الدين فى شيء فيرفعه من بيت المقدس .

موسى عليه السلام ينهى عن صنع التماثيل ثم يحول عصاه إلى صورة ثعبان ، وليس ذلك فقط بل يصنع تمثالا من النحاس البراق ليشفى به الناس . مزاعم متهافتة لا تتفق مع المنطق وإن كانت تتواكب مع أفكار الكهان الذين حوروا توراة الله إلى سجل يبخس قدر الأنبياء ويلطخهم بعار الشرك وعار الجنس

ويحض الناس على التمسك بتوافه المظاهر المادية ويبشرهم برضا الرب ما داموا محافظين على حقوق الكهنة من لحوم وهدايا وأنفال .

ولندع برستد مؤقتا ونعود إلى التوراة نستأنف معها رحلتنا لنرى أن دولة إسرائيل انقسمت إلى دولتين وأصبح لكل منهما ملك . ففى السنة الثانية عشرة للملك يربعام ملك أبيام على يهوذا ، « وفى السنة العشرين ليربعام ملك إسرائيل ملك آسا على يهوذا ، ملك إحدى وأربعين سنة فى أورشليم واسم أمه معكة ابنة أبشالوم ، وعمل آسا ما هو مستقيم فى عينى الرب كداود أبيه ، وأزال المأبونين من الأرض ونزع جميع الأصنام التى عمل آباؤه ، حتى إن معكة أمه خلعها من أن تكون ملكة لأنها عملت تمثالا لسارية ، وقطع آسا تمثالها وأحرقه فى وادى قدرون ، وأما المرتفعات فلم تنزع إلا أن قلب آسا كان كاملا مع الرب كل أيامه . وأدخل أقداس أبيه وأقداسه إلى بيت الرب من الفضة والذهب والآنية . وكانت حرب بين آسا وبعشا ملك إسرائيل كل أيامهما . وصعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكيلا يدع أحدا يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا ، وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية فى خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبيده : وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حربون ملك آرام الساكن فى دمشق قائلا : إن بينى وبينك وبين أبى وأبيك عهدا ، هو ذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك إسرائيل فيصعد عنى . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التى له على مدن إسرائيل وضرب عيون ودان وآيل بيت معكة وكل كنَّروت مع كل أرض نفتالى . ولما سمع بعشا كف عن بناء الرامة وأقام فى تِرصة . فاستدعى الملك آسا كل يهوذا . لم يكن برىء . فحملوا كل حجارة الرامة وأخشابها التى بناها بعشا وبنى بها الملك آسا جميع بنيامين والمصفاة ، وبقية كل أمور آسا وكل جبروته وكل ما فعل والمدن التى

بناها أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا . غير أنه فى زمان شيخوخته مرض فى رجليه ، ثم اضطجع آسا مع آبائه ودفن مع آبائه فى مدينة داود أبيه وملك يهو شافاط ابنه عوضا عنه » .

كانت قلوبهم شتى حتى قبل أن تنقسم دولتهم إلى دولتين ، أما وقد صارت إسرائيل دولة واليهودية دولة أخرى فقد تجاوزت العداوة القلوب إلى إعلان الحرب واستغاثة ملك اليهودية بملك دمشق . ولم يتعال ملك يهوذا على ملك دمشق ولم يقل إنه من الأمم من كلاب البشرية ، بل انحنى له فى ود وقدم إليه الهدايا ليحقق مآربه الدنيوية . واستمرت الحروب بين إسرائيل واليهودية ، وما من ملك من ملوكهم سار فى طريق الرب ، أصابتهم جميعا لعنة كتّاب التوراة التى صبوها بلا حساب على أنبياء الله وكل الملوك بلا تفريق . وقد جعلوا الله يقول عن بعشا : « من أجل أنى قد رفعتك من التراب وجعلتك رئيسا على شعبى إسرائيل ، فسرت فى طريق يربعام وجعلت شعبى إسرائيل يخطئون ويغيظوننى بخطاياهم ، هأنذا أنزع نسل بعشا ونسل بيته وأجعل بيتك لبيت يربعام بن نباط ، فمن مات لبعشا فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء ، وبقية أمور بعشا وما عمل وجبروته أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل ؟ واضطجع بعشا مع آبائه ودفن فى ترصة ، وملك أيلة ابنه عوضا عنه » .

لم يستطع الذين كتبوا التوراة أن يفهموا أن الملك لله يؤتيه من يشاء : فإذا انتقل الملك من بيت إلى بيت فذلك فى زعمهم دليل غضب الله على أهل بيت الملك الذى زال . ولا بد أن الملك قد أغضب الرب حتى نزع منه الملك ، وليس لزوال الملك تفسير آخر عندهم . فالملك هو غاية المراد من الرب ، ما داموا لا يؤمنون ببعث ولا نشور ولا جنة إلا جنتهم الأرضية ، والسلطان هو الأمل المنشود والغاية التى ما بعدها غاية حتى لو جلب الشقاء ، فزوال

ذلك النعيم الأرضى يحمل فى طياته غضبا ربانيا ، والغضب الربانى لا يكون إلا بعصيان الرب وتنكب طريقه . وكان هذا الفهم هو المسيطر على عقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، وكان جزاء كل من انتزع الملك منه أن « من مات لذلك الملك فى المدينة تأكله الكلاب ، ومن مات له فى الحقل تأكله طيور السماء » . والقرآن الكريم يعارض هذه النظرية الخاطئة : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير »(١) .

ويستمر الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى تسجيل تاريخ إسرائيل واليهودية ، ويلاحظ أن ما من ملك إلا وكان معه نبى . والنبوة عند بنى إسرائيل تختلف فى معناها عن النبوة فى الإسلام ؛ فالنبى فى التوراة هو الملهم الذى يخبر بشىء من أمور الغيب المستقلة ، وقيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، أما النبوة فى الإسلام فهى مقترنة بوحى الله ، والنبى من أوحى الله إليه وحيا ، فإن أمره بتبليغه كان رسولا : فكل رسول نبى وما كل نبى رسول . وقد انقطعت النبوة والرسالة معا بعد محمد ـــ ﷺ .

وجاء فى تفسير « نبى . أنبياء . نبوة » من قاموس الكتاب المقدس المطبوع فى المطبعة الأمريكانية فى بيروت سنة ١٨٩٤ ما نصه :

« النبوة لفظة تفيد معنى الإخبار عن الله وعن الأمور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمى هارون نبيا لأنه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته (خروج ٧ : ١) . أما أنبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية وينبئون بمجىء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم فى أيام صموئيل أقام مدرسة فى الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بنى

---

(١) آل عمران ٢٦ .

الأنبياء ، فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون فى مواضع كثيرة من الكتاب . وتأسست أيضا مدارس أخرى للأنبياء فى بيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أو سيدا ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الأنبياء وبنى الأنبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين أو طوافين يضافون عند الأتقياء .

ويظهر أن كثيرين من الذين تعلموا فى تلك المدارس لم يعطوا قوة على الإنباء بما سيأتى ، إنما اختص بهذه الخصوصية أناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على أن بعض الأنبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا ، فإنه كان راعيا وجانى جميز .

أما النبوة فكانت على أنواع مختلفة كالأحلام والرؤى والتبليغ ، وأحيانا كثيرة كان الأنبياء يرون الأمور المستقبلة بدون تمييز أزمنتها ، فكانت تقترن فى رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة ... » .

فالنبوة عند بنى إسرائيل كانت صناعة تعلم موادها فى المدارس ويستعان على الإقناع بها بالتخيلات الشعرية والإلهامات الكلامية والمؤثرات الغنائية والموسيقية والمعلومات المكتسبة ، وكان أنبياؤهم متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الأتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق فى المسلمين . فلا عجب إن فاضت توراة المنفى بمعاصيهم فهم ليسوا معصومين من المعاصى والرذائل ، فالله لم يرسلهم إلى البشر لهدايتهم بل استمدوا نبوتهم من الأحلام والرؤى المنامية والتخيلات

المبهمة والإخبار عن الأمور المستقبلة ، وما أكثر ما كانت نبوءتهم تخطىء . وقد كانوا لا يفترقون فى كثير أو قليل عن العرافين والمنجمين بله الروحانيين المكاشفين .

ولنعد إلى التوراة لنرى كيف ارتد بنو إسرائيل بعد أن عرفوا التوحيد ، وكيف ذبحوا أبناءهم قربانا لآلهتهم بعد أن قضى إبراهيم الخليل على هذه العادة ، وكيف عادوا لعبادة آلهة الشعوب بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

« وآخاب بن عُمرى ملك على إسرائيل فى السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهوذا ، ومَلك أخاب بن عمرى على إسرائيل فى السامرة اثنتين وعشرين سنة . وعمل آخاب بن عمرى الشر فى عينى الرب أكثر من جميع الذين قبله ، وكأنه كان أمرا زهيدا سلوكه فى خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له . وأقام مذبحا للبعل فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة . وعمل آخاب سوارى وزاد أخآب فى العمل لا غاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله ، فى أيامه بنى حينيل اليتشيلى أريحا ، بأبيرام بِكره وضع أساسها . ويسجوب صغيره نصب أبوابها حسب كلام الرب الذى تكلم به عن يد يشوع بن نون » .

هل كان ذبح الابن البكر عند وضع أساس أريحا بأمر من رب إسرائيل ؟ وهل أوحى الله إلى يشوع بن نون أن يذبح بانى أريحا بكره عند وضع أساسها ؟ يا رب ! ما كل هذا الظلام الذى يخيم على توراة المنفى ؟ إن أنفاسى تضيق وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، وأعوذ بجلال وجهك يا نور السماوات والأرض أن تكون كل هذه الظلمات من وحيك . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عميت قلوبهم التى فى صدورهم عن نورك ، فغمسوا أقلامهم فى

ظلمات أفئدتهم فجاءت توراتهم تنبض بحقدهم وقسوتهم وفساد القصور التى كانوا فيها يتمرغون .

« وقال إيليا التشبى من مستوطنى جلعاد لآخاب : حى هو الرب إلٰه إسرائيل الذى وقفت أمامه : إنه لا يكون طل ولا مطر فى هذه السنين إلا عند قولى .

وكان كلام الرب له قائلا : انطلق من هذا واتجه نحو المشرق واختبىء عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر ، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق واعمل حسب كلام الرب . فذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، وكانت الغربان تأتى إليه بخبز ولحم صباحا وبخبز ولحم مساء وكان يشرب من النهر . وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض .

وكان له كلام الرب قائلا : قم اذهب إلى صرفة التى لصيدون وأقم هناك ، هو ذا قد أمرت هناك امرأة أرملة تعولك ، فقام وذهب إلى صرفة ، وجاء إلى باب المدينة وإذا بامرأة أرملة هناك تقشّ عيدانا فناداها وقال : هاتى لى قليل ماء فى إناء فأشرب ، وفيما هى ذاهبة لتأتى به ناداها وقال : هاتى لى كسرة خبز فى يدك . فقالت : حى هو الرب إلٰهك . إنه ليست عندى كعكة ولكن ملء كف من الدقيق فى الكوّار وقليل من الزيت فى الكوز ، وهأنذا أقش عودين لآتى وأعمله لى ولابنى لنأكله ثم نموت . فقال لها إيليا : لا تخافى ادخلى واعملى كقولك ، ولكن اعملى لى منها كعكة صغيرة أولا واخرجى بها إلى ، ثم اعملى لك ولابنك أخيرا ، لأنه هكذا قال الرب إلٰه إسرائيل : إن كوّار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذى فيه يعطى الرب مطرا على وجه الأرض . فذهبت وفعلت حسب قول إيليا وأكلت هى وهو وبيتها أياما . كوار الدقيق لم يفرغ وكوز الزيت لم ينقص حسب قول الرب الذى تكلم به عن

يد إيليا .

وبعد هذه الأمور مرض ابن المرأة صاحبة البيت واشتد مرضه جدا حتى لم تبق فيه نسمة . فقالت لإيليا ما لى ولك يا رجل الله ؟ هل جئت إلى لتذكيرى إثمى وإماتة ابنى ؟ فقال لها : أعطينى ابنك . وأخذه من حضنها وصعد به إلى العلية التى كان مقيما بها وأضجعه على سريره ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الربّ إلـٰهى أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها . فتمدد على الولد ثلاث مرات وصرخ إلى الرب وقال : يا رب إلـٰهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه . فسمع الرب لصوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه ، وقال إيليا : انظرى ابنك حى ، فقالت المرأة لإيليا : هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب فى فمك حق » .

فى أى شريعة يصرح لرجل أن يبيت مع امرأة غريبة فى بيت واحد ، سواء أكان يبيت فى العالية أم فى حجرتها ؟ إن الذين كتبوا التوراة زعموا أن الله أوحى إلى إيليا أن ينطلق إلى بيت الأرملة الخاطئة ليعيش عندها ، فإيليا ليس من خريجى معهد الأنبياء فحسب بل قد أوحى إليه ، فهل يعقل أن نبيا سخر الله له الغربان لتطعمه خبزا ولحما فى الصباح وفى المساء يتهم ربه بالإساءة دائما فيقول له فى قحة : أأيضا إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ إنه قول يكشف رأى رجل الله فى ربه وهو قول تقشعر منه أبدان الذين يتقون الله حق تقاته ، سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون .

« وبعد أيام كثيرة كان كلام الرب إلى إيليا فى السنة الثالثة قائلا : اذهب وتراء لأخآب فأعطى مطرا على وجه الأرض . فذهب إيليا ليتراءى لأخآب وكان الجوع شديدا فى السامرة ، فدعا أخآب عوبديا الذى على البيت . وكان

عوبديا يخشى الرب جدا . وكان حينما قطعت إيزابل أنبياء الرب أن عوبديا أخذ مائة نبى وخبأهم خمسين خمسين رجلا فى مغارة وعالهم بخبز وماء . وقال أخآب لعوبديا : اذهب فى الأرض إلى جميع عيون الماء وإلى جميع الأودية لعلنا نجد عشبا فنحيى الخيل والبغال ولا نعدم البهائم كلها . فقسما بينهما الأرض ليعبرا بها ، فذهب أخآب فى طريق واحد وحده وذهب عوبديا فى طريق آخر وحده . وفيما كان عوبديا فى الطريق إذا بإيليا قد لقيه . فعرفه وخر على وجهه وقال : أأنت هو سيدى إيليا ؟ . فقال له : أنا هو . اذهب وقل لسيدك : هو ذا إيليا . فقال : ما هى خطيئتى حتى إنك تدفع عبدك ليد أخآب ليميتنى ! حى هو الرب إلـٰهك ، إنه لا توجد أمّة ولا مملكة لم يرسل سيدى إليها ليفتش عليك ، وكانوا يقولون إنه لا يوجد ، وكان يستحلف المملكة والأمة إنهم لم يجدوك . والآن أنت تقول اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، ويكون إذا انطلقت من عندك أن روح الرب يحملك إلى حيث لا أعلم . فإذا أتيت وأخبرت أخآب و لم يجدك فإنه يقتلنى . وأنا عبدك أخشى الرب منذ صباى . ألم يُخبر سيدى بما فعلت حين قتلت إيزابل أنبياء الرب إذ خبأت من أنبياء الرب مائة رجل خمسين خمسين رجلا فى مغارة ، وعالهم بخبز وماء ، وأنت الآن تقول، اذهب قل لسيدك هو ذا إيليا ، فيقتلنى . فقال إيليا حى هو رب الجنود الذى أنا واقف أمامه إلى اليوم أتراءى له ، فذهب عوبديا للقاء أخآب وأخبره ، فذهب أخآب للقاء إيليا » .

قال ـــ ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل » . وصدق رسول الله ـــ عليه صلوات الله وسلامه . فعلماء المسلمين يجتهدون فى تفسير القرآن المجيد ويقرض أغلبهم الشعر ، وأنبياء بنى إسرائيل الذين يتخرجون فى معهد الأنبياء فى الرامة أو بيت إيل يجتهدون فى تفسير التوراة التى نزلت على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل قبل أن يحرقها بختنصر ، وقبل أن تكتب توراة المنفى على

أنقاض أساطير الشعوب وديانات الأمم وأقوال الحكماء الأقدمين ، وكانوا يتعلمون الشعر والموسيقى ولا أحسب الموسيقى إلا نوعا من التجويد الذى يتعلمه علماء المسلمين .

كان أنبياء بنى إسرائيل المشتغلون بالتفسير فى مكانة علماء المسلمين ، وقد انحطت مكانة أنبياء بنى إسرائيل الذين عكفوا على تفسير توراة المنفى عن مكانة علماء المسلمين ، فهؤلاء يفسرون مزاعم أناس كتبوا توراتهم بمداد الحقد والدنس والكراهية ، وهؤلاء يفسرون كتابا أحكمت آياته من لدن عزيز خبير .

« ولما رأى أخآب إيليا قال له أخآب : أأنت هو مكدر إسرائيل ؟ فقال : لم أكدر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع إلىّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المائة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المائة الذين يأكلون على مائدة إيزابل . فأرسل أخآب إلى جميع بنى إسرائيل ، وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل ، فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال : حتى متى تعرجون بين الفريقين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة ، ثم قال إيليا للشعب : أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربع مائة وخمسون رجلا ، فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثورا واحد ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا نارا ، وأنا أقرّب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب ، والإلـه الذى يجيب بنار فهو الله . فأجاب جميع الشعب وقالوا : الكلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لأنفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر ، وادعوا باسم آلهتكم ولكن لا تضعوا نارا . فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين :

يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب ، وكانوا يرقصون حول المذبح الذى عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال : ادعوا بصوت عال لأنه إلـٰه . لعله مستغرق أو فى خلوة أو فى سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عاداتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ، ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة و لم يكن صوت ولا مجيب ولا مُصغ ، قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إلىّ . فتقدم جميع الشعب إليه . فرمم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثنى عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب إليه قائلا : إسرائيل يكون اسمك . وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البَزْر ، ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال : املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ، ثم قال ثنوا . فثنوا ، وقال ثلثوا ، فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضا ماء . وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبى تقدم وقال : أيها الرب إلـٰه إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليُعلم اليوم أنك أنت الله فى إسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبنى يا رب . استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإلـٰه وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعا . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : أمسكوا أنبياء البعل ولا يُفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قشون وذبحهم هناك » .

تطلق هذه الإصحاحات لفظة « نبى » على الذين يخدمون البعل كما تطلقها على الذين يخدمون الله ، فلا فرق بينها وبين الكاهن . وقد قيل إن معنى أصل مادته فى العبرانية القديمة : المتكلم بصوت جهورى مطلقا أو فى الأمور التشريعية ، وعلى ذلك فليس هناك فرق بين أنبياء البعليم وأنبياء بنى إسرائيل

ما دام الجميع يتكلمون بصوت جهورى فى أمور الدين ، ولعل ذلك هو السبب فى أن السيد المسيح قد فرق بين الأنبياء والأنبياء الكذبة ، أما الإسلام فإنه لا يعرف من أنواع الأنبياء إلا الأنبياء الذين أوحى الله إليهم وحيا . أما الذين يدعون النبوة دون وحى الله فهم فى عرف الإسلام دجالون لا تلقى إليهم الأسماع .

جاء جميع الرسل والأنبياء لتعليم الناس ما به يصلح حالهم ويستعدون لمآلهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملا ، بحسن الثواب ، وإنذار من كفر وأفسد عملا ، بالعذاب . وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان ، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال ، فتسعد لسعادة الدنيا بقدرها وسعادة الآخرة من بعدها . ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا ذكر لدار الآخرة وما أعد فيها للمتقين ، ولا ذكر للنار التى أعدت للكافرين .

إن إيليا قد ذبح أنبياء البعل الكاذبين و لم يبشرهم بعذاب أليم ؟ وقد يكون القتل جزاء للكافرين فما هو جزاء الشهداء والصالحين ؟ وما هى العقوبة التى تنزل بالظالمين إذا انتهت أيامهم على الأرض دون عقاب ؟ « ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون »[1] .

أتى إيليا بمعجزة على الملأ ، فلما رأى الشعب نار الرب تأكل القربان — كما زعم كتاب التوراة — خر الناس ساجدين وقالوا : الرب هو الله ، الرب هو الله . عادوا إلى الصراط المستقيم ولكن هذه الهداية لم ترض كتاب التوراة فهم لا يرضون عن النهايات السعيدة بل لا بد من أن تنتهى حياة البشر بمأساة ، وأن ينتهى دور الأنبياء بالإخفاق ، وأن ينتصر الكفر على الإيمان ليكون ذلك سببا

---

(١) المؤمنون ٦٢ .

فى سقوط بيت من بيوت الملك وانتقاله إلى بيت آخر .

« وقال إيليا لأخآب اصعد كل واشرب لأنه حس دوى مطر . فصعد أخآب ليأكل ويشرب ، وأما إيليا فصعد إلى رأس الكرمل وخر إلى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه : اذهب تطلع نحو البحر . فصعد وتطلع وقال : ليس شيء . فقال : ارجع . سبع مرات . وفى المرة السابعة قال : هو ذا غيمة صغيرة قدر كف إنسان صاعدة من البحر . فقال : اصعد قل لأخآب اشدد وانزل لئلا يمنعك المطر . وكان من هنا إلى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم . فركب أخآب ومضى إلى يزرعيل ، وكانت يد الرب على إيليا فشد حقويه وركض أمام أخآب حتى نجى إلى يزرعيل .

وأخبر أخآب إيزابل بكل ما عمل إيليا وكيف أنه قتل جميع الأنبياء بالسيف . فأرسلت إيزابل رسولا إلى إيليا تقول : هكذا تفعل الآلهة وهكذا تريد إن لم أجعل نفسك كنفس واحد منهم فى نحو هذا الوقت غدا . فلما رأى ذلك قام ومضى لأجل نفسه ، وأتى إلى بئر سبع التى ليهوذا وترك غلامه هناك ، ثم سار فى البرية مسيرة يوم حتى أتى وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب ، خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى ، واضطجع ونام تحت الرتمة وإذا بملاك قد مسه وقال : قم وكل . فتطلع وإذا كعكة رضف وكوز ماء عند رأسه فأكل وشرب ثم رجع فاضطجع . ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسه وقال : قم وكل لأن المسافة كثيرة عليك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهارا وأربعين ليلة إلى جبل الله حوريب ، ودخل هناك المغارة وبات فيها .

وكان كلام الرب إليه يقول له : ما لك ههنا يا إيليا ؟ فقال : قد غرت غيرة للرب إله الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذبحك وقتلوا أنبياءك بالسيف ، فبقيت أنا وحدى وهم يطلبون نفسى ليأخذوها . فقال :

اخرج وقف على الجبل أمام الرب . وإذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب فى الريح ، وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة ، وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف . فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه ووقف فى باب المغارة ، وإذا بصوت إليه يقول : ما لك ههنا يا إيليا ؟ فقال : غرت غيرة للرب إلـٰه الجنود لأن بنى إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك وقتلوا أنبياءك بالسيف فبقيت أنا وحدى ، وهم يطلبون نفسى ليأخذوها . فقال له الرب : اذهب راجعا فى طريقك إلى برية دمشق وادخل وامسح حزائيل ملكا على أرام ، وامسح يا هو بن نمشى ملكا على إسرائيل ، وامسح إليشع بن شافاط من آيل محولة نبيا عوضا عنك . فالذى ينجو من سيف حزائيل يقتله يا هو ، والذى ينجو من سيف يا هو يقتله إليشع ، وقد أبقيت فى إسرائيل سبعة آلاف كل الرُّكب التى لم تجثُ للبعل وكل فم لم يقبِّله .

فذهب من هناك ووجد إليشع بن شافاط يحرث وإثنا عشر فدان بقر قدامه وهو مع الثانى عشر . فمر إيليا به وطرح رداءه عليه . فترك البقر وركض وراء إيليا وقال : دعنى أقبل أبى وأمى وأسير وراءك . فقال له : اذهب راجعا لأنى ماذا فعلت لك . فرجع من ورائه وأخذ فدان بقر وذبحهما وسلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب فأكلوا . ثم قام ومضى وراء إيليا وكان يخدمه » .

لم يشفع لإيليا أن النار قد أكلت قربانه وأن الشعب قال وهو يخر ساجدا : الله إلـٰه إسرائيل . الله إلـٰه إسرائيل . فإيزابل قد أصرت على قتله ففر من وجهها إلى الله وهو يدعو ربه أن ينهى حياته يأسا وقنوطا ، وما كان لنبى يصطفيه الله أن يضيق بنعمة أنعمها الله عليه فالنبوة أعظم تكريم يكرم به الله عبده ، وما من نبى إلا وقد حمل أعباء النبوة وهو راض عما يحتمل من أذى فى سبيل ربه ، فهو

يعيش مع الله وبالله متفرح بالنظر إلى وجهه ، وإن آلام الأرض كلها لتذوب أمام وحي يوحى ، وظلمات القنوط لا بد أن تتبدد أمام شروق نور الله فى قلبه ، فقول إيليا لربه : قد كفى الآن يا رب خذ نفسى لأننى لست خيرا من آبائى لا يتسق مع النبوة ، فهو فرار من حمل النبوة لا يليق بنبى اصطفاه ربه ، فذلك الزعم من وهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فقد كانوا يتمنون الموت لما كان اليأس من العودة إلى فلسطين يدب فى أفئدتهم ، فوضعوا ما هم فيه من حالة نفسية وأعاروا أنبياءهم ما هم فيه من قلق ويأس وقنوط .

إن يأس إيليا وقنوطه لا يتساوق مع ما هو مفروض فى الأنبياء من امتثال أوامر الله : « ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين »[1] .

ويعود كتبة التوراة لتأكيد الصورة الخاطئة التى كونوها فى أذهانهم عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا ، فيصفونه بالعبور وبالمرور ، ويجعلون له مكانا ظلل الغمام والريح والزلزلة والنار : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »[1] .

ولنعد إلى الإصحاح العشرين من سفر الملوك الأول لنرى أن الذلة والمسكنة قد ضربت على بنى إسرائيل حتى وهم سادة فى فلسطين قبل أن يأخذهم بختنصر سبايا إلى أرض العراق : « وجمع بنهدد ملك آرام كل جيشه واثنين وثلاثين ملكا معه وخيلا ومركبات ، وصعد وحاصر السامرة وحاربها وأرسل رسلا إلى أخآب ملك إسرائيل إلى المدينة وقال له : هكذا يقول بنهدد :

---

(١) الأنعام ٣٤ ، ٣٥ .   (٢) هود ١١٠ .

لى فضتك وذهبك ولى نساؤك وبنوك الحسان . فأجاب ملك إسرائيل وقال : حسب قولك يا سيدى الملك أنا وجميع مالى لك » .

إن أخآب ملك إسرائيل يقبل تهديد ملك دمشق ولكن الشيوخ يرفضون ، وتدور معركة بين بنى إسرائيل وبنهدد ويهزم رجال إسرائيل بنهدد والملوك الذين كانوا معه ، وإنه بعيد عن التصور أنه كان هناك اثنان وثلاثون ملكا غير بنهدد فى منطقة الشام إلا إذا كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد أطلقوا على شيوخ القبائل لقب ملوك كما أطلقوا لفظة نبى على الدارسين فى مدارس أبناء الأنبياء فى الرامة وبيت إيل .

وانتهت الحرب بين أخآب وبين بنهدد بعقد معاهدة بينهما اتفق فيها على أن يرد أخآب المدن التى أخذها أبوه إلى بنهدد ، و لم ينج أخآب الذى هزم بنهدد والملوك من لعنة كتاب التوراة فقد جعلوا أخآب يغتصب كرم جاره بتدبير امرأته إيزابل ، فيغضب الرب على أخآب وإيزابل ويقول : « هأنذا أجلب عليك شرا وأبيد نسلك وأقطع لأخآب كل بائل بحائط ، ومحجوز ومطلق فى إسرائيل ، وأجعل بيتك كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيًّا لأجل الإغاظة التى أغظتنى وجعلك إسرائيل يخطىء . وتكلم الرب عن إيزابل أيضا قائلا : إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل ، من مات لأخآب فى المدينة تأكله الكلاب ومن مات فى الحقل تأكله طيور السماء . و لم يكن كأخآب الذى باع نفسه لعمل الشر فى عينى الرب الذى أغوته إيزابل امرأته . ورَجَس جدا بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الآموريون الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل ، ولما سمع أخآب هذا الكلام شق ثيابه وجعل مسحا على جسده ، وصام واضطجع بالمِسح ، ومشى بسكوت . فكان كلام الرب إلى إيليا التشبى قائلا : هل رأيت كيف اتَّضع أخآب أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه

أجلب الشر على بيته » .

وجعلوا إلـٰه إسرائيل إلـٰها سوداوى المزاج يتربص بعباده ، لا يرحم ولا يقبل التوبة بل يؤجل انتقامه ويقرر أن ينتقم من الابن قبل أن يفعل الابن خيرا أو شرا ، لكأنما كان إلـٰه إسرائيل عدوا لعباده ينصب لهم الشرك ليسقطوا فى الخطيئة ثم يسومهم سوء العذاب على ما اقترفوا من خطأ ، ولا جرم فهو قد ندم على أنه قد خلق البشر وبات يتربص بهم حتى لا ينافسوه فى ملكه !

وتنشب حرب بين أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا من ناحية ، وبين ملك آرام . ويقتل أخآب ويصبح أخزيا بن أخآب ملكا على إسرائيل دون أن يدرى أن إلـٰه إسرائيل يتربص به وأنه سيجلب عليه الشر وعلى بيته جزاء على ما اقترف أبوه من معاصى قبل أن يتوب ، فالتوبة عند إلـٰه إسرائيل لا تغسل الذنوب ، وهو يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، وهذا هو عدله إن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد عرفوا العدل الإلـٰهى .

لا توبة فى التوراة وكيف يتوب إلـٰه ندم على أنه خلق البشر وأصبح يخشى منافستهم إياه ؟ لقد أغلق الذين كتبوا التوراة كل أبواب المغفرة فى وجوه الناس ، وما فائدة التوبة والمغفرة إذا كان الثواب أو العقاب يناله المرء فى هذه الدنيا الفانية ، وأن عمل المرء ينقطع بموته ؟

لم تعرف التوراة — أو بمعنى أصح — الذين كتبوا التوراة بأيديهم التوبة والمغفرة ورحمة الله ، بينما آيات القرآن المجيد تفتح أمام الناس أبواب التوبة على مصاريعها وتتحدث عن رحمة الله ومغفرته حديثا فياضا يجعل حياة البشرية تتألق بالآمال : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم »[1] . « أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه

---

(١) البقرة ١٨٧ .

غفور رحيم »[١] « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم »[٢] ، « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى »[٣] . « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات »[٤] . « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم »[٥] . « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »[٦] .

وينتهى سفر الملوك الأول بالعبارات التقليدية التى ينتهى بها كل سفر وهى عبارات تؤكد دائما كفران مسعى ملوك إسرائيل : « أخزيا بن أخآب ملك على إسرائيل فى السامرة فى السنة السابعة عشرة ليهو شافاط ملك يهوذا ملك على إسرائيل سنتين ، وعمل الشر فى عينى الرب وسار فى طريق أبيه وطريق أمه وطريق يربعام بن نباط الذى جعل إسرائيل يخطىء ، وعبد البعل وسجد له وأغاظ الرب إلـٰه إسرائيل حسب كل ما فعل أبوه » .

ويبدأ سفر الملوك الثانى بانتقام إلـٰه إسرائيل من أخزيا بن أخآب وينزل به أقصى عقوبة يمكن أن تنزل فى إسرائيل ، وهى انتزاع الملك من بيته . « وعصى موآب على إسرائيل بعد وفاة أخآب » .

وسقط أخزيا من الكوة التى فى عليته التى فى السامرة فمرض وأرسل رسلا وقال لهم : اذهبوا اسألوا بعل زبوب إلـٰه عفرون إن كنت أبرأ من هذا المرض . فقال ملوك الرب لإيليا التشبى : قم اصعد للقاء رسل ملك السامرة وقل لهم : أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه تذهبون لتسألوا بعل زبوب إلـٰه عفرون ؟ فلذلك هكذا قال الرب : إن السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت ، فانطلق إيليا ورجع الرسل إليه فقال لهم : لماذا رجعتم ؟ فقالوا له : صعد

---

(١) الأنعام ٥٤ .
(٢) التوبة ١١٨ .
(٣) طه ٨٢ .
(٤) الفرقان ٧٠ .
(٥) الأعراف ١٥٣ .
(٦) الحجرات ١١ .

رجل للقائنا وقال لنا اذهبوا راجعين إلى الملك الذى أرسلكم وقولوا له : هكذا قال الرب : أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه أرسلت لتسأل بعل زبوب إلـٰه عفرون ؟ لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فقال لهم : ما هى هيئة الرجل الذى صعد للقائكم وكلمكم بهذا الكلام ؟ فقالوا له : إنه رجل أشعر متمنطق بمنطقة من جلد على حقويه ، فقال : هو إيليا التشبى ، فأرسل إليه رئيس خمسين مع الخمسين الذين له فصعد إليه وإذا هو جالس على رأس الجبل ، فقال له يا رجل الله ! الملك يقول : انزل فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد وأرسل إليه رئيس خمسين أخر والخمسين الذين له ، فأجاب وقال له : يا رجل الله هكذا يقول الملك أسرع وانزل . فأجال إيليا وقال لهم : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء فتأكلك أنت والخمسين الذين لك . فنزلت نار الله من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له . ثم عاد فأرسل رئيس خمسين ثالثا والخمسين الذين له ، فصعد رئيس الخمسين الثالث وجاء وجثا على ركبتيه أمام إيليا وتضرع إليه وقال له : يا رجل الله لتكرم نفسى وأنفس عبيدك هؤلاء الخمسين فى عينيك هو ذا قد نزلت نار من السماء وأكلت رئيس الخمسينين الأولين وخمسينيهما ، والآن فلتكرم نفسى فى عينيك .

فقال ملاك الرب لإيليا : انزل معه ، لا تخف منه . فقام ونزل معه إلى الملك وقال له : هكذا قال الرب : من أجل أنك أرسلت رسلا لتسأل بعل زبوب إلـٰه عفرون أليس لأنه لا يوجد فى إسرائيل إلـٰه لتسأل عن كلامه . لذلك السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت . فمات حسب كلام الرب الذى تكلم به إيليا . وملك يهورام عوضا عنه للسنة الثانية ليهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا لأنه لم يكن له ابن . وبقية أمور أخزيا التى عمل أما هى

مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك إسرائيل » .

إلٰه إسرائيل غضب على أخزيا بن أخآب لأنه أرسل يسأل بعل زبوب إلٰه عفرون عن مرضه ، وهو الإلٰه الذى انقطع لشعبه واختار أن يقيم بينهم فى الهيكل دون العالمين ، فلم يكن غضبه للشرك به بل كان غضبه أشبه بغضبة التاجر الذى يحزنه أن يذهب أهله إلى تاجر آخر ليشتروا منه بينا حاجاتهم عنده . وهل كان غضب إلٰه إسرائيل حقا لأن أخزيا ولاه ظهره واتجه إلى إلٰه آخر أم كان يتربص به مذ عصاه أخآب ؟ إلم يقل قبل أن يتولى أخزيا الملك وقبل أن يرسل الرسل إلى بعل زبوب لنبيه إيليا : هل رأيت كيف اتضع أخآب أمامى ؟ فمن أجل أنه قد اتضع أمامى لا أجلب الشر فى أيامه بل فى أيام ابنه أجلب الشر على بيته ، إنه بيت النية على جلب الشر لبيت أخآب فى أيام ابنه قبل أن يعبد الابن إلٰها غيره ، وهل كان ذلك الوحى الذى أوحاه إلى نبيه سرا أم أن إيليا قد أذاعه ؟ وإذا كان قد بلغه أم وصل إلى مسامع أخزيا فيأخذ حذره ؟!

تاب أخآب واتضع أمام إلٰه إسرائيل ، أفما كانت توبته كفارة عن سيئاته ؟ فلماذا يربط إلٰه إسرائيل بين سيئات رجل قد تاب ومصير ابنه ؟ إنه إلٰه لا يعرف التوبة ولا الصفح ورحمته تضيق عن المغفرة ، وإن نبيه إيليا لا يقل عن إلٰهه قسوة . إنه يتلذذ لما تسقط نار من السماء وتأكل رئيس الخمسين مع الخمسين ، إنه لم يقل كما قال أنبياء الله قبله : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . بل قال فى غرور مرتين : إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك .

لم يقل للناس إن رحمة ربه واسعة ولا ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، بل كان يلوح بالعذاب المهين . ولم يكتف بالتلويح بل كان يسخر ربه لإنزال نار من السماء تأكل أعداءه .

إنه قاس حقود لا يمكن أن يكون له وجود إلا فى عقول مريضة ، وهل كانت عقول الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سليمة ؟ كانوا أسرى فى قصور ملوك إيران فى العراق ، وكان عزرا ونحميا ودانيال أنبياؤهم الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى سقاة خمر لأرتخشستا ملك بابل بل كانوا مغنين له ، فماذا ننتظر منهم ؟ كانوا مبهورين بالملوك الساسانيين فتخيلوا إلـٰههم كـذلك ساسانى ينفعـل بانفعـالات إنسانيـة محمومـة لا تعـرف الصفـح ولا المغفرة ، وتتهلل بالفرح إذا ما نزلت نقمتها بأعدائها ، ولا ينبغى أن يغرب عن البال أن كتاب التوراة قد صوروا البشر أعداء الرب مذ تطلعوا إلى المعرفة وأصبحوا ينافسون ربهم فى علمه ، وأنه قد ندم على خلقهم .

وما دامت آفاقهم كانت محدودة بالحقد والبغضاء والعذاب لبنى البشر لما صوروا إلـٰههم ، فماذا ننتظر منهم لما يصورون أنبياءه ؟ فما دام الرب دمويا فأنبياؤه دمويون . وما دام الرب قاسيا فأنبياؤه قساة . وما دام الرب يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الرابع ، فأنبياؤه يباركون مثل ذلك الظلم الذى يصرخ منه كل من فى قلبه ذرة من عدل .

كانت شطحات أخيلتهم مادية ، لم تكن لهم أرواح شفافة ترتفع لتقرع أبواب ملكوت السماء . وكيف تهيم العقول فى رحاب ملك الله إذا كانت الأفئدة مثقلة باللذات الأرضية ؟ ولنقرأ معا الإصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى لنرى كيف صوروا ما تصوروه من صعود إيليا فى العاصفة إلى السماء :

« وكان عند إصعاد الرب إيليا فى العاصفة إلى السماء أن إيليا وأليشع ذهبا من الجلجال . فقال إيليا لأليشع : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى بيت إيل فقال أليشع : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . ونزلا إلى بيت إيل . فخرج بنو الأنبياء الذين فى بيت إيل إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له

إيليا : يا أليشع امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى أريحا . فقال : حى هو الرب وحية هي نفسك ، إنى لا أتركك . وأتيا إلى أريحا ، فتقدم بنو الأنبياء الذين فى أريحا إلى أليشع وقالوا له : أتعلم أنه اليوم يأخذ الرب سيدك من على رأسك ؟ فقال : نعم إنى أعلم فاصمتوا . ثم قال له إيليا : امكث هنا لأن الرب قد أرسلنى إلى الأردن . فقال : حى هو الرب وحية هى نفسك إنى لا أتركك . وانطلقا كلاهما . فذهب خمسون رجلا من بنى الأنبياء ووقفوا قبالتهما من بعيد . ووقف كلاهما بجانب الأردن . وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبر كلاهما فى اليبس . ولما عبرا قال إيليا لأليشع : اطلب ماذا أفعل لك قبل أن أوخذ منك . فقال أليشع : ليكن نصيب اثنين من روحك علىّ ، فقال : صعبت السؤال . فإن رأيتنى أوخذ منك يكون لك كذلك وإلا فلا يكون . وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء . وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يا أبى : يا أبى مركبة إسرائيل وفرسانها . ولم يره بعد . فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين . ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فأخذ رداء إيليا الذى سقط عنه وضرب الماء وقال : أين هو الرب إلـٰه إيليا ؟ ثم ضرب الماء أيضا فانفلق إلى هنا وهناك فعبر أليشع . ولما رآه بنو الأنبياء الذين فى أريحا قبالته قالوا : قد استقرت روح إيليا عن أليشع . فجاءوا للقائه وسجدوا له إلى الأرض . وقالوا له : هو ذا مع عبيدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبون ويفتشون على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . فقال : لا ترسلوا . فألحوا عليه حتى خجل وقال : أرسلوا . فأرسلوا خمسين رجلا ففتشوا ثلاثة أيام ولم يجدوه . ولما رجعوا إليه وهو ماكث فى أريحا قال لهم : أما قلت لكم لا تذهبوا ؟

وقال رجال المدينة لأليشع : هو ذا موقع المدينة حسن كما يرى سيدى . وأما

المياه رَديَّة والأرض مجدبة . فقال : ائتونى بصحن جديد وضعوا فيه ملحا . فأتوه به . فخرج إلى نبع الماء وطرح فيه الملح وقال : هكذا قال الرب قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضا موت ولا جدب . فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول أليشع الذى نطق به .

ثم صعد من هناك إلى بيت إيل ، وفيما هو صاعد فى الطريق إذا بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع . اصعد يا أقرع . فالتفت إلى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب . فخرجت دبتان من الوعر وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا . وذهب من هناك إلى جبل الكرمل ومن هناك رجع إلى السامرة » .

بنو الأنبياء فى بيت إيل كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء ، وبنو الأنبياء الذين كانوا يتلقون العلم فى معهد الأنبياء بأريحا كانوا على علم بأن الله سيرفع إيليا إلى السماء . ووقف خمسون رجلا من بنى الأنبياء على ضفة الأردن ليروا المعجزة كأنما قد أصدر الرب نشرة ربانية وزعت على معاهد الأنبياء ينبئهم فيها بما سيفعله بنبيه إيليا فى ذلك اليوم .

فلما رفع إيليا ـــ حسب زعمهم ـــ ماذا كان موقف بنى الأنبياء الذين تلقوا النبأ العظيم من إلٰههم قبل أن يقع الرفع ؟ شكوا فى إلٰههم وفى ملاكه فقالوا : هو ذا مع عبدك خمسون رجلا ذوو بأس فدعهم يذهبوا ويفتشوا على سيدك لئلا يكون قد حمله روح الرب وطرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية .

مقدمات لا تتواكب مع النتائج ، إعلان من رب إسرائيل لبنى الأنبياء بأنه سيرفع إيليا إليه فى العاصفة فى ذلك اليوم ، فلما يرفعه إذا بالشك يملأ أفئدتهم فيعمى قلوبهم فيرسلون من يبحث عن نبيهم خشية أن يكون روح الرب قد طرحه على أحد الجبال أو فى أحد الأودية . كأنما روح الرب كان نسرا خطف

من خطف دون أن يدرى حقيقة رسالته . إن قصة السندباد تلح على فكرى وأنا أقرأ هذه الإصحاحات ، فهل كان لها أصل بابلى قديم استهوى عقول كتّاب التوراة كما استهوت الفكرة عقل مؤلف قصة السندباد ؟.

قد أصبح أليشع نبيا بعد أن استقرت روح إيليا عليه ، وقد سجد له بنو الأنبياء وإن كان السجود لا يجوز فى جميع الآديان السماوية لغير الله . فماذا فعل الرجل الذى اصطفاه إلـٰه إسرائيل ليكون مبشرا لبنى إسرائيل ونذيرا ؟ كان أول عمل عظيم عمله أن التقى بصبيان وهو فى طريقه إلى بيت إيل سخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع .. أصعد يا أقرع . فلم يكظم غيظه و لم يحاول أن يهدى الصبيان الصغار إلى جادة الصواب بل لعنهم باسم رب إسرائيل . وسرعان ما استجاب الرب القاسى لقسوة قلب نبيه فخرجت دبتان وافترستا منهم اثنين وأربعين ولدا .

كتاب التوراة فى المنفى يسجلون ذلك فى زهو وفخر ، وإنى أتساءل : ما هو حكم القانون الوضعى لو أن غلمانا صغارا ساروا وراء رجل وقالوا : يا أقرع .. يا أقرع . وكان معه كلب وحشى أطلقه عليهم فافترسهم ؟ هل يمجد القانون ذلك الرجل وهل تصدر الصحف وقد زينت صفحاتها الأولى بصورته وكتبت تحتها عبارات المدح والثناء ؟! إنه لا يعرف قلبه الرحمة ولا الصفح الكريم ، ولا جرم فهو نبى إلـٰه يحقد على بني البشر ويستجيب للعنات أنبيائه ويسارع بإنزال العذاب على الناس حتى ولو كانوا أطفالا لا يعقلون ما يفعلون .

وخرج يهورام بن أخآب ملك إسرائيل ويهو شافاط ملك يهوذا وملك أدوم لمحاربة موآب وسألوا أليشع أن يسأل ربه عن نتيجة الحرب . فقال أليشع : « والآن فأتونى بعوّاد ، ولما ضرب العواد بالعود كانت عليه يد الرب . فقال : هكذا قال الرب اجعلوا هذا الولدى جبابا جبابا ، لأنه هكذا

قال الرب لا ترون ريحا ولا ترون مطرا ، وهذا الوادى يمتلئ ماء فتشربون أنتم وماشيتكم وبهائمكم . وذلك يسير فى عينى الرب فيدفع موآب إلى أيديكم . فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمُّون جميع عيون الماء وتفسدون كل حلقة جيدة بالحجارة » .

إلٰه إسرائيل يأمر عباده من إسرائيل ويهوذا أن يكونوا مفسدين فى الأرض ، أن يقطعوا كل شجرة طيبة وأن يطموا عيون الماء وأن يرجموا الحقول الجيدة بالحجارة . وإلٰه إسرائيل لا يوحى إلى أنبيائه بعلمه إلا بعد أن يشنفوا أذنيه بأحلى الآلحان . ولا غرو فأنبياء بنى إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى كانوا مغنين لملوك إيران فصوروا إلٰههم فى صورة الملوك الساسانيين الذين تهزهم أنغام العود فتتحرك أريحيتهم فيجودون على جالبى السرور إلى أفئدتهم بما يطلبون .

ويقول كتَّاب التوراة إن الإسرائيليين واليهود نفذوا وصية ربهم : « وهدموا المدن وكان كل واحد يلقى حجره فى كل حقلة جيدة حتى ملأوها وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة » .

ويروى كتَّاب التوراة بعض معجزات أليشع وكيف أنه أحيا غلاما بعد أن مات ، وكيف أنه كثر الطعام ولم تصدر منه كلمة واحدة تدعو الناس إلى الله ، فهو يشفى الأبرص ولا يشفى أمراض النفوس . إنه يهزم جيوش الأعداء وحده ، يقول لربه : « اضرب هؤلاء الأمم بالعمى » ، فيضربهم بالعمى ، ويقول : « يا رب افتح أعين هؤلاء فيبصرون » ، فيفتح الرب أعينهم فيبصرون . إنها أحلام الذين كانوا أسرى فى بابل ، إنهم كانوا يتمنون أن يقولوا لربهم : « احملنا إلى أرض فلسطين » فيحملهم دون كفاح أو قتال ، ولماذا يقاتلون ولهم رب يقاتل عنهم ؟!

وينفذ أليشع أمر ربه بأن ينتقم من ابن أخآب عقابا لخطايا أبيه الذى تاب ،

فينقطع بذلك الملك عن بيت أخآب : « ودعا أليشع النبى واحدا من بنى الأنبياء وقال له : شد حقويك وخذ قنينة الدهن هذه بيدك واذهب إلى راموث جلعاد ، وإذا وصلت إلى هناك فانظر يا هو بن يهو شافاط بن نِمشى وادخل وأقمه من وسط إخوته وادخل به إلى مخدع داخل مخدع ، ثم قنينة الدهن وصب على رأسه وقل هكذا قال الرب قد مسحتك ملكا على إسرائيل ، ثم افتح الباب واهرب ولا تنتظر . فانطلق الغلام أى الغلام النبى إلى راموث جلعاد ودخل ، وإذا قواد الجيش جلوس ، فقال : لى كلام معك يا قائد . فقال ياهو : مع من منا كلنا ؟ فقال : معك أيها القائد . فقام ودخل البيت فصب الدهن على رأسه وقال له : هكذا قال الرب إلٰه إسرائيل قد مسحتك ملكا على شعب الرب إسرائيل . فتضرب بيت أخآب سيدك وانتقم لدماء عبيدى الأنبياء ودماء جميع عبيد الرب من يد إيزابل . فيبيد كل بيت أخآب واستأصل لأخآب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق فى إسرائيل ، واجعل أخآب كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيًّا . وتأكل الكلاب إيزابل فى حقل يزرعيل وليس من يدفنها ، ثم فتح الباب وهرب » .

انقلاب عسكرى وقع فى إسرائيل ، وقد اشترك فيه أليشع وأبناء الأنبياء الذين يتلقون النبوة فى معاهد الأنبياء . فلما دون كتّاب التوراة فى المنفى ذلك الحادث جعلوه وحيا من السماء وثمنا لكفران أخآب وزوجته إيزابل . وقد كانوا يقصدون كل حرف دونوه ، كانوا من أبناء الأنبياء فأرادوا أن يوهموا يهود المنفى أنهم يتلقون وحى السماء وأنهم ينطقون بلسان إلٰه إسرائيل ليتلقى الشعب الذى كان فى المنفى أوامرهم خاشعين ، وليهابهم كل من تسول له نفسه معارضتهم خشية بطش إلٰه إسرائيل الذى يسارع بإنزال العقاب استجابة لدعوات أنبيائه اللعانين .

ويصبح يا هو ملكا على إسرائيل ويفنى جميع عبدة البعل ويعيد إسرائيل إلى

عبادة إلـٰه إسرائيل . فماذا كان جزاؤه من كتَّاب التوراة : « وقال الرب لياهو : من أجل أنك قد أحسنت بعمل ما هو مستقيم فى عينىَّ وحسب كل ما فى قلبى فعلت ببيت أخآب ، فأبناؤك إلى الجيل الرابع يجلسون على كرسى إسرائيل ، ولكن ياهو لم يتحفظ للسلوك فى شريعة الرب إلـٰه إسرائيل من كل قلبه ، و لم يحد عن خطايا يربعام الذى جعل إسرائيل يخطى » .

أتدرى سبب أختلاف النتيجة عن المقدمة ؟ إن حزائيل ملك أرام ضرب إسرائيل ، وإن كتاب التوراة فى المنفى لا يستطيعون أن يتصوروا ياهو قد هزم فلا بد أنه تنكب طريق الرب ، وإن كان قد قتل جميع أنبياء البعل وعبيده ، وإن كان قد أعاد إسرائيل إلى رب إسرائيل .

ويتولى الملك فى إسرائيل وفى يهوذا ملوك لا عمل لهم إلا الشر ، « وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راء قائلا : إرجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياى فرائضى حسب كل الشريعة التى أوصيت بها آباءكم والتى أرسلتها إليكم عن يد عبيدى الأنبياء ، فلم يسمعوا بل صلَّبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلـٰههم ، ورفضوا فرائضه وعهده الذى قطعه على آبائهم وشهاداته التى شهد بها عليهم ، وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا ووراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم ، وتركوا جميع وصايا الرب إلـٰههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين ، وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل ، وعبَّروا بنيهم وبناتهم فى النار وعرفوا عرافة وتفاءلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر فى عينى الرب لإغاظته . فغضب الرب جدًا على إسرائيل ونحاهم من أمامه و لم يبق إلا سبط يهوذا وحده ، ويهوذا أيضا لم يحفظوا وصايا الرب إلـٰههم بل سلكوا فى فرائض إسرائيل التى عملوها . فرذل الرب كل نسل إسرائيل وأذلهم ودفعهم فى يد ناهبين حتى طرحهم من أمامه ، لأنه شق إسرائيل عن بيت داود

فملَّكوا يربعام بن نباط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة . وسلك بنو إسرائيل فى جميع خطايا يربعام التى عمل . لم يحيدوا عنها حتى نحَّى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء . فُسبِى إسرائيل من أرضه أشور إلى هذا اليوم » .

وأنزل الملوك الآشوريون ببنى إسرائيل واليهود ألوان العذاب ، كانوا يسلخونهم أحياء وكانوا يصنعون من جماجمهم أهراما . وانتصر نبوخذنَّصر ملك بابل على أشور وتمرد يهوياقيم ملك يهوذا على نبوخذنصر ودفع الجزية لفرعون مصر « فصعد عبيد نبوخذنصر ملك بابل إلى أورشليم فدخلت المدينة تحت الحصار ، و جاء نبوخذنصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها . فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه وأخذه ملك بابل فى السنة الثامنة من ملكه ، وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التى عملها سليمان ملك إسرائيل فى هيكل الرب كما تكلم الرب . وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبى وجميع الصناع والأقيان ، لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض . وسبى يهوياكين إلى بابل وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض سباهم من أورشليم إلى بابل . جميع أصحاب البأس سبعة آلاف والصناع والأقيان ألف وجميع الأبطال أهل الحرب سباهم ملك بابل إلى بابل ، وملك ملك بابل مَّتنيا عمه عوضا عنه وغير اسمه إلى صِدقيَّا .

كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك . وملك إحدى عشرة سنة فى أورشليم واسم أمه حميطل بنت ارميا مت لِبنة ، وعمل الشر فى عينى الرب حسب كل ما عمل يهوياقيم ، لأنه لأجل غضب الرب على أورشليم وعلى يهوذا،حتى طرحهم من أمام وجهه كان أن صدقيا تمرد على ملك بابل . وفى

السنة التاسعة لملكه فى الشهر العاشر فى عاشر من الشهر جاء نبوخذنصر ملك بابل هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا عليها أبراجا حولها ، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا ، فى تاسع الشهر اشتد الجوع بالمدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض . فثُغرت المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلا من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك . وكان الكلدانيون حول المدينة مستدبرين ، فذهبوا فى طريق البرية ، فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه فى برية أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه ، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى رَبْلة وكلّموه بالقضاء عليه وقتلوا بنى صدقيا أمام عينيه وقلعوا عينى صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل .

وفى الشهر الخامس فى سابع الشهر وهى السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذنصر ملك بابل جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم . وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار أورشليم مستديرا هدَمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط . وبقية الشعب الذين بقوا فى المدينة والهاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور ساهم نبوزرادان رئيس الشرطة .. » .

أحرق نبوزرادان الهيكل وأحرق التوراة وحمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل ليعيشوا فى الأسر وبذلك انتهت إسرائيل ويهوذا وتم سفر الملوك الثانى ، وابتدأت أيام المنفى أيام إعادة كتابة التوراة . ولنرجىء الحديث عن هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ التوراة إلى التذييل القادم .

القاهرة فى ٤ / ١ / ١٩٧٠ .

المراجع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية — لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحبلى
بلوغ الأرب — للألوسى
نهاية الأرب — للنويرى
إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينسن ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى
إحياء علوم الدين — للغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام — الدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله — مولاى محمد على
الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار
الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام للمهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى للدكتورة بنت الشاطئ

عبقرية محمد لعباس محمود العقاد

الروض الأنف للسهيلى

تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية للدكتور زكريا إبراهيم

فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد

أسباب النزول للواحدى

شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

الملل والنحل للشهرستانى

محمد رسول الله والذين معه

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ ـــ إبراهيم أبو الأنبياء	١١ ـــ الهجرة
٢ ـــ هاجر المصرية أم العرب	١٢ ـــ غزوة بدر
٣ ـــ بنو إسماعيل	١٣ ـــ غزوة أحد
٤ ـــ العدنانيون	١٤ ـــ غزوة الخندق
٥ ـــ قريش	١٥ ـــ صلح الحديبية
٦ ـــ مولد الرسول	١٦ ـــ فتح مكة
٧ ـــ اليتم	١٧ ـــ غزوة تبوك
٨ ـــ خديجة بنت خويلد	١٨ ـــ عام الوفود
٩ ـــ دعوة إبراهيم	١٩ ـــ حجة الوداع
١٠ ـــ عام الحزن	٢٠ ـــ وفاة الرسول

ثمن الجزء الواحد عادى جنيهان
ثمن الجزء الواحد ممتاز ثلاثة جنيهات ونصف
ثمن المجموعة المجلدة تجليدا فاخرا فى ٢٠ مجلدا ٩٥ جنيها

رقم الإيداع ٣٠٢٢
الترقيم الدولى ٩ ـــ ٢٤١ ـــ ٣١٦ ـــ ٩٧٧

السيرة النبوية



عام الوفود ﷺ

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

(قرآن كريم)

١

كانت الحرب مشتعلة الأوار بين الرومان والفرس . وكانت كل من الإمبراطوريتين تحاول أن تبسط نفوذها على الدنيا بأسرها . وقد امتد الصراع بينهما إلى جزيرة العرب ، فبعد أن اعتنقت الحبشة الدين المسيحى دين الدولة الرومانية وإن اختلفت المذاهب ، حاول أباطرة القسطنطينية أن يستغلوا الحبشة فى تنفيذ أطماعهم التوسعية تحت ستار الدين ، فغزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وحاول أبرهة القائد الحبشى أن يخضع القبائل العربية وأن يقوض الكعبة بيت الله الحرام الذى يقدسه العرب جميعا ، ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال ، ولتكوين جبهة موحدة فى وجه الفرس . ولكن الله جعل كيد أصحاب الفيل فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

ولم تقف الفرس مكتوفة اليدين أمام محاولات الرومان ، فقد ساندت سيف بن ذى يزن ليحرر اليمن من الأحباش حلفاء الروم ، ونجح ابن ذى يزن فى تحرير بلاده ، وتقطيع أواصر الصلة التى حاول نصارى الحبشة ونصارى الشام أن يوطدوها ، وتحطيم الجسر الذى كان حلم إمبراطور القسطنطينية ، فيا طالما منى النفس بأن يصبح انتقال المواطن الرومانى من روما إلى القسطنطينية إلى الشام إلى قلب الجزيرة العربية إلى أكسوم عاصمة الحبشة أمرا واقعا يوطد أركان الإمبراطورية ، ويقيم جبهة متماسكة قوية فى وجه الزحف الفارسى .

وكانت نجران من مخاليف اليمن اعتنق أهلها النصرانية فكان هواهم مع

الرومان ، وكانت أمنية اتصال نصارى الجنوب بنصارى الشمال أشد أمانيهم . فلما بعث الله محمدا — ﷺ — لهداية البشر وبلغت أنباء رسالته نجران ، شد بعض رهبانها الذين يبغون وجه الله الرحال إلى مكة وآمنوا بالنبى الأمى الذى بشرت به الأنبياء ، واستكبر الذين يريدون الدنيا وزينتها فوضعوا أصابعهم فى آذانهم ، وأعرضوا عن الحق المبين .

وهاجر المسلمون إلى يثرب ، وعلا شأن الإسلام فى مدينة الرسول وتوالت انتصاراته حتى أشرق نوره على مكة وعاد البيت العتيق ليكون مرة ثانية منارة التوحيد ، فخشى رهبان نجران أن يبهر نوره أهل اليمن وأن يجتث سلطانهم من القلوب ، فخرج وفد نصارى نجران — ستون راكبا — فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم ، فى الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب أمير القوم وذو رأيهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب أمير وذو رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح ، والسيد الذى يقصدون إليه ويقوم بأمورهم ومشورتهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم .

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه فى دينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم .

وانساب الركب فى الكون وأبو حارثة يفكر فى أمره : إنه فريسة لذلك الصراع الذى نشب بين جنبيه فهو لا يدرى ماذا يفعل لو أن الحقيقة قد انبلجت لعين بصيرته وثبت له أن محمد بن عبد الله هو النبى الذى كانوا ينتظرونه ، الفراقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام . أيدخل فى دين

الإسلام ويتنكر لما فعل له أباطرة الروم من تشريف ويقطع سيل المال الذى يتدفق عليه من الشام ومن القسطنطينية ويعرض عن جاه الدنيا وعن السلطان ؟!

وقام فى نفوس القوم حوار كان كل منهم يناجي نفسه يتخيل أنه أمام رسول الله — ﷺ — يحاوره يلقى السؤال ثم يتلقى ما يمده به عقله من جواب ليبنى عليه سؤالا آخر . واستمر القلق يساور الركب حتى لاحت مدينة الرسول لأعين الذين جاءوا للمناظرة فخفقت أفئدتهم رهبة فى صدورهم فقد أحسوا ثقل ما أقدموا عليه ، فإن هى إلا مرحلة حتى يصبحوا أمام الرجل الذى سحر ببيانه الأوس والخزرج ففتحوا له أبواب مدينتهم طائعين .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر ، فألقوا إليه السمع فإذا بالصوت الأخاذ يهز المشاعر ويربط الأرض بالسماء ، وخشوا أن يعبث النداء بأوتار قلوبهم فراحوا يتناجون ويرفعون الأصوات ليشغلوا أنفسهم عن الحق المبين ، فما جاءوا للتصديق بل جاءوا ليحادوا الله ورسوله « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . »[1] .

ودخلوا على رسول الله — ﷺ — مسجده حين صلى العصر . عليهم ثياب الحِبَرات جبب وأردية ، عليهم مهابة وجلال وفى وجوههم جمال يأخذ بالألباب ، وألقوا على المسلمين نظرة استعلاء وودوا أن يعلنوا على الملأ أن لهم صلاتهم ، فقاموا فى مسجد رسول الله — ﷺ — يصلون ، فإذا بأصوات استنكار تنبعث من بعض المسلمين فقال رسول الله — ﷺ — :

— دعوهم .

---

(١) سورة المجادلة الآية (٢٠) .

فصلوا إلى المشرق والناس ينظرون ، وأعطى رسول الإسلام صورة حية لسماحة الإسلام ورحابة أفق الدين الجديد .

ثم أتوا النبي ـ ﷺ ـ فأعرض عنهم و لم يكلمهم ، فقال لهم عثمان :

ـ ذلك من أجل زيكم هذا .

فانصرفوا يومهم ذلك ثم غدوا عليه بزى الرهبان ، فسلموا عليه فرد عليهم ، فتكلم منهم : أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والأيهم السيد وكانوا يدينون بالنصرانية وإن كان لكل منهم مذهب ، فمنهم من يعتقد أن المسيح هو الله ، ومنهم من يقول ولد الله . ومنهم من يؤمن أنه ثالث ثلاثة .

كان حجة القائلين بأنه الله أنه كان يحيي الموتى ويبرئ الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا . وحجة القائلين بأنه ولد الله أنه لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . وحجة القائلين بأنه ثالث ثلاثة قول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا . فلو كان واحدا ما قال إلا فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم .

لو كانوا وحدهم لتنازعوا ولظهرت الفروق بين المعتقدين بوحدة الطبيعة والمعتقدين بوحدة الإرادة والقائلين باللاهوت والناسوت ، ولكنهم كانوا أمام خصم قوى الحجة واضح البيان فكتموا ما بينهم إلى حين .

كان أبو حارثة بن علقمة أكثر وفد نجران قلقا . إنه يعلم أن محمدا ـ ﷺ هو النبي الذى ينتظرونه ، ولكنه كان يخشى أن يعلن إسلامه حتى لا ينزع منه قيصر ما شرفه به وما أمده من مال فآثر أن يصمت . وتكلم السيد والعاقب فقال لهما رسول الله ـ ﷺ :

ـ أسلما .

— قد أسلمنا قبلك .

— كذبتما . منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير .

— إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟

وخاصموه جميعا فى عيسى ، فقال لهما النبى — ﷺ — :

— ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يحفظه ويرزقه ؟

— بلى .

— فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟

— لا .

— فإن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف يشاء ، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟

— بلى .

— ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث ؟

— بلى .

— فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

— إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه ؟

فأنزل الله تعالى : « الم . الله لا إلـٰه إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب

بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان.إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد . إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب . قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . شهد الله أنه لا إلـٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا

الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعَن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد . إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب إليم . أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون . فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمَون . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شيء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما علمت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين . إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت

السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت
وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان
الرحيم . فتقبلها ربُّها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل
عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند
الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب . هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب
لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى
المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من
الصالحين . قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال
كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة
أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار . وإذ قالت الملائكة
يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى
لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما
كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون .
إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم
وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن
الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد و لم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق
ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . ويعلِّمه الكتاب والحكمة
والتوراة والإنجيل . ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى
أخلق لكن من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ
الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى
بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . ومصدقا لما بين يدى من التوارة
ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله
وأطيعون . إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فلما أحس عيسى

منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون . فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين . ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق وما من إلٰه إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولَى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين . ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون . يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يأهل الكتاب لم تلبسون الحق

بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون . وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون . ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين . إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون . ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون . ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون . »[(١)] .

وصمت رسول الله ـ ﷺ ـ فإذا بوفد نجران يرنون إليه مذهولين ، إنه ألزمهم الحجة فخلق آدم من تراب أعجب من خلق عيسى من غير ذكر . إنه قص عليهم من أنباء الغيب أشياء غابت عن علمهم فتقاصرت أنفسهم ، إنه دعاهم إلى الملاعنة فوجلت قلوبهم وقالوا :

ـ يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا

---

(١) سورة آل عمران الآيات (١ ـ ٨٠) .

إليه .

فانصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب صاحب رأيهم فقالوا :

ـــ يا عبد المسيح ما ترى ؟

ـــ والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدا لنبى مرسل ، لقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم . فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

جاءوا ليناظروا رسول الله ـــ ﷺ ـــ وليقولوا له إنهم قد أسلموا قبله ، فلما ألقوا السمع إلى آيات الله البينات تزعزعت عقيدتهم ، ولولا أنه من الصعب أن يفارقوا دينهم بين عشية وضحاها لاتبعوا النور المبين « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . »(١) .

وأتوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقالوا :

ـــ يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ، فاحكم علينا بما أحببت نُعطك ونصالحك .

فصالحهم على ألفى حلة : ألف فى شهر رجب وألف فى صفر أو قيمة كل حلة من الأوانى ، وعلى عارية ثلاثين درعا وثلاثين رمحا وثلاثين بعيرا وثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد ، ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملَّتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم ، لا يغير أسقف من سقيفاه ولا راهب من رهبانيته ولا واقف(٢) من

---

(١) النور ٤٠ (٢) واقف : خادم البيعة .

وقفانيته .

وأشهد على ذلك شهودا منهم أبو سفيان بن حرب والأقرع بن حابس والمغيرة بن شعبة . وخرجوا إلى بلادهم وجلس أبو حارثة على بغلة له وإلى جنبه أخ له يقال له كوز بن علقمة ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال كوز :

ـ تعس الأبعد !

يريد رسول الله ـ ﷺ ، فقال له أبو حارثة :

ـ بل أنت تَعَسْت !

ـ و لم يا أخى ؟

ـ والله إنه للنبى الذى كنا ننتظره .

ـ ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟

ـ ما صنع بنا هؤلاء القوم . شرفونا ومولونا وأكرمونا وقد أبوا إلا خلافه ، فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى .

وعلم كوز أن أخاه يؤثر رضى قيصر على رضى الله فلوى عنق ناقته وانطلق إلى مدينة الرسول ليؤمن بالله ورسوله والنور الذى أنزله الله هدى للناس ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

٢

أنفاس المدينة تسبيح وخفق فؤادها ابتهالات لرب العالمين ، والليل ساج بهيم غير أن قلوب المؤمنين قد استنارت بأنوار اليقين ، والسكون موحش ولكن عباد الرحمن قد أطمأنت نفوسهم بالأنس بالله الـرحيم . وشرح صدورهم للإسلام فهم على نور من ربهم ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين .

وعلا بلال مسجد الرسول وراح يرصد الأفق الشرقى ولسانه رطب بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . حتى إذا ما تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ارتفع صوته بالأذان فخرج الناس إلى المسجد يرن فى ضمائرهم قول رسول الله ـ ﷺ : « بشر المشائين فى الظُّلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء . أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة . يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة . قد طهروا ظاهرهم عن الأخباث والأحداث وطهروا سرائرهم عما سوى الله ، فالطهور مفتاح الصلاة والله يحب المتطهرين .

وقام المسلمون للصلاة خلف رسول الله ـ ﷺ ـ فراحوا يناجون الله خاشعين غير غافلين . متضرعين يلتمسون منه أن يهديهم الصراط المستقيم ، يعظمونه غاية التعظيم ، يحبونه ويخشونه قد نزلت بأفئدتهم هيبة من إجلاله وجلاله ، يرجون مثوبته وغفرانه ، قد طأطئوا الرءوس حياء منه فقد عرفوا سر الصلاة .

وقضيت الصلاة فجلس رسول الله — ﷺ — فالتفوا حوله وألقوا إليه سمعهم لينهلوا من ينابيع الحكمة وليهتدوا بمصابيح الهدى ، فقد عرفوا شرف العلم وفضله ونبله بعد أن قرءوا فى القرآن المجيد : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »[١] . بعد أن سمعوا قول رسول الله — ﷺ — : « إذا أتى علىَّ يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عزَّ وجل فلا بورك فى طلوع شمس ذلك اليوم » .

علموا أن الناس العلماء ، وأن الزهاد هم الملوك . وأن السفلة هم الذين يأكلون الدنيا بالدين ، وأن الله يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء ، فعكفوا على تحصيل العلم ، وعلى اقتناء الأشياء التى إذا غرقت سفينتهم سبحت معهم ، فطهرت نفوسهم عن رذائل الأخلاق ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وعمارة الفؤاد .

وسمعوا من رسول الله — ﷺ — أن طلب العلم فريضة على كل مسلم فهرعوا إلى حلقات الدرس ، فالغدو إلى طلب العلم جهاد ، فلم يسكت الجاهل على جهله بعد أن عرفه أن بابا من العلم يتعلمه الرجل خير من الدنيا وما فيها .

وجعل رسول الله — ﷺ — يفقههم فى أمر دينهم . إنه يسلك بهم طريق الرحمة ويرشدهم إلى سبل الرشاد ، فهو لهم مثل الوالد لولده بل هو أرأف بهم من آبائهم ، فالآباء يبعدون الأبناء عن نار الدنيا وهو يجاهد لينقذ الآباء والأبناء من نار الآخرة : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا

---

(١) سورة الزمر الآية (٩) .

إلا متاع الغرور . »(١).

وصمت عليه السلام لحظة ثم قال :

ـــ والعلم خزائن مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا .

وتدفقت الأسئلة ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يجيب السائلين فى رفق ويلجأ أحيانا إلى التلميح لا التصريح ، فالتصريح يهتك حجاب الهيبة ، ولو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء . واستمر الحوار بين رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وبين أصحابه ثم قال :

ـــ إن لهذا العلم ثمنا .

ـــ وما هو ؟

ـــ أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

كان أصحابه يسألونه فى المسجد وفى السوق وفى السفر وفى الحضر ، سألوه :

ـــ ما الإسلام ؟

فقال عليه السلام :

ـــ أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

ـــ فأى الإسلام أفضل ؟

ـــ الإيمان .

وجاء رجل فقعد بين يديه ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إن لى مملوكين يكذبوننى ويخوننى ويعصوننى وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ؟

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨٥) .

فقال — ﷺ :

— إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم ، فإن كان بقدر ذنوبهم اقتص لهم منك للفضل .

فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكى ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— أما تقرأ قول الله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين . »[1] .

— يا رسول الله ما أجد لى ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم . أشهدك أنهم كلهم أحرار .

وكانت نساؤه يسألنه فى أمور الدنيا والدين . سألته عائشة ذات يوم :

— بم يا رسول الله يتفاضل الناس فى الدنيا ؟

— بالعقل .

— وفى الآخرة ؟

— بالعقل .

— أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟

— يا عائشة ، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

كان عليه السلام يحترم العقل آية الله فى خلقه ، وكان يقول :

— ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى الهدى ويرده عن الردى .

وكان يقول :

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧) .

— نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم .

العقل هو صرح الدين ، وهو منارة المؤمن والأمانة التى حملها الإنسان ، لكل شىء آلة وعدة ، وإن آلة المؤمن العقل . ولكل شىء مطية ، ومطية المرء العقل ، ولكل شىء دعامة ، ودعامة الدين العقل ، ولكل قوم غاية ، وغاية العباد العقل . ولكل قوم داع ، وداعى العابدين العقل . ولكل تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل . ولكل أهل بيت قيم ، وقيم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عمارة ، وعمارة الآخرة العقل . ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به ، وعقب الصديقين الذين ينسبون إليه ويذكرون به العقل . ولكل سفر فسطاط ، وفسطاط المؤمنين العقل .

وقال عليه السلام لأبى الدرداء :

— ازدد عقلا تزدد من ربك قربا .

— بأبى أنت وأمى وكيف لى بذلك ؟

— اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلا ، واعمل بالصالحات من الأعمال تزدد فى عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتنل فى آجل العقبى بها من ربك عز وجل القرب والعز .

ودخل عمر وأبىّ بن كعب وأبو هريرة عليه — ﷺ — فقالوا :

— يا رسول الله من أعلم الناس ؟

— العاقل .

— فمن أعبد الناس ؟

— العاقل .

— فمن أفضل الناس ؟

— العاقل .

ـــ أليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟

ـــ وإن كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين . إن العاقل هو المتقى وإن كان فى الدنيا خسيسا ذليلا .

كانوا قبل مبعثه عليه السلام يعبدون الأصنام ، وقد أنكر بعضهم الخالق والبعث والإعادة وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، ولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض . وأقر بعضهم بالخالق وأنكروا البعث والإعادة ، وأقر بعضهم بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الإعادة وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا إليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا .

ومنهم من كان يعتقد التناسخ فيقول إذا مات الإنسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته فانتصب طيرا « هامة » فيرجع إلى رأس القمر كل مائة سنة . ومنهم من أنكر بعث الرسل فى الصورة البشرية ، فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتى ملك من السماء ، ومن كان لا يعترف بهم كان يقول الشفيع والوسيلة لنا إلى الله تعالى هم الأصنام ، فعبدت كلب ودا بدومة الجندل ، وعبدت هذيل سواعا كانو يحجون إليه وينحرون له ، وعبدت مذحج وبعض قبائل اليمن يغوث ، وكان يعوق لهمدان ، ونسر لذى الكلاع بأرض حمير ، واللات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وجميع بنى كنانة وقوم من بنى سُليم ، ومناة للأوس والخزرج وغسان ، وهبل أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة .

ومن العرب من كان يميل إلى اليهودية ومنهم من كان يميل إلى النصرانية

ومنهم من كان يصبو إلى الصابئة ويعتقد فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى السيارات ، حتى لا يتحرك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم إلا بنوء من الأنواء . ومنهم من كان يصبو إلى الملائكة فيعبدهم ، بل كانوا يعبدون الجن ويعتقدون أنهم بنات الله .

كانت قلوبهم شتى قد تعلقت بأوهام وما كانت عندهم فكرة صائبة عن ذات الله ، فلما جاء — صلوات الله وسلامه عليه — بالإسلام وألقى الله فى صدور المسلمين الإيمان . إذا برعاة الإبل قد أوتوا العلم وعملوا به وأصبحوا عظماء فى ملكوت الله .

علموا فى بضع سنين « أن الله ذو الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، له السلطان والقهر ، والخلق والأمر ، وأنه المنفرد بالخلق ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ، وأنه عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى فى الأرض والسماوات ، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذرات فى الهواء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى لم يزل موصوفا به فى أزل الآزال ، لا بعلم متجدد حاصل فى ذاته بالحلول والانتقال .

وأنه تعالى مريد للكائنات ، مدبر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضر ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر ، فوز أو خسران ، زيادة أو نقصان ، طاعة أو عصيان ، إلا بقضائه وقدره ، وحكمته ومشيئته . فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ، ولا فلتة خاطر ، بل هو المبدئ المعيد ، الفعال لما

يريد ، لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته ، ولا قوة له على طاعته إلا بمشيئته وإرادته . فلو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وإن إرادته قائمة بذاته ، فى جملة صفاته ، لم يزل كذلك موصوفا بها مريدا فى أزله لوجود الأشياء فى أوقاتها التى قدرها ، فوجدت فى أوقاتها كما أراده فى أزله من غير تقدم ولا تأخر ، بل وقعت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير ، دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا تربص زمان ، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى وإن دق ، ولا يحجبُّ سمعه بُعد ولا يدفع رؤيته ظلام ، يرى من غير حدقة وأجفان ، ويسمع من غير أصمخة وآذان . كما يعلم من غير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة ، إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان . وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ فى القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق . وأن موسى — ﷺ — سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف ، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى فى الآخرة من غير جوهر وعرض .

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأتمها وأعدلها ، وأنه حكيم فى أفعاله، عادل فى أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما. فكل ما سواه من إنس وجن وملك وشيطان ، وسماء وأرض وحيوان ونبات ، وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس،حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعا ، وأنشأه إنشاء بعد أن لم يكن شيئا ، إذ كان فى الأزل موجودا وحده ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته ، وتحقيقا لما سبق من إرادته ، ولما حق فى الأزل من كلمته ، لا لافتقاره إليه وحاجته ، وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطوع بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان ، والنعمة والامتنان ، أن كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، ويبتليهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ، ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد ، لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق . وإن حقه فى الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل . ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به »[1] .

وبزغت الشمس فى الأفق ورسول الله — ﷺ — يبنى نفوس أصحابه

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى .

ويغرس فيهم وحدة الأمة « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »(١) . والمساواة بين الناس « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٢) . ووحدة الدين « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »(٣) . ووحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية وبالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والغنى والفقير ، والحاكم والمحكوم « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(٤) . « ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى »(٥) . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . »(٦) .

وكان — ﷺ — يقول لأبى هريرة : عدل ساعة أفضل من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها ، ويا أبا هريرة جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصى ستين سنة .

وكان فى أصحابه عليه السلام الحبشى والفارسى والرومى ، فراح يؤكد أنهم عرب ما دام اللسان عربيا ، ويؤكد الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية . « يأيها الناس إن الرب واحد والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

كان يؤدبهم ويقوى نفوسهم ليعدهم لحمل رسالة الله إلى أقصى الأرض ، فكان يعلمهم أن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٩٢) .
(٢) سورة الحجرات الآية (١٣) .
(٣) الأعراف الآية (١٥٨) .
(٤) سورة النساء الآية (٥٨) .
(٥) سورة المائدة الآية (٨) .
(٦) سورة النساء الآية (١٢٥) .

الله : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »[١] . وأن يستجيبوا للحجة والبرهان : « ومن يدع مع الله إلـٰها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . »[٢] . « ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون . »[٣] .

وارتفعت الشمس فقام المسلمون لينتشروا فى الأرض وليبتغوا من فضل الله ، فقد علمهم الإسلام أن العمل عبادة وأن اليد العليا خير من اليد السفلى وأن الساعة إذا قامت وفى يد أحدكم عمل فليتمه وله بذلك أجر . وأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، وأن العلم وحده لا ثمرة له إلا بالعمل ، وأن العمل لا يزهو إلا بالإخلاص : « الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون » .

إنهم فى الأسواق يستقبلون الناس بوجه طلق ، فقد غرس فى وجدانهم أن لقاء الناس بالابتسام صدقة ، وأن المعروف مهما قل زينة للمؤمن ، فكانوا حريصين على بذل المعروف ، فرسول الله — ﷺ — معلمهم الأكبر يقول : « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » ، ويقول : « أيها الناس مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا الله فلا يستجيب لكم ، وقبل أن تستغفروا فلا يغفر لكم . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يدفع رزقا ولا يقرب أجلا ، وإن الأخبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعنهم الله على لسان أنبيائهم ثم عموا بالبلاء » .

ولقد أرهفت ضمائرهم حتى إنهم كانوا يخشون أن يخلطوا عملا صالحا بعمل غير صالح فكانوا يتركون ما فيه شبهة طلبا للنجاة ، فإذا كان فى السلعة

---

(١) سورة الروم الآية (٣٠) . (٢) سورة المؤمنون الآية (١١٧) .
(٣) سورة القصص الآية (٧٥) .

عيب أظهروه خوفا أن يأكلوا أموال الناس بالباطل ، وكانوا يعرضون عن الغش فرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقول : « من غش أمتى فليس منى » . ويقول : البيِّعان بالخيار ما لم يفترقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

ولم يحاول أحدهم أن يحتكر أقوات الناس ليجنى الربح الوفير ، فالدين الذى اعتنقه يحرم الاحتكار . فالمعلم الأكبر عليه الصلاة والسلام يقول : « من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برئ من الله وبرئ الله منه » ويقول : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » . ويقول « بئس العبد المحتكر ، إن أرخص الله الأسعار حزن وإن أغلاها فرح». ورفرفت الأمانة على المجتمع فقد كانوا مؤمنين حقا ، فالمؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأموالهم ، وعلموا أن الأعمال بالنيات فقد قال لهم ذات يوم رسول الله — ﷺ : « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : .. تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغنى . فأُتى(١) فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله . أما صدقتك فقد تقبلت » .

---

(١) أتاه آت فى المنام .

كانوا فى أعماق نفوسهم يطلبون الحلال فطلب الحلال فريضة على كل مسلم ، وكانوا يسعون على عيالهم يطلبون الدنيا حلالا فى عفاف فقد لقنوا أن خير دينهم الورع وأن ورع المتقين أن يدع المرء ما لا بأس به مخافة ما به بأس . فكانوا يدعون تسعة أعشار الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام ، فإن من تمام التقوى أن يتقى المرء فى مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما . فالمعلم الأكبر عليه السلام يقول لهم : « الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه . ومن وقع فى الشبهات واقع الحرام كالراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وكانوا غلاظ الأكباد قبل أن ينير الله قلوبهم بأنوار اليقين ، فلما شرح الله صدورهم للإسلام وزينهم بحسن الخلق تحابوا فى الله وأتلفوا ، فقد سمعوا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول : أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق . وقالوا له : يا رسول الله ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فقال : خلق حسن .

إنه صلوات الله وسلامه عليه لا يفتأ يذكر حسن الخلق ، فقال عليه السلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقال لأبى هريرة : « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق . قال أبو هريرة : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟ قال تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك » .

كانت الرابطة بينهم هى التقوى والدين وحب الله ، فحسنت الألفة وانقطعت الوحشة . فالمؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . وكان عليه السلام يرغبهم فى الحب فى الله فقال : « ما تحاب اثنان فى الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه » . فكانوا يتحابون فى الله ويبغضون فى الله ، وهذا أوثق عرى الإيمان .

عرفوا حقوق الأخوة والصحبة حتى إن أحدهم كان يشق إزاره بينه وبين أخيه ، وقد جاء إلى أبى هريرة وقال :

— إنى أريد أن أؤاخيك فى الله .

— أتدرى ما حق الإخاء ؟

— عرفنى .

— أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى .

— لم أبلغ هذه المنزلة بعد .

وخرج رسول الله ذات يوم إلى بئر يغتسل عندها فأمسك حذيفة بن اليمان الثوب وقام يستر رسول الله — ﷺ — حتى اغتسل ثم جلس حذيفة ليغتسل فتناول رسول الله — ﷺ — الثوب وقام يستر حذيفة عن الناس فأبى حذيفة وقال :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله لا تفعل .

فأبى عليه السلام إلا أن يستره بالثوب حتى اغتسل ، وقال — ﷺ :

— ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهما إلى الله أرفقهما بصاحبه .

وكان لهم فى رسول الله — ﷺ — أسوة حسنة ، فهو يسلم على من يلقاه ويجيب من دعاه ويعود المريض ويشهد الجنازات ويحب للناس ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر » .

وقال أبو هريرة لرسول الله — ﷺ :

— علمنى شيئا أنتفع به .

— اعزل الأذى عن طريق المسلمين .

كان عليه الصلاة والسلام يعمل على إرهاف حس المسلمين الدينى ، ففى

ذلك الإرهاف السعادة والأمن والطمأنينة والأنشراح ، وقد بلغ فى ذلك الغاية التى ما بعدها غاية ، إنه يقول لهم :

ـــ إنه لا يحل لمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه .

ويقول :

ـــ لا يحل لمسلم أن يروع مسلما .

ويقول :

ـــ إن الله يكره أذى المؤمنين .

وكان عليه السلام يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته ، فكانت شيمة أصحابه التواضع فالله لا يحب كل مختال فخور . وكانوا يصنعون المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن أصابوا أهله فهم أهله وإن لم يصيبوا أهله فهم من أهله ، فرأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر .

كانوا متواضعين ينفقون مما رزقهم الله فى غير معصية ، قد طهروا سرائرهم وزكوا علانيتهم استجابة لتعاليم نبيهم قدوتهم وأسوتهم وإمامهم ، فقد قال لهم : « طوبى لمن تواضع فى غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالا جمعه فى غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة . طوبى لمن طاب كسبه ، طوبى لمن عمل بعلمه ، وأنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله » .

إن عبد الله بن سلام يمر فى السوق وعليه حزمة من حطب ، فقيل له :

ـــ ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عن هذا ؟

ـــ أردت أن أدفع الكبر . سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول : « لا يدخل الجنة من فى قلبه خردلة من كبر » .

كانوا يعملون ويتقنون أعمالهم ، ولكنهم ما كانوا يتعجلون الرزق ولا يطلبونه بمعاصى الله ، فقد علمهم معلمهم الأكبر — صلوات الله وسلامه عليه — أن أرزاقهم مقدرة ، يصيبهم ما قدر لهم ويفوتهم ما لم يقدر لهم ، وقد قال لهم : ليس من شيء يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد أمرتكم به ، وليس شيء يقربكم إلى النار ويباعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه . وإن الروح الأمين نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، ألا فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصى الله ، فإنه لا يدرك ما عنده إلا بطاعته » .

كانوا يعملون ابتغاء مرضاة الله فالعمل فريضة على كل مسلم . وقد علمهم معلمهم الأكبر عليه السلام الزهادة فى الدنيا فقال : « الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بما فى يديك أوثق بما فى يدى الله ، وأن تكون فى ثواب المعصية إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك » .

وقال — ﷺ — : « إياكم والطمع فإنه هو الفقر الحاضر » .

وأصبحت قلوب أصحابه تفيض رحمة على الصبيان ، فهم يرون معلمهم الأكبر — صلوات الله وسلامه عليه — يسبغ عطفه عليهم ويغمرهم بحنانه ويتلطف بهم . فمن عادته عليه السلام عندما يقدم من السفر أن يتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه ، فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض :

— حملنى رسول الله — ﷺ — بين يديه وحملك أنت وراءه .

وكان يؤتى بالصبى الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه فى

حجره ، فربما بال الصبى فيصيح به بعض من يراه فيقول :

ـــ لا تزرموا الصبى بوله .

فيدعه حتى يقضى بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، ويبلغ مسرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله ، فإذا انصرفوا غسل ثوبة بعده .

وكان عليه السلام يحذر أتباعه الغيبة والتجسس وتتبع عورات المسلمين فيقول :

ـــ يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان فى قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته .

وكان يحببهم فى إصلاح ذات البين بين الناس حتى إنه ذهب إلى تحسين الكذب إذا كان فيه الإصلاح بين الناس . فعليه الصلاة والسلام يقول :

ـــ كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل فى الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما ، أو يكذب لامرأته ليرضيها .

ويقول عليه السلام :

ـــ ليس بكذاب من أصلح بين اثنين .

وقد وعى أبو بكر الصديق الدرس فقال :

ـــ لو وجدت شاربا لأحببت أن يستره الله ، ولو وجدت سارقا لأحببت أن يستره الله .

وكان ينهاهم عن النميمة والتفريق بين الأحبة وأكل لحم الناس وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فكان يقول لهم :

ـــ ألا أنبئكم بشراركم ؟

ـــ بلى إن شئت يا رسول الله .

— الذى ينزل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده[١] ، أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى إن شئت يا رسول الله .

— من يبغض الناس ويبغضونه . أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى يا رسول الله .

— الذين لا يقيلون عثرة ، ولا يقبلون معذرة ، ولا يغفرون ذنبا . أفلا أنبئكم بشر من ذلك ؟

— بلى يا رسول الله .

— الذى لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره .

وكان — عليه صلوات الله وسلامه — يجاهد لتكون منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتعاونون على البر والتقوى . وكان لهم فيه أسوة حسنة قد أدبه ربه بالقرآن بمثل قوله : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[٢] . وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى[٣] » . وقوله : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور .[٤] » . وقوله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور .[٥] » . وقوله : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين .[٦] » . وقوله : « وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم .[٧] » . وقوله : « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى

(١) المدد .
(٢) الأعراف ١٩٩ .
(٣) النحل ٩٠ .
(٤) لقمان ١٧ .
(٥) الشورى ٤٣ .
(٦) المائدة ١٣ .
(٧) النور ٢٢

بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم .[١] » . وقوله : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين .[٢] » . وقوله : « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا[٣] » . ثم منه أشرق النور على العالمين .

إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، فكان كنه المسلمين حسن المعاشرة وكرم الصنيعة . ولين الجانب وبذل المعروف ، وإطعام الطعام وإفشاء السلام ، وحسن الجوار والعفو والإصلاح بين الناس ، والجود والكرم والسماحة ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس . واتقاء الله وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة ، وحفظ الجار ورحمة اليتيم ، وحسن العمل وقصر الأمل .

كانوا فى الأسواق يتاجرون فقد أحل الله التجارة . وقال ـــ ﷺ : « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » . فكان يشغلهم صفق فى الأسواق يتبايعون ويتجرون ، ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله حتى يؤدوه إلى الله . وكانوا ينفقون من طيبات ما كسبوا ويصلون أرحامهم ابتغاء مرضاة الله .

وكانت السهولة طابعهم إذا باعوا وإذا اشتروا وإذا اقتضوا ، وكانوا يتجاوزون عن المعسرين لعل الله يتجاوز عنهم . وما كانوا يبيعون سلعة بها داء إلا أخبروا عن العيب ، وما كانوا يحاولون ستره فقد وقر فى وجدانهم أن ربهم يعلم السر وأخفى . وقد قال لهم معلمهم الأكبر ـــ صلوات الله وسلامه

---

(١) فصلت ٣٤ .　　(٢) آل عمران ١٣٤ .

(٣) سورة الحجرات ١٢ .

عليه : « البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

وكانوا لا يروجون سلعهم بالحلف بالله خشية أن يقعوا فى مكروه ، فالله تعالى يقول : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .(١) » .

وكانوا يتلقون القوافل القادمة فيشترون منهم قبل أن يصلوا إلى السوق ، بينا كان هناك إخوان لهم ينتظرون فى السوق وصول الطعام فكان ذلك الفعل يفوت عليهم حصولهم على أقواتهم . فنهى النبى — ﷺ — عن لقاء السلع حتى يُهبط بها فى الأسواق ، ونهى عن بيع الطعام حتى يبلغ به سوق الطعام ؛ فقد كان — صلوات الله وسلامه عليه — رءوفا بالمسلمين يحب أن يسوى بين القادرين والعاجزين ، وأن يضمن عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص للجميع .

كانوا قد لقنوا أن المال مال الله يعطيه لمن يشاء بحقه ، وحق المال زكاته . فكانوا يجمعون الذهب والفضة ولا يكنزونها بل ينفقونها فى سبيل الله . وقد أتى رجل من بنى تميم رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وحاضرة . فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق .

— تخرج الزكاة من مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والسائل .

وعرفوا أن المال الذى أخرج منه الزكاة لا يعد كنزا وإن كان كثيرا ، إنما

---

(١) آل عمران ٧٧ .

الكنز ما لم تخرج منه الزكاة . فرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ يقول : « كل مال وإن كان تحت سبع أرضين تؤدى زكاته فليس بكنز ، وكل مال لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز » .

ولم يقف جودهم عند الزكاة بل كانوا ينفقون على الفقراء والمحتاجين مما رزقهم الله . فالله تعالى يقول : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون .[1] » . وقد بلغ ببعضهم أن نزلوا عن جميع أموالهم لكيلا يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم . « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[2] » .

ونجح الإسلام بفرض الزكاة على القادرين فى أن يحبب الأغنياء فى الفقراء وأن يحبب الفقراء فى الأغنياء ، فلا حقد ولا كراهية ولا صراع ولا حمامات من الدماء بل إخوة متحابون ، فالله تعالى يأمر الأغنياء بأن يأتوا إخوانهم الفقراء من ماله : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم[3] » . وجعل الله للسائل والمحروم حقا فى أموال الأغنياء : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم[4] » . وجعل إنفاق المال على الفقراء قربى إليه : وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين[5] » . وحبب فى إعطاء الصدقة سرا : « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم[6] . ونهى عن المن والأذى : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس[7] » .

الزكاة إزالة للبخل وتضعيف لحب المال ، فالإسلام لا يرفع المال فوق قدره

---

(١) الحشر ٩ .
(٢) التوبة ١١١ .
(٣) النور ٣٣ .
(٤) المعارج ٢٤ ، ٢٥ .
(٥) البقرة ١٧٧ .
(٦) البقرة ٢٧١ .
(٧) البقرة ٢٦٤ .

فهو وسيلة لتحقيق خير الناس جميعا ، حرام كنزه ونعطيله عن تأدية وظيفته حلال إنفاقه فى سبيل الله : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لم يشاء والله واسع عليم .[١] » .

والمال فتنة واختبار ، فقد يزيد صاحبه فضلا وقد يزيده خسارة وهو لا يغنى عنه إذا تردى : « أيحسبون أنما نمدهم به مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يأتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون[٢] » .

ويسخر الإسلام تجارة الدنيا لتجارة الآخرة فينبغى أن يراد بكل الأعمال وجه الله : السعى والكسب والإنفاق ، ولا ينبغى شراء الحياة الدنيا بالآخرة ، ولا الرضا ولا الاطمئنان ولا الفرح بها : « واعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفى لآخرة عذاب شديد ومغفرة ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .[٣] » .

والأموال وحدها لا تقرب إلى الله زلفى : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف

---

(١) البقرة ٢٦١ .

(٢) المؤمنون ٥٥ — ٦١ .

(٣) الحديد ٢٠ .

بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون .[١] » . فلا ينبغى أن تشغل الأموال المسلمين عن صالح الأعمال ، بل عليهم ألا يكون كل همهم عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة ، و « لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا[٢] ».« يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم .[٣] » .

و لم يعد للأموال فى الإسلام وظيفة اقتصادية فحسب بل أصبح لها وظيفة اجتماعية فى المقام الأول . لذلك اهتم الإسلام بإعادة توزيع الأموال حتى لا تتكدس فى أيدى فئة قليلة فتنحرف عن طريق استخدامها الصحيح : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب[٤] » .

كان عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكبار المهاجرين والأنصار مشغولين بالصفق فى الأسواق . فالله تعالى يقول : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا .[٥] » .

وقال — صلوات الله وسلامه عليه : « أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا » .

---

(١) سبأ ٣٧ . (٢) آل عمران ١١٦ .
(٣) الشعراء ٨٨ ، ٨٩ . (٤) الحشر ٧ .
(٥) النساء ٢٩ ، ٣٠ .

كانوا يعلمون أن طلب الحلال واجب على كل مسلم وأن التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء ، فكانوا يجتهدون فى العمل ويخشون أن يكون فيما يحصلون عليه من أموال ما لم يبحه الشرع ، فكانوا يتحررون من شبهة الحرام ويخشون أن يكونوا ممن قال فيهم معلمهم الأمين — ﷺ : « من اشترى ثوبا بعشرة دراهم وفيه درهم من حرام ، لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه » .

وكانوا يعلمون أنهم محاسبون ، وأن كل امرئ سيسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه . وقد غرس فى وجدانهم أن من اكتسب مالا من غير حله وأنفقه فى غير حقه أحله الله دار الهوان ، وأن الناس غاديان يسعيان فغاد فى فكاك نفسه فمعتقها وغاد مهلكها ، وإنه لا يدخل الجنة جسد غذى بحرام .

وكانوا يؤدون الأمانات إلى أهلها فلا يطففون فى المكيال فالكيل أمانة ، ولا فى الميزان فالوزن أمانة . ولا يشدون أيديهم فى الذرع وقت البيع ولا يرخونها وقت الشراء . ولا يغشون ، فقد مر رسول الله — ﷺ على صبرة طعام (كومة طعام) فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال :

— ما هذا يا صاحب الطعام ؟

— أصابته السماء يا رسول الله .

— أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غشنا فليس منا .

وكانوا لا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

* * *

وغابت الشمس فى الأفق الغربى فغدا المسلمون من الأسواق ومن الحقول

إلى دورهم لا يلقون أحدا إلا ألقوا عليه السلام ، فقد قال لهم ــ صلوات الله وسلامه عليه : « أفلا أنبئكم بشىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

وساروا وقد تسربلوا بالتواضع وتزينوا بمكارم الأخلاق وقد وقر فى ضمائرهم ذلك الحوار الذى دار بين عبد الله بن مسعود ورسول الله عليه الصلاة والسلام :

ــ إن الله عز وجل قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه .

ــ يا رسول الله وما بوائقه ؟

ــ غشه وظلمه ، ولا يكسب مالا من حرام فينفق منه فيبارك فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار . إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن .

وقال ــ ﷺ :

ــ والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .

قيل :

ــ من يا رسول الله ؟

قال :

ــ الذى لا يأمن جاره بوائقه .

وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا

أو ليصمت » .

كانوا إن استعان بهم جيرانهم أعانوهم ، وإن استنصروهم نصروهم ، وإن استقرضوهم أقرضوهم ، وإن مرضوا زاروهم وإن أصابهم خير هنئوهم ، وإن أصابتهم مصيبة عزوهم ، وإن اشتروا فاكهة أهدوا لهم وإن لم يفعلوا أدخلوها سرا . ولا يؤذونهم بروائح قدورهم إلا أن يغرفوا لهم منها ، ويصفحون عن زلاتهم ، ولا يتطلعون إلى عوراتهم ، ويغضون أبصارهم عن حرماتهم .

وقال ــ ﷺ ــ لأصحابه :

ــ ما تقولون فى الزنا ؟

ــ حرام حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة .

ــ لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره ... ما تقولون فى السرقة ؟

ــ حرمها الله ورسوله فهى حرام .

ــ لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره .

وأتى النبى ــ ﷺ ــ رجل فقال :

ــ يا رسول الله إنى نزلت بمحلة بنى فلان ، وإن أشدهم إلىّ أذى أقربهم لى جوارا .

فبعث رسول الله ــ ﷺ ــ أبا بكر وعمر وعليا يأتون المسجد فيقومون على بابه فيصيحون :

ــ ألا إن أربعين دارا جار ، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه .

وقال عليه السلام :

ــ من آذى جاره فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن حارب جاره

فقد حاربنى ومن حاربنى فقد حارب الله .

وجاء رجل إليه عليه السلام يشكو جاره ، فقال له النبى — ﷺ :

— اصبر .

ثم جاء إليه يشكو جاره فقال له :

— اصبر .

ثم جاء إليه يشكو جاره فقال له عليه السلام :

— اطرح متاعك فى الطريق .

فجعل الناس يمرون به ويقولون :

— مالك ؟

فيقال :

— آذاه جاره .

فجعلوا يقولون :

— لعنه الله .

فجاء الجار إلى النبى — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ما لقيت من الناس ؟

— وما لقيت منهم ؟

— يلعنوننى .

— قد لعنك الله قبل الناس .

— إنى لا أعود .

فجاء الذى شكاه إلى النبى — ﷺ — فقال له النبى :

— ارفع متاعك فقد كفيت .

وثبت فى القلوب أن الجوار يقتضى حقا وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ،

فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة ؛ إذ قال — صلوات الله وسلامه عليه : « الجيران ثلاثة : جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق » فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ؛ وأما الذى له حقان فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام ؛ وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك ، وإنها لسماحة ما بعدها سماحة أن يكون للمشرك حق الجوار .

وجاء رجل إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله اكسنى .

فأعرض عنه فقال :

— يا رسول الله اكسنى .

— أما لك جار له فضل ثوبين ؟

— بلى غير واحد .

— فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة .

وقالت عائشة رضى الله عنها :

— يا رسول الله إن لى جارين ، إلى أيهما أهدى ؟

— إلى أقربهما بابا منك .

وكان عليه السلام فى جمع من أصحابه فقال :

— من يأخذ عنى هذه الكلمات فيعمل بهن أو يعلمّ من يعمل بهن ؟

فقال أبو هريرة :

— أنا يا رسول الله .

فأخذ بيده وعد خمسا فقال :

— اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ،

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

وليس حق الجوار كف الأذى فقط ، بل احتمال الأذى ، ولا يكفى احتمال الأذى بل لا بد من الرفق وإسداء الخير والمعروف ، فلا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله . وقد قال — ﷺ :

— أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما .

وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وقال ﷺ :

— ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم .

وقال عليه السلام :

— ثلاثة من الفواقر : إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر . وجار سوء إن رأى خيرا دفنه وإن رأى شرا أذاعه ، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت عنها خانتك .

وقال — صلوات الله وسلامه عليه :

— خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره .

ودخلوا على نسائهم يتلطفون بهن ويحسنون إليهن فقد قال لهم معلمهم الأكبر عليه أزكى السلام :

— إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله .

وكانوا يرفقون بهن ولا يظلمونهن فرسول الله — ﷺ — قد أوصاهم بهن خيرا : « عليكم باللطف والرفق بنسائكم لا تظلموهن ولا تضيقوا عليهن ،

فإن الله عز وجل يغضب للمرأة إذا ظلمت كما يغضب لليتيم » . « اتقوا الله فى النساء فإنهن أسرى فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، أوسعوا عليهن الكسوة والنفقة يوسع الله عليكم فى الرزق ويفسح لكم فى الأعمار ، كما تكونون يكون الله عليكم » .

وجاء معاوية بن حيدة إلى النبى — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟

— تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت .

وصارت النساء شقائق الرجال كما قال نبى الإسلام عليه السلام ، فقد قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، فأصبح لها حق الاحتفاظ بما تملك أو بيعه إن شاءت : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن[1] » . وأصبح لها حق الإرث : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون[2] » .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى الرجال بإمساك النساء بمعروف أو تسريحهن بإحسان ، وأوجب على كل من الزوجين أن يؤدى إلى الآخر حقوقه بطيب نفس وانشراح صدر ، فإن للمرأة على الرجل حقا فى ماله وهو الصداق والنفقة بالمعروف . وقد قال — ﷺ : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها ، فمات و لم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان » . وحقا فى بدنه وهو العشرة والمتعة بحيث لو أقسم ألا يقربها استحقت الفرقة . فوطؤها واجب فقد قال النبى — ﷺ — لعبد الله بن عمرو لما رآه يكثر الصوم والصلاة :

ــ إن لزوجك عليك حقا .

تساوت المرأة مع الرجل فى الحرية المطلقة فى الكسب والاتجار وحيازة المال أو إهدائه لمن تشاء : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا[١] » . وتساوت معه فى الحقوق الدينية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض[٢] » . وأصبحت أليفته ونده وسكنه فرفرفت السعادة الحقة على بيوت المسلمين .

وكانوا يصلون أرحامهم ، فالله سبحانه وتعالى يقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام[٣] » . وقال ــ ﷺ : « من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه » . فكانوا يحسنون إلى ذوى القربى لكيلا يلعنهم الله : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم[٤] » . وكانوا يتصدقون عليهم لقول رسول الله ــ ﷺ : « الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذوى الرحم اثنتان : صدقة وصلة » . وقال : « يا أمة محمد : والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم ، والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة » .

وقال عبد الله بن أبى أوفى :

كنا جلوسا عند النبى ــ ﷺ ــ فقال : لا يجالسنا اليوم قاطع رحم . فقام فتى من الحلقة فأتى خالة له قد كان بينهما بعض الشيء فاستغفر لها

---

(١) سورة النساء الآية ٤ (٢) سورة آل عمران الآية ١٩٥

(٣) سورة النساء الآية ١ (٤) سورة محمد الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

واستغفرت له ثم عاد إلى المجلس : فقال النبى — ﷺ : إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم .

وكانوا يحسنون على الأرامل واليتامى ، فرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الساعى على الأرملة والمسكينة كالمجاهد فى سبيل الله » . ويقول : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » . وقال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات ، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين » . وفرج بين إصبعيه : السبابة والوسطى .

وقال — ﷺ : « والذى بعثنى بالحق لا يعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولان له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه ، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله » .

كانت الوفود تشد الرحال إلى المدينة ، وكان الرجال يلقون أسماعهم إلى رسول الله — ﷺ — فيأخذ بألبابهم سحر بيانه ، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، وأصبحت مكارم أخلاقه تمس شغاف قلوبهم وتأسر نفوسهم فهو على خلق عظيم ، بل أحسن الناس خلقا ، بالمؤمنين رءوف رحيم . وكانوا يقلبون وجوههم فى المجتمع الجديد الذى صاغه الإسلام وهم يعجبون ، فالأوس والخزرج الذين كانوا بالأمس ألد الخصام أصبحوا بنعمة الله إخوانا . والمهاجرون قد اندمجوا فى الأنصار وقد أصبحوا شعبا واحدا يعبدون إلـٰها واحدا ، أكرمهم عند الله أتقاهم . « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله[١] » .

إنهم يقرئون السلام من عرفوا ومن لم يعرفوا . ويوسعون لإخوانهم فى المجالس ويدعونهم بأحب أسمائهم إليهم ، ويطعمون الطعام ويصلون بالليل والناس نيام ، لا يسب بعضهم بعضا فسباب المسلم فسوق ، ولا يقاتل بعضهم بعضا فقتال المسلم كفر ، يكرمون الجلساء فيبتسمون فى وجوههم ويصغون إليهم ، فقد قال لهم نبيهم — صلوات الله وسلامه عليه : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة » .

إنهم متواضعون لله لا يمشون فى الأرض مرحا . إذا ظلموا صبروا وإذا أسيء إليهم عفوا وإذا غضبوا غضبوا لله وما كانوا يغضبون لأنفسهم ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ينفقون مما رزقهم الله ، لا يقربون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا يقربون مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، يوقرون والديهم ، لا يجدون فى أنفسهم غشا ولا يحسدون أحدا على خير أعطاه الله إياه ، ولا يمشون بالنميمة ، يكفون ألسنتهم عن الشر يقولون خيرا أو يصمتون ، يحمدون الله على السراء والضراء ، قد وقر فى سرائرهم ما أنزل الله على رسوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره [٢] » . فأرهف حسهم الدينى فأصبحوا لا يتكلمون فيما لا يعنيهم خشية الإثم ، ولا يتكلمون فيما يعنيهم إلا فيما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، لا يقولون إلا قولا سديدا ، يجادلون الناس بالتى هى أحسن ، إذا حكموا بين

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١ (٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ،٨

الناس يحكمون بالعدل ، يقابلون الخير بأحسن منه والشر بالعفو عنه ، إنهم للصغار آباء وللكبار أبناء وبنعمة الله إخوان ، يتقون الله حق تقاته وعلى ربهم يتوكلون .

وكانت المحبة ترفرف على المجتمع الجديد ، وكانت الحرية شرايينه ، حرية الرأى مكفولة للجميع ، وحرية العقيدة مكفولة ، « لا إكراه فى الدين فقد تبين الرشد من الغى[١] » . ولا عبودية إلا لله وحده ، وحريـة الإرادة مكفولة : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى[٢] » .

كانت البشرية تنصهر فى بوتقة واحدة لا أجناس ولا ألوان ولا لغات ولا حدود جغرافية ، بل إله واحد ودين واحد وعالم واحد : إخاء ومساواة ووحدة إنسانية ورفعة فوق الخبز وحاجات الجسد ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . ومشيئة السماء على الأرض فشريعة الله للناس أجمعين ، للحكام والمحكومين للأغنياء والفقراء للبيض والسود للأقوياء والضعفاء ، ورب ليس بظلام للعبيد .

كان رجال الوفود يؤمون المدينة فما يلبث الإعجاب أن يملأ جوانحهم ، فالمدينة الفاضلة التى داعبت عقول الفلاسفة والمفكرين أصبحت حقيقة واقعة فى أرض العرب . إن أفلاطون قد أسهب فى وصف جمهوريته فلما أعطى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦ .

(٢) سورة النجم الآيات ٣٩ — ٤٢ .

جزيرة من جزر اليونان ليحقق حلمه أخفق عند التطبيق . أما محمد بن عبد الله رسول رب العالمين فقد نجح فى أن يقيم خير أمة أخرجت للناس . وقد قال الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون[٣] .

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

٣

رسول الله ــ ﷺ ــ ينطلق إلى المدينة وعليه برد غليظ الحاشية ــ ومعه أنس بن مالك ــ يسلم على الناس فيردون تحيته بأحسن منها ، والغلمان يهرعون إليه يصافحونه فرحين فيداعبهم ويمسح بيده على رءوسهم ويدعو لهم بالخير ، فهو أب رحيم للجميع .

وجاء أعرابى فجبذ رسول الله ــ ﷺ ــ بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال :

ــ يا محمد احمل لى على بعيرىّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبى ــ ﷺ ــ ثم قال :

ــ المال مال الله وأنا عبده .

وساد برهة صمت ثم قال ــ صلوات الله وسلامه عليه :

ــ ويقاد[١] منك يا أعرابى ما فعلت بى ؟

ــ لا .

ــ لِمَ ؟

ــ لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فضحك النبى ــ ﷺ ــ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر

---

(١) يقاد منك : يقتص منك .

تمر .

كان عليه السلام دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخَّاب ولا فحاش ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما يشتهى ولا يؤيس منه ، خدمه أنس نحوا من عشر سنين ما صحبه فى سفر ولا حضر ليخدمه إلا وكانت خدمة رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لأنس أكثر من خدمة أنس له . وما قال له أف قط ، وما قال لشيء فعله لِمَ فعلت كذا ، ولا لشيء لم يفعله ألا فعلت كذا .

وكان ـــ ﷺ ـــ فى بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة فقال رجل :

ـــ يا رسول الله علىّ ذبحها .

وقال آخر :

ـــ علىّ سلخها .

وقال آخر :

ـــ علىّ طبخها .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ وعلىّ جمع الحطب .

ـــ يا رسول الله نحن نكفيك .

ـــ علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم . فإن الله يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه .

وقام فجمع الحطب فما كان أحد أحسن خلقا منه ، فهو فى بيته فى مهنة أهله يحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ، ويكنس البيت ، ويعقل البعير ويعلف ناضحه[١] ، ويأكل مع الخادم ويعجن معها ويحمل

---

(١) ناضحه : الجمل الذى يحمل عليه الماء .

بضاعته من السوق .

قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء والإكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحدا ولا يعيره ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم حديث أولهم . يضحك مما يضحكون منه ، ويعجب مما يعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق ويقول : « إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه » . ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجوزه فيقطعه بانتهاء أو قيام .

وكان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر . فأما حلمه فإنه لا يغضبه شيء يستفزه . وأما حذره ففى أخذه بالحسن ليُقتدى به وتركه للقبيح ليُنتهى عنه واجتهاد الرأى بما أصلح أمته والقيام لهم بما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة . وأما تقديره ففى تسوية النظر والاستماع بين الناس ، وأما تفكره ففيما يبقى ويغنى .

وما اجتمع فى بطنه ـــ ﷺ ـــ طعامان فى يوم قط ، إن أكل لحما لم يزد عليه وإن أكل تمرا لم يزد عليه وإن أكل خبزا لم يزد عليه . وكان يأتى على آل محمد شهر ما يختبزون خبزا ولا يطبخون قدرا ، وما أكل صلوات الله وسلامه عليه الشعير منخولا ، وكان يجوع لكثرة من يغشاه وأضيافه وقوم يلزمونه لذلك ، فلا يأكل طعاما أبدا إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يتتابعون من المسجد .

واضطجع ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ذات يوم على حصير فأثر الحصير بجلده ، فلما استيقظ جعل عبد الله ابن مسعود يمسح عنه ويقول :

— يا رسول الله آذنتنا نبسط لك على هذا الحصير شيئا يقيك منه ؟

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما لى وللدنيا وما أنا والدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وعاد رسول الله ﷺ — إلى المسجد ومعه أنس بن مالك فخف إليه أصحابه ، فهو أكرم الناس عِشرة وأكثرهم أدبا ، وألقوا إليه أسماعهم لينهلوا من معين علمه الذى لا ينضب . وكان فيهم عمر بن الخطاب وأبو جهم بن حذيفة ، فوقعت عينا عمر على أبى جهم فإذا به يتذكر الليلة التى تواعدا فيها على قتل رسول الله — ﷺ — إنهما انطلقا إلى منزله فى مكة تحت جنح الظلام فسمعا له فافتتح وقال :

— الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟[1] » .

فضرب أبو جهم على عضده وقال :

— انج .

وفرا هاربين . ان عمر ليذكر ذلك الهلع الذى نزل به وانه ليذكر أثر تلك الآيات البينات فى وجدانه . انها كانت تدوى فى عين ذاته فتهزه من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، ولولا أن أخذته العزة بالإثم لا نطلق إلى رسول الله — ﷺ — وأعلن إسلامه .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ١ — ٨

أراد أن يفر من رنين الآيات التى حفرت فى أعماق أعماقه ، أن يصم أذنى ضميره عنها وأن يغلق نفسه دونها ، فخرج ليقتل رسول الله — ﷺ — فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له :

— أين تريد يا عمر ؟

— أريد محمدا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله .

— والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

— وأى أهل بيتى ؟؟

— خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما .

إنه ليسمع صوت خباب بن الأرت وهو يقرأ القرآن ، وإنه ليرى نفسه وهو ينطلق غاضبا إلى بيت أخته وإذا بالحوار الذى دار بينه وبينها فى ذلك اليوم ينبعث من أغوار الماضى :

— ما هذه الهينمة التى سمعت ؟

— ما سمعت شيئا .

— بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه .

ورأى نفسه وهو يبطش بختنه سعيد بن زيد فتقاصرت نفسه ، ليت ذلك ما كان ! إن أخته قد قامت إليه لتكفه عن زوجها فضربها فشجها ورأى دمها يسيل على وجهها بعين بضيرته فى وضوح ، فأغمض عينيه لعله يطرد من ذهنه تلك الذكريات ولكن الأحداث والأصوات راحت تزداد وضوحا على

مسرح خياله :

ـــ نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

كان إيمانهما أقوى من غضبه . وعادت آيات الحاقة تدوى فى وجدانه لكأنما كان الكون كله يرتلها فزعزعت كيانه ، فقال لأخته وقد حاقت به الهزيمة :

ـــ أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد .

ـــ إنا نخشاك عليها .

ـــ لا تخافى . واللات والعزى لأردنها إذا قرأتها إليك .

ـــ يا أخى إنك نجس على شركك ، وإنه لا يمسها إلا المطهرون .

وذهب مسلوب الإرادة واغتسل فأعطته الصحيفة ، فلما قرأها أحس كأن أنوارا قد ألقيت فى فؤاده . وعادت إلى ذاكرته تلك الآيات التى هزت كيانه : آيات الحاقة التى هدت كبرياءه فقال :

ـــ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .

وهداه الله إلى الصراط المستقيم وأخرجه من الظلمات إلى النور ، والتقت عيناه بعينى أبى جهم بن حذيفة فعجب كيف تأخر إسلامه إلى عام الفتح ، وسرعان ما رن فى جوفه قول الله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين .[1] فأطرق عمر حياء وقال فى إيمان عميق :

ـــ صدق الله العظيم .

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦ .

٤

كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى المسجد ، وكان الزبير بن العوام يصغى إليه وهو يقول :

ـــ يا زبير إنى رسول الله إلى الناس عامة وإليك خاصة . أتدرى ماذا قال ربكم حين استوى على عرشه ونظر إلى خلقه ؟ قال : عبدى أنفق أنفق عليك ووسع أوسع عليك ولا تضيق فأضيق عليك . إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات متواصل إلى العرش لا يغلق لا فى ليل ولا فى نهار ، ينزل الله من الرزق على كل امرئ بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته . من أكثر الله له . ومن أقل أقل الله له .

يا زبير إن الله يحب الإنفاق ويبغض الإقتار . وإن السخاء من اليقين والبخل من الشك ، ولا يدخل النار من أيقن ولا يدخل الجنة من شك .

يا زبير إن الله يحب السخاء ولو بفلق تمرة ، ويحب الشجاعة ولو بقتل حية أو عقرب .

وارتفعت أصوات فى الخارج تصيح :

ـــ وفد فزارة .. وفد فزارة .

ودخل من يستأذن رسول الله ـــ ﷺ ـــ للوفد فأذن لهم ، فدخل بضعة عشر رجلا فيهم خارجة بن حصن والحر بن قيس بن حصن وهو أصغرهم ، وحيوا رسول الله عليه السلام بتحية الإسلام فرد تحيتهم بأفضل منها . فقد جاءوا مقرين بالإسلام .

كانت العداوة مشبوبة بين بنى فزارة وعبس منذ أن نشبت بينهما حرب داحس ، وكان داحس فرسا لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس أجراه مع فرس لحذيفة بن بدر بن عمرو ابن زيد بن جؤية بن لوذان بن ثعلبة بن عدى بن فزارة يقال لها الغبراء ، فدس حذيفة قوما وأمرهم أن يضربوا وجه داحس إن رأوه قد جاء سابقا ، فجاء داحس سابقا فضربوا وجهه وجاءت الغبراء .

فلما جاء فارس داحس أخبر قيسا الخبر فوثب أخوه مالك بن زهير فلطم وجه الغبراء ، فقام حمَل بن بدر فلطم مالكا . ثم إن أبا الجنيدب العبسى لقى عوف بن حذيفة فقتله ، ثم لقى رجل من بنى فزارة مالكا فقتله ، فوقعت الحرب بين عبس وفزارة فقتل حذيفة بن بدر وأخوه حمَل بن بدر .

وأصبح خارجة بن حصن سيد بنى فزارة فورث فيما ورث عداوة بنى عبس . وخرج ذات يوم فى جمع من بنى فزارة ومن بنى ثعلبة بن سعد وهو يريد غزو بنى عبس ، فلقوا جيشا لبنى تميم على ماء يقال له « الكفافة » . فقاتلوهم قتالا شديدا وهزمت تميم وأجفلت . وظلت الثارات ناشبة بين بنى فزارة وبنى عبس وبنى تميم حتى إذا ما انتشر الإسلام وأضاء الأفئدة نور اليقين ، جاءوا جميعا إلى رسول السلام عليه السلام مقرين بالإسلام الذى محا الإحن والبغضاء من الصدور وأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

جاء وفد فزارة على ركاب عجاف ، فسألهم رسول الله — ﷺ — عن بلادهم فقالوا :

— أسنَتت[1] بلادنا وهلكت مواشينا وأجدب جنابنا وغرث[2] عيالنا

---

(١) أسنتت : أجدبت لقلة المطر .　　(٢) غرث : جاع .

فادع لنا ربك .

فصعد رسول الله — ﷺ — المنبر ودعا فقال :

— اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك فأحى بلدك الميت . اللهم اسقنا غيثا مغيثا ، مريئا مريعا (مخصبا) ، مطبقا واسعا ، عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار .

اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق . اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء .

فمطرت فما رأوا السماء ستة أيام ، السحب كأنها أمواج والغيث يهطل من السماء ، فصعد رسول الله — ﷺ — فدعا فقال :

— اللهم حوالينا ولا علينا ، على الآكام والظّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر .

فانجابت السماء على المدينة انجياب الثور .

وجاء وفد مرة فأشرقت وجوه المسلمين بالبشر . كانوا ثلاثة عشر رجلا رأسهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة المُرى ، من خرج يوم الخندق مع قريش وغطفان لاستئصال شأفة المسلمين ومن بعث إليه وإلى عيينة بن حصن ابن حذيفة بن بدر رسول الله — ﷺ — لما اشتد على الناس البلاء يوم الخندق ، وهما قائدا غطفان ، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينه وبينهما الصلح حتى كتبوا الكتاب و لم تقع الشهادة وعلى عزيمة الصلح إلا المراوضة فى ذلك . فلما أراد رسول الله — ﷺ — أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه فقالا له :

— يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل

به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

— بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ :

— يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة . والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

— فأنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال :

— ليَجهدوا علينا .

ذكريات تدفقت إلى رءوس المسلمين فأين اليوم من الأمس ؟ إن ألد الخصوم قد جاءوا إلى المدينة طائعين ليقروا بالإسلام . وإنها لفرحة ما بعدها فرحة أن شرح الله صدور من حاربوا دين الله للإسلام، وسبحان الله رب العالمين.

ودخل وفد مرة على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه فقالوا :

— يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك ، ونحن قوم من لؤى بن غالب .

فتبسم رسول الله — ﷺ — فقد ولد للؤى بن غالب أربعة نفر : كعب ابن لؤى وعامر بن لؤى وسامة بن لؤى وعوف بن لؤى . ولقد خرج عوف ابن لؤى فى ركب من قريش حتى إذا كان بأرض غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان أبطئ به . فانطلق من كان معه من قومه . فأتاه ثعلبه بن سعد فحبسه وزوجه وألصقه به وألحقه بنسبه وآخاه ، فشاع نسبه فى بنى ذبيان وصار نسبه

فى غطفان عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريْث بن غطفان وعرف نسل ابنه ببنى مرة ، وما كانوا من ثعلبة بن سعد بل كانوا من لؤى بن غالب ، وكانوا قوم رسول الله — ﷺ — وعشيرته حقا .

والتفت عليه السلام إلى الحارث بن عوف وقال :

— أين تركت أهلك ؟

— بسَلاح[1] وما والاها .

— كيف تركت البلاد ؟

— والله إنا لمسنتون فادع الله لنا .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم اسقهم الغيث .

وأمر بلالا أن يجيزهم فأجازهم بعشر أواق ، عشر أواق فضة ، وفضل الحارث بن عوف ، أعطاه ثنتى عشرة أوقية . فرجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله — ﷺ .

وسار وفد كلاب فى طرقات المدينة وفيهم لبيد بن ربيعة ، فراح الناس يترحمون على عثمان بن مظعون ويتذكرون تلك الأيام التى كان فيها عثمان فى جوار الوليد بن المغيرة . إنه لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله — ﷺ — من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة قال :

— والله إن غدوى ورواحى آمنا بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابى وأهل دينى يلقون من البلاء والأذى فى الله ما لا يصيبنى ، لنقص كبير فى نفسى .

---

(١) سلاح : موضع أسفل من خيبر وماء أيضا لبنى كلاب .

فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له :

ـــ يا أبا عبد شمس وفت ذمتك ، قد رددت إليك جوارك .

ـــ لم يابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومى .

ـــ لا ولكنى أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره .

ـــ فانطلق إلى المسجد فاردد إلى جوارى علانية كما أجرتك علانية .

فانطلقا حتى أتيا الكعبة فقال الوليد :

ـــ هذا عثمان قد جاء يرد على جوارى .

ـــ صدق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ولكنى أحببت ألا أستجير بغير الله فقد رددت عليه جواره .

ثم انصرف عثمان ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب فى مجلس من قريش ينشدهم ، فجلس معهم عثمان فقال لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قال عثمان :

ـــ صدقت .

قال لبيد :

وكل نعيم لا محالة زائل

قال عثمان :

ـــ كذبت نعيم الجنة لا يزول .

قال لبيد بن ربيعة :

ـــ يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم ؟

فقال رجل من القوم :

ـــ إن هذا سفيه فى سفهاء معه قد فارقوا ديننا . فلا تجدن فى نفسك من

قوله .

فرد عليه عثمان حتى زاد أمرهما وعظم ، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان فقال :

ــ أما والله يابن أخى إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت فى ذمة منيعة .

ــ بل والله إن عينى الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإنى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

ــ هلم يا بن أخى إن شئت إلى جوارك .

ــ لا .

أين اليوم من الأمس ؟ إن لبيد بن ربيعة قد جاء ليعلن على الملأ أن عثمان بن مظعون كان على صواب لما قال : نعيم الجنة لا يزول . ورحم الله عثمان بن مظعون .

وأنزل رسول الله ــ ﷺ ــ وفد كلاب دار رملة بنت الحارث فقالوا :

ــ يا رسول الله إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التى أمرته ، وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله ، وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا .

كان الضحاك بن قيس الكلابى قد أسلم قبيل الفتح وقد شهد فتح مكة وقتال الطائف وغزوة حنين وكان علىَ رأس جيش سُليم وكلاب . وقد قال عباس بن مرداس السلمى فى ذلك اليوم :

عفا مِجدل من أهله فمُتالع
فمِطلا أريك قد خلا فالمصانع[١]
ديار لنا يا جُمْل إذ جل عيشنا
رخيّ وصرف الدار للحي جامع[٢]
حُبيِّبة ألوَت بها غربة النَّوى
لِبين فهل ماض من العيش راجع[٣]
فإن تبتغي الكفار غير مَلُومة
فإني وزير للنبي وتابع
دعانا إليهم خير وفد عِلمتُهم
خزيمة والمرَّار منهم واسع
فجئنا بألف من سُلَيم عليهم
لبوس لهم من نسج داود رائع[٤]
نبايعه بالأخشبَين وإنما
يدَ الله بين الأخشبين نبايع[٥]

---

(١) عفا : درس وتغير . ومجدل : موضع . وأصل المجدل القصر ، ويقال الحصن . ومتالع : جبل بنجد . والطلاء : أرض سهلة لينة تنبت العضاء . وأريك : موضع . والمصانع : مواضع تصنع للماء مثل الصهاريج .

(٢) جمل : اسم امرأة . وجل العيش : أكثره . وعيش رخي : ناعم . وصرف الدار : الخطب النازل بها .

(٣) ألوت بها : غيرتها . والنوى : البعد والفراق .

(٤) رائع : معجب . (٥) الأخشبان : جبلان بمكة .

فجسنـــا مـــع المهـــدى مكـــة عَنـــوة
بأسيافنـــا والنقـــع كاب وساطـــع[١]
مكافحـــةً والخيـــل يـــغشى مُتـــونها
حميـــمٌ وآن مـــن دم الجوف ناقـــع[٢]
ويـــوم حـــنين حين سارت هـــوازن
إلينـــا وضاقت بالنفـــوس الأضالـــع
صبرنـــا مـــع الضحـــاك لا يستفزنـــا
قـــراع الأعـــادى منهم والوقائـــع[٣]
أمـــام رسول الله يخفـــق فوقنـــا
لـــواء كخـــذروف السحابـــة لامـــع[٤]
عشيـــة ضحـــاك بـــن سفيـــان معـــتص
بسيـــف رسول الله والموت كانـــع[٥]
نـــذود أخانـــا عـــن أخينـــا ولـــو نـــرى
مَصالا لكُنَّـــا الأقـــربين نتابـــع[٦]

---

(١) جسنا : وطئنا . المهدى : النبى ﷺ . وعنوة : قهرا . والنقع : الغبار . وكاب : مرتفع . ساطع : متفرق .

(٢) متونها : ظهورها . والحميم (هنا) : العرق . وآن : حار . وناقع : كثير .

(٣)لا يستفزنا : لا يستخفنا .

(٤) خذروف السحابة : طرفها ، وأراد هنا سرعة تحرك هذا اللواء واضطرابه .

(٥)معتص : ضارب . يقال : اعتصوا بالسيوف : إذا ضاربوا بها . وكانع : دان ، يقال : كنع منه الموت إذا دنا .

(٦)نذود : ندفع .

ولكـــن ديـــن الله ديـــن محمـــد
رضينـــا بـــه فيـــه الهدى والشرائـــع
أقـــام بـــه بعـــد الضلالـــة أمرنـــا
ولـــيس الأمـــر حمَّـــه الله دافـــع[1]

وخاف الضحاك على قومه . أراد لهم الهداية فانطلق إلى بنى كلاب ودعاهم إلى الله ورسوله فأشرق نور اليقين فى أفئدتهم فجاءوا إلى المدينة وشهدوا شهادة الحق ، وأجازهم ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ الوفد كل ذلك من أموال هوازن ، ثم انصرفوا إلى أهليهم وهم على نور من ربهم .

وكان بين بنى رؤاس بن كلاب وبنى عقيل بن كعب ثارات ، وكان قد قدم رجل من بنى رؤاس يقال له عمرو بن مالك بن قيس الرؤاسى على النبى ـــ ﷺ ـــ فأسلم ، ثم أتى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقالوا :

ـــ حتى نصيب من بنى عقيل بن كعب مثلما أصابوا منا .

فخرجوا يريدونهم وخرج معهم عمرو بن مالك ، وارتفعت السيوف وقطعت الرقاب ومزقت القلوب ، ثم خرجوا يسوقون النعم فأدركهم فارس من بنى عقيل يقال له ربيعة بن المنتفق بن عامر بن عقيل وهو يقول :

أقسمت لا أطعـن إلا فـارسا إذا الكمـاةُ لـبسوا القـوانسا

فقال قائل من بنى رؤاس :

ـــ نجوتم يا معشر الرَّجالة سائر اليوم .

وراح العقيلى يشن هجومه على الفرسان فأدرك رجلا من بنى عبيد بن رؤاس يقال له المحرش بن عبد الله بن عمرو بن عبيد بن رؤاس ، فطعنه فى

---

(١) حمه الله : قدره .

عضده فإذا بذراعه لا تتحرك ، فاعتنق المحرش فرسه وقال :

ـــ يا آل رؤاس !

فقال ربيعة فى سخرية :

ـــ رؤاس خيل أو أناس ؟

فعطف على ربيعة عمرو بن مالك فطعنه فقتله ، ووقف عمرو على جثمان القتيل وقد ساوره الندم ، ثم خرج بنو رؤاس يسوقون النعم . وأقبل بنو عقيل فى طلبهم حتى انتهوا إلى وادى تربة على مسافة يومين من مكة فقطع ما بينهم الوادى ، فجعل بنو عقيل ينظرون إلى بنى رؤاس فلا يصلون إلى شيء . فمضى بنو رؤاس وعمرو بن مالك يتلفت فى قلق ، فقد أسقط فى يده وقال فى أسى :

ـــ قتلت رجلا وقد أسلمت وبايعت النبى ـــ ﷺ !

فشد يديه فى غل إلى عنقه ، ثم خرج يريد النبى ـــ ﷺ ـــ وقد بلغه ما فعل عمرو بن مالك ، فقال ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ لئن أتانى لأضربن ما فوق الغل من يده .

وبلغ عمرو بن مالك مقالة النبى ـــ ﷺ ـــ فأُطلق يديه ، ثم أتاه فسلم عليه فأعرض عنه ، فأتاه عن يمينه فأعرض عنه فأتاه عن يساره فأعرض عنه ، فأتاه من قبل وجهه فقال :

ـــ يا رسول الله إن الرب ليترضّى فيرضى ، فارض عنى رضى الله عنك .

ـــ قد رضيت عنك .

وأراد الله أن يؤلف بين قلوب القبائل المتنافرة فدخل بنو رؤاس بن كلاب فى دين الله ، ووفد من بنى عقيل بن كعب على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ربيع ابن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ومطرِّف بن عبد الله وأنس بن قيس

ابن المنتفق فبايعوا وأسلموا ، وبايعوه على من وراءهم من قومهم . فأعطاهم رسول الله — ﷺ — العقيق عقيق بنى عقيل . وهى أرض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا فى أديم أحمر : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعا ومطرفا وأنسا ، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا » . ولم يعطهم حقا لمسلم . وكان الكتاب فى يد مطرِّف .

ووفد عليه أيضا لقيط من عامر بن المنتفق بن عامر بن عقيل ، فأعطاهم ماء يقال له النَّظيم وبايعه على قومه وألف بين قلوبهم : « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم »[1] .

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٣) .

٥

كان أحد المسلمين يتلو فى مسجد الرسول : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم[1] » .

فإذا بصحابة رسول الله ـــ ﷺ ـــ يتذكرون سبب نزول هذه الآية . كان من عادته عليه الصلاة والسلام إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدمهما إلى المنزل فيهيئ لهما ما يصلح لهما من الطعام والشراب ، فضم سلمان الفارسى إلى رجلين فى بعض أسفاره ، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام و لم يهيئ شيئا لهما . فلما قدما قالا له :

ـــ ما صنعت شيئا ؟

ـــ لا ، غلبتنى عيناى فنمت .

ـــ انطلق إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاطلب لنا منه طعاما .

فجاء سلمان إلى رسول الله ـــ ﷺ : وسأله طعاما ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له إن كان عنده فضل طعام أو أدم فليعطك .

وكان أسامة خازن رسول الله وعلى رحله ، فأتاه فقال :

---

(١) سورة الحجرات الآية (١٢)

ـــ ما عندى شىء .

فرجع سلمان إليهما فأخبرهما فقالا :

ـــ كان عند أسامة ولكن بخل .

فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا ، فلما رجع قالا :

ـــ لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها .

ثم انطلقا يتجسسان هل كان عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله ـــ ﷺ

ـــ فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ ـــ قال لهما :

ـــ ما لى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما !.

ـــ والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحما .

ـــ ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة .

فأنزل الله هذه الآية ، ولم يتب بعض المسلمين عن تتبع عورات الناس فصعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ المنبر فنادى بصوت رفيع ، فعلا صوته حتى أسمع النساء فى البيوت :

ـــ يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من يتتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله .

والتقى خالد بن الوليد وعمار بن ياسر فى مسجد الرسول ، فهرع خالد إلى عمار يصافحه ويبش فى وجهه فهو لا ينسى ما كان بينه وبين عمار يوم أن بعثه رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى سرية إلى حى من أحياء العرب وكان معه عمار ابن ياسر ، فسار حتى إذا دنا من القوم عرّس لكى يصبحهم فأتاهم النذير فهربوا عن رجل قد كان أسلم ، فأمر أهله أن يتأهبوا للسير ، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد ودخل على عمار فقال :

— يا أبا اليقظان إنى منكم وإن قومى لما سمعوا بكم هربوا وأقمت لإسلامى ، أفنافعى ذلك أو أهرب كما هرب قومى ؟

— أقم فإن ذلك نافعك .

وانصرف الرجل إلى أهله وأمرهم بالمقام ، وأصبح خالد فغار على القوم فلم يجد غير ذلك الرجل فأخذه وأخذ ماله ، فأتاه عمار فقال :

— خل سبيل الرجل فإنه أسلم ، وقد كنت أمنته وأمرته بالمقام .

— أنت تجير علىّ وأنا الأمير ؟

— نعم أنا أجير عليك وأنت الأمير .

فكان فى ذلك بينهما كلام فانصرفوا إلى النبى — ﷺ — فأخبروه خبر الرجل ، فأمنه النبى — ﷺ — وأجاز أمان عمار ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه . واستبّ عمار وخالد بين يدى رسول الله — ﷺ — فأغلظ عمار لخالد ، فغضب خالد وقال :

— يا رسول الله أتدع هذا العبد يشتمنى ! فوالله لولا أنت ما شتمنى .

وكان عمار مولى لهاشم بن المغيرة ، فقال رسول الله — ﷺ :

— يا خالد كف عن عمار فإنه من يسب عمارا يسبه الله ، ومن يبغض عمارا يبغضه الله .

فقام عمار فتبعه خالد فأخذ بثوبه ، وسأله أن يرضى عنه فرضى عنه .

كان ياسر والد عمار عربيا قحطانيا من عنس فى مذحج ، إلا أن ابنه عمارا كان مولى لبنى مخزوم ؛ لأن أباه ياسرا قدم مكة مع أخوين له يقال لهما مالك والحارث فى طلب أخ لهم رابع ، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن وأقام ياسر بمكة ، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم فزوجه أبو حذيفة أمة يقال لها سُميَّة فأولدها عمارا ، فأعتقه أبو حذيفة فمن ها هنا كان

عمار مولى بنى مخزوم وإن كان أبوه عربيا .

وكان عمار بن ياسر ممن عذب فى الله ، ثم أعطاهم عمار ما أرادوا بلسانه واطمأن الإيمان بقلبه فنزل فيه : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان »[1] .

وهاجر إلى أرض الحبشة وصلى إلى القبلتين .

وقال رسول الله — ﷺ — « إن عمارا ملئ إيمانا إلى أخمص قدميه ، فكانت عائشة تقول : ما من أحد من أصحاب رسول الله — ﷺ — أشاء أن أقول فيه إلا قلت ، إلا عمار بن ياسر .

وقدم على رسول الله — ﷺ — أبو حرب بن خويلد بن عامر بن عقيل بعد أن وفد عليه وفد بنى عقيل وبايعوه وأسلموا ، وبايعوا على من وراءهم من قومهم ؛ فجلس أبو حرب بين يدى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فقرأ رسول الله عليه القرآن وعرض عليه الإسلام .

فقال أبو حرب وهو مأخوذ بروعة القرآن وإن كان قلبه لا يزال غارقا فى ظلمات الجهل :

— أما وايم الله لقد لقيت الله أو لقيت من لقيه ، فإنك تقول قولا لا نحسن مثله ، ولكن سوف أضرب بقداحي هذه على ما تدعونى إليه وعلى دينى الذى أنا عليه .

وضرب القداح فخرج على سهم الكفر ، ثم أعاد فخرج عليه ثلاث مرات ، فقال لرسول الله — ﷺ — :

— أبى هذا إلا ما ترى .

وصبر عليه رسول الله — ﷺ — فهو أعلم بنفوس البشر ، فالكفر لا

---

(١) سورة النحل الآية (١٠٦) .

يزال فى أعماق نفسه وراح يحدثه فى رفق . وأراد أن يؤلفه وأن يحببه فى الإسلام فوعده بأن يقطعه أرضا إن أسلم .

وامتطى أبو حرب راحلته وانطلق إلى أهله وصوت رسول الله — ﷺ — يمس أوتار قلبه والقرآن الكريم يستحوذ على لبه ، فلما رجع إلى خيه عقال بن خويلد قال له :

— هل لك فى محمد بن عبد الله ؟ يدعو إلى دين الإسلام ويقرأ القرآن وقد أعطانى العقيق إن أنا أسلمت .

ففزع عقال . إنه غليظ القلب جامد العقل لا يستطيع أن يتصور أن إنسانا رشيدا يجرؤ على أن يترك ما كان يعبد آباؤه فقال لأخيه :

— أنا والله أخطك أكثر ما يخطك محمد .

ثم ركب فرسه وجر رمحه على أسفل العقيق ليحدد لأخيه الأرض التى سيعطيها إياه لكيلا يدخل فى دين الله .

وأخذ أبو حرب أسفل العقيق وما فيه من عين . ولكنه ظل يذكر رسول الله — ﷺ — وما سمع من قرآن فضايق ذلك عقال بن خويلد ، فشد الرحال إلى المدينة وقد عزم على أن يسخر من ذلك الذى يأتيه الخبر من السماء .

وقدم عقال على رسول الله — ﷺ فقرأ رسول الله عليه القرآن وعرض عليه الإسلام فأحس عقال كأنما النور قد استبان لعين بصيرته ، وخشى أن يضعف وأن يعطى بلسانه ما أقر به فؤاده فراح يجمع شتات أمره وقد بيت النية على أن يرفض ما يعرضه رسول الله — ﷺ — عليه ، بل عزم على أن يستعين بسخريته ليخرج من ذلك الموقف الذى يستشعر فيه أن كيانه قد بدأ يتزعزع ..

وقال له رسول الله — ﷺ — فى هدوء :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

واضطرب عقال ولاح فى وجهه الجهد وهو يقول فى صوت مضطرب :

ـــ أشهد أن هبيرة بن النفاضة نعم الفارس يوم قرنى لبان .

وتنفس عقال الصعداء وحمد لنفسه أنه تذكر فارس قوم هبيرة الذى أحسن النزال يوم التقى بأعدائه بأرض لبان .

وقال رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى هدوء :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

وتفصد العرق من وجه عقال وراح يقاوم نفسه ثم قال :

ـــ أشهد أن الصريح تحت الرغوة .

إنه مثل حفظه ، فالصريح هو اللبن الخالص والرغوة الزبد ، ومعناه أن الأمر تغطى عليك وسيبدو لك . وثارت فى نفس عقال توجسات : ما الذى أنطقه بهذا المثل ؟ أقاله سخرية بمحمد بن عبد الله أم قاله ليقنع نفسه . وقبل أن يتبين له حقيقة أمره مس صوت رسول الله ـــ ﷺ ـــ أذنيه كأنه البشرى :

ـــ أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

وانسحبت ظلمات نفسه أمام أنوار اليقين . فقال فى صوت كله رقة وإيمان :

ـــ أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

٦

كانت دور المسلمين ينبعث منها دوى كدوى النحل فقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتلون ما تيسر من القرآن . وكان رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قائما يصلى فى جوف الليل . إنه يصلى إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن وما قبلها مثنى مثنى وهو يطيل فيهن ، فإنه يستشعر بفرح فياض بالأنس بربه والابتهال إلى نور السماوات والأرض .

كانوا يدعون الله وحده يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فتشرق سرائرهم بالخير وتتطهر نفوسهم من كل شر ويستعدون لصالح الأعمال فقد كانوا يؤمنون بأنهم محاسبون على أعمالهم : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون .[1] » .

سمع بعض الأعراب النبى ــ ﷺ ــ يقرأ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . »[2] . فقال :

ــ يا رسول الله أمثقال ذرة ؟

ــ نعم .

ــ واسوأتاه .. واسوأتاه !.

وقام وهو يقول !.

ــ واسوأتاه !.

---

(١) سورة المؤمنون الآية (١١٥) . (٢) سورة الزلزلة الآيتان (٧ ، ٨) .

فقال النبى — ﷺ :

— لقد دخل قلب الأعرابى الإيمان .

وكانوا يجاهدون النفس حتى لا تتبع هواها ، فقد علمهم القرآن المجيد أن من يتخذ إلـٰهه هواه لا يسمع ولا يعقل فهو كالأنعام أو أضل سبيلا ، وكانوا يلتمسون التقوى فمن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ، ويجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب .

وانقضى الليل وأنفاس المسلمين تسبيح وألسنتهم رطبة بذكر الله وصدورهم منشرحة بنور الله ، وقد نامت المدينة فى أحضان الأمن والطمأنينة ولا جرم فقد أسلموا وجوههم إلى الله واستمسكوا بالعروة الوثقى .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالفجر ففتحت الدور فى العالية والسافلة ، وخرج المسلمون إلى مسجد الرسول فى عماية الصبح وقد جعل الله لهم نورا يمشون به . ولا غرو فهم يرددون قول نبيهم العظيم استمدادا للنور من ربهم : « اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا ، وفى بصرى نورا وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا وعن يسارى نورا ، ومن فوقى نورا ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ومن خلفى نورا ، واجعل لى فى نفسى نورا وأعظم لى نورا » .

وامتلأ المسجد بأصحاب الرسول — ﷺ — تفوح منهم روائح أطيب من المسك ، فقد تطهروا من دنس الجسد ودنس النفس ، اغتسلوا أو توضئوا وطهروا أفئدتهم من الغل والحسد والحقد وسائر أمراض القلب . لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . أحسنوا عبادة ربهم وأطاعوه فى السر . لا تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، ولا تفتنهم زهرة الدنيا وزينتها عن أن يقرعوا أبواب الملكوت .

وقام رسول الله — ﷺ — واتجه إلى القبلة فاصطف خلفه الأوسى والخزرجي والقرشي والكنانى والغطفانى والتميمى والذبيانى والتغلبى والشيبانى والهلالى والثقفى والعبسى والكلبى والخزاعى والطائى ، أعداء الأمس إخوان اليوم ، وقد انصهروا فى بوتقة الإيمان فأصبحوا خير أمة أخرجت للناس . « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »(١) .

وقضيت الصلاة وانتشر المسلمون فى الأرض ، وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد لاستقبال الوفود فوفد عليه نفر من بنى قشير فيهم ثور بن عزرة بن عبد الله بن سلمة بن قشير فأسلم . فأقطعه رسول الله — ﷺ — حمام والسد وهما من العقيق وكتب له بالقطيعة كتابا . وفيهم حيدة بن معاوية ابن قشير . وفيهم قرة بن هبيرة بن سلمة الخير بن قشير فأسلم . فأعطاه رسول الله — ﷺ — وكساه بردا وأمره أن يلى صدقة قومه ، فرجع قرة إلى أهله مسرورا وقال :

حباها رسول الله إذ نزلت به
وأمكنها من نائل منفد
فأضحت بروض الخير وهى حثيثة
وقد أنجمت حاجاتها من محمد
عليها فتى لا يردف الذم رحله
تروك لأمر العاجز المتردد

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

ووفد ثلاثة نفر من بنى البكاء على رسول الله ــ ﷺ ــ فيهم معاوية بن ثور بن عبادة بن البكاء وهو يومئذ ابن مائة سنة ، ومعه ابن يقال له بشر ، والفحيح بن عبد الله ، ومعهم عبد عمرو البكائى وهو الأصم فسماه رسول الله ــ ﷺ ــ عبد الرحمن .

وراح معاوية بن ثور يصغى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فى انبهار . إنه ألقى سمعه إلى الشعراء فى سوق عكاظ وسمع حكمة الحكماء فى الحيرة وفى الشام فلم يأخذ ما سمع بلبه مثلما أخذت آيات القرآن ، فآيات الذكر تعرف طريقها إلى القلب فيخشع لها الوجدان . إنه يستشعر أن هذا القرآن مأدبة الله فأقبل عليها بكل كيانه ، إنه ليهتز طربا من إيقاعه وإن الخشية من الرب لتملأ أرجاء نفسه وإن الأمل فى رحمة الله ومغفرته لترفعه حتى ليكاد يستروح عبير جنات النعيم . إنه إعجاز ما بعده إعجاز .

وأحس الشيخ أن حب رسول الله ــ ﷺ ــ قد نزل بسويداء قلبه ، فراح يمس رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى فرح فياض وهو يقول :

ــ إنى أتبرك بمسك وقد كبرت ، وابنى هذا برّ بى فامسح وجهه .

فمسح رسول الله ــ ﷺ ــ وجه بشر بن معاوية ودعا له بالخير والبركات ، فرفت على شفتى الشيخ بسمة رضا وأضاءت عيناه بالسرور ، فقد كانت تلك اللحظة أروع لحظة فى حياته التى بلغت مائة سنة .

وأقبل الليل فأنزلهم رسول الله ــ ﷺ ــ بمنزل وضيافة . وحاول عبد الرحمن أن ينام ولكن صورة رسول الله ــ ﷺ قد استولت على خياله وجعل صوته عليه السلام يمس أوتار قلبه فأحس رغبة فى أن ينطلق إليه وأن يأنس برقته وعذب حديثه ، فانسل من منزله وراح يغذ السير فى الظلام إلى مسجد

الرسول .

ووقف بباب المسجد ومد عينيه فرأى رسول الله — ﷺ — وقد جلس حوله أبو هريرة وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى وفقراء المهاجرين من أصحاب الصفة ، فهرع إليهم وجلس يصغى إلى رسول رب العالمين وهو يقول :

— إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم سمحاءكم ، وأمورهم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كانت أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

ومر الوقت وعبد الرحمن البكائى يصغى وهو مأخوذ يحس أن ذاته اكتسبت عمقا وخصبا وثراء ، وأنه يتعرض لنفحات ربه ، وأن أنوار المعارف تنسكب فى أعماق قلبه ، وأن عوالم أوسع من العالم الأرضى تتفتح لعين بصيرته ، فقد سلم من غير الله فؤاده ، إنه سعيد بقربه من ربه قربا بالمعنى والحقيقة والصفة .

إن الحجاب بين قلبه والملكوت بدأ يرتفع ، وإن حقائق الأمور الإلـٰهية أخذت تتلألأ فى عين ذاته ، فلمع فى فؤاده من وراء ستر الغيب شىء من غرائب العلم ، فوطن النفس على ألا يغادر النور وأن يمكث مع أصحاب الصفة لينهل من نبع الحكمة وليكون لله ؛ فى خدمته وفى طاعته .

وقام رسول الله — ﷺ — واتجه إلى دار فاطمة الزهراء ليلقى نظرة على الحسن والحسين قبل أن يدخل داره فهما حبه ، وإن ابنه إبراهيم لم يزحزحهما عن مكانهما من قلبه . وانسحب أصحاب الصفة ليأووا إلى موضعهم المظلل فى المسجد ، فلم يعد عبد الرحمن إلى منزله بل ذهب ليبيت مع أصحاب

الصفة ، فإنها لنعمة كبرى أن يكون على الدوام مع رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لتهب عليه نسائم الألطاف وينكشف له سر الملكوت .

وتأهب معاوية بن ثور بن عبادة وابنه بشر للرحيل ، فأعطى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بشر بن معاوية أعنزا خالصة البياض ، وأبى عبد الرحمن البكائى أن يرحل ، فضل أن يعيش مع فقراء المهاجرين فى مسجد الرسول على أن يعود إلى أهله ، فقد اشتعل زيته الذى فى مشكاة قلبه فأصبح نورا على نور .

٧

راح المسلمون يبتغون من فضل الله ، إنهم حلماء علماء أبرار أتقياء قد براهم الخوف من ربهم ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكِّى أحد منهم خاف مما يقال له فيقول :

ــ أنا أعلم بنفسى من غيرى وربى أعلم بى منى بنفسى !

اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون !.

إنهم أهل الفضائل : منطقهم الصواب وملبسهم الاقتصاد ومشيهم التواضع ، قد غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، لا فرقَ عندهم بين البلاء والرخاء فكل من عند الله ، ولولا الأجل الذى كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب وخوفا من العقاب .

عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ؛ أجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة ؛ أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . قد اتقوا الله الذى أسبغ عليهم المعاش فجعل لهم نورا من الظُّلم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1] » .

---

(١) سورة الحديد الآية (٣١) .

وغابت شمس آخر يوم من شعبان فهرع الناس إلى مسجد الرسول وجعلوا يرتلون القرآن ترتيلا ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا وتطلعت نفوسهم إليها شوقا وظنوا أنها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم .

وثبتت الرؤيا فقام رسول الله — ﷺ — يخطب الناس فقال :

— أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك . شهر فيه ليلة خير من ألف شهر . جعل الله صيامه فريضة وقيام ليلة تطوعا . من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه . ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه . وهو شهر الصبر ، والصبر ثوابه الجنة . وشهر المواساة وشهر يزاد فى رزق المؤمن فيه .

من فطَّر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبة من النار ، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء .

— يا رسول الله ليس كلنا يجد ما يفطر به الصائم .

— يُعطى الله هذا الثواب من فطَّر صائما على تمرة أو شربة ماء أو مذقة لبن . وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

من خفف على مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار ، فاستكثروا فيه من أربع خصال : خصلتين ترضون بها ربكم وخصلتين لا غناء بكم عنهما . فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إلـه إلا الله وتستغفرونه ، وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار . ومن سقى صائما سقاه الله من حوضه شربة لا يظمأ حتى يدخل

الجنة .

وانصرف الناس إلى ديارهم ، وجلس رسول الله ـ ﷺ ـ مع أصحاب الصفة يحدثهم قال :

ـ الصيام جُنة ، فلا يرفُث أحدكم ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم مرتين ؟ والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها .

وصام الناس وراح جبريل عليه السلام يلقى رسول الله ـ ﷺ ـ كل ليلة يعرض على النبى عليه السلام القرآن ، وكان فى السنوات الخوالى يعرضه عليه مرة حتى ينسلخ الشهر ولكنه فى هذا العام يعرضه عليه مرتين . ترى هل دنا الأجل ؟!

وخرج رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى الناس يجود بكل ما عنده ، فهو إذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وبينا الناس جلوس عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ جاء رجل فقال :

ـ هلكت .

ـ مالك ؟

ـ وقعت على امرأتى وأنا صائم .

ـ هل تجد رقبة تعتقها ؟

ـ لا .

ـ فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟

ـ لا .

ـ فهل تجد إطعام ستين مسكينا ؟

— لا .

وأتى النبى بعرق (مكتل) فيه تمر وقال :

— أين السائل ؟

— أنا .

— خذها فتصدق به .

— أعلى أفقر منى يا رسول الله ؟ فو الله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتى .

فضحك النبى — ﷺ — حتى بدت أنيابه ثم قال :

— أطعمه أهلك .

سماحة ويسر ورحمة ما بعدها سماحة ويسر ورحمة .

وخرج رسول الله — ﷺ — ليلة فى جوف الليل فصلى فى المسجد صلاة التراويح وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله — ﷺ — فصلى فصلوا بصلاته . فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد ثم قال :

— أما بعد فإنه لم يخف علىّ مكانكم ، ولكنى خشيت أن تفترض عليكم فتعجزوا عنها .

وأمسى يصلى التراويح فى داره رأفة بالمسلمين وما كان يزيد على أحدى عشرة ركعة ، فلا تسل عن حسنهن وطولهن . فقد قال عليه السلام : « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

واعتكف رسول الله — ﷺ — فى المسجد العشر الأواخر من رمضان ،

فجاءت صفية أم المؤمنين تزوره فى اعتكافه فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لتنصرف إلى دارها . فقام النبى — ﷺ — معها حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله — ﷺ — فقال لهما النبى ﷺ :

— على رسلكما ، إنما هى صفية بنت حيى .

— سبحان الله يا رسول الله !.

وكبر عليهما . فقال النبى — ﷺ :

— إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا .

وانقضى رمضان ووفد زياد بن عبد الله بن مالك ، فلما دخل المدينة توجه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبى — ﷺ — وكانت خالة زياد وهو يومئذ شاب ، فدخل النبى — ﷺ — وهو عندها ، فلما رآه غضب ورجع فقالت :

— يا رسول الله ، هذا ابن أختى .

— إنه ابن عزة بنت الحارث . فدخل عليه السلام إليها ثم خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد ، فصلى الظهر ، ثم أدنى زيادا فدعا له ووضع يده على رأسه ثم حدرها على طرف أنفه فكانت بنو هلال تقول :

— ما زلنا نتعرف البركة فى وجه زياد .

٨

دخل الناس فى دين الله أفواجا ، فجاء إلى عامر بن الطفيل قومه وقالوا :

ـــ يا عامر إن الناس قد أسلموا ، فأسلم .

فاربد وجه عامر وقال :

ـــ والله لقد كنت آليت ألا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى ، وأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش .

وبيت عامر بن الطفيل أمرا فشد الرحال هو وأربد بن قيس وجبار بن سمة إلى المدينة ، فبينا هم فى الطريق قال عامر لأربد بن قيس :

ـــ إذا قدمنا على الرجل فإنى سأشغل عنك وجهه ، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف .

وأقبل عامر بن الطفيل وأربد يريدان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو بالمسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد فاستشعر الناس لجمال عامر وكان أعور ـــ وكان من أجمل الناس ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا رسول الله هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك .

ـــ دعه ، فإن يرد الله به خيرا يهده .

فأقبل حتى قام عليه فقال :

ـــ يا محمد ما لى إن أسلمت ؟

ـــ لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين .

ـــ تجعل لى الأمر بعدك ؟

ـــ ليس ذلك إلى ، إنما ذلك إلى الله عز وجل يجعله حيث يشاء .

ـــ تجعلنى على الوبر وأنت على المدر ؟

ـــ لا .

ـــ فماذا تجعل لى ؟

ـــ أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها .

ـــ أوليس لى اليوم ؟! قم معى أكلمك .

فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ وراح عامر ينتظر من أربد ما أمره به فلم يصنع شيئا وجعل عامر يومئ إليه وأربد لا يحرك ساكنا ، فملأ الغيظ عامر بن الطفيل فقال لرسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أما والله لأملأنها عليك خيلا ورَجْلا .

ثم خرجا غاضبين ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ اللهم اكفنيهما ، اللهم واهد بنى عامر ، وأغن الإسلام عن عامر .

والتفت عامر بن الطفيل إلى أربد بن قيس والشرر يتطاير من عينيه . مرت لحظة قاسية ثم قال عامر :

ـــ ويلك ! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخف عندى على نفسى منك ، وايم الله لا أخافك بعد اليوم أبدا .

قال له أربد :

ـــ لا أبا لك ! لا تعجل على ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى لا أرى غيرك ! أفأضربك بالسيف ؟

ونزل عامر بيت امرأة سلولية وأنشأ يقول :

تخير أبيت اللعن إن شئت وُدَّنا
وإن شئت حربا ذات بأس ومَصدق
وإن شئت فتيانا بكفِّيَ أمرُهم
يكبون(١) كبش العارض المتألِّق
فلما أصبح ضم عليه سلامه وقد تغير لونه وهو يقول :
لعمري وما عمري على بهين
لقد شان حر الوجه طعنة مُسْهر(٢)
وقد علم المزنوق أنى أكُرُّه
على جمعهم كر المنيح المسهَّر(٣)
إذا ازور من وقع السنان زجرته
وأخبرته أنى امرؤ غير مُقصر
وأخبرته أن الفرار خزاية
على المرء ما لم يُبد عذرا فيُعذر
لقد علمت عُليا هوازن أنني
أنا الفارس الحامى حقيقة جعفر
فجعل يركض فى الصحراء ويقول :
ـــ ابرز يا ملك الموت !

---

(١) يكبون : يصرعون .

(٢) مسهر : هو مسهر بن يزيد الحارثى وهو الذى غدر بعامر بن الطفيل وطعنه بالرمح ففلق وجنته وشق عينه .

(٣) المزنوق : اسم فرس عامر ، والمنيح : القدح الذى يكسر به القداح ليس له غنم ولا عليه غنم كلما خرج رد .

ثم أنشأ يقول :

ألا قــرِّب المزنــوق إذ جــند مــا أرى
لتعـــريض يـــوم شره غير حامـــد
ألا قربـــاه إن غايـــة جرينـــا
إذا قـــرب المزنـــوق بين الصفائـــد
بنـــو عامـــر قومـــى إذا مـــا دعوتُهـــم
أجابـــوا ولبَّـــى منهم كل ماجـــد

ويقول :

ـــ واللات لئن أصحر (١) إلىّ وصاحبه ـــ يعنى ملك الموت ـــ لأنفذتهما برمحى .

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه ، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول :

ـــ غدة كغدة البعير ؟

وتمدد عامر بن الطفيل وراح يعدو وراء خياله وهو يلهث . إنه تذكر أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة كان قد قدم على محمد بن عبد الله المدينة فعرض عليه محمد الإسلام ودعاه إليه ، فقال :

ـــ يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك .

ـــ إنى أخشى عليهم أهل نجد .

ـــ أنا لهم جار ، فابعثهم ليدعوا الناس إلى أمرك .

---

(١) أصحر : خرج إلى الصحراء .

فبعث محمد المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة فى أربعين رجلا من أصحابه ؛ إنه ليذكر منهم الحارث بن الصمة ، وحرام بن ملحان أخو بنى عدى بن النجار ، وعروة بن أسماء بن الصلت السلمى ، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعى ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر . وإنه لا ينسى أنهم نزلوا بئر معونة ، وإنه ليرى فى وضوح بعين خياله حرام بن ملحان وهو يقدم إليه بكتاب محمد ابن عبد الله . إنه لم ينظر فى الكتاب بل عدا على الرجل فقتله .

واتضحت الصورة فى عين ذاته . إنه يرى نفسه وهو يستصرخ على المسلمين بنى عامر ، وإنه ليحس وهو ممدود فى فراشه نفس ما أحسه فى ذلك اليوم من خيبة أمل فقومه قد أبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، ورن فى أغواره ما قالوه :

ــ لن نُخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا .

ويرى نفسه وهو يستصرخ عليهم قبائل بنى سُليم فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فقتلوهم إلا كعب بن زيد أخا بنى دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رمق .

إنه ظن فى ذلك اليوم أنه انتصر على محمد ، وما ذار بخلده أن بنى سُليم الذين استعان بهم لن يلبثوا أن يدخلوا فى دين محمد .

وضايقه أن الإسلام والمسلمين قد احتلوا فكره فراح ينشد ما قاله فى الفخر بأنه ساد قبيلة بنى عامر بأفعاله :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة
أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنـــــى أحمى حماهـــا وأتقـــى
أذاهـــا وأرمـــى مـــن رماهـــا بمنكبـــى

و لم ينشرح صدره ؛ إنه يموت فى بيت السلولية كما يموت البعير . وأراد أن يقاوم عبوسه فراح يتذكر ما كان بينه وبين قيصر فقد بلغ صيته بلاط عاهل الروم ، حتى إن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب كان يقول له :

ـــ ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟

فإن ذكر نسبا عظم عنده . وراح عامر يجاهد ليتذكر أيام مجده ، إنه كر على بنى عبس وأخذ امرأة منهم يقال لها أسماء، إنها لبثت عنده يوما وقد استنقدها قومها بعده وإن ذلك اليوم قد حفر فى وجدانه . وراح يتذكر الشعر الذى قاله فى الفخر بذلك ، وإذا بشعر عروة بن الورد الذى عيرهم فيه بأخذ ليلى بنت شعواء الهلالية يطفو على سطح ذهنه :

فـــإن تأخـــذوا أسماء موقـــف ساعـــة
فمأخـــذ لـــيلى وهـــى عـــذراء أعـــجب
فإنـــــا لبسنـــــا حسنها وشبـــــابها
وردت إلى شعـــــواء والــــــرأس أشيب
كمأخذنـــا حسنـــــاء كرهـــا ودمعُهـــا
غـــداة اللـــوى معصوبـــة يـــتصبب

وأشاح بأفكاره عن تلك الذكريات وجاهد ليتذكر أيام مجده . إلا أن الضعف دب فى أوصاله وراحت المرئيات تتراقص أمام عينيه . فعز عليه أن يموت فى فراشه فراح يتحامل حتى نهض وهو يقول فى إنكار :

ـــ غدة كغدة البعير وموت فى بيتة سلولية !

ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه وهو يقلب وجهه فى السماء ، فإذا بالأرض تدور به وإذا بالوهن يستولى عليه وإذا بأنفاسه تضيق وإذا بقبضة يده ترتخى وإذا به يفقد توازنه فيسقط على الأرض ليلفظ آخر الأنفاس .

وانطلق أصحابه حتى قدموا أرض بنى عامر فأتاهم قومهم فقالوا :

— ما وراءك يا أربد ؟

— لا شيء ، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله .

وكان البرد شديدا وقد غامت السماء بسحب ثقال ، فخرج أربد بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل له يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما . وكان أربد بن قيس أخا لبيد بن ربيعة لأمه فراح لبيد يرثى أخاه ويذرف عليه الدمع الهتون .

ونصبت بنى عامر نصابا ميلا فى ميل حِمى على قبر عامر بن الطفيل ، لا تنشر فيه راعية ولا يرعى ولا يسلكه راكب ولا ماش . وكان جبار بن سلمى ابن عامر بن مالك غائبا فلما قدم قال :

— ما هذه الأنصاب ؟

— نصبناها حمى على قبر عامر .

— ضيقتم على أبى علىّ . إن أبا على بان فى الناس بثلاث: كان لا يعطش حتى يعطش الجمل، وكان لا يضل حتى يضل النجم، وكان لا يجبن حتى يجبن السيل.

وأنزل الله عز وجل فى عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وأصحابهما : « سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله . إن الله لا يُغيِّر

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال . هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال[١] » .

---

(١) سورة الرعد الآيات (١٠ — ١٣) .

٩

التف أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار برسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد صفت قلوبهم وقطعت العلائق كلها ظاهرا أو باطنا إلا بالله ، فإذا بأسرار الله فى ملكوت السماوات والأرض تتكشف لهم ، وإذا بأنوار المعارف تشرق فى أعماق أفئدتهم ، فلم يعد المال يفتنهم ، و لم يشغلهم الولد عن ذكر ربهم ، و لم تلههم نساؤهم عن أن يرابطوا مع الله وأن يصابروا بالله وأن يصبروا مع الله .

أحسنوا التوكل فيما لم ينالوه . وأحسنوا الرضا فيما قد نالوه وأحسنوا الصبر فيما قد فاتهم ، فألبسهم الله لباس التقوى وبذر فى قلوبهم بذرة الإرادة والإخلاص ، ولا جرم فهؤلاء المؤمنون الذين اجتمعوا فى مسجد الرسول هم الذين سيحملون مشعل الهداية إلى أقصى الأرض ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور .

كانت قلوبهم مستعدة لحمل الأمانة ، استودعها الله الإخلاص فظهرت ينابيع الحكمة على ألسنتهم ، وصار الدين روح محبتهم يقود حياتهم ، وأصبح القرآن مصدر الحركة والإشعاع وسرى فى المجتمع الجديد يقظة روحية ويقظة فكرية فتحت أبواب العلم والحكمة لرعاة الإبل وهيأتهم ليصبحوا رعاة شعوب .

وطلع عليهم رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منهم أحد . حتى جلس إلى النبى ـــ ﷺ ـــ فأسند ركبتيه

إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال :

ــ يا محمد أخبرنى عن الإسلام .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ الإسلام أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

ــ صدقت .

فعجبوا له يسأله ويصدقه ، قال :

ــ فأخبرنى عن الإحسان .

ــ أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ــ فأخبرنى عن الساعة .

ــ ما المسئول عنها بأعلم بها من السائل .

ــ فأخبرنى عن أمارتها .

ــ أن تلد الأمَة ربَّتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق الزجل ، ومر بعض الوقت ثم قال ــ ﷺ ــ لعمر :

ــ يا عمر أتدرى من السائل ؟

ــ الله ورسوله أعلم .

ــ فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

وجاء رجال يشتدون إلى المسجد ويُقولون فى فرح :

ــ هؤلاء وفد عبد القيس .

فقال ــ ﷺ :

— مرحبا بهم ، نعم القوم عبد القيس .

كان رسول الله — ﷺ — قد كتب إلى أهل البحرين أن يقدم عليه منهم عشرون رجلا فقدموا على رأسهم عبد الله بن عوف الأشج ، وفيهم الجارود ابن عمرو بن حنش أخو عبد القيس وكان نصرانيا وكان أكثر رجال الوفد قلقا . إنه على دين وهو قادم ليؤمن بدين آخر وهو لا يدرى أيستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير أم أنه أشرف على طريق البوار .

ونزل الوفد فى دار رملة بنت الحارث وباتوا ليلتهم بيد أن الجارود لم تغمض له عين ؛ إنه يفكر فى دينه الذى هو عليه ويفكر فى الإسلام الذى هو مقدم على اعتناقه فينتابه خوف فلا يسعه إلا أن يبتهل إلى الله أن يهديه سواء السبيل .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالفجر فأصغى الوفد إلى الأذان فأحسوا كأنما قد رفعوا من الأرض إلى السماء . إنه نداء يهز المشاعر وتثرى به الأرواح وتطمئن القلوب . وألقى الجارود سمعه إلى الصوت الذى تردد فى جنبات المدينة فاستشعر خشوعا وقربا إلى الله . إنه عرج به ليقرع أبواب الملكوت .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى المسجد وصلى بالناس ، ثم نظر إلى الأفق فقال :

— ليأتين ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة. اللهم اغفر لعبد القيس أتونى لا يسألون مالا ، هم خير أهل المشرق .

فجاءوا فى ثيابهم ورسول الله — ﷺ — فى المسجد فسلموا عليه ، فقال :

— أيكم عبد الله بن الأشج ؟

فقال :

— أنا يا رسول الله .

وكان رجلا دميما . فنظر إليه رسول الله — ﷺ — فقال :

— إنه لا يستقى فى مُسوك (جلود) الرجال . إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه .

ودار الحديث بين عبد الله بن الأشج ورسول الله — ﷺ — والجارود يصغى إلى حديث رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ويقلب عينيه فى وجهه فيحس راحة . وإذا بكلام رسول الله — ﷺ — يستولى على لبه وينير له قلبه فترتفع الغشاوة عن عين بصيرته فيرى الحق الأبلج ويؤمن فى أعماقه أنه قد هدى إلى الصراط .

وقال رسول الله — ﷺ — لابن الأشج :

— فيك خصلتان يحبهما الله تعالى .

— وما هما ؟

— الحلم والأناة .

— أشىء حدث أم جبلت عليه ؟

— بل جبلت عليه .

وراح رسول الله — ﷺ — يكلم الجارود فعرض عليه الإسلام ودعاه إليه ورغبة فيه ، فقال الجارود :

— يا محمد إنى قد كنت على دين وإنى تارك دينى لدينك ، أفتضمن لى دينى ؟

— نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه .

ومكث وفد عبد القيس عشرة أيام فى ضيافة النبى — ﷺ — فكان عبد الله بن الأشج يجلس إلى رسول الله — ﷺ — يصغى إلى عذب حديثه ويلقى سمعه إلى القرآن ويتفقه فى دينه . وكان الجارود بن مرو يتلفت بعينين

فاحصتين فيرى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله ويبكون سرا من خوف عذابه ، أبدانهم فى الأرض وقلوبهم فى السماء ، أرواحهم فى الدنيا وعقولهم فى الآخرة ، رهبانا فى الليل فرسانا فى النهار ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . فإذا بصدره ينشرح وإذا بقلبه يطمئن وإذا به يبتهل إلى الله ودموعه تجرى على خديه أن يكون من هؤلاء الأبرار الذين يمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة .

وكان ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إذا تحدث إلى عبد الله بن الأشج حدثه فى الفرائض والسنن حديثا عميقا ، وإذا ما تحدث إلى الجارود حدثه حديثا يتصل بما كان عليه من دين وما كانت عليه النصرانية وما اعتورها من تحوير ، وإذا تحدث إلى عامة الوفد تحدث إليهم حديثا هينا لينا فهو القائل : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » .

وتأهب وفد عبد القيس للعودة إلى البحرين فبدا كأنما الرجال غير الرجال ، مستهم عصا سحرية فثيابهم نظيفة قد تطهرت الأبدان والسرائر وانعكس نور القلوب على الوجوه فترقرقت فيها أضواء الإيمان ، وزادهم علم القرآن شرفا ، وكشف اللثام عن جواهر الحقيقة رفعة ، وعرفوا لذة التسبيح والنظر إلى وجه الله ، فما أخصب الألسنة وأخصب القلوب . « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .[1] » .

وحان أوان الرحيل فسأل الجارود رسول الله ـــ ﷺ ـــ الحُمْلان . فقال عليه السلام :

ـــ والله ما عندى ما أحملكم عليه .

---

(١) سورة الزمر الآية (٩) .

لم يكن عند رسول الله — ﷺ — ما يركبون عليه من الدواب ، ولو كانت عنده لما بخل فإنه أجود من الريح المرسلة ، وشرد الجارود برهة ثم قال :

— يا رسول الله فإن بيننا وبين بلادنا ضوال من ضوال الناس ، أفنتبلغ عليها إلى بلادنا ؟

كان الجارود يستأذن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يركبوا إبل الناس الضالة حتى يصلوا إلى ديارهم وكان يحسب أن ذلك أمر هين ، ولكن رسول الله — ﷺ — الذى كان على الدوام يشحذ ضمائر أصحابه قال :

— لا ، إياك وإياها فإنما تلك حَرَق النار .

إنها إبل ضالة بيد أن لها أصحابا يبحثون عنها ، فإن ركبها الجارود ورفاقه وساقوها إلى بلادهم فلن يعثر عليها الذين قد يخرجون فى طلبها وبذلك يضيع على صاحب الحق حقه . وما بعث رسول الإسلام — ﷺ — إلا ليحُق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

وأمر لهم رسول الله — ﷺ — بجوائز ، وفضل عليهم عبد الله بن الأشج فأعطاه اثنتى عشرة أوقية ونشا ، ثم خرجوا عقب أن أقاموا عشرة أيام فى ضيافة نبيهم الكريم وفى قلوبهم أنوار قد انكشفت لهم أكثر الحقائق بكشف إلـٰهى بعد أن شرح الله صدورهم للإسلام : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يَصَّعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .[1] » .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٥) .

١٠

انطلق الصحابة إلى المسجد ، إلى جامعتهم الكبرى حيث يتلقون أشرف علم ويحيون قلوبهم بنور حكمة رسول الله ــ ﷺ ــ وجلسوا إليه يصغون وهو يقول :

ــ إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع به فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض .

ثم تلا : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون . »(١) .

ثم قال :

ــ كلا والله ولتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتقصرنه على الحق قصرا ، وليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم .

---

(١) سورة المائدة الآيات (٧٨ ــ ٨١) .

كانت عقولهم راغبة فى المعرفة فألقوا أسماعهم إلى رسول الله — ﷺ — ليتحرروا من كل شر . من عبودية الأهواء والغرائز والجهل ، وليسموا بأنفسهم فوق الأهواء والنزوات ، فأصبحوا على يقين من أنهم على الصراط المستقيم وأنهم قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين .

وجاء إلى المسجد من يقول :

— وفد بكر بن وائل .

وإذا بذكر بكر بن وائل يعيد إلى الأذهان ذكريات الوأد ، فالنعمان بن المنذر ملك الحيرة قد غضب على بنى تميم لما منعوه الأتاوة التى كانت عليهم ، فجرد إليهم النعمان أخاه الريان مع دوسر ، وكانت دوسر إحدى كتائبه وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل ، فاستاق نعمهم وسبى ذراريهم.فوفدت وفود بنى تميم على النعمان بن المنذر وكلموه ، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك إلى النساء . فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه . فاختلفن فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها ، فنذر قيس ابن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب فوأد بضع عشرة بنتا ، ثم جاء قيس فى وفد بنى تميم إلى رسول الله — ﷺ — وأعلن على الملأ إسلامه وندم على وأد بناته . فقال له — ﷺ :

— إن الإسلام يجب ما قبله .

وهيج قدوم وفد بكر بن وائل الذكريات ، فراح الناس يذكرون أيام العرب أيام كانت القبائل تغير على القبائل تقتل وتسلب وتسبى دون وازع من ضمير أو خوف من قانون . فقانون القوة هو الذى كان يسود جزيرة العرب قبل أن ينعم عليهم بالإسلام ويؤلف بين قلوبهم ، وقبل أن يكون شرع الله هو الذى ينظم العلاقات فى جمهوريتهم الفاضلة .

تذكروا يوم نقا الحسن يوم انتصر بنو ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل ، وتذكروا يوم ضرية لما حالف بنو عمرو بن تميم بكر بن وائل وخرجوا لقتال سعد والرباب ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم . لقد دار فى ذلك اليوم حوار عاقل فقد قيل لقيس بن عاصم :

ــ من لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلتهم ؟

ــ نحن .

ــ فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟

ــ هم .

ــ فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم .

وكان أن قبلوا الصلح وأبى ذلك مالك بن نويرة .

وتراقص على الألسنة المثل القائل : « أعدى من السليك » . فالسليك كان من العدائين وقد حدث أنه رأى طلائع الجيش من بكر بن وائل جاءوا متجردين ليغيروا على بنى تميم ولا يعلم بهم ، فقالوا :

ــ إن علم بنا السليك أنذر قومه .

فبعثوا إليه فارسين على جوادين ، فلما هايجاه خرج يعدو كأنه ظبى فطارداه يوما أجمع ثم قالا :

ــ إذا كان الليل أعيا فيسقط فنأخذه .

فلما أصبحا وجدا أثره قد عثر بأصل شجرة وقد وثب وانحطمت قوسه ، فوجدا قطعة منها ثبتت بالأرض فقالا :

ــ لعل هذا كان من أول الليل ثم فتر .

فتبعاه ولكنه لم يفتر ، استمر يعدو حتى وصل إلى قومه فأنذرهم فكذبوه لبعد الغاية . وجاء الجيش فاغار بنو بكر بن وائل عليهم والسليك يتميز غيظا ،

فلو أطاعه قومه لما كانوا لقمة سائغة لبكر بن وائل .

وعادت إلى الأذهان تلك الأيام التى كانت بين ربيعة وبكر بن وائل حتى اعتزل الحرث بن عباد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة فارس ربيعة حرب بنى وائل . وتنحى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه ، وحل وتر قوسه ونزع سنان رمحه و لم يزل معتزلا ، حتى خرج ابن أخيه بجير بن عمرو بن عباد فى أثر إبل له ندت يطلبها فعرض له مهلهل بن ربيعة فى جماعة يطلبون غرة بكر بن وائل ، فقيل لمهلهل :

ــ لا تفعل ، فو الله لئن قتلته ليقتلن منكم كبش لا يسأل عن خاله من هو ، وإياك أن تحقر البغى فإن عاقبته وخيمة . وقد اعتزلنا عمه وأبوه وأهل بيته وقومه .

فأبى مهلهل إلا قتله فطعنه بالرمح وقتله وقال :

ــ بؤ بشسع نعل كليب .

فبلغ فعل مهلهل الحرث عم بجير وكان من أحلم أهل زمانه وأشدهم بأسا ، فقال الحرث :

ــ نعم القتيل قتيل أصلح بين إبنى وائل :

فقيل له :

ــ إنما قتله بشسع نعل كليب .

فلم يقبل ذلك وأرسل الحرث إلى مهلهل :

ــ إن كنت قتلت بجيرا بكليب وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك .

فأرسل إليه مهلهل :

ــ إنما قتلته بشسع نعل كليب .

فغضب الحرث ودعا بفرسه وكانت تسمى النعامة ، فجز ناصيتها وهلَب ذنبها وهو أول من فعل ذلك بالخيل . ثم ارتحل مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل وعليهم يومئذ الحرث بن هشام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة ، فقال الحرث بن عباد له :

— إن القوم مستقلون قومك وذلك زادهم جراءة عليكم ، فقاتلهم بالنساء !

فقال له الحرث بن همام :

— وكيف قتال النساء ؟

— قلد كل امرأة إداوة من ماء وأعطها هراوة واجعل جميعهن من ورائكم فإنذلكم يزيدكم اجتهادا وعلموا بعلامات يعرفنها . فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على رجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه .

فأطاعوه ، وحلقت بنو بكر يومئذ رءوسها استبسالا للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم واقتتل الفرسان قتالا شديدا .

كان بنو بكر بن وائل فى قتال دائم مع من حولهم من القبائل حتى النساء كن يشتركن فى الحروب . وقد جاءوا ليعلنوا إسلامهم وتطهير قلوبهم من الحقد وقبولهم طائعين أن يكونوا أعضاء صالحين فى المجتمع الجديد بعد أن هداهم الله إلى النور .

وقد تقدموا إلى مسجد رسول الله — ﷺ — وفى وجوههم بشر وفى صدورهم آمال، وكان فيهم عبد الله بن أسود بن شهاب بن عوف بن عمرو ابن الحارث بن سدوس وكان ينزل اليمامة ، فباع ما كان له من مال فى اليمامة وهاجر إلى رسول الله — ﷺ — وقد وطد النفس على أن يكون إلى جواره

— صلوات الله وسلامه عليه — يستمد منه البركات .

وقدم الوفد على النبى — ﷺ — وجلسوا إليه يصغون إلى أحسن الحديث ، فإذا بعقمهم الروحى يتلاشى وإذا بهم يرتفعون إلى النبع الصافى ليتحدوا مع الطاقة الروحية التى تعلن عن الكون وتحكمه ، وإذا بهم يكتشفون ذواتهم فى نور الله وقد بدأت رحلة أنفسهم المشرقة إلى الله بخفقات قلوبهم المؤمنة التى أشرقت بنور ربها .

وطاف ببعض الرءوس ما كان من خبر أعشى بن قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن على بن بكر بن وائل ، إنه خرج إلى رسول الله — ﷺ — يريد الإسلام أيام أن كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى مكة ، فقال يمدح رسول الله — ﷺ :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما
تناسيت قبل اليوم صُحبة مَهددا[1]
ولكن أرى الدهر الذى هو خائن
إذا أصلحت كفَّاىَ عاد فأفسدا
كُهولا وشبانا فقدْت وثروةً
فلله هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت أبغى المال مذ أنا يافع
وليدا وكهلا حين شِبتُ وأمردا

(١) مهددا : اسم امرأة .

وأبتـــذل العِـــيس المراقيـــل تغـــتلى
مسافـــة مـــا بين النُّـــجير فَصرخـــدا[١]
ألا أيُّهـــذا السائلى أيـــن يَمَّـــمتْ
فـــإن لها فى أهـــل يثرب موعـــدا
فـــإن تسألى عنـــى فيـــارُب سائـــل
حفـــىّ عـــن الأعشى بـــه حـــيث أصعـــدا
أجـــدَّت برجـــليها النجـــاء وراجـــعَت
يداهـــا خِنافـــا ليِّنـــا غير أحـــردا[٢]
وفيها إذا مـــا هجَّـــرت عجرفيـــة
إذا خِـــلت حِربـــاء الظـــهيرة أصيـــدا
وأمـــا إذا مـــا أدلَـــجَت فتـــرى لها
رقيـــبين جديـــا مـــا يغـــيب وفرقـــدا
فآلـــيت لا آوى لها مـــن كلالـــة
ولا مـــن حَفـــىّ حتـــى تـــلاق محمـــدا
متى مـا تُناخـى عنـد بـاب ابـن هـاشم
تراحـــى وتلقـــى مـــن فواضلـــه نـــدا
نبـــىّ يـــرى مـــالا تـــرونَ وذكـــره
أغـــار لعمـــرى فى البـــلاد وأنجدا

---

(١) العيس المراقيل : الإبل المسرعة ، النجير : حصن قرب حضر موت ، صرخد : موضع بالشام .

(٢) أجدت : سلكت . النجاء : السرعة فى السير . الخناف : لين فى أرساغ البعير . أحرد : البعير الذى يخبط بيديه إذا سار .

لـــه صدقـــات مـــا تُـــغِبُّ ونائـــل
ولـــيس عطـــاء اليـــوم مانعـــه غـــدا
أجـــدَّك لم تسمـــع وصاة محمـــد
نبـــى الإلـــه حـــيث أوصى وأشهـــدا
إذا أنت لم ترحـــل بـــزاد مـــن التُّقَـــى
ولاقـــيت بعـــد للموت مـــن قـــد تـــزوَّدا
نـــدمت على ألا تكـــون كمثلـــه
فتـــرصِد للأمـــر الـــذى كان أرصدا
فإيـــاك والميتـــات لا تقربنَّهـــا
ولا تأخـــذن سهمـــا حديـــدا لتـــفصِدا
ولا الـــنُّصب المنصوب لا تنسكنَّـــه
ولا تعبـــد الأوثـــان والله فاعبـــدا
ولا تقرَبـــنّ جـــارة إن سرَّهـــا
علـــيك حـــرام فانكحَـــنْ أو تأبَّـــدا
وذا الرحـــم القُـــربى فـــلا تقطعنَّـــه
لعاقبـــة ولا الأسير المقيَّـــدا
وسبـــح على حين العشيـــات والضحـــى
ولا تحمـــد الشيطـــان والله فـــاحمدا
ولا تسخـــرن مـــن بـــائس ذى ضراوة
ولا تحسبـــنَّ المال للمـــرء مخلـــدا

فلما كان بمكة أو قريبا منها اعترضه بعض المشركين من قريش ، فسأله عن أمره فأخبره أنه جاء يريد رسول الله — ﷺ — ليسلم ، فقال له :

ـــ يا أبا بصير إنه يحرم الزنى .

فقال الأعشى له :

ـــ والله إن ذلك لأمر ما لى فيه من أرب .

ـــ يا أبا بصير إنه يحرم الخمر .

ـــ أما هذه فو الله إن فى النفس منها لعلالات ولكنى منصرف فأتروى منها عامى هذا ثم آتيه فأسلم .

فانصرف فمات فى عامه ذلك و لم يعد إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ولو أنه كان قد أسلم لكان سابق بكر بن وائل .

جاء وفد بكر بن وائل من أرض الضباع ، أفئدتهم مثقلة بالذنوب وأيديهم ملطخة بدماء الأبرياء وألسنتهم قد جفت من طول ترديد كلمات الثأر والانتقام ، فإذا بهم يعودون من عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد تحرروا من العبودية والذلة والمسكنة بعد أن تلقوا الضياء الربانى ، فاهتدوا إلى محبة البشر ، وأشرق وجودهم بالاندماج فى الوجود بمحض حريتهم ، فأصبحوا متفرحين فى الله يعيشون مع الله ويحيون بالله ، ورطبت ألسنتهم بذكر الله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

١١

بضعة عشر رجلا على رحالهم يتقدمون من مسجد الرسول على رأسهم سلمى بن حنظلة وفيهم مسيلمة بن حبيب وهو الكذاب وما كان أحد من أهل المدينة يعرفه ، وكان يتلفت وهو مشدوه فهو يرى رجالا يكاد أن يشع من وجوههم نور قد نزلت بهم سكينة عجيبة لكأنما قد طرحوا عن كواهلهم كل متاعب الحياة . فأطرق يفكر فى ذلك الرجل الذى طور حياة المؤمنين برسالته فاستشعر عقارب الغيرة تنهش فؤاده . وتمنى لو كان هو صاحب الرسالة الذى أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

وراحت الأفكار تنثال على رأسه وكانت كلها أفكارا شريرة من نسج شيطان ، وقام فى نفسه سؤال لماذا يذيع اسم محمد بن عبد الله فى قبائل العرب بينما يظل هو مجهولا فى اليمامة لا يكاد اسمه يتجاوز الحى الذى نشأ فيه ؟ إنه قرآن محمد ، إنه سحر بيانه ،.. ولماذا لا يكون له قرآن مثل قرآن محمد وهو لا يقل عنه فصاحة ؟! سيكون له وحي وقرآن وصحابة وأنصار ومؤمنون .

إن محمدا أصبح فى جزيرة العرب كالطود الأشم ، إنه لمن الجنون أن يحاول أن يزعزع مجده بعد أن توطدت أركانه ، فلماذا لا يشاركه النبوة فيكون له مثل ما لابن عبد الله من احترام وتوقير وذيوع صيت ؟!

ودخل رجل على رسول الله ــ ﷺ ــ وقال :

ــ وفد بنى حنيفة .

فأمر رسول الله ــ ﷺ ــ بإنزالهم دار رملة بنت الحارث ، فاتجه الوفد

إلى دار الأنصارية ونزلوا به ينفضون عنهم وعثاء الطريق . وظل مسيلمة فريسة لأفكاره الشريرة التى استبدت به وقام فى نفسه سؤال : أيجد فى أرض اليمامة مثل رملة بنت الحارث النجارية تعطيه دارها عن طيب خاطر لينزل بها من يقدم عليه من الوفود ؟ لم تكن رملة بدعة بين المسلمين ، إنهم جميعا يتنافسون فى تقديم ما يملكون من أموال وعواطف صادقة لنبيهم الذى صار قرة عين الجميع ، فتمنى مسيلمة أن يكون له قوم يحبونه مثل حب المسلمين لنبيهم وأن يوقروه توقير المسلمين لرسول الله ، وإنه لشيء تهفو إليه النفوس أن تكون موضع توقير وتقديس .

وأجريت على الوفد الضيافة فأتوا رسول الله — ﷺ — فى المسجد فسلموا عليه وشهدوا شهادة الحق وخلّفوا مسيلمة فى رحالهم ، فكان ينتهز وحدته ليطلق لخياله العنان فيرى نفسه فى قومه يزعم أنه رسول الله ويفكر فيما يحلل وفيما يحرم ، وعرف بجبلته أن الناس يحبون الشهوات فرأى أنه لو أطلق للنفوس الفاجرة حريتها فسيجد الأنصار ، ولو فتح الأبواب التى أغلقها محمد ابن عبد الله فى وجه الشر لتدفق منها أناس يضيقون بالفضيلة وبتقييد حرية الأموال لينضموا إلى دينه يدافعون حتى الموت .

وكان رجّال بن عُنفوة يتعلم القرآن من أبيّ بن كعب ، فإذا ما عاد إلى دار رملة فى المساء هرع إليه مسيلمة وألقى إليه السمع وقد أرهفت إليه كل حواسه ، فهو يحاول أن يحفظ قدر ما يستطيع من الذكر وأن يسرى جرسه وموسيقاه فى دمه حتى يستطيع أن يحاكيه يوم يزعم أن الوحى قد أتاه بقرآن من فوق سبع سموات .

وفى الصباح أسرع الرجال إلى مسجد رسول الله — ﷺ — ليزكوا قلوبهم بحكمة رسول الله — ﷺ — وظل مسيلمة فى رحالهم يغدو ويروح

يحاول أن يسجع الأساجيع وأن يضاهى القرآن ، فجعل يغمغم : « يا ضفدع كم تنقين . لا الشراب تمنعين . ولا الماء تكدرين » : واستمر يتلو ما حفظ من قرآن مجيد ليقيس على آياته البينات سجعاته !

وأرادوا الرجوع إلى بلادهم فأمر لهم رسول الله ــ ﷺ ــ بجوائزهم : خمس أواق لكل رجل فقالوا :

ــ يا رسول الله خلَّفنا صاحبا لنا فى رحالنا يبصرها لنا ، وفى ركابنا يحفظها علينا .

فأمر له رسول الله ــ ﷺ ــ بمثل ما أمر لأصحابه وقال :

ــ ليس بشركم مكانا لحفظه ركابكم ورحالكم .

وعاد الرجال إلى دار رملة وقدموا إلى مسيلمة خمس أواق فضة جائزته وقالوا له فيما قالوا :

ــ قال رسول الله ــ ﷺ ــ عنك : ليس بشركم مكانا لحفظه ركابكم ورحالكم .

فتلقفها مسيلمة فقال :

ــ عرف أن الأمر إلىّ من بعده .

وأعطاهم رسول الله ــ ﷺ ــ أداوة من ماء فيها فضل طهوره فقال :

ــ إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوا مكانها مسجدا .

وعاد وفد بنى حنيفة وفى رءوس الرجال أفكار ، مسيلمة يعصر ذهنه فيرى أن مشاركة محمد بن عبد الله فى نبوته خير له من أن يكذب محمدا ويدعى النبوة وحده ، ورجّال بن عنفوة ينفس على أبى بكر وعمر وصحابة رسول الله ــ ﷺ ــ مكانتهم فى الإسلام . إنه كان يتعلم القرآن من أبىّ بن كعب وكانت

النشوة بما يسمع تهزه من الأعماق . فإذا ما خلا بنفسه راحت الغيرة من صحابة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — تنهش قلبه ، فغروره يصور له أنه أفضل من أبى بكر وعمر وعثمان وسعد بن عبادة وكل الأنصار ، فلو أنه كان من أوائل المسلمين لكان قد أخذ مكانته فى الإسلام .

إن إسلامه تأخر وقد أصبح كعامة المسلمين وهو لا يرضى لنفسه إلا الصدارة ، فما دام أبو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفى قد زعم أن الأمر إليه من بعد رسول الله عليه السلام فلماذا لا ينصره ويؤيده فى دعوته ليكون له وزيرا وليكون منه مثل أبى بكر وعمر وعثمان من محمد بن عبد الله ؟!

وكان الأقعس بن مسلمة وطلق بن على بن قيس وسلمى بن حنظلة لا يفتأون يعيشون فى ذكريات تلك الأيام التى عاشوها وهم يلقون أسماعهم إلى حكمة رسول الله — ﷺ — فيستشعرون غبطة ونموا روحيا وثروة باطنية وخصبا ونورا يبدد ظلمات الحياة .

وقدموا بلدهم فكسروا بيعتهم ، وراح طلق بن على يؤذن :

— الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر . أشهد ألا إلـٰه إلا الله . أشهد ألا إلـٰه إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ..

وخرج الناس من دروهم ليصلوا فى المسجد ، وسمع راهب البيعة الأذان فقال :

— كلمة حق .

وهرب فكان آخر العهد به ، وضاق صدر مسيلمة لما رأى قومه يشهدون لمحمد عليه السلام بالرسالة ، ونفد صبره فقال :

— أنا شريك محمد فى النبوة وجبريل عليه السلام ينزل علىّ كما ينزل عليه .

واستخفه القوم وضحكوا منه فقام فيهم وقال :

ـ يا بنى حنيفة ما جعل الله قريشا أحق بالنبوة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم وسوادكم أكثر من سوادهم وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم .

وأظهروا شتمه وعيبه وتصغيره فاستشهد برجّال بن عنفوة أن رسول الله ـ ﷺ ـ أشركه فى الأمر فشهد له . وراح مسيلمة يركب الصعب والذلول فى تقوية أمره ويعتضد برجّال بن عنفوة وهو ينصره ويذب عنه ويصدق أكاذيبه ويتلو قرآنه : « والشمس وضحاها ، فى ضوئها ومجلاها ، والليل إذا عدَّاها ، يطلبها ليغشاها ، فأدركها حتى أتاها ، وأطفأ نورها فمحاها » ، « سبح اسم ربك الأعلى . الذى يسر على الحبلى ، فأخرج منها نسمة تسعى . من بين أحشاء ومعى . فمنهم من يموت ويدس فى الثرى . ومنهم من يعيش ويبقى إلى أجل ومنتهى . والله يعلم السر وأخفى . ولا تخفى عليه الآخرة والأولى » .

وأحل مسيلمة الخمر والزنا ووضع عن أتباعه الصلاة ، وظل يشهد لرسول الله ـ ﷺ ـ بأنه نبى ، ففتحت الفتنة أبوابها وولج الناس منها، فقد أباح لهم ما تشتهيه أنفسهم . وجعلوا يسألونه أن يدعو لمريضهم ويبرك لمولودهم فانحرفت بنو حنيفة عن جادة الطريق : « يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سمَّاعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .[1] » .

---

(١) سورة المائدة الآية (٤١) .

١٢

كان زيد الخيل طويلا جسيما موصوفا بطول الجسم وحسن القامة ، وكان يركب الفرس العظيم الطويل فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمارا . وقيل له زيد الخيل لخمسة أفراس كانت له . إنه من طيئ ومن أشهر فرسان اليمن وهو شاعر محسن خطيب لسن شجاع ، وكان يلقى فرسان القبائل فيصرعهم فسار الركبان بذكره ومشى الرواة بشعره .

وكانت بينه وبين عامر بن الطفيل عداوة وكان عامر من أشهر فرسان العرب بأسا ونجده وأبعدها اسما ، حتى بلغ أن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال : ما بينك وبين عامر بن الطفيل ؟ فإن ذكر نسبا عظم عنده . فالتقى زيد بعامر فأسره وجز ناصيته فطار الخبر فى القبائل حتى قرع آذان الناس بمكة .

وكان بينه وبين كعب بن زهير هجاء لأن كعبا اتهمه بأخذ فرس له ، وكان ذلك الهجاء يروى فى مجالس قريش عند الكعبة ، فقد كانت القصائد تعرض على قريش فإن أجازت منها قصيدة علقتها فى جوف الكعبة عند إلـٰههم هبل رب الشعر .

وسمع رسول الله ــ ﷺ ــ وهو فى مكة بشجاعة زيد وكرمه ومكارم أخلاقه . فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة كانت أخبار زيد الخيل تنتقل مع الركبان من اليمن إلى يثرب فيتلقفها الرواة والسُّمـَّار ، وكانت تصل إلى رسول الله ــ ﷺ ــ كما كانت تصل إليه أخبار رجالات العرب وفرسانهم .

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة ورسول الله — ﷺ — بها ، فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقالوا له :

— يا طفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرِّق بين الرجل وأبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته . وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، فغدا إلى المسجد فإذا برسول الله — ﷺ — قائم يصلى عند الكعبة ، فقام منه قريبا فأبى الله إلا أن يسمعه بعض قوله ، فسمع كلاما حسنا فقال فى نفسه :

— واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ؟ فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته .

والتقى الطفيل برسول الله — ﷺ — فعرض عليه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الإسلام وتلا عليه القرآن فأسلم وشهد شهادة الحق ، ثم عاد إلى دوس يدعو الناس إلى الدين القيم .

وسمع زيد الخيل بإسلام الطفيل بن عمرو وبإسلام دوس ، وألقى سمعه إلى القرآن المجيد فإذا بآياته تعزف لحنا سماويا على أوتار قلبه ، وإذا به يقر فى أعماق نفسه أنه ما سمع قولا قط أحسن منه ، ولكنه راح يشاور رأسه ويتجاهل قلبه فأغلق ذاته فى وجه النور الذى كاد يشرق فى صدره .

وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وكانت بينه وبين قريش غزوات كانت أحداثها تروى فى أسواق عكاظ ومجنة وذى مجاز وحباشة ويسمر بها السمار فى القبائل . وكان القرآن يتلى فى نوادى القوم فإذا به يغزو قلوبا

ويشرح صدورا للإسلام ، بينما ظل زيد الخيل على دينه فهو مأخوذ بسحر الملموس والمرئى والمسموع ، وهو مشغول بالطعن والنزال ، يعيش فى زحمة الحياة ليس لديه وقت ليقبع فى ذاته ويصحب نفسه ليتأمل تأملا باطنيا يهديه إلى الصراط .

وفتح الله على رسوله مكة فهز ذلك الحدث العظيم القبائل هزا شديدا حتى الأعماق ، فراح الناس يفكرون فى ذلك الدين الذى مكن أتباعه المستضعفين فى الأرض من أن يغزوا قريشا وأن يحطموا آلهتهم وآلهة القبائل وأن يجعلوا البيت العتيق منارة لتوحيد الله ، فإذا بقلوب تنشرح للإسلام وإذا بقلوب يملؤها الحقد والحسد فتضمر الشر لرسول الإسلام والسلام . وكان عامر بن الطفيل ممن أضمر الشر للنبى الكريم — عليه صلوات الله وسلامه — فقدم على المدينة وهو يريد الغدر برسول الله فقد أغضبه أن قومه قالوا له :

— يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم .

— والله لقد كنت آليت ألا أنتهى عن تتبع العرب عقبى ، فأنا أتبع هذا الفتى من قريش !

وذهب عامر بن الطفيل إلى رسول الله — ﷺ — يملى شروطه :

— أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولىّ الأرض بعدك فأسلم .

فأبى عليه — ﷺ — فانصرف عامر وقال :

— أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجلا .

حتى إذا كان ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون فى عنقه فجعل يقول :

ـــ يا بنى عامر أغدة كغدة البكر[١] فى بيت امرأة من بنى سلول ؟

ومات عامر بين الطفيل وبلغ خبر موته زيد الخيل ، فأطرق يفكر وارتمى فى أحضان الوحدة للبحث فى أعماق نفسه عن جوهر الحقيقة فإذا بآيات القرآن ترن رنينا عذبا فى وجدانه ، وإذا بصراع ينشب فى صدره بين باعث الدين وباعث الهوى ، وإذا بالنور يدحر الظلمات ، وإذا باليقين يستقر فى أعماقه ، وإذا بالعين تفيض بالدمع خشية من الله ، وإذا به يصدر أوامره لقومه بأن يتأهبوا للخروج إلى رسول الله ـــ ﷺ .

ووفد على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفد طيء خمسة عشر رجلا رأسهم وسيدهم زيد الخيل بن مهلهل من بنى نبهان ، ووقف المسلمون فى المدينة يرقبون الوفد ويرصدون حركات وزر بن جابر بن سدوس النبهانى قاتل عنترة فارس بنى عبس .

وانطلقوا إلى المسجد حتى إذا ما بلغوه عقلوا رواحلهم بفنائه ، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله ـــ ﷺ فعرض عليهم الإسلام فأسلموا .

وكان حوار بين رسول الله ـــ ﷺ ـــ وبين زيد الخيل ، وأعجب عليه السلام بزيد فسماه زيد الخير وقال عليه السلام :

ـــ ما ذكر لى رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لى إلا ما كان من زيد الخيل ، فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه .

وأصابت حمى المدينة زيد الخير ، فهرعت إليه زوجه تمرضه وجعل ابناه مكنف وحارث يعودانه . وأجاز رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفد طيء بخمس أواق فضه لكل رجل منهم وأعطى زيد الخير اثنتى عشرة أوقية ونشا ، وقطع

---

(١) البعير .

له قيد وهو منزل فى نجد بطريق مكة من العراق وأرضين معه وكتب له كتابا

وخرج زيد الخير مع قومه راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— إن يُنجَ زيد من حمى المدينة فإنه ...

وصمت رسول الله — ﷺ — فلم يكن فى عمر زيد بقية ، فإنه لما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له فردة اشتدت عليه الحمى وأحس بالموت فقال :

أمـــرتحل قومــــى المشارق غـــــدوةً
وأُتــــرك فى بـــيت بفَـــردة منجـــدِ[1]

ألا رب يـــوم لـــو مـــرضت لعـــادنى
عوائـــــد مــــن لم يُبر منهن يجهـــــد[2]

ومات زيد فاستولى الجزع على امرأته ، فعمدت إلى ما كان معه من كتبه التى قطع له رسول الله — ﷺ — فحرّقتها بالنار ، ولم يجزع ابناه مكنف وحارث بل قالا :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .[3] » .

---

(١) منجد : أى بنجد .

(٢) يبرى (بالبناء للمجهول) أى يبريه السفر ويضعفه .

(٣) سورة البقرة الآيات (١٥٣ — ١٥٧) .

١٣

الوفود تتتابع ، فما يكاد وفد يغادر دار رملة بنت الحارث حتى يأتى وفد آخر لينزل بدار الوفود ، وبلال يسهر على راحة الذين شدوا الرحال إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ويحسن ضيافتهم ، حتى إذا ما تأهبوا للعودة إلى بلادهم بعد أن يشرح الله صدورهم للإسلام يعطى كل رجل منهم جائزته ، فقد كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ لا يبخل بما عنده وإن مر شهر وشهران دون أن يوقد فى دار من دوره نار لطبيخ أو لسواه .

وقدم وفد تُجيب على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهم ثلاثة عشر رجلا ، وساقوا صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بهم وقال :

ـــ مرحبا بكم .

وأكرم منزلهم وحياهم وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم ، وأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفد وقال :

ـــ هل بقى منكم أحد ؟

ـــ غلام أخلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا .

ـــ أرسلوه إلينا .

فأقبل الغلام إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إنى امرؤ من بنى أبناء الرهط الذين أتوك آنفا ، فقضيت حوائجهم فاقض حاجتى .

ـــ وما حاجتك ؟

ـ تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى ويجعل غناى فى قلبى .

ـ اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه .

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم وراحوا يمارسون الحياة ، أما الغلام فما رؤى مثله أقنع منه بما رزقه الله .

وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا حتى أثخنوهم فى يوم كان يقال له يوم الردم . فقال فروة بن مسيك المرادى فى ذلك اليوم :

مـــررنَ على لُفـــات وهـــن خُـــوضٌ
ينازعـــنَ الأعنَّـــةَ ينتحينـــا(١)

فـــإن نَغـــلِبْ فغلاّبون قِدْمـــا
وإن نُغْـــلَب فغيـــرُ مُغلَّبينـــا

ومـــا إن طِبُّنـــا جُبْـــن ولكـــن
منايانـــا وطُعْمـــةُ آخرِينـــا(٢)

كـــذاك الدهـــر دولتـــه سجـــالٌ
تكُـــرُّ صروفُـــه حينـــا فحينـــا(٣)

---

(١) لفات : من ديار مراد ، وخوض : غائرات العيون ، وينتحين : يعترضن ويتعمدن .

(٢) طبنا : ما دهرنا وشأننا وعادتنا ، ومعنى هذا الشعر : إن كانت همدان ظهرت علينا فى يوم الردم فغلبتنا ، فغير مغلبين . والمغلب الذى يغلب مرارا ، أى لم تغلب إلا مرة واحدة .

(٣) سجال : تارة للإنسان ، وتارة عليه .

فبينـــا مـــا نُسرُّ بـــه ونـــرضى
ولـــو لَـــبست غَضارتـــه سنينـــا[١]

إذا انقلـــبت بـــه كـــرّات دهـــر
فألفـــيت الأولى غُبطـــوا طحينـــا[٢]

فمـــن يُغبَـــط بـــريب الدّهـــر منهم
يجد ريب الزمـــانِ لـــه خَئُونـــا

فلـــو خلَـــد الملـــوك إذن خلَدنـــا
ولـــو بقـــى الكـــرام إذن بقينـــا

فأفنـــى ذلكـــم سَرَوَاتِ قومـــى
كما أفنـــى القـــرون الأوّلينـــا[٣]

وانطلق فروة بن مسيك إلى كندة ولزم ملوكها ، وتصرمت الأيام وإذا بالقلوب قد تغيرت وإذا بالعلاقات الطيبة التى كانت بينه وبينهم تسوء ، وإذا به يسمع بالإسلام وسماحته وبرسول الله — ﷺ — وخلقه العظيم ، فيغادر كندة مفارقا لملوكها ومباعدا لهم ، وينطلق إلى مدينة النور وهو يقول :

لما رأيت ملـــوك كنـــدة أعـــرضَتْ
كالرّجـــل خـــان الرجـــلَ عـــرق نَسائهـــا

قـــربت راحلتـــى أؤم محمـــدا
أرجـــو فواضلهـــا وحُسن ثرائهـــا

وعند باب مسجد الرسول أناخ راحلته وراح يتقدم وهو يستشعر رهبة .

---

(١) غضارة الشيء : طراوته ونعومته .

(٢) غبطوا : استحسنت حالهم .

(٣) سروات القوم : أشرافهم .

إنه كان يدخل على ملوك كندة ثابت الجنان ، أما وهو يسير للقاء رسول رب العالمين فقد نزل بقلبه خوف شديد وسرت فى جسمه قشعريرة وراحت عيناه تتجولان فى الفضاء لا تثبتان على شىء ، حتى إذا ما رأى رسول الله — ﷺ — سكنت نفسه فقد انشرح صدره لسماحته ولطفه وبساطته ، فما يملك من تقع عيناه عليه إلا أن يحبه .

ودار بين رسول الله — ﷺ — وفروة بن مسيك حديث كله ود ، قال عليه السلام لجليس الملوك :

— يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم ؟

— يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوءه ذلك ؟

— أما وإن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرا .

ونزل فروة على سعد بن عبادة وراح يتعلم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه ، فأجازه رسول الله — ﷺ — باثنتى عشرة أوقية وحمله على بعير وأعطاه حلة من نسج عمان واستعمله على مراد وزبيد ومذحج ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقات ، وكتب له كتابا فيه فرائض الصدقة ، فانقلب فروة بن مسيك إلى أهله مسرورا بعد أن كان قلبه مثقلا بالهموم لما أعرضت عنه ملوك كندة .

وانتهى إلى زبيد أمر رسول الله — ﷺ — فقال عمرو بن معدى كرب لقيس بن مكشوح المرادى :

— يا قيس إنك سيد قومك ، وقد ذكر لنا أن رجلا من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبى ، فانطلق بنا إليه حتى نعلم علمه فإن كان نبيا كما يقول فإنه لن يخفى عليك ، وإذا لقيناه تبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا

علمه .

فأبى عليه قيس ذلك وسفَّه رأيه ، فانطلق عمرو بن معدى كرب فى عشرة من نفر من زبيد إلى المدينة فنزل على سعد بن عبادة ، فأكرمه سعد وراح به إلى رسول الله — ﷺ — وانصرف إلى بلاده فأقام مع قومه على الإسلام وعليهم فروة بن مسيك .

فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمرا واشتد عليه وقال :

— خالفني وترك رأيي .

فقال عمرو بن معدى كرب فى ذلك :

أمَرْتك يوم ذى صنعاء أمرا باديا رُشْدُه(١)
أمرْتُك باتّقاء اللـه والمعروف تَتَّعِدُه
خرجت من المُنى مثل الـحُمَيِّر غَرَّه وَتِدُه
تمنَّانى على فرَس عليه جالسا أسدُه
علىَّ مُفاضةٌ كالنَّهـى أخلص ماءه جُدَدُه(٢)
ترد الرمح مُنْثنىَ السـنان عواثرا قِصَدُه(٣)
فلو لاقيتنى للقيـت ليثا فوقه لِبَدُه(٤)
تلاقى شنبثا شَثْن الـبراثن ناشزا كَتَدُه(٥)

---

(١) ذو صنعاء : موضع .

(٢) المفاضة : الدرع الواسعة . والنهى : الغدير من الماء . والجدد : الأرض الصلبة .

(٣) عواثر : متطايرة ، والقصد جمع قصدة ، وهى ما تكسر من الرمح .

(٤) اللبد : جمع لبدة ، وهى ما على كتفى الأسد ورأسه من الشعر .

(٥) الشنبث : الذى يتعلق بقرنه ولا يزايله . والشثن : الغليظ الأصابع . والبراثن للسباع : بمنزلة الأصابع للإنسان . وناشز : مرتفع . والكتد : ما بين الكتفين .

يسامى القِرن إن قِرنٌ تيَمَّمه فيعتضدُه[1]
فيأخذه فيرفعهُ فَيَخفضُه فيقْتصده[2]
فيدمَغُهُ فيحطمه فيخضمه فيزْدرده[3]
ظَلوم الشرْك فيما أحرزتْ أنيابُه ويدُه

وقدم على رسول الله — ﷺ — الأشعث بن قيس فى وفد كندة فى ثمانين راكبا من كندة ، فدخلوا على رسول الله وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة قد كففوها بالحرير ، وعليهم الديباج ظاهر مخوَّص بالذهب ، فقال لهم رسول الله — ﷺ :

— ألم تُسلموا ؟

— بلى .

— فما بال هذا عليكم ؟

فشقوه وألقوه ، ثم قال له الأشعث بن قيس :

— يا رسول الله نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث .

كان العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب تاجرين ، وكان لبنى هاشم جدة من كندة وهى أم كلاب بن مرة ، وكانا إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا :

— ممن أنتما ؟

---

(١) يعتضده : يأخذه تحت عضده ليصرعه .

(٢) يقتعده : يقتله .

(٣) يدمغه: يصيب دماغه. ويحطمه: يكسره. ويخضمه: يأكله. ويزدرده: يبتلعه.

قالا فى زهو :

ــ نحن بنو آكل المرار :

يتعززان بذلك ، وذلك أن كندة كانوا ملوكا أما رسول الله ــ ﷺ ــ فما كان الانتساب إلى الملوك يزيده عزا ، فقال للأشعث بن قيس وكان من ولد آكل المرار من قبل النساء :

ــ لا بل نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا .

وأحس الأشعث خجلا ، أن قومه كانوا ينتسبون إلى آكل المرار ويتبعون نسب أمهم فقال :

ــ هل فرغتم يا معشر كندة ؟ والله لا أسمع رجلا يقولها إلا ضربته ثمانين .

فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق ، وأعطى الأشعث اثنتى عشرة أوقية .

ووفد وفد الصَّدِف من سبأ على رسول الله ــ ﷺ ــ وهم بضعةَ عشرَ رجلا على قلائص لهم فى أزر وأردية ، فإذا بالناس يتذكرون جنتى سبأ وسيل العرم وسؤالهم الله أن يباعد بين أسفارهم بعد أن كان بينهم وبين القرى التى باركها الله قرى ظاهرة ، إنهم ظلموا أنفسهم فجعلهم الله أحاديث ومزقهم كل ممزق .

وتذكروا هدهد سليمان وقوله لنبى الله: «إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون.»[1]

وطارت أخيلتهم مع الهدهد وقد ذهب بكتاب نبى الله إلى ملكة سبأ ، وتصور كل منهم عرشها على قدر تخيله ، ورن فى أغوارهم ذلك الحوار

---

(١) سورة النمل الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

الذى دار بينها وبين قومها ، ورأوا بأعين الخيال رسلها وهم يدخلون على سليمان بهديتها وكان قول سليمان عليه السلام واضحا لا لبس فيه ، فقد ورد فى القرآن الكريم : « فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . »(١) .

وأشرقت الوجوه لما تذكروا قول الذى عنده علم من الكتاب ، ورفت على الشفاه ابتسامات رضا لما فكروا فى عرش ملكة سبأ وكيف انتقل من اليمن إلى الشام قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طرفه ، وكيف انتاب ملكة سبأ الدهشة لما رأت عرشها ، وكيف كشفت عن ساقيها لما دخلت الصرح فقد حسبته لجة ، وكيف أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

كانوا قبل أن يشرح الله صدورهم للإسلام قوما يجهلون ، فلما أشرقت قلوبهم بأنوار اليقين وقرأوا الذكر الحكيم أورثهم الله علم ما لم يعلموا فتلألأت فى قلوبهم حقائق الأمور الدنيوية والأخروية وحقائق علمية ما كان لهم ولا لآبائهم بها من علم ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .(٢) .

ودخل وفد الصَّدِف مسجد الرسول فصادفوا رسول الله — ﷺ — فيما بين بيته وبين المنبر ، فجلسوا ولم يسلموا فقال :

— أمسلمون أنتم ؟

— نعم .

— فهلاّ سلمتم ؟

---

(١) سورة النمل الآية (٢٦) .

(٢) سورة الحديد الآية (٢١) .

فقاموا فقالوا :

ـــ السلام عليك أيها النبى ورحمة الله .

ـــ وعليكم السلام . اجلسوا .

فجلسوا وسألوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن أوقات الصلوات فأخبرهم بها ، وهم يصغون إلى عذب حديثه فيستشعرون كأن جوهر الحكمة ينزل بصدورهم فى سويداء قلوبهم .

١٤

الوفود تتدفق على المدينة والناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يستولى على القلوب بخلقه العظيم ، والمسلمون من الأنصار والمهاجرين يثيرون دهشة رجال القبائل فقد ألف الله بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخوانا بعد أن كانوا أعداء ، وصاروا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فقد اعتصموا بالله فهداهم إلى صراط مستقيم .

وقدم على رسول الله ﷺ ـــ صرد بن عبد الله الأزدى فألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه ، فشرح الله للإسلام صدره ، وأعلن من معه من الأزد إسلامهم ، فأمَّره رسول الله ـــ ﷺ ـــ على من أسلم من قومه ، فانطلق إلى اليمن ليجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك . فخرج صرد بن عبد الله يسير بأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى نزل بجرش وهى يومئذ مدينة مغلقة وبها قبائل من اليمن وقد لجأت إليهم خثعم ، فدخلوها معهم حين سمعوا بسير المسلمين إليهم فحاصروهم فيها قريبا من شهر وامتنعوا فيها منه ، ثم إنه رجع عنهم قافلا حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له شكر ظن أهل جرش أنه ولى عنهم منهزما ، فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه عطف عليهم فراح يقتلهم قتلا شديدا .

وقد كان أهل جُرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالمدينة يرتادان وينظران ، فبينا هما عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ عشية بعد صلاة العصر إذ قال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بأى بلاد الله شُكُر ؟

فقام إليه الجُرشيان فقالا :

ـــ يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كَشر

وكذلك يسميه أهل جرش ، فقال عليه السلام :

ـــ إنه ليس بكشر ولكنه شكر .

قالا :

ـــ فما شأنه يا رسول الله ؟

ـــ إن بُدْنا لله لتنحر عنده الآن .

ولم يفهما ما كان يقصده رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن أين لهما أن يعلما أن صرد بن عبد الله والذين معه من المسلمين كانوا يقتلون أهل جُرَش فى ذلك الوقت قتلا شديدا . فلما جلسا إلى أبى بكر وكان أكثر الناس معرفة بإشارات رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال لهما :

ـــ ويحكما ! إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ الآن لينعى لكما قومكما ، فقوما إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما .

فقاما إليه فسألاه ذلك فقال :

ـــ اللهم ارفع عنهم .

فخرجا من عند رسول الله ـــ ﷺ ـــ راجعين إلى قومهما وهما يذكران اليوم الذى دعا فيه أن يرفع الله عن قومهما بل ويذكران الساعة ، فلما بلغا الديار وجدا قومهما قد أصيبوا يوم أصابهم صرد بن عبد الله فى اليوم الذى قال فيه رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما قال ، وفى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر .

واتضحت لأعين الذين لا يؤمنون إلا بشواهد مادية حقيقة الأمر فخرج وفد جُرَش حتى قدموا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأسلموا ، فقال :

— مرحبا بكم ! أحسن الناس وجوها وأصدقه لقاء وأطيبه كلاما وأعظمه أمانة ، أنتم منى وأنا منكم .

وجعل شعارهم : مبرورا ، وحمى لهم حِمى حول قريتهم على أعلام معلومة ، للفَرس والراحة وللمثيرة (بقرة الحرث) ، فمن جاء بأنعامه وغنمه ليرعى الحمى فماله سحت .

* * *

وقدم على رسول الله — ﷺ — وفد عذرة فى صفر سنة تسع من مهاجره وهم اثنا عشر رجلا فيهم حمزة بن حمزة النعمان وسليم وسعد ابنا مالك بن أبى رياح ، فنزلوا دار الضيافة دار رملة بنت الحارث ، ثم جاءوا النبى — ﷺ — فسلموا بسلام الجاهلية وقالوا :

— نحن إخوة قصى لأمه ، ونحن الذين أخرجوا خزاعة وبنى بكر من مكة ، ولنا قرابات وأرحام .

— مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفنى بكم ، ما منعكم من تحية الإسلام ؟

— قدمنا مرتادين لقومنا .

لم يكونوا قد أسلموا بل جاءوا ليسمعوا من محمد بن عبد الله ، فإن كان ما يدعو إليه خيرا دخلوا فيه ، وإن لم يصادف فى نفوسهم هوى أعرضوا عنه ، فجلسوا إليه يصغون وقد أرهفت حواسهم فراح يتدفق كأنه بحر من العلم ؛ حدثهم عن وجدانية الله ونفى الربوبية عن كل الأرباب إلا الله وحده ، فلو كان فى السماء والأرض آلهة غير الله لفسدتا ، فكادت ألسنتهم تتحرك بشهادة أن لا إلـٰه إلا الله بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى ما ساق من حجج وإلى ما تلا عليهم مما أوحى إليه من ربه ، وذكر لهم أنه رسول الله وأنه بشر يوحى إليه أرسله الله إلى

الناس كافة بشيرا ونذيرا وكفى بالله شهيدا فكادوا أن يشهدوا أن الرسول حق ، وحدثهم حديثا مستفيضا عن الصلاة وأوقاتها وعن حكمة الوقوف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم وعن سر الصلاة فى قلوب المؤمنين وقال لهم إن الله فرض الزكاة على القادرين فهى حق للفقراء فى أموال الأغنياء التى آتاهم الله من فضله ، وحدثهم عن الصوم وعن جزاء الصائمين وأن الصوم لله فالله وحده يجزى الصائم عن صومه ، وتكلم عن الحج وأن الله تعالى قد فرضه على من استطاع إليه سبيلا .

كانوا يصغون فى دهشة فقد رفعهم حديث رسول الله — ﷺ — حتى كادوا أن يقرعوا أبواب الملكوت ، وحقق ضربا من الألفة بين الوجود وبين ما وراء الوجود ، وجعلهم يستشعرون حرية مطلقة ما كان لهم بها عهد من قبل . حررهم من الخوف والعبودية لغير رب الناس إلٰه الناس ، ونقش فى بياض ألواح قلوبهم علما وفقها وحكمة ، وأضاء زيوت أفئدتهم فأصبحوا على نور من ربهم فرطبت ألسنتهم بشهادة الحق المبين .

وأقاموا أياما ينهلون من نبع علم رسول الله — ﷺ — حتى إذا ما أرادوا الانصراف إلى أهليهم راح بلال خازن رسول الله — ﷺ — يوزع عليهم جوائزهم وكسا أحدهم بُردا ، ثم انطلقوا يحسون أنهم قد خلقوا من جديد .

وكان بنو جُرْم عند ماء يمر الناس عليه فلما ظهر الإسلام كانوا يسألون الناس :

— ما هذا الأمر ؟

فيقولون :

— رجل يزعم أنه نبى وأن الله أرسله وأن الله أوحى إليه كذا وكذا .

فجعل عمرو بن سلمة يومئذ لا يسمع شيئا من القرآن إلا حفظه كأنما

يغرى فى صدره بغراء ، حتى جمع فيه قرآنا كثيرا . وكانت العرب تنتظر بإسلامها فتح مكة يقولون :

ــ انتظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبى .

فلما جاءت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، فخرج سلمة الجَرمى ونفر من قومه ووفدوا إلى النبى ــ ﷺ ــ حين أسلم الناس وتعلموا القرآن وقضوا حوائجهم فقالوا :

ــ يا رسول الله من يصلى بنا ؟

ــ ليصلِّ بكم أكثركم أخذا للقرآن .

فجاءوا إلى قومهم فلم يجدوا فيهم أحدا أكثر أخذا من القرآن مما أخذ عمرو ابن سلمة وهو يومئذ غلام عليه كساء يأتزر به ، فقدموه بين أيديهم فكان يصلى بهم وهو ابن ست سنين .

وقدم على رسول الله ــ ﷺ ــ كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ، ورسوله إليهم بإسلامهم الحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل[1] ذى رُعين ومعافر وهمدان . وبعث إليه زرعة ذو يزن مالك بن مرة الرهاوى بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله . فكتب إليهم رسول الله ــ ﷺ :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن عبد كلال وإلى نعيم بن عبد كلال وإلى النعمان ذى رُعين ومعافر وهمدان . أما بعد ذلكم فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إلـٰه إلا هو . أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة ، فبلَّغ ما أرسلتم به وخبَّر ما قبلكم وأنبأنا

---

(١) القيل واحد الأقيال وهم الملوك دون الملك الأكبر .

بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم الرسول وصفيه[١] وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار ، عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغرب (الدلو) نصف العشر ، وأن فى الإبل الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل أربعين بقرة بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، وأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله .

وإنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإنه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يرد عنها وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف من قيمة المعافر[١] أو عوضه ثيابا ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله — ﷺ — فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله .

أما بعد فإن رسول الله محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيرا : معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مُرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلى ، وأن أميرهم مُعاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا

---

(١) المعافر : ثياب من ثياب اليمن .

راضيا .

أما بعد ، فإن محمدا يشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنه عبده ورسوله ، ثم إن مالك ابن مرة الرّهاوى قد حدثنى أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تخونوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم . وأن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل محمد إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل . وأن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وأنى قد أرسلت إليكم من صالحى أهلى وأولى دينهم وأولى علمهم . وآمركم بهم خيرا فإنهم منظور إليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأوصى عليه السلام معاذا وعهد إليه ثم قال له :

— يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفّر . وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ، فقل شهادة أن لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له .

فخرج معاذ حتى إذا ما قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله — ﷺ — فأتته امرأة من أهل اليمن فقالت :

— يا صاحب رسول الله ما حق زوج المرأة عليها ؟

— ويحك ! إن المرأة لا تقدر على أن تؤدى حق زوجها ، فأجهدى نفسك فى أداء حقه ما استطعت .

— والله لئن كنت صاحب رسول الله — ﷺ — إنك لتعلم ما حق الزوج على المرأة .

— ويحك ! لو رجعت إليه فوجدته تنشعب منخراه قيحا ودما ، فمصمصت ذلك حتى تذهبيه ما أديت حقه .

١٥

خالد بن الوليد سيف الله المسلول فى أربعمائة من المسلمين يتأهبون للخروج من المدينة ، فقد بعثهم رسول الله ـ ﷺ ـ فى شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا قبل أن يقاتلهم .

وانطلق خالد والذين معه إلى نجران اليمن حيث بيع النصارى تنتشر فى كل مكان وراح يدعو الناس إلى الإسلام . وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون :

ـ أيها الناس أسلموا تسلموا .

وأثلج صدر خالد فقد أسلم الناس قبل أن يقاتلهم ودخلوا فيما دعوا إليه ، فأقام فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ـ ﷺ .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ـ ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم : لمحمد النبى رسول الله ـ ﷺ ـ من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـٰه إلا هو ، أما بعد يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ فإنك بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتنى إذ أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا أقمت فيهم وقبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم . وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ وبعثت فيهم ركبانا قالوا : يا بنى الحارق أسلموا

تسلموا ، فأسلموا و لم يقاتلوا وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبى — ﷺ — حتى يكتب إلىّ رسول الله — ﷺ ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فكتب إليه رسول الله — ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبى رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إلـه إلا هو . أما بعد فإن كتابك جاءنى مع رسولك تخبر أن بنى الحارث بن كعب قد أسلموا قبل أن تقاتلهم وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه . فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليُقبِل معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد إلى رسول الله — ﷺ — وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحصين ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله ابن قراد الزِّيادى وشداد بن عبد الله القنانى وعمرو بن عبد الله الضِّبابى .

فلما قدموا على رسول الله — ﷺ — فرآهم قال :

— من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟

— يا رسول الله هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب .

فلما وقفوا على رسول الله — ﷺ — سلموا عليه وقالوا :

— نشهد أنك رسول الله وأنه لا إلـه إلا الله .

قال رسول الله — ﷺ :

— وأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وأنى رسول الله .

ثم قال — ﷺ :

ـــ أنتم الذين إذا زُجروا استقدموا .

فسكتوا لم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ، ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد . ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد الله المدان :

ـــ نعم يا رسول الله نحن الذين إذا زُجروا استقدموا .

قالها أربع مرات ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ لو أن خالدا لم يكتب إلَىَّ أنكم أسلمتم و لم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم .

فقال يزيد بن عبد المدان :

ـــ أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدا .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ من حَمِدتم ؟

ـــ حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله .

ـــ صدقتم .

ثم قال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟

ـــ لم نكن نغلب أحدا .

ـــ بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم .

ـــ كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله أنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحدا بظلم .

ـــ صدقتم .

وأمَّر رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بنى الحارث بن كعب قيس بن الحصين .

فرجع وفد بنى الحارث إلى قومهم فى بقية من شوال ، وبعث إليهم بعد عودتهم إلى ديارهم عمرو بن حزم ليفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم صدقاتهم . وكتب له كتابا عهد إليه فيه عهده وأمره فيه بأمره : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا بيان من الله ورسوله : يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود . عهد من محمد النبى رسول الله لعمرو بن حزام حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله فى أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه وينهى الناس فلا يمس القرآن إنسان إلا وهو طاهر . ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم ويلينَ للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم ، فإن الله كره الظلم ونهى عنه فقال : ألا لعنة الله على الظالمين . ويبشر الناس بالجنة وبعملها وينذر الناس النار وعملها ، ويستأنف الناس حتى يفقهوا فى الدين ويعلم الناس معالم الحج وسنته وفريضته وما أمر الله به ، والحج الأكبر الحج الأكبر ، والحج الأصغر هو العمرة ، وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير إلا أن يكون ثوبا يثني طرفيه على عاتقيه ، وينهى الناس أن يحتبى أحد فى ثوب واحد يُفضى بفرجه إلى السماء ، وينهى أن يعقِص أحد شعر رأسه فى قفاه ، وينهى إذا كان بين الناس هيج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له ، من لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقطفوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله وحده لا شريك له .

ويأمر الناس بإسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم إلى المرافق وأرجلهم إلى الكعبين ويمسحون برءوسهم كما أمرهم الله ، وأمر للصلاة لوقتها وإتمام الركوع والسجود والخشوع ، ويغلّس بالصبح ويهجِّر بالهاجرة حتى تميل الشمس ،

وصلاة العصر والشمس فى الأرض مُدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم فى السماء ، والعشاء أول الليل . وأمر بالسعى إلى الجمعة إذا نودى لها والغسْل عند الرواح إليها .

وأمره أن يأخذ من المغانم خمس الله ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ما سقى الغَرْبُ (الدلو) نصف العُشر ، وفى كل عشر من الإبل شاتان ، وفى كل عشرين أربع شياه ، وفى كل من الأربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعه ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ؛ فإنها فريضة الله التى افترض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ، وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يرد عنها ، وعلى كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو عوضه ثيابا .

فمن أدى ذلك فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منع ذلك فإنه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

١٦

كان الإسلام قد ملأ قلب قيلة بنت مَخْرِمة التميمية ، فخرجت تبغى الصحبة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فانتزع منها عم بناتها أثوب بن أزهر بناتها ، فبكت إحداهن وكانت حُديباء عليها قميص من صوف فرحمتها وذهبت بها .

وانطلق بهما الجمل يحثانه على السير السريع ، فإذا بأثوب يسعى وراءهما وقد سل سيفه ، فلجأتا إلى بيوت الوبر . واقتحمت قيلة أحد هذه البيوت لتختبئ به إلا أن أثوب أدركها بالسيف فأصابت ظُبَّتُه طائفة من قرون رأسها ، ثم قال لها فى حدة :

ــ ألق إلىَّ ابنة أخى .

فألقتها إليه فجعلها على منكبيه وذهب بها .

وخرجت قيلة إلى أخت لها ناكح فى بنى شيبان تبتغى الصحبة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فبينا هى عندها تحسب أنها نائمة ، إذ جاء زوج أختها من السامر فقال لها :

ــ وأبيك لقد وجدت لقيلة صاحب صدق .

ــ من هو ؟

ــ حريث بن حسان الشيبانى وافد بكر بن وائل عاويا ذا صياح .

ــ الويل لى ! لا تخبرها فتتبع أخا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها ، وليس معها أحد من قومها .

ــ لا ذكرته .

وسمعت قيلة ما قالا فغدت إلى جملها فشدت عليه ، ثم راحت تنشد حريث ابن حسان فوجدته غير بعيد ، فسألته الصحبة فقال :

ـــ نعم وكرامة .

وركابه مناخة عنده فانطلقا إلى مدينة الرسول على جناح الشوق . كان صاحب صدق قد شغل طوال الرحلة بالله فلم يكن قلبه ليهفو إلى سواه . وقدما على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يصلى بالناس صلاة الغداة قد أقيمت حين شق الفجر والنجوم شابكة فى السماء والرجال لا تكاد تعارف من ظلمة الليل ، فصفت قيلة مع الرجال وهى امرأة قريبة عهد بجاهلية ، فقال الرجل الذى يليها من الصف :

ـــ امرأة أنت أم رجل ؟

ـــ لا بل امرأة .

ـــ إنك كدت تفتنيننى فصلى فى النساء وراءك .

فإذا صف من نساء قد حدث عند الحجرات لم تكن رأته إذ دخلت فكانت فيهن . حتى إذا طلعت الشمس دنت فجعلت إذا رأت رجلا ذا رواء وبشر طمح إليه بصرها لترى رسول الله فوق الناس ، حتى جاء الرجل فقال :

ـــ السلام عليك يا رسول الله .

ـــ وعليك السلام ورحمة الله .

ونظرت إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فإذا أسمال مُليَّتين ، كانتا بزعفران قد نصل لونهما ، ومعه حسيب نخلة مقشور عنه خوصه غير خوصتين من أعلاه وهو قاعد القرفصاء ، فلما رأت رسول الله ـــ ﷺ ـــ متخشعا فى الجلسة أرعدت من الفرق ، فقال جليسه :

— يا رسول الله أرعدت المسكينة .

فقال رسول الله — ﷺ — ولم ينظر إليها وهى عند ظهره :

— يا مسكينة عليك السكينة .

فلما قالها — ﷺ — أذهب الله ما كان دخل قلبها من الرعب ، وتقدم حرث بن حسان الشيبانى أول رجل فبايع رسول الله على الإسلام عليه وعلى قومه ، ثم قال :

— يا رسول الله اكتب بيننا وبين تميم كتابا بالدهناء لا يجازوها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاور .

— يا غلام اكتب له بالدهناء .

فلما رأت قيلة أن رسول الله — ﷺ — أمر بأن يُكتب له ، انتابها قلق شديد فالدهناء وطنها ودارها فقالت :

— يا رسول الله إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء مَقيَّد الجمل ومرعى الغنم ، ونساء بنى تميم وأبناؤه وراء ذلك .

فقال — ﷺ — :

— أمسك يا غلام صدقت المسكينة ، المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفُتَّان .

فلما رأى حريث أن قد حيل دون كتابه قال :

— كنت أنا وأنت كما قال فى المثل : حتفَها تحمل ضأنٌ بأظلافها[1] .

فقالت لحريث :

---

(١) أصله أن رجلا وجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به ، فضربت أظلافها الأرض فظهر سكين فذبحها — يضرب لمن يوقع نفسه فى هلكة .

— أما والله ما علمت إن كنت لدليلا فى الظلماء ، جوادا لدى الرحل ، عفيفا عن الرفيقة ، حتى قدمنا على رسول الله — ﷺ — ولكن لا تلمنى أن أسأل حظى إذ سألت حظك .

— وأى حظ لك فى الدهناء ألا أبا لك ؟

— مُقيَّد جملى تريده لجمل امرأتك .

— لا جرم ، إنى أشهد رسول الله أنى لك أخ ما حييت إذا أثنيت علىَّ عنده .

فقالت :

— إذ بدأتها لن أضيعها .

فقال — ﷺ — :

— أيلام ابن هذه أن يفصل الخطة وينتصر من وراء الحجزة ؟

كان رسول الله — ﷺ — يقصد : إذا أصاب ولد هذه خطة ضيم فاحتج عن نفسه وعبر بلسانه ما يدفع به الظلم عنه لم يكن ملوما . وحرك ذكر ولدها أشجانها فبكت بكاء مرا ، ثم قالت وصورة ابنها تحتل صفحة رأسها :

— فقد والله ولدته يا رسول الله حراما ، فقاتل معك يوم الربذة ثم ذهب يمترى من خيبر ، فأصابته حمَّاها ومات .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لو لم تكونى مسكينة لجررناك على وجهك أيُغلب أحدكم على أن يصاحب صويحبه فى الدنيا معروفا ، فإذا حال بينه وبينه من هو أولى به استرجع ثم قال : رب آسنى لما أمضيت وأعنى على ما أبقيت . والذى نفسى بيده إن أحدكم ليبكى فيستعبر له صويحبه . فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم . ثم كتب لها فى قطعة أدم أحمر : « لقيلة والنسوة من بنات قيلة ألا يُظلمن حقا ولا يكرهن على منكح ، وكل مؤمن لهن نصير ، أحسنَّ ولا تسئن » .

١٧

قدم وفد الداريين على رسول الله — ﷺ — منصرفه من تبوك ، وهم عشرة نفر فيهم تميم ونعيم ابنا أوس بن خارجة بن مسعود بن جذيمة بن ذراع ابن عدى بن الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم ، ويزيد بن قيس بن خارجة ، والفاكه بن النعمان بن جبلة ، وجبلة بن مالك ، وأبو هند والطيب ابنا ذر ، فأسلموا وسمى رسول الله — ﷺ — الطيب عبد الله .

وأهدى هانئ بن حبيب لرسول الله — ﷺ — راوية خمر وأفراسا وقباء مخوصا بالذهب ، فقبل الأفراس والقباء وأعطاه العباس بن عبد المطلب فقال :

— ما أصنع به ؟

— ينزع الذهب فتحليه نساءك أو تستنفقه ، ثم تبيع الديباج فتأخذ ثمنه .

فباعه العباس من رجل من يهود بثمانية آلاف درهم .

وقال تميم :

— لنا جيرة من الروم لهم قريتان يقال لإحداهما حيرى والأخرى بيت عينون ، فإن فتح الله الشام فهبهما لى .

كان رسول الله — ﷺ — يقول إن الله سيفتح على المسلمين بلاد الشام وبلاد كسرى واليمن ، وكان المسلمون على ثقة من أن ذلك واقع لا ريب فيه .

فطلب تميم الدارى من رسول الله — ﷺ — تلكما القريتين وما كان عليه السلام يرد طلبا فقال :

— هما لك .

وجاء على بن أبى طالب وكتب فى قطعة من أدم مربعة دون الشبر ما أملاه عليه رسول الله — ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أنطا (أعطى) محمد رسول الله لتميم الدارى وإخوته : حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن ، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم . فمن آذاهم آذاه الله ، فمن آذاهم لعنه الله . شهد عتيق بن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكتب على بن أبى طالب وشهد .

وأوصى لهم رسول الله بأرض من خيبر تخرج مائة وسق ، وقد لزموا جوار رسول الله — ﷺ — يلقون إليه السمع لتشرق الأنوار فى قلوبهم وليحلّقوا مع نبى الحكمة حتى يقرعوا أبواب الملكوت .

وفى خلافة أبى بكر الصديق فتحت الشام فأُعطى خليفة رسول الله — ﷺ — تميم الدارى وإخوته حبرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن .

واستعمل رسول الله — ﷺ — قيس بن سعد بن عبادة على أربعمائة من المسلمين ودفع له لواء أبيض ، ودفع له راية سوداء ، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء . فقدم على رسول الله — ﷺ — رجل منهم وعلم بالجيش ، فأتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله جئتك وافدا على من ورائى فاردد الجيش وأنا لك بقومى .

فرد رسول الله — ﷺ — جيش قيس بن سعد ، وخرج الصدائى إلى قومه فقدم على رسول الله — ﷺ — بأولئك القوم ، فقال سعد بن عبادة :

— يا رسول الله دعهم ينزلون علىّ .

فنزلوا عليه فأعطاهم وأكرمهم وكساهم ، ثم ذهب بهم إلى النبى —

ﷺ — فبايعوه على الإسلام وقالوا له :

— نحن لك على من وراءنا من قومنا .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى زياد بن الحارث الصدائى الذى كان سببا فى رد جيش المسلمين وإسلامه قومه ، وقال له :

— يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك .

— بل الله هداهم للإسلام .

— أفلا أؤمّرك عليهم ؟

— بلى يا رسول الله .

فكتب له كتابا بذلك فقال زياد :

— يا رسول الله مر لى بشىء من صدقاتهم .

— نعم .

فكتب له كتابا آخر وكان معه فى بعض أسفاره ، وكان زياد رجلا قويا فلزم ركاب رسول الله — ﷺ — وجعل أصحابه يتفرقون عنه فلما كان السحر قال — ﷺ :

— أذّن يا أخا صداء .

فأذن على راحلته ثم ساروا حتى نزلوا ، فقال — ﷺ :

— يا أخا صداء هل معك ماء ؟

— معى شىء فى أداوتى (إناء جلد صغير) .

— صب .

وصب الصدائى وتوضأ رسول الله — ﷺ — ثم جاء بلال يقيم الصلاة فقال رسول الله — ﷺ :

— إن أخا صداء أذّن ومن أذّن فهو يقيم .

فأقام زياد وصلى رسول الله — ﷺ — بالمسلمين ، فلما سلم من صلاته قام رجل يشكو من عامله فقال :

— يا رسول الله — ﷺ :

— لا خير فى الإمارة لرجل مسلم .

ثم قام رجل آخر فقال :

— يا رسول الله أعطنى من الصدقة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلى ملك مقرب ولا نبى مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن .

فقال زياد الصدائى :

— يا رسول الله هذان كتاباك .

— لم ؟

— سمعتك تقول : لا خير للإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم . وسمعتك تقول : من سأل الصدقة وهو عنها غنى فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن .

— أما إن الذى قلت كما قلت .

وساد الصمت بينهما مدة ، ثم قال رسول الله لزياد :

— دلنى على رجل من قومك أستعمله .

فدله على رجل منهم فاستعمله .

١٨

كانت الوفود تأتى من الشمال ومن الجنوب فتعيد إلى رءوس صحابة رسول الله ــ ﷺ ــ الذكريات ، فوفود الشمال ذكرت شجاع بن وهب برحلته المثيرة إلى دمشق يوم أن بعثه رسول الله ــ ﷺ ــ بكتابه إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى . إنه يرى بعين خياله وهو جالس فى مسجد الرسول بالمدينة غوطة دمشق بأشجارها الباسقة وجناتها التى تسر العيون ، ويكاد أن يشم عبيرها الأخاذ .

إنه يرى نفسه وقد انتهى إلى باب الحارث بن أبى شمر فأقام يومين ، فقال لحاجبه :

ــ إنى رسول رسول الله ــ ﷺ ــ إليه .

ــ لا تصل إليه حتى يخرج يوم الاثنين .

وتذكر ذلك الحوار المثير الذى جرى بينه وبين حاجب الحارث . إنه يسأله عن رسول الله ــ ﷺ ــ وما يدعو إليه ، وهو يحدثه فى انفعال فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول :

ــ إنى قرأت فى الإنجيل وأجد صفة هذا النبى بعينه فكنت أراه يخرج بالشام ، فأراه قد خرج بأرض القرظ (ثمر السلم) فأنا أومن به وأصدقه ، وأنا أخاف من الحارث بن أبى شمر أن يقتلنى .

وراح شجاع يتذكر ما فعله الحاجب . إنه أكرمه وأحسن ضيافته وأخبره عن الحارث باليأس منه ويقول :

— وهو يخاف قيصر .

ورأى شجاع نفسه يوم أن خرج الحارث وجلس وعلى رأسه التاج وأذن له عليه . إنه قدم إليه كتاب رسول الله — ﷺ — ثابت الجنان ، فلما قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق . وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملك » . اربد وجهه ورمى بالكتاب ثم قال فى غضب شديد :

— من ينزع منى ملكى ؟! أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته . علىّ بالناس :

ورأى شجاع نفسه وهو يخرج من القصر مرفوع الرأس وقد لوى شفته السفلى سخرية من ذلك المغرور الذى غره بالله الغرور ، فلم يزل الحارث جالسا يعرض عليه حتى الليل ، وأمر بالخيل أن تنعل ، ثم أمر بإدخال شجاع ابن وهب فقال له :

— أخبر صاحبك بما ترى .

وكتب إلى قيصر يخبره الخبر ، وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبى بعثه إليه رسول الله — ﷺ — فلما رأى قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تسر إليه ولا تذكره ، واشتغل بإيلياء .

فراح الحارث بن أبى شمر الغسانى يهيئ لقيصر الإنزال ببيت المقدس ، فإنه نذر المشى من حمص إلى بيت المقدس ماشيا شكرا لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس وأظهر الله الروم على فارس .

وجعل الحارث يفرش له بسطا وينثر عليها الرياحين . وهرقل يمشى عليها وشجاع بن وهب يمد عينيه إلى ذلك البذخ وهو فى دهشة من أمر الناس الذين

اشتروا آخرتهم بدنياهم . ورأى شجاع نفسه وهو يدخل على الحارث قبل أن يعود إلى رسول الله — ﷺ ، ورن فى وجدانه صوت الحارث وهو يقول له :

— متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟

— غدا .

فأمر له بمائة مثقال ذهبا ، ووصله حاجبه بنفقة وكسوة وقال له :

— اقرأ على رسول الله — ﷺ — منى السلام وأخبره أنى متبع دينه .

وتزاحمت الذكريات فى رأس شجاع بن وهب . إنه لم يبعث إلى الحارث ابن أبى شمر وحده بل بعث إلى جبلة بن الأيهم أيضا ، فهو يرى بوضوح ذلك اليوم الذى دخل فيه على جبلة ، وإنه ليذكر كل كلمة خرجت من بين شفتيه لكأنما قد حفرت فى عين ذاته :

— يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبى من داره إلى دارهم فآووه ومنعوه ونصروه ، وإن هذا الدين الذى أنت عليه ليس بدين آبائك ، ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس . فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة . وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع والأذان بالناقوس والجُمَع بالشعانين ، وكان ما عند الله خير وأبقى .

— إنى والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبى اجتماعهم على من خلق السماوات والأرض ، وقد سرنى اجتماع قومى له ، وقد دعانى قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فأبيت عليه ، ولكنى لست أرى حقا ولا باطلا وسأنظر .

وارتفعت الأصوات خارج مسجد الرسول ، فقال رسول الله — ﷺ — لأصحابه :

— يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذى يمن ، على وجهه مسحة ملك .

فطلع جرير بن عبد الله البجلى على راحلته ومعه من قومه مائة وخمسون رجلا . ودخل جرير مسجد الرسول ليعلن على الملأ إسلامه وإسلام قومه ، فبسط رسول الله — ﷺ — يده فبايعه وقال :

— على أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأنى رسول الله ، ثم تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم شهر رمضان ، وتنصح للمسلم ، وتطيع الوالى وإن كان عبدا حبشيا .

— نعم .

فبايعه عليه السلام وسأله عن منزله ببيشة وهى قرية غناء فى واد كثير الأهل من بلاد اليمن ، فقال جرير :

— سهل ودكداك[1] ، وسَلم وأراك ، وحمض وعَلاك ، إلى نخلة ونخلة ، ماؤها ينبوع ، وشتاؤها ربيع .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن خير الماء الشَّبِم ، وخير المال الغنم ، وخير المرعى الأراك .

* * *

وشرد عياش بن أبى ربيعة وتذكر يوم بعثه رسول الله — ﷺ — إلى بنى عبد كُلال ، إنه عليه السلام قال له :

— خذ كتابى بيمينك وادفعه بيمينك فى أيمانهم ، فهم قائلون لك : اقرأ . فاقرأ : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين »[2] .

---

(١) الدكداك : ما تلبد من الرمل بالأرض ولم يرتفع كثيرا . الأراك : شجر له حمل كعناقيد العنب . والحمض : كل نبت فى طعمه حموضة . والعلاك : شجر ينبت بناحية الحجاز .

(٢) سورة البينة الآية (١) .

فإذا فرغت منها فقل : آمن محمد وأنا أول المؤمنين ، فلن تأتيك حجة إلا وقد دحضت ، ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره وح لونه ، وهم قارئون فإذا رطنوا فقد ترجموا فقل : حسن ، آمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله . فإذا أسلموا فسلهم قُضبهم الثلاثة التى إذا تخصروا بها سُجد لهم وهى الأتل قضيب ملَمع ببياض ، وقضيب ذو عجز كأنه من الخيزران ، والأسود البهيم كأنه من ساسم[1] اخرج بها فحرقها فى سوقهم .

وانثالت على رأس عمرو بن العاص ذكريات تلك الأيام التى بعثه فيها رسول الله — ﷺ — بكتابه إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ملكى عُمان . إنه خرج حتى انتهى إلى عُمان فعمد إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقال :

— إنى رسول رسول الله — ﷺ — إليك وإلى أخيك .

— أخى المقدم علىّ بالسن والملك ، وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك ، وما تدعو إليه ؟

— أدعوك إلى الله وحده ، وتخلع ما عُبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله .

— يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك ؟ فإن لنا فيه قدوة .

— مات ولم يؤمن بمحمد — ﷺ — ووددت له لو كان آمن وصدق . وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام .

— فمتى تبعته ؟

— قريبا .

---

(١) ساسم : أبنوس .

ـــ أين كان إسلامك ؟

ـــ عند النجاشي والنجاشي قد أسلم .

ـــ فكيف صنع قومه بملكه ؟

ـــ أقروه واتبعوه .

ـــ والأساقفة والرهبان ؟

ـــ نعم .

ـــ انظر يا عمرو ما تقول ، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب .

ـــ وما كذبت وما نستحله فى ديننا .

ـــ وما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى .

ـــ بلى .

ـــ بأى شىء علمت ذلك يا عمرو ؟

ـــ كان النجاشى يخرج له خراجا . فلما أسلم النجاشى وصدق بمحمد ـــ ﷺ ـــ قال : لا والله ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته . فبلغ هرقل قوله فقال له أخوه : أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين دينا محدثا ؟ فقال هرقل : رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع .

ـــ انظر ما تقول يا عمرو .

ـــ والله صدقتك .

ـــ فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه .

ـــ يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ، ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وشرب الخمر وعن عبادة الحجر والوثن

والصليب .

— ما أحسن هذا الذى يدعو إليه . لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن لمحمد ونصدق به ، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا .

— إنه إن أسلم ملكه رسول الله — ﷺ — على قومه ، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم .

— إن هذا الخلق حسن . وما الصدقة ؟

فراح عمرو بن العاص يخبره بما فرض على المسلمين من الصدقات فى الأموال . ولما ذكر المواشى قال عبد :

— يا عمرو ، ويأخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه ؟

— نعم .

— والله لا أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا .

ومكث عمرو بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبره ، ثم إنه دعاه فدخل عليه فأخذ أعوانه بعضدى عمرو ، قال :

— دعوه .

فأرسل فذهب ليجلس ، فأبوا أن يدعوه يجلس فنظر إلى جيفر فقال :

— تكلم بحاجتك .

فدفع إليه كتاب رسول الله — ﷺ — فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام . أسلما تسلما . إنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » . فدفعه إلى أخيه فقرأه ثم

قال جيفر :

ـــ ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟

ـــ تبعوه إما راغب فى الدين وإما راهب مقهور بالسيف .

ـــ ومن معه ؟

ـــ الناس قد دخلوا فى الإسلام واختاروه على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين ، فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطؤك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال .

ـــ دعنى يومى هذا وارجع إلىّ غدا .

فلما كان الغد أتى إليه عمرو فأبى أن يأذن له ، فرجع إلى أخيه فأخبره أنه لم يصل إلى جيفر ، فأوصله إليه فقال جيفر :

ـــ إنى قد فكرت فيما دعوتنى إليه ، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لا تبلغ خيله ههنا وإن بلغت خيله ألقت قتالا ليس كقتال من لاقى .

فقال عمرو مهددا :

ـــ وأنا خارج غدا .

فلما أيقن بمخرجه خلا به أخوه ، فأصبح فأرسل إلى عمرو فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم بما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

* * *

وشرد سليط بن عمرو العامرى يفكر فى ذلك اليوم الذى انطلق فيه إلى اليمامة يحمل كتاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة .

إنه أنزله وحياه وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن على . سلام على من اتبع الهدى . واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر . فأسلم تسلم ، واجعل لى ما تحت يديك » . ودار حوار بين سليط وبين هوذة ؛ قال سليط لما رأى تردده فى قبول ما جاء به :

— يا هوذة ، إنه كسرى الذى يحول بينك وبين الهدى إنه سودك على قومك . إنما السيد من تمتع بالإيمان ثم تزود بالتقوى ، وإن قوما سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا أمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهى عنه . آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان . فإن فى عبادة الله الجنة وفى عبادة الشيطان النار . فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت . وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهول المطلع .

— يا سليط سودنى من لو سودك تشرفت به ، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور فقدته ، فاجعل لى فسحة ليرجع إلى رأيى فأجيبك به .

وكتب إلى النبى — ﷺ : « ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله ، وأنا شاعر قومى وخطيبهم والعرب تهاب مكانى ، فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك » . وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر .

وكان عند هوذة عظيم من عظماء النصارى حين قرأ كتاب النبى — ﷺ فقال له :

— لم لا تجيبه ؟

— أنا ملك قومى ، ولئن اتبعته لم أملك .

— بلى والله لئن اتبعته ليملكنك وإن الخيرة لك فى اتباعه ، وإنه النبى العربى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وإنه المكتوب عندنا فى الإنجيل .

وقدم سليط على النبى فأخبره بما كان بينه وبين هوذة . وقرأ النبى — ﷺ — كتابه وقال :

— لو سألنى سبابة (قطعة من الأرض) ما فعلت ، باد وباد ما فى يديه .

فلما انصرف رسول الله — ﷺ — من الفتح جاءه جبريل عليه السلام فأخبره بأن هوذة قد مات . فقال — ﷺ — :

— أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ ، يقتل بعدى .

فقال خالد بن الوليد :

— يا رسول الله من يقتله ؟

— أنت وأصحابك .

ذكريات هيجتها الوفود الغادية من الشمال ومن الجنوب ومن كل فج عميق من بلاد العرب ، ووحى ينزل على الرسول صلوات الله وسلامه عليه من فوق سبع سموات يتوج تلك الوفود التى جاءت طائعة لتعلن على الملأ شهادة الحق المبين ، يقول الله تبارك وتعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا . »[١] .

---

(١) سورة النصر .

التذييل

كانت الهجرات تتوالى من اليمن إلى الأراضى التى حولها ، فقد كانت اليمن مخزنا بشريا يفيض على من حوله . وقد هاجرت إلى بلاد ما بين النهرين (العراق) بعض القبائل اليمنية تحمل معها اللغة العربية وعبادة الشمس والقمر والكواكب .

وفى مدينة أور التى كانت عند مصب نهر دجلة استقر أجداد إبراهيم الخليل عليه السلام ، وولد خليل الرحمن فى عهد والد حمورابى من أسرة عربية لسانها عربى ؛ فلم يكن عليه السلام أعجميا كما زعم بعض الذين أرخوا لتلك الحقبة من المؤرخين الإسلاميين .

وأرسل الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام ليدعو قومه إلى عبادة الله وحده فكان يدعوهم بلسان عربى ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(١) . فلما اضطهد وعذب وألقى فى النار هاجر ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى الشام . ولم يطل به المقام فقد ذهب إلى مصر وأهدى إليه هاجر فتزوجها وولدت له إسماعيل ، وولدت له سارة إسحاق . وكان إسماعيل وإسحاق يتكلمان العربية ولا ريب لغة الأب والقوم .

واستقر إسماعيل وهاجر عند بئر زمزم فى أرض العرب ، ونزل إسحاق فى حبرون فى أرض الشام . وجاء يعقوب هو إسرائيل . وكان ليعقوب اثنا عشر

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

ولدا : رأوبين وشمعون ولاوى ويهوذا ودانا ونفتالى وجادا وأشير ويشّاكر وزوبولون ويوسف وبنيامين .

وإن القرآن العظيم يقرر أن إبراهيم خليل الرحمن هو الذى سمى أتباعه بالمسلمين « ... ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »[١] . وأن إسحاق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط كانوا مسلمين . « لا إله إلا الذين آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين »[٢] . « قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰها واحدا ونحن له مسلمون »[٣] .

وكان يعقوب وأبناؤه فى فلسطين فى حبرون مهاجرين ، وقد عاشوا بين الكنعانيين وكانت العبرية لسان الكنعانيين وما كانت أكثر من لهجة من اللهجات العربية . وقد كان من الميسور التفاهم بين القادمين من أرض الكلدانيين والمقيمين فى أرض فلسطين بين الوافدين وأصحاب الأرض الحقيقيين .

وحدث أن كاد إخوة يوسف لأخيهم الأثير عند أبيه فألقوه فى بئر ، وجاءت قافلة من قوافل بنى إسماعيل المنطلقة إلى مصر وأنقذوا يوسف وباعوه لعزيز مصر . وشب يوسف فى قصر من قصور مصر فتعلم ولا ريب لغة قدماء المصريين ونبغ فيها حتى أصبح وزير الخزانة فى الدولة المصرية القديمة . وجاء يعقوب (إسرائيل) إلى مصر مع أبنائه وذريتهم وعاش بنو إسرائيل مئات السنين بين المصريين فكان لسانهم لسان قدماء المصريين ، فقد كانوا يعملون

---

(١) سورة الحج الآية (٧٨) .

(٢) سورة يونس الآية (٩٠) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٣٣) .

فى مزارع فرعون ويعيشون بين قوم يتحدثون بلغة الفراعين .

وأصبحت لغة بنى إسرائيل لغة قدماء المصريين بحكم طول المدة التى عاشوها فى دلتا النيل . وولد موسى عليه السلام فى أرض مصر وألقته أمه فى اليم والتقطته زوجة فرعون فربى فى القصر الفرعونى وشب لا يعرف لغة غير لغة المصريين . وقد لقب بالأمير فهو أمير فرعونى النشأة فرعونى اللسان لم يعرف اللغة العبرية ، و لم يكن بنو إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ يوسف الصديق إلى موسى عليه السلام يعرفون عن العبرية شيئا .

وكان موسى عليه السلام من نسل لاوى ، ولما كان اليهود من نسل يهوذا فلم يكن موسى يهوديا ، وإنه من الخطأ التاريخى أن ينسب موسى عليه السلام إلى اليهود . كما أنه من أكبر الخطأ أن يقال إن إبراهيم كان يهوديا فلا يجوز أن ينسب الجد إلى الحفيد . وقد جادل اليهود النبى — ﷺ — فى هذه الحقيقة فجاء القرآن العظيم ودحض زعم اليهود ، وإن ما قرره القرآن هو عين الحقيقة التاريخية : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون. ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين »(١) .

وشب موسى عليه السلام فى كنف البيت الفرعونى لسانه لسانهم ، وحتى إذا كان على صلة ببنى إسرائيل فلسانهم هو لسان قدماء المصريين الذين عاشوا بينهم أكثر من أربعمائة سنة وما كانوا قد عرفوا بعد العبرية التى كانت لسان

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٦٥ — ٦٨) .

الكنعانيين سكان فلسطين .

وفر موسى عليه السلام من أرض مصر إلى مدين فى بلاد العرب ، فإذا كان قد تعلم لغة غير لغة الفراعين فهى لغة أهل مدين وليست العبرية لغة الكنعانيين ، ثم عاد بعد سبع سنين إلى مصر بعد أن أوحى إليه فى الوادى المقدس طوى بسيناء وأمره ربه أن يذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده . ومما لا شك فيه أن موسى كان يحاور فرعون ووزراءه ورجال قصره بلسانهم فهو قد شب فيهم وتربى على أيديهم .

وخرج موسى ببنى إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ أن جاءوا أيام يوسف الصديق إلى يوم الخروج ، وهى فترة تزيد على أربعمائة سنة اكتسبوا فيها اللسان المصرى القديم ، ولما كان الله يبعث الرسل بألسنة الأقوام الذين يرسلون إليهم فقد كانت أوامر الله ونواهيه التى أرسلها إلى بنى إسرائيل على لسان موسى عليه السلام باللسان المصرى القديم .

وبقى موسى عليه السلام وبنو إسرائيل فى أرض سيناء أربعين سنة ليست لهم لغة غير اللغة المصرية القديمة . ومات موسى فى أرض التيه قبل أن يدخل بنو إسرائيل فلسطين . وقبل أن يتكلموا العبرية لغة الكنعانيين أهل البلاد كما تكلموا من قبل اللغة المصرية القديمة لغة المصريين الذين مكثوا فيهم مئات السنين ، وما دام موسى عليه السلام وقومه لم يعرفوا العبرية فمن أين كتبت التوراة بالعبرية ومتى كان ذلك التدوين ؟ إن التوراة التى بين أيدينا ، توراة المنفى وهى سجل تاريخ بنى إسرائيل واليهود لا أكثر ولا أقل توضح ذلك وتجيب عنه .

وقبل أن أناقش الإصحاحات التى تروى سبى بنى إسرائيل واليهود وحملهم إلى بابل بعد أن حرق بختنصر التوراة وقوض الهيكل ، أحب أن أوضح

الفرق بين بنى إسرائيل وبين اليهود .

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل وقد أنجب اثنى عشر رجلا ، وقد عرف أبناء هؤلاء الرجال بالأسباط ، فالأسباط جميعا بنو إسرائيل . أما اليهود فهم نسل يهوذا الابن الرابع لإسرائيل ، فهم سبط واحد من الأسباط الاثنى عشر. وقد بدأت التفرقة بين بنى إسرائيل واليهود لما تولى داود وسليمان عليهما السلام ملك بنى إسرائيل فقد كانا من نسل يهوذا . ولما كان الملك فى إسرائيل أعظم من النبوة فقد ملأ الزهو سبط يهوذا وبدأ اليهوذيون يفضلون أنفسهم على بنى إسرائيل جميعا ، فانقسمت دولة إسرائيل بعد داود وسليمان عليهما السلام إلى دولتين : دولة إسرائيل ودولة اليهودية . ومنذ ذلك الوقت عرفت اليهودية وما كانت معروفة أيام داود وسليمان عليهما السلام ، وإن كان توليهما الملك هو سبب نشأة ذلك الانقسام .

ونشبت العداوة بين أشور ومصر وكانت إسرائيل تستمد سلطانها من ملك مصر ، فمشى ملوك آشور إلى إسرائيل وحاربوا بنى إسرائيل واليهود الخاضعين لفرعون مصر . وكانوا يحملون الأسرى إلى بابل ويسلخون جلودهم وهم أحياء ويصنعون أهراما من جماجم رءوسهم .

وكان بعض ملوك إسرائيل أو اليهودية يتأرجحون بين ملك آشور وملك مصر ، فكان ملك مصر يعزل ملك إسرائيل الذى تبدو الخيانة من تصرفاته ، ولنقرأ ذلك فى التوراة سجل تاريخ بنى إسرائيل واليهود : « وأخذ شعب الأرض يوآحاز بن يوشيا وملكوه عوضا عن أبيه فى أورشليم . كان يوآحاز ابن ثلاث وعشرين سنة حين ملك ، وملك ثلاثة أشهر فى أورشليم وعزله ملك مصر فى أورشليم وغرم الأرض بمائة وزنة من الفضة وبوزنة من الذهب ، وملَّك ملك مصر الياقيم أخاه على يهوذا وأورشليم وغير اسمه إلى يهوياقيم . وأما

يوآخاز أخوه فأخذه نَخُو وأتى به إلى مصر » .

من هذا الإصحاح يتضح أن نخو فرعون مصر كان المسيطر على إسرائيل واليهودية ، وأنه عزل ملك أورشليم وأخذه أسيرا إلى مصر وولى أخاه مكانه ، أى أن أثر مصر فى إسرائيل واليهودية كان لا يزال باقيا حتى تلك الأيام وهى الأيام التى سبقت هجوم بختنصر على إسرائيل وحمل بنى إسرائيل إلى بابل أرض السبى ؛ فلا غرابة إذا ما ظهر أثر الديانة المصرية القديمة فى التوراة التى كتبت فى المنفى ، بل ان الأمر كان سيكون غريبا لو لم يظهر تأثير تلك الديانة والمعتقدات الفرعونية .

« كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك احدى عشرة سنة فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب إلهه » . ولنقف هنا قليلا لنقول إن كتّاب التوراة لا يذكرون عمل الشر فى عينى الرب إلا كان ذلك إيذانا بأن الملك ستحيق به هزيمة ، فهم لا يفزعون من عمل الشر بل ترتعد فرائصهم من الهزيمة ولا يجدون لذلك تعليلا إلا عصيان رب ، فالعبادة عندهم لإطالة العمر والنصر فى الحرب . فما دامت الحرب قد انتهت بالهزيمة فذلك قرينة على أن الملك قد عمل الشر فى عينى الرب ، فالصلة عندهم بين العبد وربه صلة أرضية ما داموا لا يؤمنون ببعث أو نشور .

ولنقرأ معا باقى الإصحاح لنرى أن كتّاب التوراة كانوا منطقيين مع فسلفتهم و لم يغيروا أسلوب تفكيرهم ، فقد نزلت بيهوياقيم شر هزيمة بل أكبر نكبة أصابت إسرائيل واليهودية : « عليه صعد نبوخذناصَّر ملك بابل وقيده بسلاسل نحاس ليذهب به إلى بابل . وأتى نبوخذناصر ببعض آنية بيتْ الرب إلى بابل وجعلها فى هيكله فى بابل » .

وكما فعل نخو فرعون مصر فعل بختنصر (نبوخذناصر) ملك بابل ، فإنه ولّى يهوياكين ملك إسرائيل واليهودية مكان أبيه : « وكان يهوياكين ابن ثمانى سنين حين ملك ، وملك ثلاثة أشهر وعشرة أيام فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب . وعند رجوع السنة أرسل الملك نبوخذناصر فأتى به إلى بابل مع آنية بين الرب الثمينة . وملّك صدقيا أخاه على يهوذا وأورشليم . كان صدقيا ابن إحدى وعشرين سنة حين ملك وملك إحدى عشرة سنة فى أورشليم وعمل الشر فى عينى الرب إلٰهه و لم يتواضع أمام أرميا النبى من فم الرب . وتمرد أيضا على الملك نبوخذناصر الذى حلّفه بالله وصلّب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إلٰه إسرائيل . حتى إن جميع رؤساء الكهنة والشعب أكثروا الخيانة حسب كل رجاسات الأمم ونجسوا بيت الرب الذى قدسه فى أورشليم ، فأرسل الرب إلٰه آبائهم إليهم عن يد رسله مبكرا ومرسلا لأنه مشفق على شعبه ومسكنه . فكانوا يهزءون برسل الله ورذلوا كلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء . فأصعد عليهم ملك الكلدانيين فقتل مختاريهم بالسيف فى بيت مقدسهم ، و لم يشفق على فتى أو عذراء ولا على شيخ أو أشيب بل دفع الجميع ليده ، وجمع آنية بيت الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه وأتى بها جميعا إلى بابل ، وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة ، وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدا . إلى أن ملكت مملكة فارس لإكمال كلام الرب بفم أرميا حتى استوفت الأرض سبوتها لأنها سبتت فى كل أيام خرابها لإكمال سبعين سنة » .

كانت العداوة ناشبة بين بابل ومصر ، وكانت فلسطين الجسر الذى يعبره كل من الطرفين إلى الآخر ، فإذا رأى فرعون مصر عواطف ملك إسرائيل

ويهوذا مع عدوه وأتيحت له الفرصة أن يخلع ذلك المرائى كان يتردد فى خلعه ، وإذا رأى ملك بابل عواطف ملك إسرائيل ويهوذا مع عدوه فما كان يتردد فى أن يسير بجيوشه ليؤدب ذلك الذى يناصر أعداءه . وكان بختنصر يعلم علم اليقين أن هوى إسرائيل كان مع مصر فمشى بجيوشه ودك هيكل سليمان وحرق جميع نسخ التوراة وهدم سور أورشليم وحمل آنية الذهب والفضة إلى هيكل مردوخ فى بابل بأرض العراق .

إنه قسم سكان إسرائيل ويهوذا إلى ثلاث فرق : فرقة أبادها بالسيف ، وفرقة حملها أسرى إلى بابل وكان أبناء الأنبياء فى هذه الفرقة والأنبياء فى بنى إسرائيل كانت لهم مدارس يتلقون فيها شرح التوراة والشعر والموسيقى وكانوا أقرب إلى العرافين المتنبئين وكانت تنبؤاتهم تصدق أحيانا وكثيرا ما كان يتجنبها التوفيق ، وفرقة من الشيوخ والعجائز تركها بأرض فلسطين .

وكان لسان الذين حملوا إلى بابل عبريا فقد عاش بنو إسرائيل منذ خرجوا من مصر بين الكنعانيين مئات السنين فأخذوا عنهم لغتهم ، وفى المنفى دونوا بها توراتهم فعرفت اللغة العبرية بأنها لغة العبرانيين . ونسى الناس أصحابها الأولين ولم يكتفوا بنسبة لغة الكنعانيين إليهم ظلما وعدوانا بل حاولوا أن يسخروا التوراة التى كتبوها فى أرض السبى ليسلبوا أرض فلسطين فوضعوا على لسان ربهم وعودا ما أنزل الله بها من سلطان ، فقد كان ربهم يكافئهم على كفرانهم بتوكيد الوعد المزعوم . وما من سفر من أسفار التوراة قد خلا من وعد إلـٰه إسرائيل شعب إسرائيل بأرض فلسطين حتى إن تكرار الوعد قد حمل فى طياته التشكيك فيه .

إن موسى لم يعرف العبرية وكذلك لم يعرفها بنو إسرائيل الذين عاشوا فى مصر منذ جاءوا فى عصر يوسف الصديق إلى أن خرجوا مع موسى عليه

السلام . وقد نزلت التوراة على موسى وإنه لأمر بديهى أن تنزل بلسان القوم : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[١] . وعلى ذلك كانت التوراة التى نزلت على موسى باللغة المصرية القديمة ولا صلة بينها وبين التوراة العبرية ، اللهم إلا إذا بقى فى الصدور بعض وصايا موسى وأصداء من أوامره ونواهيه .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى هم أبناء الأنبياء الذين كانوا يتلقون الشريعة الموسوية ويتعلمون الموسيقى والشعر فى مدارس الرامة وبيت إيل وأريحة والجلجال ، وهم عزير (عزرا) ونحميا ودانيال . وقد احتوت التوراة سفرا عن عزرا وآخر عن نحميا وثالث عن دانيال وجاء سفر عزرا عقب سفر أخبار الأيام الثانى .

وافتتح سفر عزرا بمباركة تولية كورش مُلك فارس وانتصاره على الكلدانيين ، لأن كورش كان قد آمن بدعوة زرادشت ، واحتراما للدين الموسوى وافق على عودة بنى إسرائيل واليهود إلى أورشليم وإعادة بناء الهيكل .

« وفى السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم أرميا نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداء فى كل مملكته وبالكتابة أيضا قائلا : هكذا قال كورش ملك فارس . جميع ممالك الأرض دفعها إلى الرب إلـٰه السماء وهو أوصانى أن أبنى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا . من منكم من كل شعبه ليكن إلـٰهه معه ويصعد إلى أورشليم التى فى يهوذا فيبنى بيت الرب إلـٰه إسرائيل هو الإلـٰه الذى فى أورشليم ، وكل من بقى فى أحد الأماكن حيث هو متغرب فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب وبأمتعة وببهائم مع التبرع

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

لبيت الرب الذى فى أورشليم .

فقام رءوس آباء يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويون مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا ليبنوا بيت الرب الذى فى أورشليم ، وكل الذين حولهم أعانوهم بآنية فضة وبذهب وبأمتعة وبيهائم وبتحف فضلا عن كل ما تبرع به » .

وسواء أكان الملك قورش قال ذلك القول أم كان من وضع الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، فإنهم قد اعترفوا بأن للأميين إلـٰها وما كانوا يعترفون إلا بإلٰه إسرائيل الذى فى أورشليم ، وهو اعتراف يهدم دعواهم بأنهم وحدهم الناس وأنهم شعب الله المختار .

وكانت آنية الذهب والفضة شغل الذين كتبوا التوراة ، فالذهب فى حقيقة الأمر هو معبود إسرائيل وقد كان أهم سبب لتقديس هيكل سليمان ما فيه من ذهب نضار ؟ « والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التى أخرجها نبوخذناصر من أورشليم وجعلها فى بيت آلهته . وأخرجها كورش ملك فارس عن يد متردادت الخازن وعدها لشيشبصَّر رئيس يهوذا . وهذا عدَّدها : ثلاثون طستا من ذهب وألف طست من فضة وتسعة وعشرون سكينا وثلاثون قدحا من ذهب وأقداح فضة من الرتبة الثانية أربعمائة وعشرة وألف من آنية أخرى . جميع الآنية من الذهب والفضة خمسة آلاف وأربعمائة والكل أصعده شيشبصَّر عند إصعاد السبى من بابل إلى أورشليم » .

بدأ الإصحاح الأول من سفر عزرا بأن رب السماء أوحى إلى قورش ملك فارس بأن ينى له بيتا فى أورشليم التى فى يهوذا ، وأنه أصدر كتابا بذلك ، ولكن الإصحاحات التالية تزعزع ذلك الزعم ، فأكاسرة الفرس كانـوا يعارضون إعادة بناء الهيكل أشد معارضة : « وفى السنة الثانية من مجيئهم

إلى بيت الله إلى أورشليم فى الشهر الثانى شرع زربابل بن شألتئيل ويشوع بن يوصاداق وبقية إخوتهم الكهنة واللاويين وجميع القادمين من السبى إلى أورشليم ، وأقاموا اللاويين من ابن عشرين سنة فما فوق للمناظرة على عمل بيت الرب ، ووقف يشوع مع بنيه وإخوته قدمئيل وبنيه بنى يهوذا معا للمناظرة على عاملى الشغل فى بيت الله ، وبنى حيناداد مع بنيهم وإخوتهم اللاويين ، ولما أسس البانون هيكل الرب أقاموا الكهنة بملابسهم بأبواق واللاويين بنى أساف بالصنوج لتسبيح الرب على ترتيل داود ملك إسرائيل . وغنوا بالتسبيح بالحمد للرب لأنه صالح ، لأن إلى الأبد رحمته على إسرائيل ، وكل الشعب هتفوا هتافا عظيما بالتسبيح للرب لأجل تأسيس بيت الرب ، وكثيرون من الكهنة واللاويين ورءوس الآباء الشيوخ الذين رأوا البيت الأول بكوا بصوت عظيم عند تأسيس هذا البيت أمام أعينهم ، وكثيرون كانوا يرفعون أصواتهم بالهتاف بفرح . ولم يكن الشعب يميز هتاف الفرح من صوت بكاء الشعب لأن الشعب كان يهتف هتافا عظيما حتى إن الصوت سمع من بعيد .

ولما سمع أعداء يهوذا وبنيامين أن بنى السبى يبنون هيكلا للرب إلٰه إسرائيل تقدموا إلى زربابل ورءوس الآباء وقالوا لهم نبنى معكم لأننا نظيركم نطلب إلٰهكم وله قد ذبحنا من أيام أسر حدون ملك أشور الذى أصعدنا إلى هنا . فقال لهم زربابل ويشوع وبقية رءوس إسرائيل : ليس لكم ولنا أن نبنى بيتا لإلٰهنا ، ولكننا نحن وحدنا نبنى للرب إلٰه إسرائيل كما أمرنا الملك كورش ملك فارس . وكان شعب الأرض يرخون أيدى شعب يهوذا ويذعرونهم عن البناء ، واستأجروا ضدهم مشيرين ليبطلوا مشورتهم كل أيام كورش ملك فارس وحتى ملك داريوس ملك فارس » .

ألا يبدو غريبا أن أناسا يأتون إلى بنى إسرائيل ويشهدون أنهم آمنوا بإلٰه إسرائيل وأنهم ذبحوا له ثم يتطوعون لبناء هيكل الرب فيرفض بنو إسرائيل ذلك ؟

إنه شيء غريب لو قسناه بمنطق أصحاب الديانات الذين يرحبون بدخول الناس فى الدين الذى يؤمنون به ، ولكن بنى إسرائيل يرون أنهم وحدهم الناس وأن الرب إنما هو إلٰههم وحدهم فهو قد اصطفاهم لنفسه شعبا مختارا ، لهم وحدهم الرحمة ، فكيف يرضون بإشراك غيرهم فى هذا الامتياز ؟ فأغلقوا أبواب رحمة الله فى وجوه الأمم كلاب البشرية .

وما دام الرب قد دفع جميع ممالك الأرض إلى كورش ، وما دام كورش قد كتب إلى ولاته أن إلٰه السماء أوصاه أن يبنى الهيكل ، فكيف جرؤ أناس على معارضة بناء الهيكل ؟ وكيف استأجروا مشاغبين ليعطلوا البناء دون أن يحرك قورش العظيم ساكنا ؟!

الظاهر أن عزرا ونحميا والذين اشتركوا فى كتابة التوراة فى المنفى أخذهم الحماس وهم يكتبون مذكراتهم اليومية التى أصبحت فيما بعد التوراة ، أو بمعنى أدق الأدب العبرى الذى اتخذ شكلا دينيا أثر فى جميع الكتّاب والمفكرين على مر العصور .

و لم يكتف المعارضون بإرخاء أيدى شعب يهوذا عن البناء بل بلغ بهم الأمر أن تقدموا بشكوى إلى الملك أخشويرش يطلبون فيها وقف شعب يهوذا عن بناء الهيكل . وأحب هنا أن أشير إلى أن اليهود أحفاد يهوذا قد بدءوا يخرجون بنى إسرائيل من رحمة الله ويثبتونها لسبط يهوذا وحده . ولا جرم فإن من بيده السلطة فى إسرائيل سواء أكانت سلطة دنيوية أم قلما يسجل به أحداث التاريخ من حقه أن يطرد من يشاء من دنيا الله .

وفى ملك أخشويرش ، فى ابتداء ملكه ، كتبوا شكوى على سكان يهوذا وأورشليم، وفى أيام أرتحشستا كتب بشلام ومترداث (يلاحظ أن مترداث هو الذى أخرج آنية الذهب والفضة بأمر كورش لتحمل إلى الهيكل) وطبئيل وسائر رفقائهم إلى أرتحشستا ملك فارس ، وكتابة الرسالة مكتوبة بالأرامية ومترجمة بالأرامية . رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب كتبا رسالة ضد أورشليم إلى أرتحشستا الملك هكذا . كتب حينئذ رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب وسائر رفقائهما الدينيين والأفرستيكيين والطرفليين والأفرسيين والأركويين والبابليين والشوشنيين والدَّهويين والعلاميين وسائر الأمم الذين سباهم أسنفر العظيم الشريف وأسكنهم مدن السامرة وسائر الذين فى عبر النهر إلى آخر . هذه صورة الرسالة التى أرسلوها إليه إلى أرتحشستا الملك :

عبيدك القوم الذين فى عبر النهر إلى آخره . ليعلم الملك أن اليهود الذين صعدوا من عندك إلينا قد أتوا إلى أورشليم ويبنون المدينة العاصية الردية ، وقد أكملوا أسوارها ورمموا أسسها ، ليكن الآن معلوما لدى الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يؤدون جزية ولا خراجا ولا خفارة . وأخيرا تضرُّ الملوك ، والآن بما أننا نأكل ملح دار الملك ولا يليق بنا أن نرى ضرر الملك لذلك أرسلنا فأعلمنا الملك لكى يفتش فى سفر أخبار آبائك فتجد فى سفر الأخبار وتعلم أن هذه المدينة مدينة عاصية ومضرة للملوك والبلاد ، وقد عملوا عصيانا فى وسطها منذ الأيام القديمة ، لذلك أخربت هذه المدينة ، ونحن نعلم الملك أنه إذا بنيت هذه المدينة وأكملت أسوارها لا يكون لك عند ذلك نصيب فى عبر النهر .

فأرسل الملك جوابا إلى رحوم صاحب القضاء وشمشاى الكاتب وسائر

رفقائهما الساكنين فى السامرة وباقى الذين فى عبر النهر . سلام إلى آخره .
الرسالة التى أرسلتموها إلينا قد قرئت بوضوح أمامى . وقد خرج من عندى
أمر ففتَّشوا ووُجد أن هذه المدينة منذ الأيام القديمة تقوم على الملوك وقد جرى
فيها تمرد وعصيان ، وقد كان ملوك مقتدرون على أورشليم وتسلطوا على جميع
عَبْر النهر وقد أعطوا جزية وخراجا وخفارة ، فالآن أخرجوا أمرا بتوقيف
أولئك الرجال فلا تُبنى هذه المدينة حتى يصدر منى أمر . فاحذروا من أن
تقصروا عن عمل ذلك . لماذا يكثر الضرر لخسارة الملوك ؟

حينئذ لما قرئت رسالة أرتحشستا الملك أمام رحوم وشمشاى الكاتب
ورفقائهما ذهبوا بسرعة إلى أورشليم إلى اليهود وأوقفوهم بذراع وقوة .
حينئذ توقف عمل بيت الله الذى فى أورشليم وكان متوقفا إلى السنة الثانية من
ملك داريوس ملك فارس .

إذا كان الله أو رب السماء أو إلـٰه إسرائيل قد أمر قورش أن يبنى بيته فى
أورشليم فكيف يجرؤ خلفاؤه أن يعصوا أوامر إلـٰه السماء وأن يصدروا أمرا
بوقف البناء ؟ مزاعم ولا ريب زعمها عزرا ونحميا ومن كتبوا التوراة ليدعموا
حقهم بأمر كسروى بعد أن تعبوا فى تدعيم ذلك الحق بأوامر سماوية ووعود
ربانية لم تستطع أن تقف فى وجه نبوخذناصر وتمنعه من تقويض الهيكل وقتل
الرجال وحمل السبى من شعب الله المختار إلى بلاده ليعيشوا فيها حياة العبيد
الأذلاء .

صدر أمر كورش فجعلوه وحيا سماويا ، وصدر أمر أرتحشستا بوقف البناء
فهل يحنون له الرءوس ؟ إنهم يؤمنون بوضع العالم أمام الأمر الواقع منذ فجر
تاريخهم ، فراحوا يعملون لينفذوا الحلم الذى عاشوا له طوال سنى الأسر :
« فتنبأ النبيان حجّى النبى وزكريا بن عِدّو لليهود الذين فى يهوذا وأورشليم

(يلاحظ استخدام اليهود عوضا عن بنى إسرائيل) باسم إلـٰه إسرائيل عليهم . حينئذ قام وربابل بن شألتئيل ويشوع بن يوصاداق وشرعا ببنيان بيت الله الذى فى أورشليم ومعهما أنبياء الله يساعدونهما فى ذلك الزمان ؛ جاء إليهم تنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاؤهما وقالوا لهم هكذا : من أمركم أن تبنوا هذا البيت وتكملوا هذا السور ؟ حينئذ أخبرناهم على هذا المنوال ، ما هى أسماء الرجال الذين يبنون هذا البناء ، وكانت على شيوخ اليهود عين إلـٰههم فلم يوقفوهم حتى وصل الأمر إلى داريوس وحينئذ جاوبوا برسالة عن هذا .

صورة الرسالة التى أرسلها تنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاؤهما والأفرسكيين الذين فى عبر النهر إلى داريوس الملك . أرسلوا إليه رسالة وكان مكتوبا فيها هكذا :

ـــ لداريوس الملك كل سلام : ليكن معلوما لدى الملك أننا ذهبنا إلى بلاد يهوذا بيت الإلـٰه العظيم وإذا به يبنى بحجارة عظيمة ويوضع خشب فى الحيطان ، وهذا العمل يعمل بسرعة وينجح فى أيديهم . حينئذ سألنا أولئك الشيوخ وقلنا لهم هكذا : من أمركم ببناء هذا البيت وتكميل هذه الأسوار ؟ وسألناهم أيضا عن أسمائهم لنعلمك ، وكتبنا أسماء الرجال رءوسهم ، وبمثل هذا الجواب جاوبوا قائلين : نحن عبيد إلـٰه السماء والأرض ونبنى هذا البيت الذى بنى قبل هذه السنين الكثيرة ، وقد بناه ملك عظيم لإسرائيل وأكمله ، ولكن بعد أن أسخط آباؤنا إلـٰه السماء دفعهم ليد نبوخذنصر ملك بابل الكلدانى الذى هدم هذا البيت وسبى الشعب إلى بابل . على أنه فى السنة الأولى لكورش ملك بابل أصدر كورش الملك أمرا ببناء بيت الله هنا . حتى إن آنية بيت الله هذا التى من ذهب وفضة والتى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم وأتى بها إلى الهيكل الذى فى بابل أخرجها كورش الملك من الهيكل

الذى فى بابل وأعطيت لواحد اسمه شيشبصَّر الذى جعله واليا : وقال له خذ هذه الآنية واذهب واحملها إلى الهيكل الذى فى أورشليم وليبن بيت الله فى مكانه . حينئذ جاء شيشبصَّر ووضع أساس بيت الله الذى فى أورشليم ، ومن ذلك الوقت إلى الآن وبنى ولما يكمل . والآن إذا حسن عند الملك فليفتش فى بيت خزائن الملك الذى هو هناك فى بابل : هل كان قد صدر أمر من كورش الملك ببناء بيت الله هنا فى أورشليم ، وليرسل الملك إلينا مراده فى ذلك » .

كلام لا يزيد على محضر تحقيق متحيز ، ولا غرو فإن كاتب هذا الإصحاح كان فى الذين أجابوا المحققين فهو طرف فى القضية . ويلاحظ ذلك فى قوله ردا على سؤال المحققين عن أسماء الرجال الذين يبنون الهيكل : حينئذ أخبرناهم على هذا المنوال ما هى أسماء الرجال الذين يبنون هذا البناء .

ويثور فى ذهنى سؤال : كيف قبل المسيحيون أن تكون مثل هـذه المذكرات التى لا صلة لها بوحى السماء جزءا متمما لإنجيلهم ، جزءا لا يتم الدين المسيحى إلا به ؟! وكيف يعقل أن داريوس لا يعلم بأمر كورش وأن اليهود يسألونه أن يرجع إلى خزائن الملك ولا يكتفون بذلك بل يحددون له موضعها « فليفتش فى بيت خزائن الملك الذى هو هناك فى بابل » .

« حينئذ أمر داريوس الملك ففتشوا فى بيت الأسفار حيق كانت الخزائن موضوعة فى بابل . فوجد فى أحمنا فى القصر الذى فى بلاد مادى درج مكتوب فيه هكذا : تذكار فى السنة الأولى لكورش الملك أمر كورش الملك من جهة بيت الله فى أورشليم ليبن فى المكان الذى يذبحون فيه ذبائح ، ولتوضع أسسه ارتفاعه ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد ، ولتحط النفقة من بيت الملك ، وأيضا آنية بيت الله التى من ذهب وفضة التى أخرجها نبوخذنصر من الهيكل الذى فى أورشليم

وأتى بها إلى بابل فلترد وترجع إلى الهيكل الذى فى أورشليم إلى مكانها وتوضع فى بيت الله .

والآن ياتنتاى والى عبر النهر وشتربوزناى ورفقاءكما الافرسكيين الذين فى عبر النهر ابتعدوا من هناك ، اتركوا عمل بيت الله هذا . وأما والى اليهود وشيوخ اليهود فليبنوا بيت الله هذا فى مكانه ، وقد صدر منى أمر بما تعملون مع شيوخ اليهود هؤلاء فى بناء بيت الله هذا ، فمن مال الملك ؛ من جزية عبر النهر تعطى النفقة عاجلا لهؤلاء الرجال حتى لا يبطلوا ، وما يحتاجون إليه من الثيران والكباش والخراف محرقة لإلـٰه السماء ، وحنطة وملح وخمر وزيت حسب قول الكهنة الذين فى أورشليم ، لتعط لهم يوما فيوما حتى لا يهدءوا عن تقريب روائح سرور لإلـٰه السماء ، والصلاة لأجل حياة الملك وبنيه ، وقد صدر منى أمر أن كل إنسان يغير هذا الكلام تنسحب خشبة من بيته ويعلق مصلوبا عليها ويجعل بيته مزبلة من أجل هذا . والله الذى أسكن اسمه هناك يهلك كل ملك وشعب يمد يده لتغيير أو لهدم بيت الله الذى فى أورشليم ، وأنا داريوس قد أمرت فليفعل عاجلا » .

لم يكتف عزرا بأن يقرر أن كورش أمر ببناء الهيكل بل جعله مهندسا يعرف ارتفاعه وعرضه ، وجعل داريوس لا علم له بأمر أصدره كورش ولا بنفقة خرجت من خزانته كأنما كان ذلك سرا لا يعلمه أحد فى مملكة فارس .

وقد أخذه الحماس وهو يكتب هذا الإصحاح فجعل داريوس يبارك بناء الهيكل ويلتمس الدعاء من الكهنة ليطيل إلـٰه السماء أيامه على الأرض . وقد خفى على كاتب هذا الإصحاح أن داريوس كان يؤمن برسالة زرادشت وأنه يؤمن بيوم البعث والحساب ، فلو أنه سأل كهنة اليهود حقا أن يقدموا القرابين سرورا للإلـٰه وأن يدعوا له ، لسألهم أن يدعوا له بسعادة الدنيا والآخرة التى

يؤمن بها ، وإن كان اليهود لا يعرفون اليوم الآخر . وإن قارئ هذا الإصحاح يقف عنده متسائلا : ما دام داريوس يؤمن بكل ما قال فلماذا لم يتهود ؟ إنه يؤمن بأن القرابين روائح سرور للإلـٰه ، ويؤمن بتقديم الثيران والكباش قرابين للإلـٰه ، ويصدر أوامره لبناء هيكل إلـٰه إسرائيل ، فما الذى يحول بينه وبين الدخول فى اليهودية يا أنبياء بنى إسرائيل ؟!

ويتم بناء الهيكل فى شهر آذار فى السنة السادسة من ملك داريوس الملك ، ويبدأ الكلام على عزرا الكاهن وهو أحد الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد أن أحرق نبوخذنصر كل نسخ التوراة القديمة فى الإصحاح السابع من سفر عزرا : « وبعد هذه الأمور فى ملك أرتحشستا ملك فارس صعد عزرا بن سرايا بن عزريا بن حلقيا بن شالوم بن صادوق بن أخيطوب بن أمريا بن عزريا ابن مرايوث بن زرحيا بن عزى بن بُقى بن أبيشوع بن فينحاس بن العازار ابن هرون الكاهن الرأس . عزرا هذا صعد من بابل وهو كاتب ماهر فى شريعة موسى التى أعطاها الرب إلـٰه إسرائيل ، وأعطاه الملك حسب يد الرب إلـٰهه عليه كل سؤاله ، وصعد معه من بنى إسرائيل والكهنة واللاويين والمغنيين إلى أورشليم فى السنة السابعة لأرتحشستا الملك .

وجاء إلى أورشليم فى الشهر الخامس فى السنة السابعة للملك لأنه فى الشهر الأول ابتدأ يصعد من بابل ، وفى أول الشهر الخامس جاء إلى أورشليم ، حسب يد الله الصالحة عليه ، لأن عزرا هيأ قلبه لطلب شريعة الرب والعمل بها ، وليعلم إسرائيل فريضة وقضاء .

وهذه صورة الرسالة التى أعطاها الملك أرتحشستا لعزرا الكاهن الكاتب : كاتب كلام وصايا الرب فرائضه على إسرائيل .

من أرتحشستا ملك الملوك إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إلـٰه السماء

الكامل إلى آخره :

قد صدر منى أمر أن كل من أراد فى ملكى من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع ، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلـٰهك التى بيدك . ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإلـٰه إسرائيل الذى فى أورشليم مسكنه ، وكل الفضة والذهب التى تجد فى كل بلاد بابل مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلـٰههم الذى فى أورشليم ، لكى تشترى عاجلا بهذه الفضة ثيرانا وكباشا وخرافا وتقدماتها وسكائبها وتقربها على المذبح الذى فى بيت إلـٰهكم الذى فى أورشليم . ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقى الفضة والذهب فحسب إرادة إلـٰهكم تعملونه ، والآنية التى تعطى لك لأجل خدمة بيت إلـٰهك فسلمها أمام إلـٰه أورشليم . وباقى احتياج بيت إلـٰهك الذى يتفق لك أن تعطيه فأعطه من بيت خزائن الملك ، ومنى أنا أرتخشستا الملك صدر أمر إلى كل الخزنة الذين فى عبر النهر أن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن كاتب شريعة إلـٰه السماء فليعمل بسرعة ، إلى مائة وزنة من الفضة ومائة كر من الحنطة ومائة بث من الخمر ومائة بث من الزيت والملح من دون تقييد ، كل ما أمر به إلـٰه السماء فليعمل باجتهاد لبيت إلـٰه السماء لأنه لماذا يكون غضب على مُلك الملك وبنيه .

ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين وخدام بيت الله هذا لا يؤذن أن يلقى عليهم جزية أو خراج أو خفارة ، وأما أنت يا عزرا فحسب حكمة إلـٰهك التى بيدك ضع حكاما وقضاة يقضون لجميع الشعب الذى فى عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلـٰهك ، والذين لا يعرفون فعلموهم ، وكل من لا يعمل شريعة إلـٰهك وشريعة الملك فليقض عليه عاجلا إما بالموت

بالموت أو بالنفى أو بغرامة المال أو بالحبس .

مبارك الرب إلٰه آبائنا الذى جعل مثل هذا فى قلب الملك لأجل تزيين بيت الرب الذى فى أورشليم . وقد بسط علىَّ رحمة أمام الملك ومشيريه وأمام جميع رؤساء الملك المقتدرين ، وأما أنا فقد تشددت حسب يد الرب إلٰهى علىَّ وجمعت من بنى إسرائيل رؤساء ليصعدوا معى » .

هذا السفر كتبه عزرا وهو يصف نفسه بأنه كاتب شريعة إلٰه السماء ، فالتوراة التى نزلت على موسى عليه السلام بلسان قدماء المصريين قد ترجمت إلى العبرية ولا ريب حتى يستطيع أن يفهمها بنو إسرائيل الذين عاشوا بين الكنعانيين وتعلموا العبرية . وقد حرق نبوخذنصر جميع نسخ التوراة فقام عزرا فى المنفى وأعاد كتابة التوراة ، لذلك وصف نفسه بأنه كاتب شريعة إلٰه السماء ، وأن الكتاب الذى زعم عزرا بأن الملك أرتخشستا كتبه له لا يمكن أن يصدق إنسان أنه من إملاء الملك ، فلا يعقل أن ملكا يؤمن بأهورا مزدا إلٰه النور يتزلف لإلٰه إسرائيل مثل ذلك التزلف الذى تحتويه الرسالة. وهل يعقل أن الملك الذى دان بدين زرادشت يهتم بتقديم القرابين على مذبح أورشليم لرب إسرائيل.

إن السبب الحقيقى لذلك التقارب بين اليهود وبين أكاسرة الفرس سبب سياسى فى الدرجة الأولى ، فإسرائيل ويهوذا كانا على الدوام خاضعين لفرعون مصر وكانوا يدفعون له الجزية ، فلما شن نبوخذنانصر الحرب على إسرائيل ويهوذا وقتل من قتل وحمل من حمل إلى بابل ، ولما انتصر قورش على الكلدانيين وأصبحت له اليد العليا فى بابل ، وجد اليهود الذين كانوا فى أرض السبى أن من مصلحتهم أن يتعاهدوا مع ملوك فارس وأن يكونوا معهم على أعدائهم . وقد خرجوا فيما بعد مع قمبيز لما غزا مصر ولم يكونوا صادقين مع ملوك فارس بل كانوا صادقين مع أنفسهم ، فقد تركوا فى كل مدينة مروا بها

جالية حتى بلغوا أسوان لتكون تلك الجاليات فى خدمة إسرائيل وحكماء صهيون .

وراح عزرا يبث فى اليهود العنصرية البغيضة ويحرم زواج اليهودى من الأمم . « ... والآن ماذا تقول يا إلٰهنا بعد هذا لأننا قد تركنا وصاياك التى أوصيت بها عن يد عبيدك الأنبياء قائلا : إن الأرض التى تدخلون لتملكوها هى أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأراضى برجساتهم التى ملئوها بها من جهة إلى جهة بنجاستهم. والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم وخبزهم إلى الأبد لكى تتشددوا وتأكلوا خبز الأرض وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد . وبعد كل ما جاء علينا لأجل أعمالنا الرديئة وآثامنا العظيمة لأنك قد جازيتنا يا إلٰهنا أقل من أثامنا وأعطيتنا نجاة كهذه ، أفنعود ونتعدى وصاياك ونصاهر شعوب هذه الرجاسات ؟ أما تسخط علينا حتى تفنينا فلا تكون بقية ولا نجاة ؟ أيها الرب إلٰه إسرائيل أنت بار لأننا بقينا ناجين لهذا اليوم . ها نحن أمامك فى آثامنا لأنه ليس لنا أن نقف أمامك من أجل هذا » .

قورش وداريوس وأرتحشستا ملوك فارس أعادوا اليهود من أرض بابل أرض السبى إلى أورشليم ، فسرعان ما نسوا فضل ملوك الأمم عليهم واستولى عليهم الغرور وقالوا إنهم وحدهم الناس وإنه من الكفر أن يتزوج يهودى من غير يهودية ولا يهودية من غير يهودى ، لأنهم شعب فوق كل الشعوب وجنس فضله إلٰه إسرائيل على العالمين .

وقد كان من نتيجة تعاليم عزرا هذه أن تقوضت بيوت كانت هانئة وتشرد أطفال أبرياء وألقى بنساء فضليات فى عرض الطريق : « فلما صلى عزرا واعترف وهو باك ساقط أمام بيت الله ، اجتمع إليه من إسرائيل جماعة كثيرة

جدا من الرجال والنساء والأولاد لأن الشعب بكى بكاء عظيما .

وأجاب شكنيا بن يحئيل من بنى عيلام وقال لعزرا : إننا قد خنا إلٰهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض . ولكن الآن يوجد رجاء لإسرائيل فى هذا . فلنقطع الآن عهدا مع إلٰهنا أن نخرج كل النساء والذى ولدوا منهن حسب مشورة سيدى والذين يخشون وصية إلٰهنا وليعمل حسب الشريعة . قم فإن عليك الأمر ونحن معك . تشجع وافعل .

فقام عزرا واستحلف رؤساء الكهنة واللاويين وكل إسرائيل أن يعملوا حسب هذا الأمر فحلفوا . ثم قام عزرا من أمام بيت الله ثم ذهب إلى مخدع يهو حانان بن الياشيب فانطلق إلى هناك وهو يأكل خبزا و لم يشرب ماء لأنه كان ينوح بسبب خيانة أهل السبى . وأطلقوا نداء فى يهوذا وأورشليم إلى جميع بنى السبى لكى يجتمعوا إلى أورشليم . وكل من لا يأتى فى ثلاثة أيام حسب مشورة الرؤسا والشيوخ يُحرَّم كل ماله وهو يُفرز من جماعة أهل السبى .

فاجتمع كل رجال يهوذا وبنيامين إلى أورشليم فى الثلاثة الأيام أى فى الشهر التاسع فى العشرين من الشهر . وجلس جميع الشعب فى ساحة بيت الله مرتعدين من الأمر ومن الأمطار فقام عزرا الكاهن وقال لهم : إنكم قد خنتم وأخذتم نساء غريبة لتزيدوا على إثم إسرائيل . فاعترفوا الآن للرب إلٰه آبائكم واعلموا مرضاته وانفصلوا عن شعوب الأرض وعن النساء الغريبة . فأجاب كل الجماعة وقالوا بصوت عظيم : كما كلمتنا كذلك نعمل . إلا أن الشعب كثير والوقت وقت أمطار ولا طاقة لنا على الوقوف فى الخارج والعمل ليس ليوم واحد أو لاثنين لأننا قد أكثرنا الذنب فى هذا الأمر . فليقف رؤساؤنا لكل الجماعة وكل الذين فى مدننا قد اتخذوا نساء غريبة فليأتوا فى أوقات معينة ومعهم شيوخ مدينة فمدينة وقضاتها حتى يرتد عنا حمو غضب إلٰهنا من أجل

هذا الأمر » .

وراح عزرا فى تلذذ شديد يعدد أسماء الذين طردوا نساءهم اللاتى اتخذن من غير بنى إسرائيل . إنها قسوة لا يمكن أن تصدر عن إلـه رحيم أو عن نبى كريم لا يخفى جوهر الحقيقة عن عينيه تعصب أعمى لجنس مارس كل أنواع الخطايا التى تندى لها جبين الفضيلة من كرامة الإنسان .

أين ما فعله عزرا مما فعله نبى الإسلام ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وأصحابه ؟ فما كان رجل من المسلمين يستشهد أو يموت حتى يضموا زوجه إلى نسائهم لأنهم عرفوا الطبيعة البشرية . فلا يكفى أن يقدم للمرأة الطعام والشراب والمسكن والملبس بل لا بد أن تكون فى كنف رجل . وكثيرا ما كانوا يضمون إلى نسائهم عجائز قد جاوزوا سن الشباب فما كان الدافع الحقيقى شهوة جنسية عارضة بل حماية مجتمع وصيانة أعراض . كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأصحابه يعمرون البيوت الخربة ، وكان عزرا يخرب البيوت العامرة .

وانتهى عزرا من كتابة مذكراته التى أصبحت سفر عزرا وصارت تتلى فى المجامع والكنائس على أنها وحى من السماء . ولم يكن عزرا وحده الذى تقدست مذكراته بل إن نحميا فعل مثل عزرا وصارت مذكراته سفرا من أسفار توراة المنفى .

ولنبدأ بالإصحاح الأول من سفر نحميا : « كلام نحميا بن حكبا . حدث فى شهر كسلو فى السنة العشرين بينما كنت فى شوش القصر أنه جاء حنانى واحد من إخوتى هو ورجال من يهوذا فسألتهم عن اليهود الذين نجوا الذين بقوا من السبى وعن أورشليم . فقالوا لى : إن الباقين الذين بقوا من السبى هناك فى شر عظيم وعار ، وسور أورشليم متهدم وأبوابها محروقة بالنار . فلما سمعت هذا

الكلام جلست وبكيت ونحت أياما ، وصمت وصليت أمام إلـٰه السماء . وقلت أيها الرب إلـٰه السماء . الإلـٰه العظيم المخوف الحافظ العهد والرحمة لمحبيه وحافظى وصاياه . لتكن أذنك مصغية وعيناك مفتوحتين لتسمع صلاة عبدك الذى يصلى إليك الآن نهارا وليلا لأجل بنى إسرائيل عبيدك ، يعترف بخطايا بنى إسرائيل التى أخطأنا بها إليك . فإنى أنا وبيت أبى قد أخطأنا . لقد أفسدنا أمامك و لم نحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التى أمرت بها موسى عبدك . أذكر الكلام الذى أمرت به موسى عبدك قائلا : إن خنتم فإنى أفرقكم فى الشعوب ، وإن رجعتم إلىّ وحفظتم وصاياى وعملتموها إن كان المنفيون منكم فى أقصاء السماء فمن هناك أجمعهم وآتى بهم إلى المكان الذى اخترت لإسكان اسمى فيه . فهم عبيدك وشعبك الذى افتديت بقوتك العظيمة ويدك الشديدة .

يا سيد لتكن أذنك مصغية إلى صلاة عبدك وصلاة عبيدك الذين يريدون مخافة اسمك ، وأعط النجاح اليوم لعبدك وامنحه رحمة أمام هذا الرجل ، لأنى كنت ساقيا للملك » .

نحميا الذى أصبح له سفر من أسفار العهد القديم ومن شارك فى كتابة توراة المنفى يعترف بأنه كان ساقيا لملك فارس . يقدم الخمر لضيوفه وجلسائه ومحظياته . وسنقرأ فى سفر إستير كيف قدمها ابن عمها مردخاى محظية للملك وقد أغمض عينيه عن ثورة عزرا على زواج اليهودية من غير اليهودى . فقد كانت إسرائيل فى خطر وكان لا بد من استغلال جمال إستير لدرء ذلك الخطر ، وإنه لأمر مباح فى إسرائيل الإعراض عن مبادئ الأخلاق ووصايا الأنبياء، بل وأوامر رب إسرائيل ونواهيه إذا كان ذلك فى سبيل إسرائيل، فالـٰه إسرائيل لا يعبد إلا لجلب السعادة لشعبه المختار وتوطيد سلطانهم فى الأرض.

ولندع النبي نحميا يروى كيف كان يقدم الخمر للملك : « وفى شهر نيسان فى السنة العشرين لأرتخشستا الملك كانت خمر أمامه ، فقال لى الملك : لماذا وجهك مُكمد وأنت غير مريض ؟ . ما هذا إلا كآبة قلب . فخفت كثيرا جدا وقلت للملك : ليحيى الملك إلى الأبد ، كيف لا يكمد وجهى والمدينة بيت مقابر آبائى خراب وأبوابها قد أكلتها النار ؟ فقال لى الملك : ماذا طالب أنت ؟ فصليت إلى إلـه السماء وقلت للملك : إذا سر الملك وإذا أحسن عبدك أمامك ترسلنى إلى يهوذا ؛ إلى مدينة قبور آبائى فأبنيها . فقال لى الملك والملكة جالسة بجانبه : إلى متى يكون سفرك ومتى ترجع ؟ فحسن لدى الملك وأرسلنى فعينت له زمانا . وقلت للملك : إن حسن عند الملك فلتُعطَ لى رسائل إلى ولاة عبر النهى لكى يخبرونى حتى أصل إلى يهوذا . ورسالة إلى آساف حارس فردوس الملك لكى يعطينى أخشابا لسقف أبواب القصر الذى للبيت ولسور المدينة وللبيت الذى أدخل فيه . فأعطانى الملك حسب يد إلٰهى الصالحة علىّ .

فأتيت إلى ولاة عبر النهر وأعطيتهم رسائل الملك وأرسل معى الملك رؤساء جيش وفرسانا . ولما سمع سَنبلط الحورونى وطوبيا العبد العمونى ساءهما مساءة عظيمة لأنه جاء رجل يطلب خيرا لبنى إسرائيل .

فجئت إلى أورشليم وكنت هناك ثلاثة أيام ، ثم قمت ليلا أنا ورجال قليلون معى ، و لم أخبر أحدا بما جعله إلٰهى فى قلبى لأعمله فى أورشليم . و لم يكن معى بهيمة غير التى كنت راكبها . وخرجت من باب الوادى ليلا أمام عين التنين إلى باب الدِّمْن وصرت أتفرس فى أسوار أورشليم المتهدمة وأبوابها التى أكلتها النار . وعبرت إلى باب العين وإلى بركة الملك و لم يكن مكان العبور البهيمة التى تحتى : فصعدت فى الوادى ليلا وكنت أتفرس فى السور . ثم عدت

فدخلت من باب الوادى راجعا . و لم يعرف الولاة إلى أين ذهبت ولا ما أنا عامل و لم أخبر إلى ذلك الوقت اليهود والكهنة والأشراف والولاة وباقى عاملى العمل : ثم قلت لهم : أنتم ترون الشر الذى نحن فيه . كيف أن أورشليم خربة وأبوابها قد أحرقت بالنار . هلم نبنى سور أورشليم ولا نكون بعد عارا ، وأخبرتهم عن يد إلٰهى الصالحة علىّ وأيضا عن كلام الملك الذى قاله لى . فقالوا : لنقم ولنبن . وشددوا أياديهم للخير .

ولما سمع سنبلّط الحورنى وطوبيا العبد العمونى وجشم العربى هزءوا بنا واحتقرونا وقالوا : ما هذا الأمر الذى أنتم عاملون ؟ أعلى الملك تتمردون ؟ فأجبتهم وقلت لهم إن إلٰه السماء يعطينا النجاح ونحن عبيده نقوم ونبنى ، وأما أنتم فليس لكم نصيب ولا حق ولا ذكر فى أرشليم » .

لم تهدأ المنطقة منذ وطأت أرض فلسطين أقدام بنى إسرائيل واليهود ، فأصحاب البلاد كانوا يقاومون استقرار الوافدين فى المنطقة ، وقد دأب بنو إسرائيل على الاستعانة بالملوك لتوطيد أقدامهم فى الأرض التى ما فتئ حكماؤهم يدعون فى توراتهم التى زيفوها فى المنفى أن إلٰه إسرائيل وعدهم بها . فأهل حبرون (الخليل) رفضوا أن يدفن إسرائيل (يعقوب عليه السلام) إلى جوار جده إبراهيم الخليل ، ولولا جنود فرعون الذين أرسلهم تكريما لوزير خزانته يوسف الصديق لما سمحوا بدفنه فى أرض أجدادهم ، و لم يخب أوار الحرب الناشبة بين بنى إسرائيل وبين الكنعانيين ، فالكنعانيون كانوا يقاومون اغتصاب أراضيهم وبلادهم ، وقد انتهى الكفاح الأول بأن شن نبوخذناصر هجوما على إسرائيل وقتل من قتل وسبى من سبى وحرق الهيكل والمدينة ، وبقوة الملوك الإيرانيين عاد اليهود — ولا أقول بنى إسرائيل — لأن الذين قادوا العودة كانوا من نسل يهوذا ، ويذكرون فى مذكراتهم التى

أصبحت مقدسة اليهود دون ذكر لبني إسرائيل — وبتلك العودة وإعادة بناء الهيكل بدأ الكفاح الثانى لشعب فلسطين الذى انتهى بتقويض الهيكل فى عصر تيتس بعد ميلاد السيد المسيح بقليل .

وراح نحميا يصف بدء بناء المدينة والسور ، و لم يقف العرب مكتوفى الأيدى بل رأوا أن يقاوموا ذلك العمل العدائى على الرغم من تأييد ملك الملوك شاهنشاه فارس . « ولما سمع سنبلَّط أننا آخذون فى بناء السور غضب واغتاظ كثيرا ، وهزأ باليهود ، وتكلم أمام إخوته وجيش السامرة وقال : ماذا يعمل اليهود الضعفاء ؟ هل يتركونهم ؟ هل يَذبحون ؟ هل يُكملون فى يوم ؟ هل يُحيون الحجارة من كوم التراب وهى محرقة ؟ وكان طوبيا العمونى بجانبه فقال : إن ما يبنونه إذا صعد ثعلب فإنه يهدم حجارة حائطهم .

اسمع يا إلٰهى لأننا قد صرنا احتقارا ، ورد تعييرهم على رءوسهم واجعلهم نهبا فى أرض السبى ، ولا تستر ذنوبهم ولا تمح خطيتهم من أمامك لأنهم أغضبوك أمام البانين .

ولما سمع سنبلَّط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار أورشليم قد رممت والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جدا وتآمروا جميعهم معا أن يأتوا ويحاربوا أورشليم ويعملوا بها ضررا ، فصلينا إلى إلٰهنا وأقمنا حراسا ضدهم نهارا وليلا بسببهم . وقال يهوذا : قد ضعف قوة الحمَّالين والتراب كثير ونحن لا نقدر أن نبنى السور . وقال : أعداؤنا لا يعلمون ولا يرون حتى ندخل إلى وسطهم ونقتلهم ونوقف العمل . ولما جاء اليهود الساكنون بجانبهم قالوا لنا عشر مرات من جميع الأماكن التى منها رجعوا إلينا . فأوقفتُ الشعب من أسفل الموضع وراء السور وعلى القمم ؛ أوقفتهم حسب عشائرهم بسيوفهم ورماحهم وقسيهم ونظرت وقمت وقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب : لا تخافوهم بل اذكروا السيد العظيم المرهوب

وحاربوا من أجل إخوتكم وبنيكم وبناتكم ونسائكم وبيوتكم .

ولما سمع أعداؤنا أننا قد عرفنا وأبطل الله مشورتهم ، رجعلنا كلنا إلى السور كل واحد إلى شغله . ومن ذلك اليوم كان نصف غلمانى يشتغلون فى العمل ونصفهم يمسكون الرماح والأتراس والقسى والدروع ، والرؤساء وراء كل بيت يهوذا . والبانون على السور بنوا وحاملوا الأحمال حملوا . باليد الواحدة يعملون العمل وبالأخرى يمسكون السلاح ، وكان البانون يبنون وسيف كل واحد مربوط على جنبه ، وكان النافخ بالبوق بجانبى ، فقلت للعظماء والولاة ولبقية الشعب : العمل كثير ومتسع ونحن متفرقون على السور وبعيدون بعضنا عن بعض ، فالمكان الذى تسمعون منه صوت البوق هناك تجتمعون إلينا . إلٰهنا يحارب عنا . فكنا نعمل العمل وكان نصفهم يمسكون الرماح من طلوع الفجر إلى ظهور النجوم . وقلت فى ذلك الوقت أيضا للشعب : ليبت كل واحد مع غلامه فى وسط أورشليم ليكونوا لنا حراسا فى الليل وللعمل فى النهار . ولم أكن أنا ولا إخوتى ولا غلمانى ولا الحراس الذين ورائى نخلع ثيابنا ، كان كل واحد يذهب بسلاحه إلى الماء » .

وراح نحميا يدون مذكراته — التى تقدست وأصبحت سفر نحميا — يروى فيها كيف أن الأغنياء كانوا يقرضون الفقراء بالربا ، وكيف أن الولاة الذين كانوا قبله أخذوا من الشعب الخبز والخمر . أما هو فقد تعفف عن ذلك . وقد طلب من إلٰهه ثمن ذلك التعفف : « اذكر لى يا إلٰهى للخير كل ما عملت لهذا الشعب » .

ولم يذكر نحميا معاونة ملوك الساسانيين لليهود حتى تم بناء الهيكل والسور ، فاليهود يستغلون ملوك الأمم حتى يحققوا مآربهم ثم يبخلون بالثناء على هؤلاء الملوك الذين سخروا شعوبهم ومواردهم لتأييد إسرائيل ، وقد كان

من تقاليد حكماء صهيون أن يقدسوا أعمال الذين يقدمون خدمات جليلة لإسرائيل وأن يضموا تلك الأعمال إلى توراتهم ، فالتوراة فى حقيقة الأمر سجل لأعمال اليهود ، فلو قدر لهذا التقليد أن يطبق فى هذه الأيام فلن يذكر ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى سفر شاريت إلا كما ذكر قورش شاهنشاه إيران فى سفر عزرا ، ولن يذكر جونسون ونيكسون فى أسفار بن جوريون وموسى ديان وجولدا مائير إلا كما ذكر داريوس وأرتخشستا وأخشويرش فى أسفار نحميا وإستير ، ولو قدر لهذه الأسفار أن تضم إلى التوراة فهل سيتلوها المسيحيون فى صلواتهم ؟!

إن التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام كانت بلغة قدماء المصريين ولا صلة بينها وبين التوراة التى كتبها عزرا الكاتب فى المنفى ، فعزرا بعد أن استعان بأساطير البابليين وعقائد قدماء المصريين قد كتب التوراة التى بين أيدينا ، ولنصغ إلى نحميا وهو يروى كيف جاء عزرا بالتوراة الجديدة وقرأها على الشعب ، وكيف تأثر الشعب وبكى « وقالت اليهود عزيز ابن الله »[١] :

« ولما استهل الشهر السابع وبنو إسرائيل فى مدنهم اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التى أمام باب الماء . وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتى بسفر شريعة موسى التى أمر بها الرب إسرائيل . فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكل فاهم ما يسمع فى اليوم الأول من الشهر السابع . وقرأ فيها أمام الساحة التى أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء والفاهمين ، وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة ، ووقف عزرا الكاتب على منبر الخشب الذى عملوه لهذا الأمر ...

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٠) .

وفتح عزرا السفر أمام الشعب لأنه كان فوق كل الشعب ، وعندما فتحه وقف كل الشعب وبارك عزرا الرب الإلٰـه العظيم ، وأجاب جميع الشعب : آمين آمين، رافعين أيديهم وخروا وسجدوا للرب على وجوههم إلى الأرض ... » .

ولما بكى الشعب قال لهم نحميا وعزرا الكاهن الكـاتب واللاويـون المفهمون للشعب : « هذا اليوم مقدس للرب إلٰـهكم ، ولا تنوحوا ولا تبكوا لأن جميع الشعب بكوا حين سمعوا كلام الشريعة . فقال لهم « عزرا » : اذهبوا كلوا السمين واشربوا الخمر وابعثوا الضبة لمن لم يعد له ، لأن اليوم إنما هو مقدس لسيدنا ، ولا تحزنوا لأن فرح الرب هو قوتكم ، وكان اللاويون يسكتون كل الشعب قائلين : اسكتوا لأن اليوم مقدس فلا تحزنوا . فذهب كل الشعب ليأكلوا ويشربوا ويبعثوا الضبة ويعملوا فرحا عظيما لأنهم فهموا الكلام الذى علموهم إياه .

وأصبح عزرا الكاهن الكاتب هو مصدر الشريعة اليهودية ، ما يقول به يفعل به وما ينهى عنه يحرَّم . وقد نسى عزرا فيما نسى اليوم الآخر ووقر فى ذهنه ما كان يسمعه عن الأرض التى لا رجعة منها فى أرض السبى ، فلم يذكر يوم القيامة ويوم الحساب ويوم الدين فى توراته فكان شيئا عجيبا أن أصحاب الكتاب الأول لم يؤمنوا بالآخرة ، وجعلوا الثواب والعقاب فى الحياة الدنيا !

« وفى اليوم الثانى اجتمع رءوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون إلى عزرا الكاتب ليفهمهم كلام الشريعة ، فوجدوا مكتوبا فى الشريعة التى أمر بها الرب على يد موسى أن بنى إسرائيل يسكنون فى مظال فى العيد فى الشهر السابع ، وأن يسمعوا وينادوا فى كل منهم وفى أورشليم قائلين : اخرجوا إلى الجبل وأتوا بأغصان زيتون وأغصان زيتون برى وأغصان اس وأغصان نخل

وأغصان أشجار غبياء لعمل مظال كما هو مكتوب . فخرج الشعب وجلسوا وعملوا لأنفسهم مظال كل واحد على سطحه وفى دورهم ودور بيت الله وفى ساحة باب الماء وفى ساحة باب أفرايم ، وعمل كل الجماعة الراجعين من السبى مظال وسكنوا فى المظال لأنه لم يعمل بنو إسرائيل هكذا من أيام يشوع بن نون إلى ذلك اليوم ، وكان فرح عظيم جدا ، وكان يقرأ فى سفر شريعة الله يوما فيوما من اليوم الأول إلى اليوم الأخير . وعملوا عيدا سبعة أيام وفى اليوم الثامن اعتكاف حسب المرسوم » .

هل يعقل أن الله قد أوحى إلى موسى عليه السلام أن يسكن فى مظال ؟ ومتى كان الله يهتم بمثل هذه الماديات ؟ إنها تقاليع كهان : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون . »[1] .

لقد اندثرت تعاليم موسى عليه السلام أو ضاعت فى ركام من الأساطير ، وليس أمامنا إلا أن نرجع إلى القرآن العظيم لنعرف حقيقة تلك التعاليم : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . » [2] . « وإذ

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٩) .

(٢) سورة المائدة الآيتان (٤٤ ، ٤٥) .

أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . »(١) .

تعاليم تتفق مع رسالات الرسل ووصايا من لدن حكيم خبير . أما تقديم القرابين وشواء اللحوم لإدخال السرور على قلب الرب فهى وصايا كهان لهم مصلحة مباشرة فى لحوم الأضاحى فجعلوا التقدمة كفارة عن الذنوب .

« وفى اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر اجتمع بنو إسرائيل بالصوم وعليهم مسوح وتراب ، وانفصل نسل إسرائيل من جميع بنى الغرباء ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب آبائهم ، وأقاموا فى مكانهم وقرأوا فى سفر شريعة الرب إلـٰههم ربع النهار وفى الربع الآخر كانوا يحمدون ويسجدون للرب إلـٰههم » .

وراحو يناجون الرب ولم ينسوا إعادة توكيد وعد الله لآبائهم بأرض فلسطين ، ولا غرو فعزرا كاتب التوراة الجديدة وأحد كتبتها ذاق مرارة السبى والتشريد وكان حلمه الوحيد فى المنفى أن يعود إلى فلسطين وأن يؤكد بوعود ربانية من نسج خياله حق المغتصبين فى أرض العرب الكنعانيين : « .. أنت هو الرب الإلـٰه الذى اخترت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين وجعلت اسمه إبراهيم . ووجدت قلبه أمينا أمامك وقطعت معه العهد أن تعطيه أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين واليبوسيين والجرجاشيين وتعطيها نسله ، وقد أنجزت وعدك لأنك صادق ورأيت ذل آبائنا فى مصر وسمعت

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

صراخهم عند بحر سوف ، وأظهرت آيات وعجائب على فرعون وعلى جميع عبيده وعلى كل شعب أرضه لأنك علمت أنهم بغوا عليهم ، وعملت لنفسك اسما كهذا اليوم ، وفلقت اليم أمامهم وعبروا فى وسط البحر على اليابسة ، وطرحت مطاريدهم فى الأعماق كحجر فى مياه قوية ، وهديتهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلا لتضىء لهم فى الطريق التى يسيرون فيها . ونزلت على جبل سيناء وكلمتهم من السماء وأعطيتهم أحكاما مستقيمة وشرائع صادقة : فرائض ووصايا صالحة . وعرفتهم سبتك المقدس وأمرتهم بوصايا وفرائض وشرائع عن يد موسى عبدك . وأعطيتهم خبزا من السماء لجوعهم وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم وقلت لهم أن يدخلوا ويرثوا الأرض التى رفعت يدك أن تعطيهم إياها .

ولكنهم بغوا هم وآباؤهم وصلّبوا رقابهم . و لم يسمعوا لوصاياك ، وأبوا الاستماع ، و لم يذكروا عجائبك التى صنعت معهم وصلبوا رقابهم ، وعند تمردهم أقاموا رئيسا ليرجعوا إلى عبوديتهم وأنت إلٰه غفور وحنان ورحيم طويل الروح وكثير الرحمة ، فلم تتركهم مع أنهم عملوا لأنفسهم عجلا مسبوكا وقالوا هذا إلٰهك الذى أخرجك من مصر وعملوا إهانة عظيمة . أنت برحمتك الكثيرة لم تتركهم فى البرية و لم يَزل عنهم عمود السحاب نهارا لهدايتهم فى الطريق ولا عمود النار ليلا ليضىء لهم فى الطريق التى يسيرون فيها ، وأعطيتهم روحك الصالح لتعليمهم و لم تمنع منّك عن أفواهم وأعطيتهم ماء لعطشهم وعُلْتهم أربعين سنة فى البرية فلم يحتاجوا . لم تَبْل ثيابهم و لم تتورم أرجلهم ، وأعطيتهم ممالك وشعوبا وفرقتهم إلى جهات فامتلكوا أرض سيحون وأرض ملك حشبون وأرض عوج ملك باشان ، وأكثرت بنيهم كنجوم السماء وأتيت بهم إلى الأرض التى قلت لآبائهم أن يدخلوا ويرثوها .

فدخل البنون وورثوا الأرض وأخضعت لهم سكان أرض الكنعانيين ودفعتهم ليدهم مع ملوكهم وشعوب الأرض ليعملوا بهم حسب إرادتهم ، وأخذوا مدنا حصينة وأرضا سمينة وورثوا بيوتا ملآنة كل خير وآبارا محفورة وكروما وزيتونا وأشجارا مثمرة بكثرة فأكلوا وشبعوا وسمنوا وتلذذوا بخيرك العظيم ، وعصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم إليك وعملوا إهانة عظيمة . فدفعتهم ليد مضايقيهم فضايقوهم . وفى وقت ضيقهم صرخوا إليك وأنت من السماء سمعت ، وحسب مراحمك الكثيرة أعطيتهم مخلصين خلصوهم من يد مضايقيهم ، ولكن لما استراحوا رجعوا إلى عمل الشر قدامك فتركتهم بين أعدائهم فتسلطوا عليهم ، ثم رجعوا فصرخوا إليك وأنت من السماء سمعت وأخذتهم حسب مراحمك الكثيرة أحيانا كثيرة وأشهدت عليهم لتردهم إلى شريعتك . وأما هم فبغوا و لم يسمعوا لوصاياك وأخطئوا ضد أحكامك التى إذا عملها إنسان يحيا بها ، وأعطوا كتفا معاندة وصلبوا رقابهم و لم يسمعوا فاحتملتهم سنين كثيرة وأشهدت عليهم بروحك على يد أنبيائك فلم يصغوا ، فدفعتهم ليد شعوب الأراضى ولكن لأجل مراحمك الكثيرة لم تفنهم و لم تتركهم لأنك إلـه حنان ورحيم .

والآن يا إلـهنا الإلـه العظيم الجبار المخوف حافظ العهد والرحمة لا تصغر لديك كل المشقات التى أصابتنا نحن وملوكنا ورؤساءنا وكهنتنا وأنبياءنا وآباءنا وكل شعبك من أيام ملوك آشور إلى هذا اليوم . وأنت بار فى كل ما أتى علينا لأنك عملت بالحق ونحن أذنبنا ، وملوكنا ورؤساؤنا وكهنتنا وآباؤنا لم يعملوا شريعتك ولا أصغوا إلى وصاياك التى أشهدتنا عليهم ، وهم لم يعبدوك فى مملكتهم وفى خيرك الكثير الذى أعطيتهم وفى الأرض الواسعة السمينة التى

جعلتها أمامهم و لم يرجعوا عن أعمالهم الردية . ها نحن اليوم عبيد . والأرض التى أعطيت لآبائنا ليأكلوا أثمارها وخيرها ها نحن عبيد فيها ، وغلاتها كثيرة للملوك الذين جعلتهم علينا لأجل خطايانا وهم يتسلطون على أجسادنا وعلى بهائمنا حسب إرادتهم ونحن فى كرب عظيم . ومن أجل كل ذلك نحن نقطع ميثاقا ونكتبه ورؤساؤنا ولاويونا وكهنتنا يختمون » .

أهذه صلاة أم ابتهالات أم ميثاق بين عزرا ونحميا واللاويين وبين رب العالمين ؟ أكان الله فى حاجة إلى أن يذكروه بما فعل السفهاء منهم ؟

هل الميثاق الذى يعطيه الناس لرب الناس لا بد من أن يوقع عليه الرؤساء واللاويون والكهنة ؟ إن نحميا ساقى الملك كان متأثرا بتقاليد البلاط الفارسى الذى عاش فيه :

وهناك سؤال يثور فى نفسى : كيف تقدست هذه المذكرات التى يكتبها نحميا وبأى سلطان أصبحت جزءا من توراة اليهود ؟ أهى وحى من السماء أم خلجات نفس نحميا وخفقات قلبه وثمار عقله ؟ إن كثيرا من الصالحين المسلمين والمتصوفين قد ناجوا ربهم مناجاة أروع من هذه المناجاة فهل يقبل المسلمون أن تضم أمثال تلك المناجاة إلى القرآن الكريم ؟ يعرف المسلمون أن القرآن قد نزل على محمد ـ ﷺ ـ وأن الوحى قد انقطع بعد موت نبى الإسلام عليه السلام وأن كل ما تحركت به ألسنة الصالحين إن هو إلا من نور الرسالة ، ويعرف بنو إسرائيل أن التوراة قد نزلت على موسى عليه السلام وأن وحى السماء فيما يختص بالتوراة قد انقطع بموت كليم الله فكيف قبلوا طائعين أن يلحق بالتوراة كل ما كتبه الأنبياء الذين تخرجوا فى معاهد الأنبياء بالرامة وأريحا وبيت إيل والجلجال ؟ قد قبل اليهود مبدأ أن تكون التوراة سجل تاريخ اليهودية ، فكيف قبل المسيحيون أن تكون توراة المنفى جزءا مكملا

لشريعتهم ؟ إن السيد المسيح عليه السلام قال إنه ما جاء لينقض الشريعة الموسوية ولكنه جاء ليكملها . وكان روح الله وكلمته يقصد الشريعة التى نزلت على موسى عليه السلام ، لا التوراة التى كتبها عزرا ونحميا واللاويون فى أرض السبى ببابل ، والدليل على ذلك أنه كان ينقد ما جاء به اليهود من خرافات نقدا مرا ، إنه عارض السبت وعدم العمل فيه ، ولو كان السبت من شريعة موسى عليه السلام لما عارضه السيد المسيح . وكان يقاوم أعمال الفريسيين المتعصبين لنصوص توراة المنفى مقاومة شديدة ، ولو كانوا على هدى توراة موسى كليم الله لما وقف المسيح عليه السلام فى وجههم ولما قاد الثورة المسيحية ضد تعاليمهم ولما تمنى أن يتقوض الهيكل الذى كانوا يقدسونه ، لا لأنه بيت الله بل لأنه أصبح مخزنا للذهب والفضة ورمزا للذهب معبودهم .

ولنستأنف مناقشة مذكرات نحميا التى تقدست وأصبحت سفرا هاما من أسفار توراة بابل ، ولنر الآن الذين ختموا الميثاق الذى أبرموه بينهم وبين ربهم : « والذين ختموا هم : نحميا الترشانا ابن ملكيا ، وصدقيا وسرايا وعزريا وبرميا وتتحور وأمرتا وملكيا وحطوش وسبنيا وملوُّح وحاريم ومريموث وعوبديا ودنيال وجنثون وباروخ ومشُلام وأبيا وميامين ومعزيا وبلحاى وسمعيا ، هؤلاء هم الكهنة واللاويون ...

وباقى الشعب والكهنة واللاويين والبوابين والمغنين والتثينيم وكل الذين انفصلوا من شعوب الأراضى إلى شريعة الله ونسائهم وبنيهم وبناتهم . كل أصحاب المعرفة والفهم ولصقوا بإخوتهم وعظمائهم ودخلوا فى قسم وحلف أن يسيروا فى شريعة الله التى أعطيت عن يد موسى عبد الله ، وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الرب سيدنا وأحكامه وفرائضه ، وأن لا نُعطى بناتنا

لشعوب الأرض ولا نأخذ بناتهم لبنينا ، وشعوب الأرض الذين يأتون بالبضائع وكل طعام يوم السبت للبيع لا نأخذ منهم فى سبت ولا فى يوم مقدس ، وأن نترك السنة السابعة والمطالبة بكل دَيْن . وأقمنا على أنفسنا فرائض : أن نجعل على أنفسنا ثلث شافل كل سنة لخدمة بيت إلٰهنا . لخبز الوجوه والتقدمة الدائمة والمحرقة الدائمة والسبوت والأهلة والمراسم والأقداس وذبائح الخطية للتكفير عن إسرائيل ولكل عمل بيت إلٰهنا . وألقينا قُرَعا على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب لإدخاله إلى بيت إلٰهنا حسب بيوت آبائنا فى أوقات معنة سنة فسنة لأجل إحراقه على مذبح الرب إلٰهنا كما هو مكتوب فى الشريعة . ولإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل شجرة سنة فسنة إلى بيت الرب ، وأبكار بنينا وبهائمنا كما هو مكتوب فى الشريعة وأبكار بقرنا وغنمنا لإحضارها إلى بيت إلٰهنا إلى الكهنة الخادمين فى بيت إلٰهنا ، وأن نأتى بأوائل عجيننا ورقائقنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة إلى مخادع بيت إلٰهنا ، وبُعشر أرضنا إلى اللاويين واللاويون هم الذين يعشرون فى جميع مدن فلاحتنا ، ويكون الكاهن بن هارون مع اللاويين حين يعشر اللاويون ، ويصعد اللاويون عشر الأعشار إلى بيت إلٰهنا إلى المخادع إلى بيت الخزينة : لأن بنى إسرائيل وبنى لاوى يأتى برفيعة القمح والخمر والزيت إلى المخادع ، وهناك آنية القدس والكهنة الخادمون والبوابون والمغنون ، ولا نترك بيت إلٰهنا » .

إن التكرار صفة الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، ويلاحظ أن عزرا قد ثار على زواج اليهودى من أجنبية وزواج اليهودية من أجنبى ، وأن نحميا يعود ويؤكد أن الذين وقعوا ميثاقا مع إلٰههم قد تعاهدوا على ألا يعطوا بناتهم لشعوب الأرض ولا يأخذوا لبنيهم بنات شعوب الأرض . أى أنهم لا

يتزوجون من الأميين ولا يزوجونهم ؛ وكانت ثورة عارمة على مثل ذلك الزواج المختلط ، فهل حافظ اليهود على عهدهم ؟ سنرى عندما نناقش سفر إستير أن ابن عمها قدمها إلى الملك أخشويرش كمحظية عن طيب خاطر ، فهل لا تطبق الشريعة إلا على الفقراء فقط !

وشرح نحميا كيفية توزيع الزكاة عند الذين كتبوا التوراة فى المنفى . إنها ليست للفقراء والمساكين ، بل لذبح الأضاحى لإلـٰه إسرائيل ، وإلـٰه إسرائيل لا ينال لحومها ولا دماءها بل الكهنة اللاويون والكهنة من أبناء هرون هم الذين يأخذون لحوم الأضاحي وعشور ثمار الأرض وزكاة المواشي والغنم . إنهم أخذوا عن كهنة آلهة البابليين استغلال الشعوب باسم الدين لتحقيق منافع لهم وملء خزائنهم بثمار الأرض الثمينة ، أرض فلسطين .

وراح نحميا ساقى الملك ونبى اليهود الجديد يصف كيف استعانوا بالقرعة ، وبالضرب بالأزلام ، ليختاروا واحدا من كل عشرة للسكنى فى أورشليم . فقد وقر فى عقولهم أن إلـٰههم فى أورشليم فمن عاش فيها عاش مع الرب ، ومن عاش خارجها كان بعيدا عن الإلـٰه ، وما قدروا الله حق قدره بعد أن فسدت معتقداتهم بطول معاشرة البابليين .

وراح نحميا يشرح كيف كانوا يجمعون من الحقول أنصبة الشريعة للكهنة واللاويين لا للفقراء والمساكين ولا لتحرير الرقيق . وقد استغل عزرا فرصة كتابته للتوراة الجديدة فراح يبث فيها هواه ويحرم ما يشاء ويحلل ما يشاء ويغرس كراهية بعض الشعوب فى قلوب اليهود . ولنقرأ معا الإصحاح الثالث عشر من سفر نحميا لنرى كيف أجج عزرا نار البغضاء لشعب عمان وموآب :

« وفى ذلك اليوم قرىء فى سفر موسى فى آذان الشعب ووجد مكتوبا فيه

أن عمونيا وموآبيا لا يدخل فى جماعة الله إلى الأبد ، لأنهم لم يلاقوا بنى إسرائيل بالخبز والماء بل استأجروا عليهم بلعام لكى يلعنهم ، وحول إلهنا اللعنة إلى بركة ، ولما سمعوا الشريعة فرزوا كل اللفيف من إسرائيل .

وقبل هذا كان الباشيب الكاهن المُقام مخدع بيت إلٰهنا قرابةُ طوبيا قد هيأ له مُخدعا عظيما حيث كانوا سابقا يضعون التقدمات والبخور والآنية وعُشر القمح والخمر والزيت فريضة اللاويين والمغنين والبوابين ورفيعة الكهنة ، وفى كل هذا لم أكن فى أورشليم لأنى فى السنة الاثنتين والثلاثين لأرتحشستا ملك بابل دخلت إلى الملك ، وبعد أيام استأذنت من الملك وأتيت إلى أورشليم وفهمت الشر الذى عمله الباشيب لأجل طوبيا بعمله له مخدعا فى ديار بيت الله وساءنى الأمر جدا وطرحت جميع آنية بيت طوبيا خارج المخدع ، وأمرتُ فطهروا المخادع ورددت إليها آنية بيت الله مع التقدمة والبخور . وعلمت أن أنصبة اللاويين لم تعط بل هرب اللاويون والمغنون عاملو العمل كل واحد إلى حقله ، فخاصمت الولاة وقلت : لماذا ترك بيت الله ؟ فجمعتهم وأوقفتهم فى أماكنهم ، وأتى كل يهوذا بُعشر القمح والخمر والزيت إلى المخازن ، وأقمت خَزَنة على الخزائن شلميا الكاهن وصادوق الكاتب وفدايا من اللاويين وبجانبهم حانان بن زكور بن متنيا لأنهم حسبوا أمناء وكان عليهم أن يقسموا على إخوتهم ، اذكرنى يا إلٰهى من أجل هذا ولا تمح حسناتى التى عملتها نحو بيت إلٰهى ونحو شعائره .

ذهب نحميا إلى قصر الملك وترك أورشليم و لم يقل لنا ما إذا كان قد عاد ليقدم الخمر للملك وبطانته أو ليدعو الملك إلى الله كما ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون من قبل ليدعوه إلى عبادة رب العالمين . ومما لا شك فيه أن نحميا لم يدع أرتحشستا إلى عبادة إلٰه إسرائيل ، فقد ضاق أفق اليهود وبلغ بهم الغرور

أن اعتقدوا أنهم وحدهم الناس وأن الله قد اصطفاهم على العالمين ، وأن ليس من الحكمة أن يؤمن غير اليهود بالٰـه إسرائيل حتى لا يزاحموهم فى خيرات الله التى يخص بها عباده فى الدنيا ، فقد كانت حياتهم متاع الغرور .

وعاد نحميا إلى فلسطين لينفذ ما شرعه عزرا بسلطان كسرى فهو ساقى الملك المقرب منه ، فقد حاول أن يوهم الناس أن ما جاء به عزرا هو شريعة موسى ، ولكن الناس انفضوا من حول تلك الشريعة فراح يطبقها بقوة نفوذه فى مملكة الساسانيين . ولنستمع إليه وهو يروى فى مذكراته التى تقدست كيف أرغم اليهود على احترام السبت وعدم العمل فيه : « فى تلك الأيام رأيت فى يهوذا قوما يدوسون معاصر فى السبت ويأتون بحزم ويحملون حميرا ، وأيضا يدخلون فى أورشليم فى يوم السبت بخمر وعنب وتين وكل ما يحمل ، فأشهدت عليهم يوم بيعهم الطعام . والصوريون الساكنون بها كانوا يأتون بسمك وكل بضاعة ويبيعون فى السبت لبنى يهوذا وفى أورشليم ، فخاصمت عظماء يهوذا وقلت لهم : ما هذا الأمر القبيح الذى تعملونه وتدنسون يوم السبت ؟ ألم يفعل آباؤكم هكذا فجلب إلٰـهنا علينا كل هذا الشر وعلى هذه المدينة ، وإنكم تزيدون غضبا على إسرائيل إذ تدنسون السبت ؟ وكان لما أظلمت أبواب أورشليم قبل السبت أنى أمرت بأن تغلق الأبواب وقلت أن لا تفتحوها إلا ما بعد السبت . وأقمت من غلمانى على الأبواب حتى لا يدخلوا حمل فى يوم السبت ، فبات التجار وبائعو كل بضاعة خارج أورشليم مرة واثنتين ، فأشهدت عليهم فإنى ألقى يدا عليكم ، ومن ذلك الوقت لم يأتوا فى السبت ، وقلت للاويين أن يتطهروا ويأتوا ويحرسوا الأبواب لأجل تقديس يوم السبت ، بهذا أيضا اذكرنى يا إلٰـهى وتراءف علىّ حسب كثرة رحمتك » .

كان جوهر الدين عند نحميا مظاهر مادية ، تقديم القرابين رائحة سرور للإلٰه وتقديس السبت ، أما السرائر والقلوب وسلوك الناس مع ربهم ومع الناس فشيء لا يثير حماس ساقى الملك .

وزواج اليهودى من بنات الأمم وزواج اليهودية من رجال الأمم شيء يحتاج إلى عصا نحميا ليستقيم الأمر حسب هوى عزرا : « فى تلك الأيام أيضا رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات ونصف كلام بنيهم باللسان الأشدودى و لم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودى بل لسان شعب وشعب ، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناسا ونتفت شعورهم واستحلفتهم بالله قائلا : لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم . أليس من أجل هؤلاء أخطأ سليمان ملك إسرائيل ، و لم يكن فى الأمم الكثيرة ملك مثله وكان محبوبا إلى إلٰهه فجعله ملكا على إسرائيل ؟ هو أيضا ، جعلته النساء الأجنبيات يخطئ . فهل نسكت لكم أن تعملوا كل هذا الشر العظيم بالخيانة ضد إلٰهنا بمساكنة نساء أجنبيات ؟ وكل واحد من بنى يوباداع بن الياشيب الكاهن العظيم صهرا لسنبلط الحورونى فطردته من عندى . اذكرهم يا إلٰهى لأنهم نجسوا الكهنوت وعهد الكهنوت واللاويين كل واحد على عمله ولأجل قربانى الحطب فى أزمنة معينة وللباكورات ، فإذكرنى يا إلٰهى بالخير » .

كان نبى الله سليمان عليه السلام لا يفرق بين الإسرائيلى والمصرى والكنعانى والموآبى والعمانى ، فهم فى نظر النبوة والرسالة عبيدا لله لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . وكان يعلم أن الناس لآدم وأنهم سواسية أمام الله ، لذلك تزوج مصرية وكنعانية ومؤابية وسبئية و لم يجد فى ذلك غضاضة ، أما الذين كتبوا التوراة فى المنفى بعد عهد سليمان عليه السلام

فقد ملكهم الغرور وظنوا أنهم وحدهم الناس ، وأن زواج اليهودى من غير اليهودية فيه افتئات على الدم اليهودى ، لذلك كفّروا سليمان وما كفر سليمان ولكن الذين كتبوا التوراة كانوا فى جهالتهم يعمهون . فقد وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يليق بالذات العلية . اتهموه — سبحانه وتعالى عما يصفون — بالجهل وبالندم على خلق البشر والانتقام منهم ، ووصفوا الأنبياء بما لا يليق بهم من المعاصى و لم يكن منهم معصوم إلا عزرا ونحميا ولا غرو فقد كتبا التوراة بأيديهما ولا ينتظر ممن يكتب بيده أن يصف نفسه على حقيقتها أو يلصق بها أى سوء .

وانتهى سفر نحميا بالتشدد فى مسألة زواج اليهودى أو اليهودية من غير الجنس اليهودى كما انتهى من قبل سفر زعرا بنفس التشدد فى المسألة . ولننتقل الآن إلى سفر إستير لنرى مدى تطبيق ذلك التشريع الذى سنه كل من عزرا ونحميا واحترامه :

« وحدث فى أيام أخشويرش — هو أخشويرش الذى ملك من الهند إلى كوش على مائة وسبع وعشرين كورة — أنه فى تلك الأيام حين جلس الملك أخشويرش على كرسى ملكه الذى فى شوشن القصر . فى السنة الثالثة من ملكه عمل وليمة لجميع رؤسائه وعبيده جيش فارس ومادى وأمامه شرفاء البلدان ورؤسائه حين أظهر غنى مجد ملكه ووقار جلال عظمته أياما كثيرة مائة وثمانين يوما . وعند انقضاء هذه الأيام عمل الملك لجميع الشعب الموجودين فى شوشن القصر من الكبير إلى الصغير وليمة سبعة أيام فى دار جنة قصر الملك . بأنسجة بيضاء وخضراء واسمانجونية معلقة بحبال من بردار جوان فى حلقات من فضة وأعمدة من رخام وأسرة من ذهب وفضة على مجزع من بهت ومرمر ودر ورخام أسود . وكان السقاء من ذهب والآنية مختلفة

الأشكال والخمر الملكى بكثرة وحسب كرم الملك ، وكان الشرب حسب الأمر . لم يكن غاضب لأنه هكذا رسم الملك على كل عظيم فى بيته أن يعملوا حسب رضا كل واحد . ووشتى الملكة عملت أيضا وليمة للنساء فى بيت الملك الذى للملك أخشويرش » .

وطلب الملك أن تأتى الملكة أمام الشعوب ليروا جمالها فأبت وشتى ، فثار الملك وقال له حكماؤه : « فإذا حسن عند الملك فليخرج أمر ملكى من عنده وليكتب فى سفر فارس ومادى فلا يتغير : أن لا تأتى وشتى إلى أمام الملك أخشويرش وليعط الملك ملكها لمن هى أحسن منها ، فيسمع أمر الملك الذى يخرجه فى كل مملكة لأنها عظيمة ، فتعطى جميع النساء الوقار لأزواجهن من الكبير إلى الصغير » .

وأشاروا على الملك أن تحمل إلى القصر فتيات عذارى حسناوات « وكان فى القصر رجل يهودى اسمه مردخاى بن يائير بن شمعى بن قيِّس ، رجل يمنى قد سبى من أورشليم مع السبى الذى سبى مع يكنيا ملك يهوذا الذى سباه نبوخذنصر ملك بابل ، وكان مربيا لـ « هدسة » أى إستير بنت عمه لأنه لم يكن لها أب ولا أم وكانت الفتاة جميلة الصورة حسنة المنظر ، وعند موت أبيها وأمها اتخذها مردخاى لنفسه ابنة ، فلما سمع كلام الملك وأمره وجمعت فتيات كثيرات إلى شوشن القصر إلى يد هيجاى (خصى الملك حارس النساء) . أخذت إستر إلى بيت الملك إلى يد هيجاى حارس النساء ، وحسنت الفتاة فى عينيه ونالت نعمة بين يديه فبادر بأدهان عطرها وأنصبتها ليعطيها إياها مع السبع الفتيات المختارات ليعطى لها من بيت الملك ، ونقلها مع فتياتها إلى أحسن مكان فى بيت النساء ، ولم تخبر إستير عن شعبها وجنسها لأن مردخاى أوصاها ألا تخبر ، وكان مردخاى يتمشى يوما فيوما أمام بيت النساء ليستعلم عن

سلامة إستر وعما يصنع بها !.

مردخاى — ولا بد أنه هو نفسه كاتب سفر إستير — قدم بنت عمه الجميلة إلى بلاط الملك لتكون له محظية ، وقد ضرب بقول عزرا بتحريم زواج اليهودية من غير اليهودى عرض الحائط — ويا ليته كان زواجا بل متعة وتسرية ، وأصم أذنيه عن أن يسمع قول نحميا بانفصال نسل إسرائيل من جميع بنى الغرباء ، فالغاية عنده تبرر الواسطة ، وكانت غايته أن يستولى بجمال إستير على لب الملك فتصبح مملكة فارس التى تمتد من الهند إلى أرض كوش ألعوبة فى يديه .

« وكانت إستير تنال نعمة فى عينى كل من رآها .. فأحب الملك إستير أكثر من جميع النساء ووجدت نعمة وإحسانا قدامه أكثر من جميع العذارى ، فوضع تاج الملك على رأسها وملكها مكان وشتى » .

وعلم مردخاى بمؤامرة لاغتيال الملك ، أو لعله اخترع تلك المؤامرة اختراعا ، فأخبر إستير الملكة ، فنقلت إلى الملك أنباء تلك المؤامرة ، فصُلب الخصيان اللذان دبراها أو اللذان اتهمهما مردخاى بتدبيرها .

« وبعد هذه الأمور عظم الملك أحشويروش هامان بن همداثا الأجاجى ورقاه وجعل كرسيه فوق جميع الرؤساء الذين معه ، فكان كل عبيد الملك الذين بباب الملك يجثون ويسجدون لهامان لأنه هكذا أوصى به الملك ، وأما مردخاى فلم يجث و لم يسجد . فقال عبيد الملك الذين بباب الملك لمردخاى : لماذا تتعدى أمر الملك ؟ وإذا كانوا يكلمونه يوما فيوما و لم يكن يسمع لهم أخبروا هامان ليروا هل يقوم كلام مردخاى لأنه أخبرهم بأنه يهودى ، ولما رأى هامان أن مردخاى لا يجثو ولا يسجد له امتلأ هامان غضبا ، وازدرى فى عينيه أن يمد يده إلى مردخاى وحده لأنهم أخبروه عن شعب مردخاى ، فطلب

هامان أن يهلك جميع اليهود الذين فى كل مملكة أخشويروش شعب مردخاى » .

وكشف هامان ألاعيب اليهود وتمكن من أن يصدر أمرا بإبادة كل اليهود الذين كانوا فى ملك أخشويروش ، وعلم مردخاى فشق ثيابه ودخلت جوارى إستير وخصيانها وأخبروها فساءها الخبر وأرسلت إلى مردخاى تسأله عن سبب تمزيق ثيابه ، فأرسل إليها صورة من الأمر الملكى بإبادة اليهود ، فدخلت على الملك فقال لها : « ما لك يا إستير الملكة وما هى طلبتك ؟ إن نصف المملكة تعطى لك . فقالت إستير : إن حسن عند الملك فليأت الملك وهامان اليوم إلى الوليمة التى عملتها له . فقال الملك : أسرعوا بهامان ليفعل كلام إستير . فأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى عملتها إستير . فقال الملك لإستير عند شرب الخمر : ما هو سؤالك فيعطى لك وما هى طلبتك ؟ إلى نصف المملكة تقضى . فأجابت إستير وقالت : إن سؤلى وطلبتى ، إن وجدت نعمة فى عينى الملك ، وإذا حسن عند الملك أن يعطى سؤلى وتقضى طلبتى أن يأتى الملك وهامان إلى الوليمة التى أعملها وغدا أفعل حسب أمر الملك » .

وبدهاء الأنثى أخبرت إستير الملك أخشويروش أن مردخاى هو الذى كشف المؤامرة على حياته ، فألبس الملك مردخاى اللباس السلطانى وأمر بفرسه الذى يركبه وبتاج الملك الذى يوضع على رأسه ، وأمر رجاله أن يركبوا مردخاى الفرس فى ساحة المدينة وأن ينادوا قدامه : هكذا يصنع للرجل الذى يسر الملك بأن يكرمه .

واستطاعت إستير بمعاونة مردخاى أن يغيرا قلب الملك على هامان عدو اليهود ، وأن يجعلاه يصدر حكما بصلب هامان على نفس الخشبة التى كان هامان قد أعدها ليصلب مردخاى عليها .

ويزعم مردخاى الذى كتب هذا السفر فى الإصحاح الثامن أن الملك

أخشويروش لم يكتف بذلك بل قال لإستير الملكة ومردخاى اليهودى : « هو ذا قد أعطيت بيت هامان لإستير ، أما هو فقد صلبوه على الخشبة من أجل أنه مد يده إلى اليهود فاكتبا أنتما إلى اليهود ما يحسن فى أعينكما باسم الملك واختماه بخاتم الملك ، لأن الكتابة التى تكتب باسم الملك وتختم بخاتمه لا ترد . فدعى كتاب الملك فى ذلك الوقت فى الشهر الثالث أى شهر سيوان فى الثالث والعشرين منه ، وكتب حسب كل ما أمر به مردخاى إلى اليهود إلى المرازبة والولاة ورؤساء البلدان التى من هند إلى كوش مائة وسبع وعشرين كورة ، إلى كل كورة بكتابتها وإلى كل شعب بلسانه وإلى اليهود بكتابتهم ولسانهم . فكتب باسم الملك أخشويروش وختم بخاتم الملك وأرسل رسائل بأيدى بريد الخيل رُكَّاب الجياد والبغال بنى الرَّمَك التى بها أعطى الملك اليهود فى مدينة فمدينة أن يجتمعوا ويقضوا الأجل أنفسهم ويهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم حتى الأطفال والنساء ، وأن يسلبوا غنيمتهم » .

إن اليهود إذا قدورا لا يعرفون رحمة فقلوبهم قدت من حجارة بل أشد قسوة ، فمن الحجارة ما يتفجر منها الماء وما تخر ساجدة من خشية الله . إنهم يتهللون بالفرح لقتل النساء والأطفال وهذا ليس زعما ولا افتراء ، فلنقرأ معا ما كتبه مردخاى الذى صار عظيما فى بيت الملك بفضل جمال ابنة عمه : « فضرب اليهود جميع أعدائهم ضربة سيف وقتل وهلاك وعملوا بمبغضيهم ما أرادوا ، وقتل اليهود فى شوشن القصر وأهلكوا خمسمائة رجل وبنى هامان العشرة ... » .

« ثم اجتمع اليهود الذين فى شوشن القصر فى اليوم الرابع عشر أيضا من شهر آذار وقتلوا فى شوشن القصر ثلاثمائة رجل ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى النهب ، وباقى اليهود الذين فى بلدان الملك اجتمعوا ووقفوا لأجل أنفسهم

واستراحوا من أعدائهم وقتلوا من مبغضيهم خمسة وسبعين ألفا ولكن لم يمدوا أيديهم إلى النهب ... » .

صورة دامية لا تستغرب من اليهود إذا قدروا ، بل صورة بشعة تحط من قدر البشرية ، فأين هذه الصورة القاسية من الصورة الرحيمة التى رسمها نبى الإسلام عليه السلام يوم أن فتح مكة وأصبح كل أعدائه فى قبضة يده ؟ إنه قال لهم فى تواضع يليق بأنبياء الله ورسله : ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . صورة نبيلة لا أدرى كيف غابت عن أعين أعداء الإسلام من الكتاب والمستشرقين الذين جعلوا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هدف افتراءاتهم .

ولم يخجل اليهود من أن مردخاى قدم ابنة عمه الجميلة إلى الملك لتكون محظية من محظياته ، ولم يثر أحد منهم على أن مردخاى قبل أن يزوج اليهودية من رجل من شعوب الأرض ، فالشريعة التى شرعها عزرا وأيدها نحميا تحرم زواج اليهودية من أمىّ حتى لو كان ملكا ، بل أغمض الجميع أعينهم عن هذه الزلة بل المعصية فى دين اليهود وباركوا جميعا عمل مردخاى ، بل قدسوا مذكراته وضموها إلى التوراة وجعلوا لإستير الملكة عيدا يحتفل به كل عام كل من يؤمن بتوراة المنفى من يهود ومسيحيين !

ولنقرأ الإصحاح العاشر والأخير من سفر إستير لنرى كيف ختم مردخاى مذكراته بتمجيد نفسه : « ووضع الملك أخشويروش جزية على الأرض وجزائر البحر وكل عمل سلطانه وجبروته وإذاعة عظمة مردخاى الذى عظمه الملك أما هى مكتوبة فى سفر أخبار الأيام لملوك مادى وفارس ، لأن مردخاى اليهودى كان ثانى الملك أخشويروش وعظيما بين اليهود ومقبولا عند كثرة إخوته طالبا الخير لشعبه ومتكلما بالسلام لكل نسله » .

وكان اليهود أيام التدوين يسطون على آداب الشعوب التى عاشوا فيها وينسبون حكمة تلك الشعوب لرجال من اليهود . إنهم استعانوا بأساطير البابليين ومعتقداتهم وديانة قدماء المصريين وصلواتهم فى إعادة كتابة التوراة فى منفاهم ، فلم يكتفوا بأن سلبوا الكنعانيين لسانهم العبرى ونسبوه لأنفسهم بل استباحوا ثمرات عقول الفراعنة والبابليين بل والإسماعيليين الذين عاشوا على مقربة منهم فى جزيرة العرب .

كان أيوب نجديا و لم يكن من بنى إسرائيل ، وقد اشتهر بصبره على المكاره وعبادته لربه فى السراء والضراء عبادة ذهب صيتها فى الأمم ، فعز على الذين كانوا يكتبون التوراة أن يكون لشعب غير شعب الله المختار فضل فسطوا على قصة أيوب وأضافوها إلى كتابهم المقدس .

وكان من عادة اليهود الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن يذكروا اسم بطل قصتهم واسم أبيه وجده وأجداده حتى يعودوا به إلى هرون الكاهن أو اللاويين آباء موسى أو إلى يهوذا أو غيره من أسباط بنى إسرائيل . أما فيما يختص بأيوب عليه السلام فلم يذكروا إلا اسمه حتى لا ينكشف أمرهم :

« كان رجل فى أرض عَوْص اسمه أيوب ، وكان هذا الرجل كاملا ومستقيما يتقى الله ويحيد عن الشر . وولد له سبعة بنين وثلاث بنات ، وكانت مواشيه سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف جمل وخمسمائة فدان بقر وخمسمائة أتان وخدمة كثيرون جدا ، فكان هذا الرجل أعظم كل بنى الشرق ، وكان بنوه يذهبون ويعملون وليمة فى بيت كل واحد منهم فى يومه ويرسلون ويستدعون أخواتهم الثلاث ليأكلن ويشربن معهم ، وكان لما دارت أيام الوليمة أن أيوب أرسل فقدسهم ، وبكر فى الغد وأصعد محرقات على عددهم كلهم ، لأن أيوب قال : ربما أخطأ بنى وجدفوا على الله فى قلوبهم ،

هكذا كان أيوب يفعل كل الأيام » .

لم يكن اليهود يعرفون غير المحرقات للتقرب إلى الله فجعلوا أيوب يقدم محرقات على عدد أولاده ليصبغوا القصة بالصبغة اليهودية ، وكما هي عادتهم بإلصاق الجهل بالله سبحانه وتعالى نجدهم في الفقرات التالية ينطقون الله بأسئلة تنم عن عدم علمه ــ سبحانه وتعالى عما يصفون : « وكان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم ، فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ ، فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشي فيها . (كأن الله سبحانه وتعالى لا يعرف) فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأن ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل مستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى أيوب الله ؟ أليس أنك سيَّجت حوله وحول بيته وحول كل ماله من ناحية ؟ ، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الأرض ، ولكن ابسط يدك الآن ومسَّ كل ماله فإنه فى وجهك يجدف عليك ، فقال الرب للشيطان : هو ذا كل ماله فى يدك ، وإنما إليه لا تمد يدك . ثم خرج الشيطان من أمام وجه الرب .

وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر أن رسولا جاء إلى أيوب وقال : البقر كانت تحرس والأتن ترعى بجانبها فسقط عليها السبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك . وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال : نار الله سقطت من السماء فأحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم ونجوت أنا وحدى لأخبرك . وبينما هو يتكلم إذ جاء آخر وقال : الكلدانيون عبئوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال وأخذوها وضربوا الغلمان بحد السيف ونجوت أنا وحدى لأخبرك ، وبينما هو

يتكلم إذ جاء آخر وقال : بنوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمرا فى بيت أخيهم الأكبر وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوت أنا وحدى لأخبرك . فقام أيوب ومزق جبته وجز شعر رأسه وخر على الأرض وسجد وقال : « عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى هناك . الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركا ، فى كل هذا لم يخطئ أيوب ولم ينسب لله جهالة » .

يلاحظ أن أيوب قال : عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى هناك ، ولم يشرح لنا كاتب هذا السفر ما الذى يقصده من « هناك » ، إن اليهود لا يؤمنون بالبعث وأيوب يؤمن ككل أنبياء الله بيوم النشور، يوم الحساب ، إنه يقصد ولا ريب يوم الدينونة بقوله : عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود إلى هناك ترى هل لم يفطن الذى وضع سفر أيوب بين دفتى التوراة إلى هذا التناقض بين النص والعقيدة اليهودية ؟

« وكان ذات يوم أن جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضا فى وسطهم ليمثل أمام الرب ، فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الأرض ومن التمشى فيها . فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدى أيوب ؟ لأنه ليس مثله فى الأرض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بكماله ، وقد هيجتنى عليه لأبتلعه بلا سبب ، فأجاب الشيطان الرب وقال : جلدٌ بجلد وكل ما للإنسان يعطيه لأجل نفسه ، ولكن ابسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه فى وجهك يجدف عليك ، فقال الرب للشيطان : ها هو فى يدك ولكن احفظ نفسه » .

حوار لا يليق بالذات العلية ، فالرب لا يدرى أين كان الشيطان ولعل عذر

الكاتب اليهودى الذى أعاد صياغة قصة أيوب العربى أنه يعتقد أن الله يعيش فى الهيكل فى أورشليم كما يعيش الملوك ، وأنه يمكن أن يهيج على عبيده كما هيجت إستير ومردخاى أخشويروش الملك على هامان عدو اليهود ، وأن فكرة الرب عند البابليين عبدة الكواكب والشمس والقمر أرقى من فكرة الرب عند اليهود . ولنقرأ معا ما كان يبتهل به عبَّاد القمر إلى الإلٰـه :

أيها الرب الرحيم الشفيق .
الذى فى قبضته حياة الأرض قاطبة ،

. . . .

. . . .

والرب الذى يقرر حكم السماء والأرض ،
والذى لا مبدل لأمره .
والقابض على النار والماء والمرشد للمخلوقات .
الأحياء ، فمن ذلك الإلٰـه الذى يعادلك ؟

إن عابد القمر يؤمن أن ربه هو الذى يقرر حكم السماء والأرض وأنه لا مبدل لأمره ، أما اليهودى الذى يعبد إلٰـه إسرائيل فيجعل إلٰـهه ألعوبة فى يد الشيطان يصغى إلى همزاته ولمزاته ويستجيب لوسوساته ، فإذا كان ذلك شأن الإلٰـه فيالضيعة البشر !.

« فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته ، فأخذ لنفسه شقفة ليحتك بها وهو جالس فى وسط الرماد ، فقالت له امرأته : أنت متمسك بعد بكمالك . بارك الله ومت . فقال لها : تتكلمين كلاما كإحدى الجاهلات ، الخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل ؟! فى كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه .

فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكل الشر الذى أتى عليه جاءوا كلُّ واحد من مكانه : البفاز التيمانى وبلدد الشوحى وصوفر النعمانى وتواعدوا أن يأتوا ليرثوا له ويعزوه ، ورفعوا أعينهم من بعيد و لم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزق كل واحد جبته وذروا ترابا فوق رءوسهم نحو السماء ، وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليال و لم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته عظيمة جدا . بعد هذا فتح أيوب فاه وسب يومه ، وإذ أيوب يتكلم فقال[1] :

ـــ ليته هلك اليوم الذى ولدت فيه والليل الذى قال : قد حُبل برجل ، وليكن ذلك اليوم ظلاما لا يعتنى به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار ، يملكه الظلام وظل الموت ، ليحل عليه سحاب ، لترعَبُه كاسفات النهار ، أما ذلك الليل فليمسكه الدجى ولا يفرح بين أيام السنة ولا يدخلن فى عدد الشهور ، هو ذا ذلك اليوم ليكن عاقرا ، لا يسمع فيه هتاف ، ليلعنه لاعنو اليوم المستعدون لإيقاظ التنين . لتظلم نجوم عشائه ، لينتظر النور ويكن ولا يَر هدب الصبح لأنه لم يغلق أبواب بطن أمى و لم يستر الشقاوة عن عينى ... » .

ويستمر كاتب هذا الإصحاح يصب اللعنات على اليوم الذى ولد فيه أيوب على لسان أيوب ، ويأخذ الأصدقاء الثلاثة فى إزجاء النصائح إلى أيوب حتى يقول أيوب إنه أبر من الله ، ثم تنتهى القصة بمناجاة أيوب قائلا : « قد علمت أنك تستطيع كل شيء ولا يعسر عليك أمر ، فمن ذا الذى يُخفى القضاء بلا معرفة ؟ ولكن قد نطقت بما لا أفهم بعجائب فوقى لم أعرفها ، اسمع الآن وأنا أتكلم . أسألك فتعلمنى ، بسمع الأذن قد سمعت عنك والآن رأتك عينى ، لذلك أرفض وأندم فى التراب والرماد .

وكان بعدما تكلم الرب مع أيوب بهذا الكلام أن الرب قال لأليفاز التيمانى : قد احتمى غضبى عليك وعلى كلا صاحبيك لأنكم لم تقولوا فى

---

(١) نبهنا أحد القراء أنه يستبعد أن يتفوه أيوب بمثل هذا الكلام المتشائم الذى فيه اعتراض على القدر. الناشر . (عام الوفود)

الصواب كعبدى أيوب ، والآن فخذوا لأنفسكم سبعة ثيران وسبعة كباش واذهبوا إلى عبدى أيوب وأصعدوا محرقة لأجل أنفسكم ، وعبدى أيوب يصلى من أجلكم لأنى أرفع وجهك لئلا أصنع معكم حسب حماقتكم لأنكم لم تقولوا لى الصواب كعبدى أيوب . فذهب أليفاز التيمانى ويلدد الشوحى وصوفر النعمانى وفعلوا كما قال الرب لهم ، ورفع الرب وجه أيوب ورد الرب سبى أيوب لما صلى لأجل أصحابه ، وزاد الرب على كل ما كان لأيوب ضِعفا ، فجاء إليه كل إخوته وكل أخواته وكل معارفه من قبل وأكلوا معه خبزا فى بيته ورثوا له وعزوه عن كل الشر الذى جلبه الرب عليه ، وأعطاه كل منهم قسيطة واحدة وكل واحد قرطا من ذهب ، وبارك الرب آخرة أيوب أكثر من أولاده وكان له أربعين ألفا من الغنم وستة آلاف من الإبل وألف فدان من البقر وألف أتان ، وكان له سبعة بنين وثلاث بنات ، اسم الأولى يميمة واسم الثانية قصيمة واسم الثالثة قرن هفُوك ، ولم توجد نساء جميلات كنساء أيوب فى كل الأرض وأعطاهن أبوهن ميراثا بين إخوتهن ، وعاش أيوب بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأى بنيه وبنى بنيه إلى أربعة أجيال ، ثم مات أيوب شيخا وشبعان من الأيام » .

وانتهت قصة أيوب فى التوراة نهاية سعيدة وكان لا مفر من أن تنتهى بمثل هذه النهاية لتتواكب مع المنطق اليهودى الذى يؤمن بأن الجزاء دنيوى ما دامت الدنيا هى كل الحياة ، وإن توريث أيوب لبنيه لا يتفق مع الفكر الإسلامى ، فرسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » فما يتركه الأنبياء إنما هو صدقة للفقراء . ولنقرأ معا آيات القرآن العظيم لنرى ما جاء فى كتاب الله عن أيوب عليه السلام : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر

وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين . »[١] .

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضِغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أوّاب . »[٢] .

وتأتى المزامير بعد سفر أيوب ، والمفروض أنها من غناء داود عليه السلام . وتطلق التوراة على نبى الله داود إمام المغنين ، وبعض هذه المزامير على ذوات الأوتار وبعضها على ذوات النفخ وبعضها على الجيتر . وينبغى ألا يغيب عن البال أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يتخرجون فى مدارس الرامة وبيت إيل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى أبا أو سيدا ، وكان يعلم فى هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ؛ لذلك كان الأنبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب ، والظاهر أن هؤلاء الأنبياء قد نظموا هذه المزامير على لسان داود فى زمن التدوين واستعاروا معتقدات الشعوب وحكمتهم ونسبوها إلى داود عليه السلام .

إن هنرى برستيد يقول إن المزمور الأول قد أخذ عن أمينموبى الحكيم المصرى القديم ، وهذا هو نص ذلك المزمور : « طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن فى ناموس الرب مسرته وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا ، فيكون شجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التى تعطى ثمرها فى أوانه وورقها لا يذبل

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) سورة ص الآيات (٤١ — ٤٤) .

وكل ما يصنع ينجح .

ليس كذلك الأشرار لكنهم كالعصافة التى تُذَريها الريح ، لذلك لا تقدم الأشرار فى الدين ولا الخطاة فى جماعة الأشرار لأن الرب يعلم طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك » .

ونلاحظ أن الدين هنا بمعنى الحساب ، ولم يرد ذكر الحساب فى سفر المزامير كله إلا هذه المرة ، وهذه ملاحظة لها خطرها لأن فكرة الحساب فى عالم الآخرة هي من ثمرات التمدن المصرى القديم .

وهذا هو نص حكمة الحكيم المصرى القديم : « والرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة ، ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته فى مرفأ الخشب وينقل بعيدا عن مكانه والنار مأواه .

والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا .

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده .

وثمرته حلوة وظله وارف ويجد آخرته فى الحديقة » .

وكذلك نلاحظ أن توكيد ذكر مجارى المياه فى الصور العبرانية أمر هام أيضا ، وذلك لأن النصف الجنوبى من فلسطين شبه صحراوى ، وكانت قلة الماء فيه من أسباب المتاعب الشديدة كما هو الحال هناك إلى يومنا هذا .

ونلاحظ من جهة أخرى أن العلامة . « الهيرو غليفية » الدالة على كلمة « حديقة » كانت ترسم بصورة بركة حديقة . ولذلك كان مجرد ذكر كلمة « حديقة » دلالة على الماء لاعتبار ذلك عندهم من الأشياء البدهية . ومن ثم لم تذكر كلمة « ماء » بعينها فى الوصف الذى وصفه « أمينموبى » .

ولذلك نرى أن مشابهة الصور المصرية للصور العبرانية أدق مما يبدو فى

الظاهر . هذا هو رأى هنرى برستد فى كتابه « فجر الضمير » وهو يقارن بين المزمور الأول وبين حكمة « أمينموبى » على اعتبار أن المزمور من وضع داود عليه السلام ، ولكن مما لا شك فيه أن المزامير قد وضعت فى عهد التدوين أيام أن قام عزرا ونحميا ودانيال ومردخاى بكتابة التوراة التى بين أيدينا ؛ التوراة التى كانت سجلا لتاريخ اليهودية من وجهة نظر الذين كتبوها ، وقد عاد برستيد ليؤيد هذا الرأى فقال :

« قامت بشأن الأغانى العبرانية الدينية اختلافات عريضة بين العلماء العبرانيين ومؤرخيهم من حيث تحديد تاريخ « المزامير » ، فقد كان هناك رأى فيه غلو ينسبها إلى أصل متأخر جدا حتى لقد اعتبر تاريخ وضعها كلها بعد عهد نفى العبرانيين فى بابل ، ولكننا نعرف أن الأناشيد الدينية كانت منتشرة فى عهد مبكر جدا فى كل من « بابل » و « مصر » ، ولم يكن هناك من الأسباب على ما يظهر ما يدعو أهل فلسطين — سواء أكانوا من الكنعانيين أم من العبرانيين — إلى عدم استعمال هذا النوع من الأدب قبل عهد « النفى العبرانى » بزمان طويل » .

وعندى أن ذلك الرأى الذى يرجع الأغانى العبرانية الدينية إلى ما بعد عهد نفى اليهود إلى بابل هو الرأى الصحيح وأنه لا غلو فيه ؛ فالتوراة كلها بما فى ذلك الأسفار الخمسة الأولى التى يعترف بها السامريون قد كتبت فى المنفى وبعد العودة مباشرة من المنفى إلى أورشليم ، وذلك واضح من أسفار عزرا ونحميا وإستير .

وعقد برستد مقارنة شائقة بين تعاليم أخناتون والمزامير ، فبعد أن أورد أطول أنشودة تتغنى ببهاء « آتون » وقوته العالمية ، راح يقارن بين فقراتها وبين المزامير . وهذه هى أنشودة أخناتون :

« أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء ، أنت يا « آتون » الحى الذى كنت فى أزلية الحياة .

فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى .
كنت تملأ كل البلاد بجمالك .
أنت جميل وعظيم متلألئ ومشرق فوق كل أرض ،
وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك .
أنت رع ، وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى .
وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون) .
ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض .
ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية (عنهم) .
وحينما تغيب فى أفق السماء الغربى فإن الأرض تظلم كالأموات ،
فينامون فى حجرتهم ورءوسهم ملفوفة ومعاطسهم مسدودة ،
ولا يرى إنسان الآخر .
فى حين أن أمتعتهم تسرق وهى تحت رءوسهم ،
وهم لا يشعرون بذلك .
وكل أسد يخرج من عرينه ليفترس ،
وكل الثعابين تنساب لتلدغ ،
والظلام يخيم والعالم فى صمت .
فى حين أن الذى خلقهم فى أفقه .
الأرض زاهية تشرق فى الأرض ،
وعندما تضئ بالنهار مثل « آتون » .
وحينما ترسل أشعتك .

تصير الأرضان (مصر) فى عيد ،
والناس يستيقظون ويقفون على أقدامهم ،
عند إيقاظك لهم .
وبعد غسلهم لأجسامهم يلبسون ثيابهم ،
ثم يرفعون أذرعتهم تعبدا لطلعتك .
ثم بعد ذلك يقومون إلى أعمالهم فى كل العالم .
وجميع الحاشية ترتع فى مراعيها ،
والأشجار والنباتات تينع .
والطيور فى مستنقعاتها ترفرف ،
وأجنحتها منتشرة تعبدا لك .
وجميع الغزلان ترقص على أقدامها ،
وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط ،
تحيا عندما تضئ عليها .
والسفن تقلع فى النهر صاعدة ،
أو منحدرة فيه على السواء ،
وكل فج مفتوح لأنك أشرقت ،
والسمك يثب فى النهر أمامك ،
وأشعتك تنفذ إلى وسط البحر الأخضر العظيم .
أنت خالق الجرثومة فى المرأة ،
والذى يذرأ من البذرة أناسيا ،
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه ،
ومهدئا إياه حتى لا يبكى ،

مرضعا إياه حتى فى الرحم .
وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته .
وحينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته ،
فأنت تفتح فمه كلية ،
وتمنحه ضروريات الحياة .
وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة ،
فأنت تعطيه نفسا ليحفظه حيا فى وسطها ،
وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج منها ،
وهو يخرج من البيضة فى ميقاته (الذى قدرته له) ،
فيصيح ويمشى على رجليه حينما يخرج منها .
ما أكثر تعدد أعمالك !
إنها على الناس خافية ،
يا أيها الإلـٰه الأحد ،
الذى لا يوجد بجانبه إلـٰه آخر ،
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك ،
وحينما كنت وحيدا (لا شىء غيرك) ،
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان ،
وجميع ما على الأرض ،
مما يمشى على رجليه ،
وما فى عليين مما يطير بأجنحته ،
وفى الأقطار العالية سوريا ،
وكوش وأرض مصر ،

فإنك تضع كل إنسان فى موضعه ،
وتمدهم بحاجاتهم ،
وكل إنسان لديه قوته ،
وأيامه معدودات .
والألسنة فى الكلام مختلفة ،
وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم ،
لأنك تخلق الأجانب مختلفين(١) .

وكانت المقارنة بين هذه الأنشودة والمزمور ١٠٤ :

« باركى يا نفسى الرب . يارب إلٰهى قد عظمت جدا مجدا وجلالا لبست ، اللابس النور كثوب الباسط السموات كشُقّةٍ المُسَقِّف علاليه بالمياه ، الجاعل السحاب مركبته ، الماشى على أجنحته الريح ، الصانع ملائكته رياحا وخدامه نارا ملتهبة ، المؤسس الأرض على قواعدها فلا تتزعزع إلى الدهر والأبد ، كسوتها الغمر كثوب ، فوق الجبال تقف المياه . من انتهارك تهرب ، من صوت رعدك تفر . تصعد إلى الجبال وتنزل إلى البقاع إلى الموضع الذى أسسته لها . وضعت لها تخما لا تتعداه ، لا يرجع لتغطى الأرض .

المفجر عيونا فى الأودية بين الجبال تجرى ، تسقى كل حيوان البر . تكسر الفراء ظمأها . فوقها طيور السماء تسكن . من بين الأغصان تُسمّع صوتا . الساقى الجبال من علاليته . من ثمر أعمالك تشبع الأرض ، المنبت عشبا للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان لإخراج خبز من الأرض . وخمر تفرّح قلب الإنسان

---

(١) فجر الضمير : تأليف جميس هنرى برستد : ترجمة الدكتور سليم حسن . مكتبة مصر .

لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان . تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذى نصبه . حيث يعيش هناك العصافير . أما اللقلق فالسرو بيته . الجبال العالية للوعول ، الصخور ملجأ للوِبار (جمع وبْر : دويبة كالسنّور لكنها أصغر منه) .

صنع القمر للمواقيت ، الشمس تعرف مغربها ، تجعل ظلمة فيصير ليل ، فيه يدب كل حيوان الوعر . الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها . تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء . ما أعظم أعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الأرض من غناك ، هذا البحر الكبير الواسع الأطراف . هناك دبابات بلا عدد ..صغار حيوان مع كبار . هناك تجرى السفن ، لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه ..كلها إياك تترجى لترزقها قوتها فى حينه . تعطيها فتلتقط . تفتح يدك فتشبع خبزا . تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود . ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض .

يكون مجد الرب إلى الدهر ، يفرح الرب بأعماله . الناظر إلى الأرض فترتعد . يمس الجبال فتُدخن . أغنى للرب فى حياتى ، أرنم لإلٰهى ما دمت موجودا فيلذ له نشيدى وأنا أفرح بالرب ، لتبد الخطاة من الأرض والأشرار لا يكونوا بعد . باركى يا نفس الرب . هللويا » .

تكشف لنا أنشودة أخناتون عن المنهل الذى استقى منه مؤلف المزمور العبرانى إدراكه لرحمة الله فى عون مخلوقاته حتى أصغرها ، وتبين أن كتاب التوراة قد أخذوا كثيرا من الأدب الفرعونى والأدب البابلى وادعوه لأنفسهم ، فإنه لما يثير حفيظتهم أن يكون لغيرهم من الأمم فضل أو سبق وهم الذين عبدوا أنفسهم غرورا .

حاول أخناتون فى أناشيده أن يظهر قدرة إلٰهه ، وكان هدف المزامير تمجيد يهوه على أنقاض الأغانى الدينية الفرعونية والبابلية . وقد فاض القرآن العظيم بتمجيد الله سبحانه وتعالى وإظهار قدرته فى آيات أخاذة تبده العقول وتستولى على الأفئدة وترتاح إليها النفوس : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلْق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ضربَ لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون . »[١] «ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . »[٢] . « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا

---

(١) سورة الروم الآيات (١٩ — ٢٨) .

(٢) سورة الروم الآية (٤٦) .

أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . »[١] .

« خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن يميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين . »[٢] . « يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . »[٣] . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد . ولو أنَّ ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير . ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . »[٤] .

وقد يكون فى المزامير بعض ابتهالات داود عليه السلام حفظها الخلف عن السلف ولكن لا يمكن القول بأن المزامير المائة والخمسين الآيات جميعها من نظم داود نبى الله . فالأنبياء الشعراء المغنون الذين تخرجوا فى مدارس الأنبياء لهم نصيب كبير فى تلكم المزامير ، ولم يخل الأثر من اقتباس بعض الأناشيد الدينية للمصريين القدماء والبابليين والكنعانيين فقد كانت

---

(١) سورة الروم الآية (٤٨) .

(٢) سورة لقمان الآيتان (١٠ ، ١١) .

(٣) سورة لقمان الآية (١٦) .

(٤) سورة لقمان الآيات (٢٥ — ٣٠) .

الآلهة تنتقل فى ركاب القوافل وكذلك المعتقدات والأناشيد وحكمة الحكماء .

وتأتى الأمثال فى التوراة بعد المزامير . ويقول الإصحاح الأول منها : « أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل . لمعرفة حكمة وأدب لإدراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة . لتعطى الجهال ذكاء والشاب معرفة وتدبرا ، يسمعها الحكيم فيزداد علما والفهيم يكتسب تدبيرا . لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم . مخافة الله رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب .

اسمع يا بنى تأدب أبيك ولا ترفض شريعة أمك . لأنهما إكليل نعمة لرأسك وقلائد لعنقك ، يا بنى إن تملقك الخطاة فلا ترض . إن قالوا لك هلم معنا لتكمن للدم لتختف للبرىء باطلا ، لتبتلعهم أحياء كالهاوية وصحاحا كالهابطين فى الجب ، فتجد كل قنية فاخرة تملأ بيوتنا غنيمة ، تلقى قرعتك وسطنا ، يكون لنا جميعا كيس واحد . يا بنى لا تسلك فى الطريق معهم ، امنع رجلك عن مسالكهم ، لأن أرجلهم تجرى إلى الشر وتسرع إلى سفك الدم ، لأن باطلا تنصب الشبكة لعينى كل ذى جناح . أما هم فيكمنون لدم أنفسهم . يختفون لأنفسهم . هكذا طريق كل مولع بكسب ، يأخذ نفس مقتنيه .

الحكمة تنادى فى الخارج . فى الشوراع تعطى صوتها ، تدعو فى رءوس الأسواق فى مداخل الأبواب . فى المدينة تبدى كلامها قائلة : إلى متى أيها الجهال تحبون الجهل والمستهزئون يسرون بالاستهزاء والحمقى يبغضون العلم ، ارجعوا عند توبيخى ، هأنذا أفيض لكم روحى أعلمكم كلماتى . لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدى وليس من يبالى ، بل رفضتم كل مشورتى

و لم ترضوا توبيخى . فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، أشمت عند مجىء خوفكم . إذا جاء خوفكم كعاصفة وأتت بليتكم كالزوبعة . إذا جاءت عليكم شدة وضيق . حينئذ يدعوننى فلا أستجيب . يبكرون إلىّ فلا يجدوننى . لأنهم أبغضوا العلم و لم يختاروا مخافة الرب . لم يرضوا مشورتى . رذلوا كل توبيخى . لذلك يأكلون من ثمر طريقهم ويشبعون من مؤامراتهم لأن ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجهال تبيدهم . أما المستمع لى فيسكن آمنا ويستريح من خوف البشر » .

والمفروض أن هذه أولى حكم سليمان عليه السلام . وإن ما جاء بها لا يتفق مع أخلاق الأنبياء فهل يعقل أن نبيا يضحك عند بلية قومه ويشمت عند مجىء خوفهم ؟ أين هذا القول من قول نبى الإسلام — ﷺ — لما آذاه قومه : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ؟!

ويقول برستد فى كتابه فجر الضمير عن « الأمثال » : « الواقع أنه لا يوجد شىء فى كل مجال الأدب العبرانى كان له من التأثير العميق فى الحضارة الغربية أكثر من تأثير نصائحهم فى السلوك المستقيم عن طريق الأمثال ، وهى التى نسميها « سفر الأمثال » إذ أن ما فى هذا الكتاب من التصوير السامى للأخلاق وما احتواه من الحكمة الخلقية النافذة قد امتزج بنفس مادة تصوراتنا الحديثة للحياة الفاضلة . ونجد فى الترجمة الخلابة التى أقسر بها « الملك جيمس »[١] من الأمثال السائرة الحاذقة وما يُتمثل به بيننا يوميا .

وقد أدت العبارة الشائعة « أمثال سليمان » إلى اعتقاد القارئ المعتاد أن

---

(١) يقصد بذلك النسخة المنقحة من كتاب العهد القديم التى عملت بأمر الملك جيمس ملك إنجلترا عام ١٦١١ بعد الميلاد .

أمثال ذلك الكتاب هى من عمل « الملك سليمان الحكيم » وفى الحق أنه يبتدئ بنسبة الكتاب إلى « سليمان » فى مطلع الفصل الأول . ثم تكررت تلك التسمية فى بداية الفصل العاشر فى شكل عنوان لمجموعة أخرى من « أمثال سليمان » . كما أنه توجد به مجموعة ثالثة تحمل اسم « سليمان » وتبتدئ بالفصل الخامس والعشرين ، فى حين أن الفصلين النهائيين من الكتاب ينسبان إلى مؤلفين آخرين مجهولى الاسم وأحدهما منسوب إلى امرأة ، فيتضح من ذلك ومما يشهد به « كتاب العهد القديم » نفسه أن كتاب الأمثال هو مجرد مؤلفة جمعت من مجموعات متفرقة . ويوجد بالكتاب فضلا عن هذه المجاميع الخمس التى كانت يوما ما متفرقة مجموعة سادسة لأننا نجد فى صلب الفصل الرابع والعشرين (حتى فى الترجمة الإنجليزية) ما يكشف لنا عن عنوان جديد بهذا النص . « هذه أيضا كلمات الحكماء » ، ويلى ذلك مباشرة جزء قصير يجوز أنه ملحق وضعه مؤلف مجهول . كما نجد مدفونا فى قلب الفصل الثانى والعشرين دون أى إشارة تعلبقية من جانب المترجمين حتى فى النسخة المنقحة ، ما هو بالتأكيد بداية جزء آخر إن لم يكن عنوانا له (١٢ — ١٧) يسمى « كلمات الحكماء » مثل ما وجدناه فى الفصل الرابع والعشرين سواء بسواء . فمن هم يا ترى (هؤلاء الحكماء) المعلمون الاجتماعيون ؟ — لأن كلمة « حكايم » العبرية يدل معناها على صيغة الجمع — الذين قاموا بكتابة هذا الجزء الذى يبلغ نحو فصل ونصف فصل ؟

الواقع أن هذا السؤال قد عجز عن الإجابة عنه كل الباحثين إلى وقت قريب جدا ، غير أنه قد طبعت ورقة بردية كانت قد مكثت مدة طويلة فى المتحف البريطانى فكشفت لنا عن أن مؤلف ذلك الجزء لم يكن سوى صديقنا المصرى القديم أمينموبى ! وجميع العلماء بكتاب العهد القديم (التوراة)

الذين يعتد بآرائهم وأبحاثهم فيه — يجزمون الآن بأن محتويات ذلك الجزء الذى يؤلف نحو فصل ونصف فصل « كتاب الأمثال » قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينموبى ، أى أن النسخة العبرانية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق . وكذلك صار من الواضح أيضا أن حكم « أمينموبى » شائعة فى مواضع عدة من كتاب العهد القديم حيث نراها مصدرا لتلك الأفكار والتشبيهات والمقاييس الخلقية وبخاصة لروح الشفقة الإنسانية الحارة ، لا فى كتاب الأمثال فحسب ، بل فى القوانين العبرانية وفى سفر « أيوب » .

وراح برستد يقارن بين كلمات الحكماء فى سفر « الأمثال » العبرانى وحكم أمينموبى :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
أمل أذنيك لتسمع أقوالى واعكف قلبك على فهمها ، لأنه شىء مفيد إذا وضعتها فى قلبك ، ولكن الويل لمن يتعداها .	١٧ — أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى . ١٨ — لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك إن ثبتت جميعا على شفتيك . سفر الأمثال (٢٢ : ١٧ — ١٨)

والمقصود من مثل تلك النصائح قد عرّفته « الأمثال » وهو ما أشار إليه « أمينموبى » من أن المهارة العملية أصل جوهرى فى المعاملات الرسمية كما ترى فى نص كل منهما :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لأجل أن ترد على تقرير لمن قد	٢١ — لأعلمك قسط كلام الحق

أرسله . لترد جواب الحق للذين أرسلوك .

(سفر الأمثال ٢٢ : ٢١)

غير أن العبارة « كلام الحق » الواردة فى « سفر الأمثال » هى بالطبع تحريف لما يقابل كلمة « تقرير » الواردة فى الأصل المصرى القديم .

وعلى أية حال فإننا نجد فى كل من سفر الأمثال وحكم « أمينموبى » أن الغرض الخلقى من تلك النصائح ظاهر فى كافة ثناياهما ، لذلك نرى أن إيراد بعض أمثلة هنا مفيد جدا . فمن ذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تزحزحَنَّ علامات حدود الحقول .	١٠ — لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام .
... ...	
ولا تكونَنَّ شرا من أجل ذراع أرض — لا تتعديَنَّ على حدود أرملة .	(سفر الأمثال ٢٣ : ١٠)

ومن المهم أن نلاحظ أن قبل انكشاف النقاب عن حكم « أمينموبى » هذه أبدى نقاد « العهد القديم » أن كلمة « قديم » التى تشبه فى اللغة العبرانية كلمة « أرملة » هى بلا شك غلطة فى النسخة الخطية صحتها « أرملة » وعلى ذلك اتفقوا على جعل تلك الفقرة كالآتى :

« لا تزحزحن حدود الأرملة
ولا تدخلن فى حقول اليتامى »

وقد جاء انكشاف الأصل المصرى القديم مؤيدا لذلك التصحيح ومثبتا له . وقد يكون من أهم المشابهات العديدة البارزة التى يمكننا إيرادها هنا تلك

التحذيرات الخاصة بالثراء وهى :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تتعين نفسك فى طلب المزيد حينما تكون حصلت بالفعل على حاجتك . وإذا جلب إليك المال بالسرقة لا يمكث معك فإنه سواد الليل .	٤ — لا تتعب لكى تصير غنيا . ...
وعندما يأتى الصباح لا يكون بعد فى منزلك .	٥ — هل تطير عينيك نحوه وليس هو ؟
بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء .	لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء .
(أمينموبى ٩ ، ١٤ — ١٠ — ٥)	(سفر الأمثال ٢٣ : ٤ — ٥)

والسطر الذى حذفناه هنا من نص « الأمثال » مشوه فى الأصل العبرانى ، ومن المحتمل أنه يمكن إصلاحه بفحص الأصل المصرى القديم ، غير أن تناول مثل هذه المسائل التحليلية لا يمكن فى مثل هذا الكتاب .

وفيما قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . كان حكماء الاجتماع المصريون قد وازنوا بين الغنى والأخلاق وفضلوا ، بصراحة ، الأخلاق على الغنى ، واعترفوا تمام الاعتراف بتفاهة الثراء المادى وأنه لا يجدى شيئا وبخاصة فى عالم الآخرة . وقد وفى المفكرون الاجتماعيون البحث فى حماقة الاتكال على الغنى فى نواح كثيرة مختلفة ، ونجد فى المواضع الكثيرة التى تناولت فيها الأمثال العبرانية هذا الموضوع ما يدل على أنها كانت واقعة بالبداهة تحت تأثير أقوال الحكماء المصريين القدماء . وقد تكون الموازنة الآتية إيضاحا آخر لذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
الفقر فى يد الله خير من الغنى فى الهرى (المخزن) وأرغفة (تحصل عليها) بقلب فرح خير من ثروة (تحصل عليها) فى تعاسة .	١٦ ـ القليل مع مخافة الرب (يهوه) خير من كنز عظيم مع هم . ١٧ ـ أكلة من البقول حيث تكون خير من ثور معلوف ومعه بغضة .
(أمينموبى ٩ : ٥ ـ ٨)	(سفر الأمثال ١٥ : ١٦ ـ ١٧)

والمثال الآتى فى نفس الموضوع أيضا :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
والثناء على الإنسان كشخص محبوب عند الناس خير من الغنى فى الهرى (المخزن) .	١ ـ لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام .
(أمينموبى ١٦ : ١١ ـ ١٢)	(سفر الأمثال ١٧ ـ ١) .

على أن تاريخ العبرانيين فيما يلى هذا العصر لا يترك مجالا للشك فى أنهم كانوا لا يكترثون بالقوة المالية . أو النجاح فى الأعمال ، فضلا عن أن المصنف لسفر الأمثال فى « العهد القديم » لم يتجاهل الحكمة المصرية القديمة التى من هذا القبيل كما سيأتى ذكره ، وربما لاحظ الباحث أن تلك التحذيرات التى جاءت فى سفر الأمثال بشأن الغنى والترف ليست مستقاة من « كلام الحكماء » فى التوراة .

(الأمثال ٢٢ : ١٧ ، ٣٤ ، ٢٢)

وهذه حقيقة جديرة بالاهتمام ، فإذا ما درست تلك الأمثال درسا أوفى

فإن ذلك بلا شك يكشف لنا عن أن أفكار المصنف العبرانى فى كافة موضوعات سفر الأمثال كانت تعتمد على حكم « أمينموبى » ولدينافيما يلى مثال آخر ، لا يدخل فى حدود « كلمات الحكماء » يحذر من الحقد والانتقام .

(الأمثال ٢٠ : ٢٢)

ويهتم « أمينموبى » كثيرا بتحذير الشباب من الحماقة أو مخالطة رجال ذلك الطراز ، كما ترى المصنف العبرانى أيضا يحذر من ذلك حيث قالا :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تصاحبن رجلا حاد الطبع ولا تلحن فى محادثته .	٢٤ — لا تستصحب غضوبا ، ومع رجل ساخط لا تجىء .
(أمينموبى ١١ ، ١٣ — ١٤)	(سفر الأمثال ١٢ : ٢٤)

ونجد أن الكلمة العادية التى تعبر عن الرجل الطائش صاحب الطبع الحار فى حكم « أمينموبى » هى بكل بساطة « الشخص الحاد » ، ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الأصل العبرانى لتلك الفقرة إذا ترجم حرفيا يكون معناه « الرجل ذو الحرارة » وهى عبارة لا توجد قط فى أية جهة أخرى من كتاب « العهد القديم » ، وهى بالبداهة محاولة من المصنف لنقل التعبير المصرى القديم إلى العبرانية . وعلى كل حال نجد أن الغضب الطائش والانتقام مذمومان فى كل من « سفر الأمثال العبرانى » وفى حكم « أمينموبى المصرى » ، وإليك ما قالاه فى شأن ذلك :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تقولن قد وجدت حاميا والآن	لا تقل إنى أجازى شرا .انتظر الرب

يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت . (يهوه) فيخلصك .
ضع نفسك فى ذراعى الإلٰه يهزمهم (لا تقل أجزى على الشر بل انتظر
صمتك (يعنى الأعداء) . الرب فيخلصك) .
(أمينموبى ٢٢ ، ١ — ٨) (سفر الأمثال ٢٠ : ٢٢)

وقد كان « أمينموبى » ينصح ابنه بنفس هذه الطريقة الشديدة ناهيا إياه عن مشاحنة الشخص الحاد الفم « لأن الإلٰه يعرف كيف يجيبه على عمله (٥ ، ١٠ — ١٧)» . وذلك يشبه أيضا ما جاء فى سفر الأمثال وهو : انتظر الرب (يهوه) فيخلصك » .

وتتفق نصائح « أمينموبى » فيما يختص بالسلوك فى حضرة أصحاب المقامات العالية مع الحياة المصرية أكثر بكثير مما تتفق مع الحياة العبرانية ، ذلك لأن مراعاة السلوك اللائق فى مصر من جانب الموظف المصرى الشاب كان لا مناص منه لمن كان يريد مستقبلا ناجحا . فكما أن آداب اللياقة الرشيقة المرعية فى البلاط الباريسى فى عهد اللوايسة المتأخرين من ملوك فرنسا قد انتشرت فى كل العواصم الأوربية التى كانت أقل ثقافة من باريس ، كذلك كانت تلك الآداب العالية ورسميات القصور فى المعاملات الرسمية المستحدثة فى أخلاق شعب فى أصوله خشونة الصحراوية البدوية ، فى عهد الملكية العبرانية الفتية ، متأثرة أيما تأثر بآداب اللياقة التليدة المرعية فى بلاط الفرعون الذى قبض موظفوه على زمام الحكم فى فلسطين مدة قرون عديدة . ومن أجل ذلك لم يتردد مصنف « سفر الأمثال » العبرانى فى توصية الإسرائيليين المعاصرين له باتباع آداب اللياقة المصرية الرسمية ، وإليك ما ذكر فى ذلك فى

كل من النص المصرى والنص العبرانى :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
لا تأكل الخبز فى حضرة رجل عظيم. ولا تعرض نفسك من حضرته . وإذا أشبعت نفسك من طعام محرم فإن ذلك ليس إلا لذة ريقك . وانظر فقط (وأنت على المائدة) إلى الوعاء الذى أمامك وكن مكتفيا بما فيه .	١ — إذا جلست تأكل مع متسلط فتأمل ما هو أمامك تأملا. ٢ — وضع سكينا لحنجرتك إن كنت شرها . ٣ — لا تشته أطايبه لأنها خبز أكاذيب .
(أمينموبى ٢٣ : ١٣ — ١٨)	(سفر الأمثال ٢٣ : ١ — ٢)

وكان المترجمون للرواية المنقحة من « كتاب العهد القديم » غير متأكدين مما إذا كانوا يترجمون النص العبرى بقولهم « ما هو أمامك » أو يترجمونها « بالشخص الذى أمامك » ، وقد حل تلك المسألة ما جاء عن الحكيم المصرى « أمينموبى » حيث قال ما ترجمته « الوعاء الذى أمامك » ، وقد غير المصنف العبرانى ترتيب الأفكار فنقل العبارة « خبز أكاذيب » التى توازى فى الأصل (المصرى القديم « طعام محرم » وحرفيا : طعام خطأ) إلى السطر الأخير .

على أن نصيحة « أمينموبى » المصرى هذه قديمة جدا ، لأنها مستقاة من حكم « بتاح حتب » فكان عمرها فى زمن « أمينموبى » قد بلغ حوالى ألفى سنة . ولذلك نجد نص النصيحة بالكلمات

الأصلية التى فاه بها الحكيم « بتاح حتب » أكثر وضوحا . قال :

« إذا كنت امرأ من الذين يجلسون (على المائدة)

فى حضرة رجل أعظم منك فخذ منه حينما يعطيك

ما يضعه أمامك ، ولا تنظر إلى ما هو أمامه

بل انظر (فقط) إلى ما هو أمامك ، ولا تقذفنه (حرفيا ترمينه) بنظرات عديدة (لا تحملقن إليه) .

واخفض من وجهك إلى أسفل إلى أن يخاطبك

وتكلم فقط حينما يوجه إليك بكلام »(١) .

فنجد هنا إذن حكيما عبرانيا يفرض على الشباب الإسرائيلى نصائح فى آداب اللياقة كانت هى بنفسها المرشد الهادى للموظفين المصريين القدماء فى البلاط الفرعونى فى العهد الذى ظهرت فيه الأهرام ، أى قبل ذلك العهد العبرانى بألفى سنة ، وعلى ذلك يحتمل أن تكون تلك الفقرة أقدم مادة فى كتاب العهد القديم . ونجد فى ذلك مثالا رائعا على أن الحياة العبرانية فى فلسطين كانت تتطور تحت تأثير خبرة آلاف السنين من التجارب الاجتماعية التى قد صارت تعد تاريخا قديما حينما ظهرت الأمة الإسرائيلية فى عالم الوجود .

وقد لا يوجد فى كتاب « العهد القديم » مثل من الأمثال كثر اقتباسه فى عصرنا الحالى الذى ساد فيه الاهتمام بالمعاملات أكثر من ذلك المثل الذى

---

(١) توجد بينات أخرى كثيرة تدل على اعتماد « أمينموبى » على حكم « بتاح حتب » ويتضح منها أن « أمينموبى » كان يستعمل الأدب المصرى القديم السابق لعهده فى تأليف كتابه المكون من ٣٠ فصلا . وهذه حقيقة لأنها تناقض ما يحاوله بعض علماء الكتاب المقدس من إرجاع عصر « أمينموبى » إلى زمن متأخر وبذلك يعتبرون حكمه مستعارة من الأمثال العبرانية .

يطرى من يحسن عمله ، وهو : « هل ترى رجلا ماهرا فى عمله ، إنه سيقف أمام الملوك » .

والترجمة السبعينية (وهى الترجمة الإغريقية القديمة) لكتاب « العهد القديم » لا تحتوى على الفعل « ترى » بل كانت تبتدئ بكلمة « رجل » ، وقد أوضح الأستاذ « جِرِم » أن الفعل الذى تبتدئ به الجملة تابع للفقرة السابقة من الأصل العبرانى[1] ، ولذلك نجد أنه بعد إصلاح ذلك الخطأ تصير الموازنة هكذا :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد نفسه كفوا لأن يكون من رجال البلاط (أمينموبى ٢٧، ١٦ــ١٧)	٢٩ ــ أرأيت رجلا مجتهدا فى عمله ، أمام الملوك يقف . (سفر الأمثال ٢٢ : ٢٩)

ولا حصر لما نستطيع إيراده من أمثال تلك المماثلات المتشابهة ، ولكن ما أوردناه من الأمثلة التى ذكرت يكفى بلا شك للدلالة على أن « سفر الأمثال » العبرانى يحمل فى ثناياه جزءا جوهريا من كتاب حكم لمصرى قديم سابق له .

وقد جرى ذلك النقل عن حِكم المصريين القدماء دون ذكر الأوان ، غير أنه من الأمور الهامة أننا عثرنا فى كتاب « سفر الأمثال » على إشارة تدل بلا شك على الاقتباس من كتاب « أمينموبى » المصرى القديم ، ولو أن هذه الإشارة لم تكن بطبيعة الحال على شكل عنوان أو بذكر اسم ذلك الحكيم

---

(١) راجع : Weiteres Zu Amen - em - ope Proverbien in Orientalische Literaturzeitung, Vol. 28 (1925) Col 59.

الحكيم المصرى الذى عاش فى مثل ذلك العصر البعيد . ذلك بأننا نجد فى المقدمة « لكلمات الحكماء » السؤال الغريب الآتى ، وهو الذى قد حار فى ترجمته مصنفو الترجمة المنقحة لكتاب العهد القديم ، وهاك نص السؤال :

« ألم أكتب لك أمورا شريفة
من جهة مؤامرة ومعرفة ؟ »

(سفر الأمثال ٢٢ : ٢٠)

وقد وضعت لجنة التنقيح ملاحظة فى الهامش خاصة بعبارة « أمور شريفة » لفتوا بها النظر إلى أن « تلك العبارة مشكوك فيها » . والواقع أن المصنفين العبرانيين الأقدمين كانوا أنفسهم يشكون فيها بعض الشك أيضا ، وذلك لأنهم وضعوا هجاء آخر لتلك الكلمة على هامش النسخة العبرانية فصارت الكلمة بحسب هجاء المصنفين العبرانيين القدامى تعنى « ثلاثين » . فإذا ارتضينا هذه الكلمة يصير السؤال هكذا : « ألم أكتب لك أمورا ثلاثين من جهة مؤامرة ومعرفة » . ويبدو لنا الأول وهلة أن صيرورة السؤال بهذه الصيغة يحدثنا بشىء لا معنى له ، ولكننا عندما نلاحظ كما لاحظ الأستاذ « آرمان » أن « أمينموبى » قد قسم كتابه المذكور إلى ثلاثين فصلا ورقمها ، فإن كل شىء بعد ذلك يصير واضحا .

ولا بد أن لفافة البردى المصرية الحاوية لهذا الكتاب كانت تسمى فى فلسطين باسم « ثلاثون فصلا فى الحكمة » أو ما يشبه ذلك ، ثم اختصر الاسم بعد ذلك على ما يظهر إلى عنوان بسيط أطلق عليها وهو « الثلاثون » .

وعلى ذلك تعطينا تلك الترجمة الحقيقية التى وصلنا إليها عن طريق اقتراح العالم « جِرم » وبدون أى تغيير فى أصل المتن العبرانى الموازنة التالية :

أمينموبى المصرى	سفر الأمثال العبرانى
تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين .	٢٠ ـ ألم أكتب لك ثلاثين فصلا .
حتى تكون مسرة (لك) وتعليما.	من جهة مؤامرة ومعرفة.
(أمينموبى ٢٧ : ٧ ـ ٨)	(سفر الأمثال (٢٢ : ٢٠)

وإن ذكر أحد مؤلفى « العهد القديم » ـ على غير المألوف ـ لكتاب أجنبى عن العبرانية ، كان ينقل عنه من غير تحفظ ، يؤكد لنا أنه كان تحت يده ترجمة عبرانية كاملة للكتاب الذى وضعه « أمينموبى » المصرى ، بمعنى أن تلك الترجمة كانت تحتوى على جميع الثلاثين فصلا التى حواها الأصل المصرى الهيروغليفى ، والا كانت كلمة « ثلاثين » بعد وضعها فى كتاب الأمثال لا تدل على أى معنى . ولكى يحافظ الناقل العبرانى على هذا المعنى نراه ، مع عدم نقله للثلاثين فصلا التى يحويها الأصل المصرى القديم برمتها ، قد استغل بالضبط « ثلاثين » مثلا فى نسخته العبرية المختصرة .

(الأمثال ٢٢ : ١٧ ـ ٢٤ : ٢٢)

ولا شك أن القارئ قد كون لنفسه ملاحظة ذات أهمية بارزة بعد أن تأمل تلك الفقرات من كتاب الحكمة العبرية القديم ووضعها جنبا لجنب مع الأصل المصرى القديم الذى اقتبست منه . على أنه يتضح لنا ، خلافا للأجزاء التى ترجمت ترجمة حقيقية ، أن مصنف « كتاب الأمثال » لم يكن مستسلما ولا آلة جامدة فى نقل تلك الحكم المصرية القديمة عن الترجمة الفلسطينية .

وليس لدينا أمل كبير فى العثور يوما ما على تلك الترجمة ، ولعله من الجائز أن يكون المترجم الفلسطينى نفسه قد أخرج الترجمة غير المقيدة التى وجدناها فى « سفر الأمثال » ، وعلى ذلك كان مصنف الأمثال ينقل عن تلك الترجمة

كما هى .

ومهما يكن من الأمر فإن الحقيقة الناصعة هى أن الصورة التى ظهرت بها حكم « أمينموبى » مرارا فى « سفر الأمثال » توضح لنا بجلاء أن المترجم أو المصنف العبرانى قد اقتبس فى الغالب مجرد الأفكار المصرية القديمة ونشرها بتصرف ، بما له من نظر ثاقب فى الحياة ، وبما له من المهارة الأدبية السامية والدراسة باللغة التى ينقل إليها وهى عادة لغته ، ويتضح ذلك تماما من إيراد بعض الأمثلة الواضحة القاطعة ، فنجد مثلا أن « الغنى » يتخذ له أجنحة فى كل من مصر وفلسطين ، غير أن الأجنحة المصرية كانت أجنحة « أوز » ، وأما الأجنحة فى فلسطين ، حيث لم تكن هناك مستنقعات زاخرة بالأوز البرى ، فقد أبدل المترجم بها أجنحة النسر .

وكذلك نجد فى مصر أن رجل الأعمال الناجح كان فى العادة « كاتبا » ، أما فى فلسطين حيث لم تكن الأحوال كذلك فإن المترجم العبرانى قد سماه « رجلا » فقط ثم أردف ذلك بوصفه « بالمهارة فى عمله » ليتم تحديد صفته .

ونجد فى مصر أيضا أن أهم دَين كان يدان به الإنسان لإلـٰـه الشمس قبل ظهور « سفر الأمثال » بأكثر من ألف سنة هو هبة الماء ، وقد اتخذ من شمولها لكل العالم دليلا على المساواة بين جميع الناس ، وأما فى فلسطين حيث يندر الماء ويكثر القحط . فإننا نجد أن خلق يهوه لجميع العالم هو الذى اتخذ سببا للمساواة بين جميع الناس بالرغم مما يوجد من الفرق بين الغنى والفقر ، وهاك ما جاء من التشابه فى ذلك بين متون التوابيت المصرية القديمة وبين « سفر الأمثال » العبرانى :

متون التوابيت المصرية	سفر الأمثال العبرانى
لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى .	الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب (يهوه) . (سفر الأمثال ٢٢ : ٢)

وقد أشرنا من قبل إشارة خفيفة إلى أن وجود روح الاتكال على المشيئة الإلٰــهية فى حكم « أمينموبى » قد أثرت تأثيرا دينيا عميقا لا شك فيه فى حكماء فلسطين وأنبيائها ، ففى نصيحة « أمينموبى » الجميلة القائلــة : « ضع نفسك بين ذراعى الله » لا يكاد يخفى علينا أن المصدر الذى نجد صداه فى الكلمات التى يسميها الناس « بركات موسى » وهى :

« إن الله الأبــدى مكـــان سكـــن
وتحتـــه ذراعـــاه الأبديتـــان . »

فالرجل الأمثل فى نظر الحكيم « أمينموبى » هو الذى يتكل على الله ويصبر على تحمل الظلم فى صمت ، واثقا من نزول الانتقام الإلٰــهى على الظالم . فهل كان من باب الصدفة أن نجد الصيغة العبرانية . التى ظهرت فيما بعد ، تقول عن أخلاق « موسى » ما يأتى :

« وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من
جميع الناس الذين على وجه الأرض »

(سفر العدد ١٢ : ٣)

على حين أن « موسى » قد مثل فى الصيغة القديمة بالرجل القوى المعتمد على نفسه وأنه رجل عمل مهاجم لا يحتمل وقوع أى ظلم على نفسه أو على قومه ؟ ولقد لفت الأستاذ « سلن » (Sellin) النظر إلى أن المثل الأعلى فى الأخلاق عند العبرانيين القدامى كان يتمثل فى رجل العمل والقوة والحكمة

ذى المال والبنين العديدين ، ولكن ظهرت بعد منتصف القرن الثامن ق . م . . فكرة مخالفة لهذه بالمرة تصور الرجل المثالى بأنه هو الحليم المتواضع المهذب الصامت المجرد من الممتلكات المادية ، ونرى هذا المثل الأعلى فى ذروته متمثلا فى صورة الخادم المتألم الذى يوصف بأنه :

« لن يصيح أو يرفع صوته أو يجعله يسمع فى الشارع »

(أشعيا ٤٢ : ٢)

وأقوى من ذلك ما نجده فى تصور « أشعيا » السامى عندما يقول :

« وكان مضطهدا ، ومع ذلك فإنه حينما عذب لم يفتح فاه كالحمل الوديع الذى يساق إلى المجزرة .

وكالنعجة الصامتة أمام من يجزها ، فهكذا هو لم يفتح فاه » .

(أشعيا ٥٣ : ٧)

وكان الحكيم « أمينموبى » يجد دائما مثله الأعلى فى الرجل الصامت الذى يترك أمره لله .

والآن وقد علمنا أن كتابه كان يقرأ فى « أورشليم » وأن الحكماء والأنبياء العبرانيين كانوا ينتخبون منه المختارات ويقتبسون الاقتباسات ، فإنه يجدر بنا أن نتساءل عما إذا كانت فكرة المتألم الصامت عند بنى إسرائيل لا ترجع فى أصلها إلى الاجتماعيين المصريين وعلى أية حال فإنه صار من الواضح الآن أن المثالية الاجتماعية التى قامت على سمو التقدير للأخلاق ، والتى هى أقدم ما عرف لنا من مذاهب تفويض الأمر للأقدار ، بل كانت فى ذلك العصر المذهب الوحيد من نوعه ، قد ظهرت فى مصر قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م . وكانت نفس الكتب التى تحتوى عليها يقرؤها فى « أورشليم » أولئك الرجال الذين أنتجوا تلك الكتابات التى نسميها الآن « العهد القديم » .

وكيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟ فكما أننا نجد الآداب الأوروبية الحديثة قد نمت مشبعة بما ورثناه من قديم أدب الإغريق والرومان ، كذلك كان محتما أن يتأثر العبرانيون فى فلسطين كل التأثر فى أفكارهم وكتاباتهم بآداب تلك الأمة العظيمة التى قبضت على زمام فلسطين ووضعتها تحت سيطرتها الثقافية والسياسية مدة تفوق مدة نفوذ « روما » فى بلاد الغال (فرنسا القديمة) .

وعلى ذلك فإن تراثنا الخلقى الدينى العظيم الملهم الذى انحدر إلينا من العبرانيين يمكن التسليم بصفة قاطعة بأنه ميراث مزدوج .

فهو أولا : قد تكوَّن من خبرة بضعة آلاف من السنين مارسها الشرق الأدنى القديم ، وبخاصة مصر ، قبل ظهور الأمة العبرانية .

وثانيا : أن تلك الخبرة قد رسخت قدمها بشكل مدهش وزيد عليها بما اكتسبه العبرانيون أنفسهم من التجارب الاجتماعية المتواصلة ، على يد أولئك الأنبياء والحكماء الإسرائيليين .

وقد كان تبادل عوامل الثقافة بين فلسطين وجيرانها من كل الجهات واضحا منذ زمن بعيد على أساس ما لدينا من الكتابات العبرانية فقط . فهذه الكتابات تكشف لنا عن دوام مرور قوافل التجارة الأجنبية بهذه الأنحاء ، فحينما كان العبرانيون فى حاجة إلى الحدادين فإنهم كانوا يجلبونهم من المدن الفلسطينية ، واقتبس مهندسو « سليمان » تصميم معبده فى « أورشليم » من تصميم معبد مصرى ، وكذلك مهرة الصناع الذين قاموا ببنائه فقد أرسلهم « هرام » ملك « صيدا » إلى صديقه « سليمان » ، وتزوج « إهاب » ملك بنى إسرائيل من أميرة فينيقية وتولى حمايتها فى إحضار آلهة لها أجنبية من العبرانيين ، وغيره من تلك الأمثلة التى لا حصر لها .

ويجب علينا الآن أن نضيف إلى هذه الأدلة المبينة المستقاة من « كتاب العهد القديم » تلك الأدلة التى أسفرت عنها الأبحاث الأثرية الحديثة ، فقد أماطت لنا الحفائر الفلسطينية اللثام عن قائمة طويلة من البضائع الأجنبية التى اشتريت هناك ومعها عدد عظيم من الرسوم الزخرفية الأجنبية التى اجتلبت مع تلك البضائع ، فضلا عن أدلة أخرى لا حصر لها تنطق بتأثير العوامل الأجنبية ، فالأثاث الذى عثر عليه فى قصر الملك « إهاب » فى « سامرا » كان محلى بقطع من العاج نقشت عليها صور آلهة أجنبية وبخاصة من آلهة مصر القديمة . والواقع أنه يمكن كتابة مجلد بأكمله عن العناصر الثقافية الأجنبية التى انتشرت فى فلسطين قبل أن يستوطنها العبرانيون وظل أثرها يزداد بعد ظهور الملكية العبرانية ، فى عالم الوجود ، وربما كان من الواضح أيضا منذ زمن بعيد أن الأدب العبرانى ، بصفته معبرا عن الحياة العبرانية ، لا بد أنه كان بطبيعة الحال ـ مطعما مثل تلك الحياة نفسها ، بالمؤثرات الثقافية المنحدرة من الخارج ، سواء أكانت فى القانون أم فى الأساطير أم فى الدين بوجه عام . ولا يقل عن ذلك كله المبادىء الخلقية . وقد رأينا فيما سبق أن العبرانيين أخذوا الكثير من قوانينهم وأساطيرهم عن المدنية البابلية ، أما فى الأخلاق والدين والتفكير الاجتماعى بوجه عام ـــ الذى هو أول نواحى اهتمامنا فى هذا الكتاب ـــ فإننا نجدهم قد بنوا حياتهم على الأسس المصرية القديمة . فالإسرائيليون بعد استيطانهم فلسطين كانوا فى الواقع يسكنون أرضا من الأملاك المصرية مضت عليها فى هذه الحال قرون بأكملها . وقد استمرت بلادنا مصرية عدة قرون بعد استطيان العبرانيين لها ، وحتى فى عهد متأخر كعهد حكم « سليمان » نجد أن الفرعون المصرى أهدى إلى الملك العبرانى مدينة « جزر » وهى بلدة حصينة من بلدان فلسطين كانت تقع على وجه التقريب فى كنف « بيت

المقدس » .

هذا إلى أن النتائج الأساسية التى قامت وستقوم عليها دعامة المبادئ الخلقية فى الحياة المتحضرة فى أيامنا ، كانت قد اهتدت إليها الحياة المصرية قبل الوقت الذى ابتدأ فيه العبرانيون تجاريبهم الاجتماعية فى فلسطين بزمن طويل ، كما كانت تلك المبادئ الخلقية المصرية موجودة فعلا فى فلسطين بصورة مدونة منذ قرون عدة حينما استوطنها العبرانيون .

حقا إن التوسع الذى أدخل على تلك التعاليم كثمرة من ثمرات الفكر والحياة العبرانية ، يعد ذا قيمة عظيمة للإنسانية لا تقاس بأى مقياس كان ، غير أننا عندما نعترف بهذه الحقيقة يجب ألا يفوتنا أن تلك المشاعر الخلقية التى تسود المجتمع المتمدين الآن ترجع فى أصلها إلى عصر أقدم بكثير من « عصر النبوات » المعترف به من زمن بعيد ، وأنها قد انحدرت إلينا نحن أهل هذا العصر الحاضر من عهد لم تكن فيه الكتابات العبرانية قد وجدت بعد . وعلى ذلك تكون مصادر تراثنا من التقاليد الخلقية بعيدة كل البعد عن انحصارها فى فلسطين وحدها ، وأنه يجب اعتبارها مشتملة كذلك على الحضارة المصرية ، على أن السبيل الذى وصل منه هذا التراث المجيد إلى العالم الغربى هو على وجه خاص ما بقى لنا من الأدب العبرانى وحفظه لنا « كتاب العهد القديم » .

فإن زوال مدنيات الشرق القديم التى بنيت على أسسها المدنية العبرانية ، وما نتج عن ذلك من حرمان العالم الغربى من فهم كل كتابة وكل لغة لتلك المدنيات البائدة حتى ظلت فى عالم صمت مدة ألفى سنة . قد ترك الأدب العبرانى يضىء لنا وحده كأنه شعلة وحيدة من النور تحيط بها الظلمة الدامسة من جميع جهاتها ، وعلى ذلك يكون ما رد إلينا حديثا بالوسائل العلمية من بعض المعلومات عن المدنيات الشرقية المفقودة بمثابة قبس يضىء تلك

الظلمة ويحيط بنى إسرائيل بنور يرجع إلى ما قبل عهدهم ببضعة آلاف من السنين . ولو أن العالم الغربى لم يفقد قط كل علم بأصول المدنية وتطورها لما كان يخطر ببال أى باحث قط أن يجعل للعبرانيين أى منزلة فى التاريخ فوق أنهم بلغوا ذروة ذلك التطور الطويل السابق فى الأخلاق والدين . وأول ما كان يحصل بالتأكيد هو عدم ظهور ذلك المذهب اللاهوتى القائل بانفراد شعب واحد بالتمتع بالوحى الإلٰهى ، وهو المذهب الذى أعمى أبصارنا عدة قرون عن تعرف ذلك التراث الخلقى الجليل الذى ورثناه عن تأملات وإلهامات العالم بأسره ، لا عن تاريخ أو تجاريب أى أمة من البشر بعينها .

وعلى ذلك فإن أعظم فائدة إنشائية نجنيها من وراء الاهتداء إلى حقيقة تلك المدنيات الشرقية القديمة المفقودة هى أنها ردت إلينا تراثا عرضه عرض الأفق — وهو التراث الذى قد خلفته لنا حياة بنى الإنسان أجمعين . ففيه نجد أعظم وحى يخطر لنا ، وبه يمكننا الآن أن نستدل على أن انبثاق إدراك الإنسان للمميزات التى تفرق بين السلوك الطيب والخاطئ إنما هو خطوة من خطى التاريخ ونتيجة للخبرة الاجتماعية ، وأن قيمة هذا الإدراك فوق كل تقدير لأنه إدراك نام لم تكمل به تطوراته التاريخية . فإن استردادنا لتلك المدنيات المفقودة هو الذى أمكننا به إقامة البراهين على أننا لم نقطع مرحلة تذكر بعد خروجنا من عهد الظلمة الحالكة السابق لظهور القيم الخلقية ، وأن « فجر الضمير » لا يزال خلفنا بالضبط لم نكن نبتعد عنه شيئا ، وأننا ما زلنا للآن نقف عند مطلع شمس عصر القيم الخلقية .

وإنى أعتقد أن الأستاذ « لويس أجاسيز » (Louis Agassiz) هو الذى (بعد أن فحص التزعزع الدائم فى الجبال الثلجية السويسرية ، وراقب انحدار كتل الصخر الكبيرة والصغيرة وهى فى قبضة الثلج ، ثم انفصالها عنه بتأثير

شمس الصيف الحار فتستحيل بذلك إلى سور من الصخور المتراكمة يحف بفوهة الوادى) ــ أدرك فى نهاية الأمر أن هذه الحركة الجليدية كانت دائبة على عملها هذا منذ أزمان بعيدة ، ثم أشرقت على عقله فجأة تلك الحقيقة الرائعة وهى أن تلك العمليات الجيولوجية التى جرت فى أزمنة سحيقـة وأفضت إلى تكون الأرض لا تزال دائبة مستمرة فى طريقها إلى يومنا هذا ، وأنها لم تنقطع ولن تنقطع عن عملها قط . وبعد هذه النظرة القصيرة التى ألقيناها على أدوار التطور الخلقى ، قد نكون محقين إذا قررنا من باب الموازنة والقياس أنَّ ما ذكر عن فعل الثلوج ينطبق كل الانطباق على ما نحن بصدده من التطور الخلقى فى بنى الإنسان .

كفانا جيمس هنرى برستد مؤونة مناقشة سفر الأمثال وبرهن بما لا يدع مجالا للشك إلى أن حكماء العبرانيين قد اعتمدوا كل الاعتماد على أمينموبى الحكيم المصرى القديم وكان ذلك شأن الذين كتبوا التوراة فى المنفى . لم يدعوا أسطورة من الأساطير المعروفة فى الأدب الفرعونى أو البابلى إلا استعانوا بها فى كتابة توراتهم ؛ فرموا بعض كبار الأنبياء بكبائر الفواحش المنافية لحسن الأسوة ، بل التى قد تدفع الناس إلى اقتراف المعاصى والانغماس فى الشر وتنكب الصراط المستقيم » .

ويأتى بعد سفر « الأمثال » سفر « الجامعة » وهو الجامعة بن داود وكان شعاره : باطل الأباطيل الكل باطل .. إنه يسأل : ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودر يجىء والأرض قائمة إلى الأبد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى وضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال . تذهب دائرة دورانا وإلى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن .

إلى المكان الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يقصر . لا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العَين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع ، ما كان فهو ما يكون والذى صُنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس جديد . إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد ، فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا . ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم .

أنا الجامعة كنت ملكا على إسرائيل فى أورشليم ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات هو عناء ردىء جعلها الله لبنى البشر ليعنوا فيه . رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح . الأعوج لا يمكن أن يقوم والنقص لا يمكن أن يجبر . أنا ناجيت قلبى قائلا ها أنا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلى على أورشليم ، وقد رأى قلبى كثيرا من الحكمة والمعرفة ووجهت قلبى لمعرفة الحكمة ومعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضا قبض الريح ؛ لأن فى كثرة الغم ، والذى يريد علما يريد حزنا .

ويستمر سفر الجامعة يقطر يأسا ومرارة ، وكاتب هذا السفر معذور ما دام يدين باليهودية التى لا تعرف غير الحياة الدنيا ، فلو كان قد عرف أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر لما فزع لانقضاء الحياة ولما خطر له على قلب أن الكل باطل وقبض الريح .

كان يحسب أن السعادة فى جمع المال فجمع ذهبا وفضة ولكنه لم يشعر بالسعادة . غرس الحدائق وزينها ببرك الماء وأقام التماثيل هنا وهناك ولكنه لم يحس سعادة تغمر قلبه . اتخذ لنفسه مغنين ومغنيات وإذا بالكل باطل وقبض الريح ولا منفعة تحت الشمس ، حتى الحكمة لم يجد فيها سعادة .

إنه لا يستطيع أن يفرق بين نفسه وبين البهيمة . فكلاهما من التراب وإلى التراب يعود . إنه يبحث عن السعادة فى الماديات ولو عرف أن صالح الأعمال يقود فى الآخرة إلى جنات النعيم لعثر على ضالته ، على الفوز الأكبر . على جوهر السعادة الذى أعماه عنه إيمانه بأن الدنيا هى الحياة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم »[١] .

قد يكون فى مزامير داود بعض ابتهالات نبى الله عليه السلام إلى ربه : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب . »[٢] . وقد يكون فى سفر « الجامعة » بعض خطرات من ذهن الجامعة بن داود . أما نشيد الأنشاد الذى ينسب إلى سليمان الحكيم فلا يمكن أن يكون من نظم رجل عرف الله واصطفاه الله . إنه نشيد يفيض بالصور الجنسية التى لا يقدم على نظمها حتى أنبياء بنى إسرائيل الذين تلقوا أصول الغناء فى معاهد الأنبياء بالرامة وبيت إيل والجلجال .

إن بعض الأمثال فى سفر الأمثال كانت من وضع امرأة ، فلماذا لا يكون هذا النشيد من وضع يهودية كانت تحسن نظم الشعر فنظمته على لسان سليمان . ورؤى أن تكرّم كما كرمت إستير من قبل فوضع شعرها فى الكتاب المقدس الذى تحول إلى سجل للأعمال الأدبية العبرانية ؟ إن الذى لا شك فيه أن سليمان لا صلة بينه وبين ذلك النشيد الذى نظم فى أيام المنفى .

---

(١) سورة لقمان الآيتان (٨ ، ٩) .

(٢) سورة ص الآيات (١٧ — ٢٠) .

وها هو ذا النشيد الذى نُسب إلى سليمان عليه السلام ظلما وعدوانا ، وقد ظلموه من قبل وقالوا إنه كفر بعد أن بنى هيكل الرب فى أورشليم ، وإن نسبة ذلك النشيد إليه أهون من نسبة الكفر إلى رجل وضع كل جهوده وأمواله لبناء بيت الله .

« ليقبلنى بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر . لرائحة أدهانك الطيبة . اسمك دهن مهراق لذلك أحبتك العذارى . اجذبنى وراءك فنجرى . أدخلنى الملك إلى حجالة ، نبتهج ونفرح بك . نذكر حبك أكثر من الخمر . بالحق يحبونك .

أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار ، كشقق سليمان ، لا تنظرن إلىَّ لكونى سوداء لأن الشمس قد لوحتنى . بنو أمى غضبوا علىَّ . جعلونى ناطورة الكروم .أما كرمى فلم أنظره . أخبرونى يا من تحبه نفسى أين ترعى ؟ أين تربض عند الظهيرة ؟ لماذا أنا أكون كمقنعة عند أصحابك ؟

إن لم تعرفى أيتها الجميلة بين النساء فاخرجى على آثار الغنم وارعى جداءك عند مساكن الرعاة .

لقد شبهتك يا حبيبتى بفرس فى مركبات فرعون — ما أجمل خديك بسموط وعنقك بقلائد . تصنع لك سلاسل من ذهب مع جمان من فضة .

ما دام الملك فى مجلسه أفاح ناردينى رائحته ، صرة المر حبيبى لى ، بين ثدىَّ يبيت .

ها أنت جميلة يا حبيبتى .. ها أنت جميلة . عيناك حمامتان .

ها أنت جميلة يا حبيبتى وحلوة وسريرنا أخضر . جوائز بيتنا أرز وروافدنا سرو .

أنا نرجس شارون سوسنة الأودية .

كالسوسنة بين الشوك كذلك حبيتى بين البنات .

كالتفاح بين شجر الوعر كذلك حبيبى بين البنين ، أدخلنى إلى بيت الخمر وعلمه فوق محبة . أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح فإنى مريضة جدا . شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني . أحلفكن بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء » .

ويستمر النشيد يشبه الحبيب تارة بالظبى وتارة بغفر الأيائل ويدعو الحبيب حبيبته للخروج فقد ولى الشتاء ، حتى إذا جاء الليل تقول الحبيبة : « فى الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته . إنى أقوم وأطوف فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته . وجدنى الحرس الطائف بالمدينة فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى ؟ فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسي فأمسكته و لم أرخه حتى أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بى . وأحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء » .

هل يتصور إنسان أن سليمان الحكيم ولا أقول نبى الله سليمان ينظم مثل هذه الأشعار على لسان امرأة متهتكة لم تكتف بالبحث عن حبيبها بالليل ، بل أدخلته إلى غرفة أمها التى حبلت بها !. وما علاقة سليمان بهذا الغزل الفاضح المكشوف ؟ « هو ذا تخت سليمان حوله ستون جبارا من جبابرة إسرائيل وكلهم قابضون سيوفا ومتعلمون الحرب . كل رجل سيفه على فخذه من هول الليل .

الملك سليمان عمل لنفسه تختا من خشب لبنان . على أعمدته فضة وروافده ذهبا ومقعده أرجوانا ووسطه مرصوفا محبة من بنات أورشليم .

اخرجن يا بنات صهيون وانظرن الملك سليمان بالتاج الذى توجته به أمه

فى يوم عرسه وفى يوم فرح قلبه .

ويعود النشيد ليتحدث عن جمال الحبيبة ، وعن سواد شعرها ، وعن شفتيها اللتين كسلكة من القرمز ، وعن خدها الذى كفلقة رمانة ، وعن عنقها الذى كبرج داود ، وعن ثدييها ، وعن دوران فخذيها ، وعن سرتها . غزل مكشوف لا يليق برجل وقور بله حكيم ، وما كان ينبغى أن يكون بين دفتى كتاب مقدس . ولكن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أبوا إلا أن تكون كتاب تاريخ وأدب وحكمة وأدب مكشوف .

لقد أساءوا إلى سليمان ، ولولا القرآن لظلت صورة سليمان مهزوزة فى أذهان البشر . فقد أعاد القرآن المجيد إلى سليمان عليه السلام وإلى جميع الأنبياء والرسل كرامة النبوة والرسالة ونفى عنهم المعاصى والشرور التى ألصقها بهم كتاب العهد القديم . « ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين . وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . »[1] .

كان المؤرخون المسلمون يعتمدون على توراة المنفى بعد أن ترجمت إلى العربية فى القرن الثانى الهجرى ، فكانوا يروون أساطير اليهود على أنها وحى

---

(١) سورة النمل الآيات (١٥ ــ ١٩) .

من السماء ، وكانوا ينطقون بعض أنبيائهم الذين تخرجوا فى معاهد الأنبياء بالرامة وبيت إيل والجلجال بآيات من القرآن الكريم ؛ فماجت كتب التاريخ بل كتب الدين بالإسرائيليات . وقد انبرى كثير من المؤرخين الإسلاميين للدفاع عن الأخذ بالتوراة .

وقد أفرد ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) بابا عن « بيان الإذن فى الرواية والتحدث عن أخبار بنى إسرائيل » ، وساق أحاديث نبوية تصرح بالتحديث عن بنى إسرائيل : « حدثوا عنى ولا تكذبوا علىَّ ومن كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » ، « وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون . »(١).

وقد أورد ابن كثير ما كان بين رسول الله — ﷺ — وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أتى عمر النبى — ﷺ — بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى — ﷺ — فغضب وقال : أمتهدكون فيها يا بن الخطاب ؟ والذى نفسى به لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به . والذى نفسى به لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى » .

وصدق رسول الله — ﷺ — فقد جاء بالشريعة السمحة بيضاء نقية ، فأدخل عليها المؤرخون والمفسرون إسرائيليات شابت الشريعة الناصعة البياض ، ومن عجب أن ابن كثير قال فى ذلك الباب بعد أن أورد أحاديث تنهى عن تصديق أهل الكتاب أو تكذيبهم : فهذه الأحاديث دليل على أنهم قد

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٦) .

بدلوا ما بأيديهم من الكتب السماوية وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ، وعلى سيما مع ما يبدونه من المعربات التى لم يحيطوا بها علما وهى بلغتهم . فكيف يعبرون عنها بغيرها ؟ ولأجل هذا وقع فى تعريبهم خطأ كبير ووهم كثير مع ما لهم من المقاصد الفاسدة والآراء الباردة ، وهذا يتحققه من نظر فى كتبهم التى بأيديهم وتأمل ما فيها من سوء التعبير وقبيح التدبير والتغيير .

وهذه التوراة التى يبدونها ويخفون منها الكثير فيما ذكروه فيها تحريف وتبديل وتغيير وسوء تعبير ، يعلم من نظر فيها وتأمل ما قالوه وما أبدوه وما أخفوه ، وكيف يسوغون عبارة فاسدة البناء والتركيب باطلة من حيث معناها وألفاظها .

وهذا كعب الأحبار من أجود من ينقل عنهم ، قد أسلم زمن عمر وكان ينقل شيئا عن أهل الكتاب فكان عمر رضى الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق وتأليفا لقلبه ، فتوسع كثير من الناس فى أخذ ما عنده ، وبالغ أيضا هو فى نقل تلك الأشياء التى كثير منها ما يساوى مراده ، ومنها ما هو باطل ولا محالة ، ومنها ما هو صحيح لما يشهد له الحق الذى بأيدينا .

قال ابن عباس : « كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل الله على رسوله أحدث الكتب بالله تقرءونه محضا لم يُشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ؛ إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا

بباطل » .

هذا هو رأى ابن كثير فى توراة المنفى ، ومع ذلك فقد اعتمد عليها فى سرد قصص أنبياء بنى إسرائيل و لم يفرق بين أنبياء الله وأنبياء معاهد الأنبياء الذين كانوا يدرسون الشريعة ونظم الشعر والموسيقى . وقد رصع سيرهم بآيات من القرآن العظيم ، وأجرى على لسانهم حكما إسلامية وابتهالات الصالحين من المسلمين لله رب العالمين .

جاء فى كتاب « العهد القديم » سفر أشعياء عقب سفر نشيد الإنشاد ، وقبل أن نناقش هذا السفر سأروى ما كتبه ابن كثير عن أشعيا كنموذج للمؤرخين المسلمين الذين نهلوا من توراة المنفى دون حرص أو تدقيق :
« باب ذكر جماعة من أنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على التعيين إلا أنهم بعد داود وسليمان عليهما السلام وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام .

منهم شعيا بن أمصيا . قال محمد بن إسحاق : وكان قبل زكريا ويحيى وهو ممن بشر بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكان فى زمانه ملك اسمه حزقيا على بنى إسرائيل ببلاد بيت المقدس ، وكان سامعا مطيعا لشعيا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح ، وكانت الأحداث قد عظمت فى بنى إسرائيل فمرض الملك وخرجت فى رجله قرحة . وقصد بيت المقدس ملك بابل فى ذلك الزمان وهو سنحاريب ، قال ابن إسحاق : فى ستمائة ألف راية ، وفزع الناس فزعا شديدا وقال الملك للنبى شعيا : ماذا أوحى الله إليك فى أمر سنحاريب وجنوده ؟ قال : لم يوح إلىَّ فيهم شىء بعد ، ثم نزل عليه الوحى بالأمر للملك حزقيا بأن يوصى ويستخلف على ملكه من يشاء فإنه قد اقترب أجله ، فلما أخبره بذلك أقبل الملك على القبلة فصلى وسبح ودعا وبكى ، فقال وهو يبكى

ويتضرع إلى الله عز وجل بقلب مخلص وتوكل وصبر :

ــ اللهم رب الأرباب وإلـه الآلهة ، يا رحمن يا رحيم ، يا من لا تأخذه سنة ولا نوم ، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل ، وذلك كله كان منك وأنت أعلم به من نفسي ، سري وإعلاني لك .

فاستجاب الله له ورحمه وأوحى إلى شعيا بأن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه سنحاريب . فلما قال له ذلك ذهب منه الوجع وانقطع عنه الشر والحزن وخر ساجدا وقال في سجوده :

ــ اللهم أنت الذي تعطي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، عالم الغيب والشهادة ، أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين .

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعيا أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ . ففعل ذلك فشفي ، وأرسل الله على جيش سنحاريب الموت فأصبحوا وقد هلكوا كلهم سوى سنحاريب وخمسة من أصحابه منهم بختنصر . فأرسل ملك بني إسرائيل فجاء بهم فجعلهم في الأغلال وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم والإهانة لهم سبعين يوما ، ويطعم كل واحد منهم رغيفين من شعير ، ثم أودعهم السجن .

وأوحى الله تعالى إلى شعيا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حل بهم ، فلما رجعوا جمع سنحاريب قومه وأخبره بما قد كان من أمرهم ، فقال له السحرة والكهنة :

ــ إنا أخبرناك عن شأن ربهم وأنبيائهم فلم تطعنا ، وهي أمة لا يستطيعها أحد من ربهم .

فكان أمر سنحاريب مما خوفهم الله به . ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين ، ثم لما مات حزقيا ملك بنى إسرائيل مرج (فسد) أمرهم واختلطت أحداثهم وكثر شرهم ، فأوحى الله تعالى إلى شعيا فقام فيهم فوعظهم وذكرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله ، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذبوه . فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه فهرب منهم ، فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها ، وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة من ثوبه فأبرزها ، فلما رأوا ذلك جاءوا بمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

هذه رواية ابن إسحاق عن شعيا وقد نقلها عنه ابن كثير ، وهو قد قرأ التوراة ولا شك . ولكنه لم يتعمق فى دراستها ، إنه جعل حزقيا يدعو الله بآيات من القرآن العظيم وجعل الله يمد فى عمره خمس عشرة سنة ، وهذا لا يتفق مع ما جاء فى القرآن المجيد من أنه إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . وجعل شعيا فى دعائه يصف رب إسرائيل بأنه عالم الغيب والشهادة ، ولو درس التوراة لعرف أن « يهوه » لم يكن يعلم الغيب فهو يسأل الشيطان كلما مثل بين يديه : أين كنت ؟ فيقول له : كنت أتجول فى الأرض . ولعل عذر ابن إسحاق أنه قاس النبوة فى التوراة على النبوة فى القرآن الكريم ، ولم يفرق بين أنبياء يوحى إليهم وأنبياء يتلقون النبوة فى معاهد الأنبياء فى الرامة وبيت إيل والجلجال .

وإن قصة انفلاق الشجرة للأنبياء لإخفائهم من أعدائهم وأخذ الشيطان بهدب أثوابهم ونشر الشجرة بمن فيها قد استهوت المؤرخين الإسلاميين وكتّاب السير فنسبوها مرة إلى أشعيا ومرة إلى زكريا ، ولم يكتفوا بذلك ، بل وضعوا أحاديث نبوية نسبوها إلى نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه

عليه — وهو منها برىء .

إن سفر أشعيا يعتمد على الرؤى التي رآها فهي وحي منام ، وكانت فى أيام عُزيًّا ويوتام وآخار وحزقيا ملوك يهوذا فى أيام حكم الأشوريين للعراق ، وكانت العداوة مشبوبة بين الأشوريين واليهود . حتى إن الأشوريين كانوا يصنعون أهراما من رءوس قتلى الحرب والأسرى وكانوا يسلخون الأسرى وهم أحياء فى احتفالات رسمية يشهدها الشعب الأشورى المتعطش إلى دماء اليهود .

وأهم ما يلاحظ فى هذا السفر أنه لم يذكر موسى عليه السلام ، وسبب ذلك أن كاتب هذا السفر من اليهود المتعصبين ليهوديتهم ، فلم يذكر موسى عليه السلام لأن موسى كان من نسل لاوى بن يعقوب (إسرائيل) ولم يكن من نسل يهوذا ، فكان لا بد أن يخرج من رحمة كاتب السفر اليهودى . فقد بلغ الغرور باليهود أن حرموا حتى بنى إسرائيل الذين هبطوا من نسل أسباط غير سبط يهوذا من رحمة الله وألحقوهم بالأمم ، فأصبحوا هم والأمم فى نظر اليهود سواء بسواء .

وقد أخذ المتسرعون المتلهفون على إنكار كل شيء من هذا السفر دليلا على أن موسى عليه السلام إن هو إلا شخصية خرافية لم توجد على ظهر الأرض ، فلو أنها كانت حقيقة واقعة لما أهمل ذكرها سفر أشعيا وهو سفر متأخر كتب بعد أيام داود وسليمان عليهما السلام .

وإن أشعيا رأى أمورا من جهة يهوذا وأورشليم ، ورأى وحيا من جهة بابل ، ووحيا من جهة مؤاب ، ووحيا من جهة دمشق ، ووحيا من جهة مصر ، ووحيا من جهة برية البحر ، ووحيا من جهة دومة ، ووحيا من جهة بلاد العرب . وقد رأى المؤرخون الإسلاميون وكتَّاب السيرة فى هذا الوحى

تنبؤا بهجرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى يثرب فأطلقوا على أشعيا النبى الصالح .

ويأتى بعد سفر أشعيا سفر أرميا ، ويبدأ يصور أرميا كيف أن الله أوحى إليه وكيف أرسله نبيا للشعوب : « كلام أرميا بن حلقيا من الكهنة الذين فى عناثوت فى أرض بنيامين ، الذين كانت كلمة الرب إليه يوشينا بن آمون ملك يهوذا فى السنة الثالثة عشرة من ملكه ، وكانت فى أيام يهوياقيم بن يوشينا ملك يهوذا إلى تمام السنة الحادية عشرة لصدقيا بن يوشينا ملك يهوذا إلى سبى أورشليم فى الشهر الخامس » .

فزمن وجوده معروف فقد كان فى أيام الأزمة التى نشبت بين بابل وأورشليم وانتهت بأن شن نبوخذنصر (بختنصر) هجومه على إسرائيل واليهودية وحرق الهيكل وحمل اليهود إلى عاصمة ملكه سبايا ليمضوا سبعين سنة فى ذل الأسر المهين .

وأشعيا وأرميا قبل عزرا ونحميا ، ولكن لما كان عزرا ونحميا ممن كتبوا التوراة فى المنفى فقد جعلا سفريهما قبل سفرى أشعياء وأرمياء متجاهلين التسلسل التاريخى لكتاب أدباء اليهود الذى تقدس وأصبح « العهد القديم » .

ويلاحظ أن ملك اليهود كان اسمه يوشينا بن آمون وآمون كان إلـٰها لقدماء المصريين ، فهذا إن دل على شىء فإنما يدل على مدى تعلق حكام اليهود بالفراعين ذلك التعلق الذى جر عليهم غضب بختنصر ملك الكلدانيين . وهو يؤكد ما ذهب إليه برستد من أن حكماء اليهود والذين كتبوا التوراة كانوا يعتمدون على الأدب الفرعونى القديم وعلى أقوال المصلحين الاجتماعيين من قدماء المصريين .

ويرى برستد أن كاتب سفر أرميا قد اعتمد أيضا على أقوال أمينموبى

الحكيم المصرى القديم ، ويسوق للتدليل على ذلك قول أرميا فى الإصحاح (١٧ : ٥ — ٨) « ملعون ذلك الرجل الذى يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه ، ومن الرب يهوه يحيد قلبه ويكون مثل العرعر فى البادية ولا يرى إذا جاء بالخير .

بل يسكن الحرة فى البرية أرضا سبخة وغير مسكونة .

ومبارك ذلك الرجل الذى يتكل على الرب « يهوه » وكان الرب متكله .

— فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها ولا تخشى إذا جاء الحر ويكون ورقها أخضر ، وفى سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الإثمار » .

وقارن هذا القول بقول أمينموبى الحكيم المصرى القديم : « والرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى غابة ، ففى لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته فى مرفأ الخشب وينقل بعيدا عن مكانه .

ومأواه النار .

والرجل الحازم حقا ينتقى لنفسه مكانا .

فإنه مثل شجرة نامية فى حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره ويجلس فى حضرة سيده ، وثمرته حلوة وظله وارف ، ويجد آخرته فى الحديقة » .

قد تأثر الأنبياء العبرانيون أيما تأثر بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الخبيث بما كتبه أمينموبى ، وقد اقتبسوا منه تلك الصورة الهامة للشجرتين اللتين تصورهما .

ولا يكاد سفر من أسفار العهد القديم يخلو من أثر الأدب المصرى القديم ، فقد عاش بنو إسرائيل فى مصر وظلت الصلة متصلة بين اليهود وبين مصر القديمة يتأثرون بآدابها وتيارات الإصلاح فيها منذ الخروج حتى انقراض مملكة

أورشليم .

ويستمر الإصحاح الأول من سفر إرميا يروى كيف أوحى الله إليه :
« فكانت كلمة الرب إلىَّ قائلا : قبلما صورتك فى البطن عرفتك ، وقبلما خرجت من الرحم قدستك ، جعلتك نبيا للشعوب ، فقلت : آه يا سيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد . فقال الرب لى : لا تقل إنى ولد لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به ، لا تخف من وجوههم لأنى أنا معك لأنقذك ، يقول الرب ، ومد الرب يده ولمس فمى وقال الرب لى : ها قد جعلت كلامى فى فمك ، انظر ، قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب لتقلع وتهدم وتنقض وتبنى وتهدم وتغرس .

ثم صارت كلمة الرب إلى قائلا : ماذا أنت راء يا أرميا ؟ فقلت : أنا راء قضيب لوز . فقال الرب لى : أحسنت الرؤية لأنى أنا ساهر على كلمتى لأجريها . ثم صارت كلمة الرب إلى قائلا : ماذا أنت راء ؟ فقلت : إنى راء قدرا منفوخة ووجها من جهة الشمال . فقال الرب لى : من الشمال ينتفخ الشر على كل سكان الأرض ، لأنى هأنذا داع كل عشائر الشمال ، يقول الربب : فيأتون ويضعون كل واحد كرسيه فى مدخل أبواب أورشليم وعلى كل أسوارها حواليها وعلى كل من يهوذا ، وأقيم دعواى على كل شرهم لأنهم تركونى ونحروا لآلهة أخرى وسجدوا لأعمال أيديهم .

أما أنت فنطِّق حقويك وقم وكلمهم بكل ما آمرك به ، ولا ترتع من وجوههم لئلا أريعك أمامهم . هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس على كل الأرض ، لملوك يهوذا ولرؤسائها ولكهنتها ولشعب الأرض ، فيحاربونك ولا يقدرون عليك لأنى أنا معك ، يقول الرب لأنقذنك » .

ويتذلل إلـٰه إسرائيل لشعب إسرائيل ويحاول أن يخطب ودهم بأسلوب لا يليق بإلـٰه ، ثم يخاطب إسرائيل خطاب الزانية حتى يقول لأرميا : « هل رأيت ما فعلت العاصية إسرائيل ؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء وزنت هناك ، فقلت بعدما فعلت كل هذه :ارجعى إلى فلم ترجع . فرأت أختها الخائنة يهوذا فرأيت أنه لأجل كل الأسباب إذا زنت العاصية إسرائيل فطلقتها وأعطيتها كتاب طلاقها . لم تخف الخائنة يهوذا أختها بل مضت وزنت هى أيضا ، وكان من هوان زناها أنها نجست الأرض وزنت مع الحجر ومع الشجر ، وفى كل هذا أيضا لم ترجع إلى أختها الخائنة يهوذا بكل قلبها بل الكذب يقول الرب ، فقال الرب لى : قد بررت نفسها العاصية إسرائيل أكثر من الخائنة يهوذا » .

كان العهد المقدس منتشرا فى أرض ما بين النهرين ، وقد انتشر البغاء فى أرض إسرائيل ويهوذا . أخذ عن الأشوريين الأقوياء فكانت أغلب تشبيهات سفر أرميا مأخوذة عن الزنا والزناة . فإسرائيل زانية ويهوذا زانية أيضا ، فقد تركتا يهوه إلـٰه إسرائيل وارتمتا فى أحضان آلهة أخرى ... عملية زنا فكرى ثار لها أرميا .

وكانت جميع إصحاحات هذا السفر محاولات لإعادة العاصية إسرائيل إلى بيت الطاعة ، وإلى حظيرة الإيمان بيهوه إلـٰه إسرائيل « لأنه هكذا قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم : احرثوا لأنفسكم حرثا ولا تزرعوا فى الأشواك . اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كنارٍ غضبى فيحرق وليس من يطفئ بسبب شر أعمالكم . أخبروا فى يهوذا وسمّعوا فى أورشليم وقولوا : اضربوا بالبوق فى الأرض ، نادوا بصوت عال وقولوا : اجتمعوا فلندخل المدن الحصينة ، ارفعوا الراية نحو صهيون . .

احتموا . لا تقفوا . لأننى آت بشر من الشمال وكسر عظيم . قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم . خرج من مكانك ليجعل أرضك خرابا ، تخرب مدنك فلا ساكن . من ذلك تنطقوا بمسوح . الطموا وولولوا لأنه لم يرتد حمو غضب الرب عنا . ويكون ذلك اليوم يقوم الرب : إن قلب الملك يعدم وقلوب الرؤساء وتتحير الكهنة وتتعجب الأنبياء » .

كان الختان عند بنى إسرائيل ماديا ، كان علامة عهد بين ربهم وبينهم ، أما فى هذا الإصحاح فقد استعمل لفظ الختان للدلالة على فطام النفس عن الشهوات وغلق الأفئدة فى وجه الشر ، وهو استعمال جديد لم يسبق أن استعمل فى كل أسفار التوراة .

أنذر يهوه إلٰه إسرائيل نبيه أرميا بما سينزل بإسرائيل من عقاب ، فماذا كان رد نبى يهوه ؟ إنه اتهم ربه بالخداع : « فقلت : آه يا سيد الرب ! حقا إنك خداعا خادعت هذا الشعب وأورشليم قائلا : يكون لكم سلام وقد بلغ السيف النفس فى ذلك الزمان يقال لهذا الشعب ولأورشليم : ريح لائحة من الهضاب فى البرية نحو بيت شعبى ، لا للتذرية ولا للتنقية . ريح أشد تأتى لى من هذه . الآن أنا أيضا أحاكمكم » .

ويستمر سفر أرميا يتوجع على أورشليم ويهوذا ويتنبأ بما سينزل بالشعب من هوان . وقارئ هذا السفر المحايد يهتدى على الفور إلى أنه قد كتب بعد أن وقعت الأحداث التى يتنبأ بها ، فالنبوءات التى وردت فيه تطابق الواقع مطابقة تامة تبعدها عن أن تكون مجرد نبوءات .

أحداث وقعت قبل عصر تدوين التوراة فدونت على أنها نبوءات على لسان نبى من أنبياء بنى إسرائيل لتخويف الذين عادوا من المنفى إلى بيت المقدس ، ولإنذارهم بأن مصيرهم سيكون نفس مصير أجدادهم لو عادوا لعبادة آلهة

الشعوب أو اتخذوا لهم أزواجا من الأمم .

ومما يثير دهشة القارئ أن عزرا ونحميا وأشعياء وأرميا لم يرتكبوا الحماقات التى نسبت ظلما لداود وسليمان ولوط وكل أنبياء بنى إسرائيل ، والسبب أن توراة المنفى قد كتبها عزرا ونحميا وغيرهما من أنبياء التوراة الذين برءوا من كل عيب ، فلا يعقل أن الكاتب ينسب إلى نفسه النقائص والدنايا . ولعل كتَّاب التوارة أرادوا أن يثبتوا فى الأذهان أنهم كانوا أطهر من جميع أنبياء بنى إسرائيل ، ولا غرو فهم من نسل يهوذا وقد جعلت توراة المنفى اليهود فوق كل أسباط إسرائيل .

ودارس التوراة لا يسعه إلا أن ينكر كل أقوال يهوه وأفعاله ، فلا يعقل أن شعبا يسخِّر إلـٰهه لتحقيق مآربه وأن يحمده إذا حقق له أهدافه وأن يتهمه بكل النقائص من غش وخداع ونفاق إذا جاءت أفعاله على غير هوى شعبه المختار . إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا أول طبقة فى حكماء صهيون ، وهم الذين رسموا سياسة الوعد الإلـٰهى بأرض المعاد أرض فلسطين ليكون لهم حق فى أرض اغتصبوها من أصحابها بقرار من رب العالمين ، ومن سوء الحظ أن المسيحيين قد اتخذوا توراة المنفى — العهد القديم — كتابا مقدسا مكملا للإنجيل ، فكان حماسهم الدينى دافعا لتصديق كل افتراءات اليهود ، وقد قام أناس أحرار من المسيحيين بتفنيد مزاعم توراة المنفى ورفعوا النقاب عن زيفها ، وأعادوا أقوال أنبياء اليهود الذين تلقوا النبوة فى معاهد الأنبياء فى الرامة وبيت إيل وأريحا والجلجال إلى مصادرها الفرعونية والبابلية ، فما من شىء فى إسرائيل أصيل ، وكل ما بها من لغة وحكمة ومعتقدات دينية قد سلبت من الكنعانيين والمصريين والبابليين ، فوثائق المعاملات المكتوبة بالخط المسمارى متداولة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م فى آسيا الصغرى ، وكان استعمال تلك

الكتابة المسمارية فى فلسطين أمرا مألوفا ذائعا عند حلول القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد سرت بجانب هذه المعاملات البابلية التقاليد والقوانين التجارية التى كان التجار البابليون يسيرون على مقتضاها .

وبعض هذه القوانين نفسها مما انحدر إلى البشرية عن طريق قانون حمورابى كانت متداولة الاستعمال كذلك فى فلسطين قبل عهد العبرانيين ، ثم وصلت عن طريق « العهد القديم » إلى الحضارة الغربية .

ولا شك فى أن مثل نظام عطلة السبت قد دب إلى الحياة الفلسطينية عن طريق مثل هذه الاتصالات العملية التى كانت تستند عليها المعاملات التجارية ، فإنه سواء أراد رجل الأعمال الغربى الذى يعيش اليوم فى الشرق الأدنى أم لم يرد ، فإنه يتحتم عليه مراعاة السير فى المعاملات التجارية حسب التقويم المتبع فيما يختص بالأيام المقدسة التى لا يجرى فيها بيع ولا شراء ، ولا بد أن مثل هذه الحال هى ما كان يسير عليه التجار الفلسطينيون حينما كانوا يتعاملون مع التجار البابليين .

أخذوا تقديس السبت عن البابليين ، وأخذوا عنهم « الأرض التى لا رجعة منها » عوضا عن يوم الدين ، وأخذوا الحكمة عن حكماء المصريين القدامى ، فلم يكونوا أكثر من جسر انتقلت عليه حضارة البابليين والفراعين والكنعانيين إلى الغربيين عن طريق « العهد القديم » .

ويأتى بعد سفر أرميا وهو كله مراثٍ سفر حزقيال ، والمفروض أن الذى كتبه حزقيال نفسه ، فالإصحاح الأول من السفر يبدأ بتحديد اليوم الذى أوحى إليه فيه : « كان فى السنة الثلاثين فى الشهر الرابع فى الخامس من الشهر وأنا بين المسبيين عند نهر خابور أن السماوات انفتحت فرأيت رؤى الله . فى الخامس من الشهر وفى السنة الخامسة من سبى يوياكين الملك صار كلام الرب

إلى حزقيال الكاهن ابن بوزى فى أرض الكلدانيين عند نهر خابور ، وكانت عليه هناك يد الرب ، فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال ، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار ، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها : لها شبه إنسان ولكل واحد أربعة أوجه ولكل واحد أربعة أجنحة . وأرجلها أرجل قائمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول ، وأيدى إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة ، ووجوهها وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه ، لم تدُر عند سيرها كل واحد يسير إلى جهة وجهه . أما شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ، فهذه أوجهها ، أما أجنحتها فمبسوطة من فوق . لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه ، واثنان يغطيان أجسامهما ، وكل واحد كان يسير إلى وجهة وجهه ، إلى حيث تكون الروح لتسير تسير ؛ لم تدُر عند سيرها . أما شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة كمنظر مصابيح هى سالكة بين الحيوانات ، وللنار لمعان ومن النار كان يخرج برق . الحيوانات راكضة وراجعة كمنظر البرق .

فنظرت الحيوانات وإذا بَكرةٌ واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة . منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد ، وللأربع شكل واحد ، ومنظرها وصنعتها كأنها بكرة وسط بكرة ، لما سارت سارت على جوانبها الأربعة ، لم تدر عند سيرها ، أما أطُرُها فعالية ومخيفة ، وأطرها ملآنة عيونا حواليها للأربع ، فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها ، وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ارتفعت البكرات ، إلى حيث تكون الروح لتسير يسيرون إلى حيث الروح تسير ، والبكرات ترتفع معها ؛ لأن روح الحيوانات فى البكرات ، فإذا سارت تلك سارت هذه ، وإذا وقفت تلك

وقفت ، وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها ، لأن روح الحيوانات كانت فى البكرات ، وعلى رءوس الحيوانات شبه مقبب لمنظر البلور الهائل منتشرا على رؤوسها من فوق ، وتحت المقبب أجنحتها مستقيمة الواحد نحو أخيه ، لكل واحد اثنان يغطيان من هنا ، ولكل واحد اثنان يغطيان من هناك أجسامها . فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة كصوت القدير صوت ضجة كصوت جيش . ولما وقفت أرخت أجنحتها فكان صوت من فوق المقبب الذى على رؤوسها إذا وقفت أرخت أجنحتها ، وفوق المقبب الذى على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق ، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق . ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخلة من حوله من منظر حقويه إلى فوق ، ومن منظر حقويه إلى تحت . رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها ، كمنظر القوس التى فى السحاب يوم مطر ، هكذا منظر اللمعان من حوله . هذا منظر شبه مجد الرب ، ولما رأيته خررت على وجهى ، وسمعت صوت متكلم » .

ويثور فى نفسى سؤال ، لماذا كثير أنبياء بنى إسرائيل فى أيام السبى ؟ لعل الأزمة الطاحنة التى كان يعيش فيها اليهود حركت ضمائر بعض السبايا فراحوا يتصورون أن يهوه قد اصطفاهم ليؤنبوا اليهود على ما اقترفوه فى حقه ، أو لعلهم نصبوا من أنفسهم أنبياء ليعيدوا الشعب الضال إلى حظيرة الإيمان . وإن كاتب سفر حزقيال لم يشذ عن تصور أن الرب يأتى فى ظلل السحاب وفى النار ، وقد صور موكب الرب كما صور البابليون إلـٰههم مردوخ . إنه محاط بأسود أشورية مجنحة وبعجول مجنحة ، وإن الصورة التى صورها حزقيال لمجد الرب لا تفترق فى كثير ولا قليل عن تمثال لمردوخ رب بابل ، وقد عاش

حزقيال فى الأسر مدة طويلة ورأى تماثيل آلهة الكلدانيين فى العراق فتأثر بها لما وصف كيف ظهر له يهوه !

إن النظرية الإسلامية فى الوحى تقول إن الله لم يكلم من اصطفاهم إلا وحيا أو من وراء حجاب ، ولما أراد موسى عليه السلام أن يرى الله جهرة أمره الله أن ينظر إلى الجبل ، فلما تجلى الله سبحانه وتعالى للجبل اندك وخر موسى صعقا ، فكيف استطاع حزقيال أن يفتح عينيه ليرى موكب مجد الله ولا يخر على وجهه إلا بعد أن يرى فى وضوح كل الموكب بأدق تفاصيله ، إنه كان ولا شك يقف أمام تمثال لأحد الآلهة البابلية ، وكان يصفه وهو هادئ النفس مستريح البال !.

ولنصغ الآن إلى الحوار الذى كان بين يهوه وبين حزقيال : « فقال لى : يا بن آدم قم على قدميك فأتكلم معك . فدخل فىّ روح لما تكلم معى وأقامنى على قدمى ، فسمعت المتكلم معى وقال لى : يا بن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل ، إلى أمة متمردة قد تمردت علىّ . هم وآباؤهم عصوا على إلى ذات هذا اليوم . والبنون القساة الوجوه الصلاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب ، وهم من سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد ، لأنهم يعلمون أن نبيا كان بينهم . أما أنت يا بن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف لأنهم فريس وسلاء لديك ، وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لا تخف ومن وجوههم لا ترتعب لأنهم بيت متمرد ، وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم متمردون » .

ويستمر حزقيال يذكر الشعب المتمرد وعصيان الآباء والأنبياء اليهود ، فكيف يقبل يهوه أن يكون مثل هذا الشعب الملىء بالآثام والذى يتمرغ فى الخطايا شعبه المختار ؟! إن يهوه لم يصطف ذلك الشعب الذى ارتكب

كل مايحط من كرامة الإنسان ، ولكن كهان بنى إسرائيل فى المنفى كتبوا التوراة بأيديهم وعبدوا أنفسهم غرورا فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن يهوه إلـهِهم وحدهم وسخروه لخدمة مآربهم وجعلوه يتذلل إليهم عوضا عن أن يبتهلوا إليه ، لكأنما يعلم أنه ليس له وجود إلا بهم .

وضعوا على لسانه عهودا تخدم قضاياهم الدنيوية ، وجعلوه فظا غليظ القلب يبيح لعباده — إن كانوا يعبدونه — أن يقتلوا أعداءهم بلا تمييز بين محارب ومسالم ولا شاب ولا شيخ ولا طفل ولا امرأة ، وإنه يقابل الفاحشة بالفاحشة فيهدد داود عليه السلام لما زعموا أنه أخذ بتشبع زوجة قائده أوريا الحثى بأن يزنى فى بيته فى عين الشمس ، أى على الملأ على رؤوس الأشهاد !

وجعلوه نهما يتلذذ برائحة الشواء ، وأنه لذلك يعفو عن الذنوب جميعا إذا قدمت له القرابين على النار ، وجعلوه يصف للبرء من الأمراض ما يصفه الكهنة والسحرة (وكوديا) الزار ، إنه إلـه من صنع عقولهم ، وإنى أعذر الذين تربوا على التوراة ثم كفروا بها وقالوا إن الرب من صنع الإنسان ؛ فتوراة المنفى لا يمكن أن توحى بشىء أكثر من هذا ، وهى المسئولة عن كل الأفكار الخاطئة التى يروج لها رجال الدين فى الغرب وعلماء المقارنة بين الأديان .

إن الذين تخرجوا فى مدرسة التوراة لهم عذرهم إن كفروا بالدين ، فالأسفار بأقلام بشر يصيبون مرة ويخطئون مرارا ، وهم فى منأى عن جوهر الدين فى أغلب الأحايين . فما بال المقلدين من المسلمين يكفرون بالدين وما فى قرآنهم العظيم شىء يتعارض مع الفطرة والمنطق والعقل السليم !

إن إنسان العصر الحديث فى الغرب قد تفتحت عيناه عن زيف « عهده القديم » فلم يجهد نفسه فى أن يبحث عن الحق المبين ، بل أغلق قلبه دون كل دين ، وجعل من نفسه إلـها كاملا بعد أن زعم أن الله قد مات على لسان شترنو

ونيتشه وسارتر . وعبد الإنسان نفسه ولا جرم فقد اعتاد أن يعبد ما يخلق من أصنام .

ويذهب حزقيال إلى المسبيين ويمكث بينهم سبعة أيام ، ثم يقول له يهوه فيما يقول : « وأنت يا بن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أورشليم واجعل عليها حصارا وابن عليها برجا وأقم عليها مترسة واجعل عليها جيوشا وأقم عليها مجانق حولها ، وخذ أنت لنفسك صاجا من حديد وانصبه سورا من حديد بينك وبين المدينة وثبت وجهك عليها فتكون فى حصار تحاصرها . تلك آية لبيت إسرائيل » .

أرأيت ! إن حزقيال مثّال بارع ، فلا غرو أنه وصف موكب مجد الله وصفا يليق بمثال يتخيل تمثالا أو يجمع فى ذهنه صور التماثيل التى رآها فى أرضى السبى فى مشهد واحد يليق بمجد الرب .

كيف لم يبهر نور يهوه عينى المثال الماهر ؟ إنه قادر على أن يفتح عينيه فى ذلك النور ويرى أدق تفاصيل الموكب ثم يخر بعد ذلك ساجدا لمجد الرب . إنها خيالات كاتب هذا السفر وهى خيالات فنان قد فسد ذوقه ببعض معتقدات الكهان . ولنستمع إلى ما زعم الكاتب أنه وحى الرب : « واتكئ أنت على جنبك اليسار وضع عليه إثم بنى إسرائيل . على عدد الأيام التى فيها تتكئ عليه تحمل إثمهم . وأنا قد جعلت لك سنى إثمهم حسب عدد الأيام ثلاثمائة يوم وتسعين يوما فتحمل إثم بيت إسرائيل ، فإذا أتممتها فاتكئ على جنبك الأيمن أيضا فتحمل إثم بيت يهوذا أربعين يوما ، فقد جعلت لك كل يوم عوضا عن سنة ، فثبت وجهك على حصار أورشليم وذراعك مكشوفة وتنبأ عليها ، وهأنذا أجعل عليك رُبطا فلا تقلب من جنب إلى جنب حتى تتم أيام حصارك » .

ألا يعذر الذين كفروا بمثل هذا الوحى ؟ أيكفى أن ينام شخص أيا كانت مكانته على جنبه الأيسر ويكشف ذراعه ليحمل أوزار شعب عاش طول حياته يلعق معاصيه ؟ وهل هذا عدل إلٰهى ؟ « ولا تزو وازرة وزر أخرى »[١] . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . »[٢] . « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . »[٣] . « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون . »[٤] .

عدل لا عدل بعده ، أمر ربى بالقسط « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير . »[٥] .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »[٦] .

---

(١) سورة الإسراء الآية (١٥) .
(٢) سورة النساء الآيات (١١٠ — ١١٢) .
(٣) سورة الأنعام الآية (١٣٢) .
(٤) سورة الأنعام الآية (١٦٠) .
(٥) سورة فاطر الآية (١٨) .
(٦) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

ويستمر سفر حزقيال فى الحديث عن خطايا بنى إسرائيل وعن تذلل يهوه إليهم ليعودوا إليه . ولا ينسى ذلك السفر أن يؤكد أن رب إسرائيل قد وعد شعبه بأرض فلسطين : فذلك الوعد هو الشيء الذى لا يخلو منه سفر من أسفار العهد القديم .

وفى ذلك السفر حديث عن الأنبياء الذين يتنبأون من تلقاء ذواتهم وما أكثرهم فى إسرائيل : « وكان إلىّ كلام الرب قائلا : يا بن آدم تنبأ على أنبياء إسرائيل الذين يتنبأون ، وقل للذين هم أنبياء من تلقاء ذواتهم اسمعوا كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب : ويل للأنبياء الحمقى الذاهبين وراء روحهم ولم يروا شيئا . أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الخرب . لم تصعدوا إلى الثُّغَر ولم تبنوا جدارا لبيت إسرائيل للوقوف فى الحرب يوم الرب ، رأوا باطلا وعرافة كاذبة ، القائلين وحى الرب والرب لم يرسلهم ، وانتظروا إثبات الكلمة ، ألم تروا رؤيا باطلة وتكلمتم بعرافة كاذبة قائلين وحى الرب وأنا لم أتكلم ؟ لذلك هكذا قال السيد الرب : لأنكم تكلمتم بالباطل ورأيتم كذبا فلذلك ما أنا عليكم يقول السيد الرب . وتكون يدى على الأنبياء الذين يرون الباطل والذين يعرفون بالكذب ، فى مجلس شعبى لا يكونون وفى كتاب بيت إسرائيل لا يكتبون وإلى أرض إسرائيل لا يدخلون فتعلمون أنى أنا السيد الرب ... » .

وكان فى إسرائيل إلى جوار الأنبياء الكذبة مدعيات للنبوة من النساء ، ولعل إحداهن هى التى كتبت على لسان سليمان الحكيم « نشيد الأنشاد » . وقد تسلل ذلك النشيد إلى كتاب بيت إسرائيل ليكون سفرا مقدسا عند اليهود والنصارى على السواء : « وأنت يا بن آدم فاجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن . وقل هكذا قال السيد الرب .

ويلي للواتي يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس . أفتصطدن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن وتنجسنني عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز ؟ لإماتة نفوس لا تنبغى أن تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيا بكذبكن على شعبى السامعين للكذب » .

ويخاطب حزقيال إسرائيل كما خاطبها أرميا من قبل وينعتها بالزانية ومدينة الدماء ويصفها بأقبح الصفات ، فكيف رضى الرب أن يكون مسكنه الدائم فى تلكم المدينة التى يمور فيها الفجور مورا ؟ « الله لا إلٰه إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السمٰوات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم . »[١] .

ويتنبأ نبى آخر فى أيام السبى ويصبح ما كتبه سفرا مقدسا فى التوراة ، إنه النبى دانيال ، ويبدأ سفره بوصف حصار نبوخذناصر لأورشليم : « فى السنة الثالثة من ملك يهوياقيم ملك يهوذا ذهب نبوخذناصر ملك بابل إلى أورشليم وحاصرها وسلم الرب بيده يهوياقيم ملك يهوذا مع بعض آنية بيت الله ، فجاء بها إلى أرض شنعار إلى بيت إلٰهه وأدخل الآنية إلى خزانة بيت إلٰهه ، وأمر الملك أشفُتر رئيس خصيانه بأن يحضر من بنى إسرائيل ومن نسل الملك ومن الشرفاء فتيانا لا عيب فيهم حسان المنظر ، حاذقين فى كل حكمة وعارفين معرفة وذوى فهم بالعلم والذين فيهم قوة على الوقوف فى قصر الملك

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

فيعلموهم كتابة الكلدانيين ولسانهم ، وعين لهم الملك وظيفة كل يوم بيومه من أطايب الملك ومن خمر مشروبه لتربيتهم ثلاث سنين ، وعند نهايتها يقفون أمام الملك ، وكان بينهم من بنى يهوذا دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا ، فجعل لهم رئيس الخصيان أسماء فسمى دانيال بلطشاصَّر ، وحننيا شدرُخ وميشائيل ميتخ ، وعزريا عبدتغُو .

أما دانيال فجعل فى قلبه أنه لا يتنجس بأطايب الملك ولا بخمر مشروبه ، فطلب من رئيس الخصيان أن لا يتنجس ، وأعطى الله دانيال نعمة ورحمة عند رئيس الخصيان . فقال رئيس الخصيان لدانيال : إنى أخاف سيدى الملك الذى عين طعامكم وشرابكم، فلماذا يرى وجوهكم أهزل من الفتيات الذين من جيلكم فتدينون رأسى الملك ؟ فقال دانيال لرئيس السقاة الذى ولاه رئيس الخصيان على دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا : جرب عبيدك عشرة أيام فليعطونا القطانى لنأكل وماء لنشرب . ولينظروا إلى مناظرنا أمام الملك وإلى مناظر الفتيان الذين يأكلون من أطايب الملك ، ثم اصنع بعبيدك ما ترى . فسمع لهم هذا الكلام وجربهم عشرة أيام . وعند نهاية العشرة الأيام ظهرت مناظرهم أحسن وأسمن لحما من كل الفتيان الآكلين من أطايب الملك ، فكان رئيس السقاة يرفع أطايبهم وخمر مشروبهم ويعطيهم قطانى » .

نوادر لا يمكن أن ترقى إلى مستوى وحى الله ، وتضارب فى أقوال أنبياء بنى إسرائيل حتى ليخيل إلى القارئ أن كاتب هذا السفر لا علم له بما سبقه من أسفار أو أن مردخاى وإستير لم يطلعا على هذا السفر ، والمفروض أنه قد كتب قبل سفرهما المقدس ، فدانيال أبى أن يتنجس بشراب الملك ومأكله، بينما إستير لم تجد حرجا فى شراب الملك ومأكله ، ومردخاى لم يتردد لحظة فى أن يقدم ابنة عمه الجميلة محظية للملك ، ولولا دهاء اليهود ودسائسهم لظلت

إستير محظية ولما ارتفعت إلى مرتبة ملكة . المهم أن قارئ التوراة لا يدرى أشرب الخمر حلال أم حرام فما أكثر أنبياء التوراة الذين شربوا الخمر وما أكثر الذين تغزلوا فيها ، ولا يدرى حدود الزنا فقد زعم كتاب التوراة أن جميع أنبيائهم تقريبا قد زنوا دون أن يقام عليهم الحد ، بل إن يهوذا نفسه الذى ينسب إليه اليهود قد زنى بزوجة ابنه وجاء منها بجيل من اليهود . أساطير لا يمكن أن ترقى إلى الحقيقة ، وإنها لجرأة بغيضة على الله أن يظن إنسان أن ما كتبه كتَّاب التوراة فى المنفى يمكن أن يكون وحيا من لدن أحكم الحاكمين .

إن دانيال هو كاتب هذا السفر وقد يكون الفتيان الأربعة قد اشتركوا فيه ، أو أن دانيال وصف رفقاءه بالحكمة والفهم ليصدقوه فى كل ما يقول : « أما هؤلاء الفتيان الأربعة فأعطاهم الله معرفة وعقلا فى كل كتابة وحكمة ، وكان دانيال فهيما بكل الرؤى والأحلام . وعند نهاية الأيام التى قال الملك أن يدخلوهم بعدها أتى بهم رئيس الخصيان إلى أمام نبوخذناصر وكلمهم الملك فلم يوجد بينهم مثل دانيال وحننيا وميشائيل وعزريا ، فوقفوا أمام الملك وفى كل أمر حكمة فهم الذى سألهم عند الملك وجدهم عشرة أضعاف فوق كل المجوس والسحرة الذين فى كل مملكته ، وكان دانيال إلى السنة الأولى لكورش الملك .

كان دانيال يجيد تأويل الأحاديث وتفسير الرؤى ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يجيد تفسير الأحلام ، فهل إجادته لتفسير الأحلام تعطيه الحق فى أن يكتب سورة من سور القرآن ؟ إن كل ما فعله دانيال أنه فسر لنبوخذناصر رؤيا رآها فأصبح لذلك نبيا من أنبياء بنى إسرائيل وأصبح من حقه أن يضيف إلى العهد القديم كتابا كتبه بيده ، صار يقرأ فى بيوت عبادة اليهود والمسيحيين على السواء.

« وفى السنة الثانية من ملك نبوخذنصر حلم نبوخذنصر أحلاما فانزعجت روحه وطار عنه نومه ، فأمر الملك بأن يستدعى المجوس والسحرة والعرافون والكلدانيون ليخبروا الملك بأحلامه ، فأتوا ووقفوا أمام الملك فقال لهم الملك : قد حلمت حلما وانزعجت روحى لمعرفة الحلم ، فكلم الكلدانيون الملك بالأرامية : عش أيها الملك إلى الأبد ؛ أخبر عبيدك بالحلم فنبين تعبيره ، فأجاب الملك وقال للكلدانيين : قد خرج منى القول إن لم تنبئونى بالحلم وبتعبيره تصيرون إربا إربا وتجعل بيوتكم مزبلة ، وإن بينتم الحلم وتعبيره تنالون من قبلى هدايا وحلاوين وإكراما عظيما ، فبينوا لى الحلم وتعبيره . فأجابوا ثانية وقالوا : ليخبر الملك عبيده بالحلم فنبين تعبيره ، أجاب الملك وقال إنى أعلم يقينا أنكم تكسبون وقتا إذ رأيتم أن القول قد خرج منى بأنه إن لم تنبئونى بالحلم فقضاؤكم واحد ، لأنكم قد اتفقتم على كلام كذب وفاسد لتتكلموا به قدامى إلى أن يتحول الوقت . فأخبرونى بالحلم فأعلم أنكم تبينون لى تعبيره . أجاب الكلدانيون قدام الملك : ليس على الأرض إنسان يستطيع أن يبين أمر الملك . لذلك ليس ملك عظيم ذو سلطان سأل أمرا مثل هذا من مجوس أو ساحر أو كلدانى ، والأمر الذى يطلبه الملك عسر وليس آخر يبينه قدام الملك غير الآلهة الذين ليست سكناهم مع البشر » .

ماذا يفعل كاتب القصة أو كاتب السيناريو عندما يصل الموقف إلى هذا الحد ؟ إنه يدفع ببطله إلى ساحة المعركة المحتدمة ليحل المعضلة ويضع الكاتب على رأسه أكاليل النصر ، وهذا ما فعله دانيال عندما كتب هذا السفر . وأحب أن أشير هنا إلى أن كل كتاب القصة قد ساروا على نهج كتاب التوراة إلى عهد قريب ، إطالة فى التفاصيل وتكرار للأحداث وعقدة للقصة ، ثم حل العقدة وانتصار البطل بعد أن يعجز غيره عن تحقيق ما استطاع هو تحقيقه :

« لأجل ذلك غضب الملك واغتاظ جدا وأمر بإبادة كل حكماء بابل ، فخرج الأمر وكاد الحكماء يقتلون ، فطلبوا دانيال وأصحابه ليقتلوهم (كما يحدث فى السينما تماما) ، حينئذ أجاب دانيال بحكمة وعقل لأريوخ رئيس شرطة الملك الذى خرج ليقتل حكماء بابل . أجاب وقال لآريوخ قائد الملك : لماذا اشتد الأمر من قبل الملك ؟ حينئذ أخبر أريوخ دانيال بالأمر . فدخل دانيال وطلب من الملك أن يعطيه وقتا فيبين للملك التعبير ، حينئذ مضى دانيال إلى بيته وأعلم حننيا وميشائيل وعزريا وأصحابه بالأمر ليطلبوا المراحم من قبل إلٰه السموات من جهة هذا السر ، لكى لا يهلك دانيال وأصحابه مع سائر حكماء بابل .

حينئذ كان لدانيال كشف السر فى رؤيا الليل ، فبارك دانيال إلٰه السموات ، أجاب دانيال وقال : ليكن اسم الله مباركا من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت ، وهو يغير الأوقات والأزمنة يعزل ملوكا ويَنصِّب ملوكا ، يعطى الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما ، وهو يكشف العمالقة والأسرار . يعلم ما هو فى الظلمة وعنده يسكن النور . إياك يا إلٰه آبائى أحمد وأسبح ، الذى أعطانى ا لحكمة والقوة وأعلمنى الآن ما طلبناه منك ، لأنك أعلمتنا أمر الملك ، فمن أجل ذلك دخل دانيال إلى آريوخ الذى عينه الملك لإبادة حكماء بابل .. مضى وقال له هكذا : لا تبد حكماء بابل . أدخلنى إلى قدام الملك فأبين للملك التعبير .

حينئذ دخل أريوخ بدانيال إلى قدام الملك مسرعا وقال له هكذا ، قد وجدت رجلا من بنى سبى يهوذا الذى يعرِّف الملك بالتعبير ، أجاب الملك وقال لدانيال الذى اسمه بالطشاصر : هل تستطيع أنت على أن تعرفنى بالحلم الذى رأيت وبتعبيره . أجاب دانيال قدام الملك وقال : السر الذى طلبه الملك

لا تقدر الحكماء ولا السحرة ولا المجوس ولا المنجمون على أن يبينوه للملك لكن يوجد إلـٰه فى السموات كاشف الأسرار وقد عرّف الملك نبوخذنصر ما يكون فى الأيام الأخيرة . حلمك ورؤيا رأسك على فراشك هو هذا : أنت يأيها الملك أفكارك على فراشك صعدت إلى ما يكون من بعد هذا ، وكاشف الأسرار يعرفك بما يكون أما أنا فلم يكشف لى هذا السر لحكمة فىّ أكثر من كل الأحياء ، ولكن لكى يُعرَّف الملك بالتعبير ولكى تعلم أفكار قلبك .

أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثال العظيم البهى جدا وقف قبالتك ومنظره هائل ، رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس ، ساقاه من حديد ، قدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف ، كنت تنظر إلى أن انقطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما ، فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف ، فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها . هذا هو الحلم ، فنخبر بتعبيره قدام الملك .

أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إلـٰه السموات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا ، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها إليك وسلطك عليها جميعا ، فأنت هذا الرأس من ذهب ، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة أخرى من نحاس فتسلط على كل الأرض ، وتكون مملكة رابعة صلبة الحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شىء ، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء ، وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد فالمملكة تكون

منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين ، وأصابع القدمين بعضها من حديد والبعض من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصيما ، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ، ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف . وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إلـٰه السموات مملكة تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد ، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عرّف الملك ما سيأتى بعد هذا . الحلم حق وتعبيره يقين .

حينئذ خر نبوخذنصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر بأن يقدموا له تقدمة وروائح سرور (هل يا ترى دانيال مثل إلـٰه يحب رائحة الشواء ؟). فأجاب الملك دانيال وقال : حقا إن إلـٰهكم إلـٰه الآلهة ورب الملك وكاشف الأسرار إذ استطعت على كشف هذا السر . حينئذ عظم للملك دانيال وأعطاه عطايا كثيرة وسلطه على كل ولاية بابل وجعله رئيس الشحن على جميع حكماء بابل ، فطلب دانيال من الملك فولى شدوخ ومشيح وعبدتغو على أعمال ولاية بابل . أما دانيال فكان فى باب الملك .

وتلقف كتاب السيرة المسلمون والمفسرون الذين قرءوا التوراة هذه الرؤيا وقالوا إن الحجر الذى قطع من الجبل من غير يدين وحطم التمثال العظيم هو محمد رسول الله ــ ﷺ ــ خاتم المرسلين ، وراحوا ينقبون فى التوراة عن بشارات عن النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ولم يدر بخلدهم أن توراة المنفى قد أصبحت غير صالحة للتنقيب فقد اندثرت توراة الله وكتب عزرا ونحميا ودانيال وأرميا وأشعياء وغيرهم التوراة

بأيديهم .

وكان أكثر الباحثين عن البشارات فى الكتب المقدسة القديمة الهنود الذين أسلموا والفرس والباكستانيون والعراقيون ، ولكن المسلمين فى فجر الإسلام لم يهتموا لا كثيرا ولا قليلا بالبحث عن البشارات فى الكتب السابقة ، فقد جاءهم نبيهم — ﷺ — بكتاب من الله . إنه آية الآيات ومعجزة المعجزات ونور أضاء الأفئدة بإيمان مبين ، وكشف لعقولهم أسرار الوجود ، وجاءهم بعقيدة تنهى عن اتباع الهوى وتحض على التقوى وتدعو إلى مكارم الأخلاق ، ونزع ما فى الصدور من غل وما فى الأفئدة من جهل ، والقضاء على الظلم ومحق الفساد ، فلم يكن أمامهم إلا أن يدخلوا فى دين الله أفواجا مسلمين وجوههم لله رب العالمين .

ولم يكد مداد الإصحاح الثانى من سفر دانيال يجف حتى نجد الذى كتب ذلك السفر يروى أحداثا لا تتفق مع منطق الأحداث ، فقد رأينا نبوخذنصر فى الإصحاح الثانى يسجد لدانيال ويقول له : حقا إن إلٰهكم إلٰه الآلهة ، أى أنه فضل رب إسرائيل على مردوخ إلٰهه ، فماذا ننتظر من مثل ذلك الملك ؟ إما أن يؤمن بإلٰه إسرائيل أو على الأقل يحترم إلٰه إسرائيل ويعلم أن هناك إلٰها فوق آلهته فيتواضع وتتقاصر نفسه . وإلا فما هى الحكمة من الرؤيا التى رآها والتى فسرها له دانيال دون أن يقصها عليه ؟ إما أن كاتب السفر قد نسى ما كتبه فى إصحاح التفسير وإما أن هناك أكثر من كاتب لذلك السفر : « نبوخذنصر الملك صنع تمثالا من ذهب طوله ستون ذراعا وعرضه ست أذرع ونصبه فى بقعة دورا فى ولاية بابل ، ثم أرسل نبوخذنصر الملك ليجمع المرازبة والشحن والولاة والقضاة والخزنة والفقهاء والمفتين وكل حكام الولايات لتدشين التمثال الذى نصبه نبوخذنصر الملك . ووقفوا أمام التمثال

الذى نصبه نبوخذنصر ونادى مناد بشدة : قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة ، عندما تسمعون صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف أن تخروا وتسجدوا لتمثال الذهب الذى نصبه نبوخذنصر الملك . ومن لا يخر ويسجد ففى تلك الساعة يلقى فى وسط أتون نار متقدة . لأجل ذلك وقتما سمع كل الشعوب صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير وكل أنواع العزف خر كل الشعوب والأمم والألسنة وسجدوا لتمثال الذهب الذى نصبه نبوخذناصر الملك .

لأجل ذلك تقدم حينئذ رجال كلدانيون واشتكوا على اليهود أجابوا وقالوا للملك نبوخذنصر : أيها الملك عش إلى الأبد ، أنت أيها الملك قد أصدرت أمرا بأن كل إنسان يسمع صوت القرن والناى والعود والرباب والسنطير والمزمار وكل أنواع العزف يخر ويسجد لتمثال الذهب ، ومن لا يخر ويسجد فإنه يلقى فى وسط أتون نار متقدة . يوجد رجال يهود الذين وكلتهم على أعمال ولاية بابل » .

وأرسل نبوخذنصر إلى حننيا وميشائيل وعزريا وسألهم أن يسجدوا للتمثال فأبوا ، فامتلأ غيظا وألقى بهم فى النار بعد أن أوثقهم بالحبال ، فإذا به يراهم يمشون فى النار مطمئنين ، فقد أرسل إلـٰه إسرائيل ملكا فك وثاقهم وأمر النار أن تكون بردا وسلاما عليهم ، فأخرجهم نبوخذنصر من النار ، وقال : « تبارك إلـٰه شدرخ ومشيح وعبدتغو الذى أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتكلوا عليه » .

و لم يذكر هذا الإصحاح ماذا فعل دانيال لما أمر الملك بالسجود للتمثال ؟ وإذا كان لم يسجد فلماذا لم يوثق ويلقى به فى النار كما فعل بأصحابه ؟ الظاهر أن دانيال كتب الإصحاح الثانى من السفر وأن الثلاثة الآخرين كتبوا

الإصحاح الثالث دون أن يقرءوا الإصحاح الثانى ، وأن الهدف من الإصحاحين هو تمجيد إلٰه إسرائيل وإظهار أن نبوخذنصر قد اعترف بمجد يهوه .

ويزعم الإصحاح الرابع أن نبوخذنصر قد كتب إلى كل الشعوب بحلم آخر فسره له دانيال ، لكأنما كانت حياة نبوخذنصر أحلام وتأويل الأحاديث . ويموت نبوخذنصر ويتولى الملك بعده ابنه بيلشاصر ويصنع وليمة عظيمة لعظمائه الألف « وشرب خمرا قدام الألف وإذ كان بيلشاصر يذوق الخمر أمر بإحضار آنية من الذهب والفضة التى أخرجها نبوخذنصر أبوه من الهيكل الذى فى أورشليم ..

أظن أنك تذكرت بيلشاصر هو دانيال وأن الإصحاح الأول من هذا السفر قد جاء فيه أن دانيال لم يذق خمرا ، وجاء فى الإصحاح الخامس أنه كان يذوق الخمر ، فأى الإصحاحين نصدق ؟ ومن أين جاء هذا التضارب ؟ لا شك أن السفر الواحد كان يكتبه أكثر من كاتب دون أن يطلع على ما قد كتب ، فجاءت أقوالهم متعارضة وكثر فى التوراة التكرار الذى لا مبرر له .

ويستمر سفر دانيال يصف معجزات يهوه : « .. ظهرت أصابع يد إنسان وكتب بإزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر طرف اليد الكاتبة ، حينئذ تغيرت هيئة الملك وأفزعته أفكاره وانحلت خرز حقويه واصطكت ركبتاه ، فصرخ الملك بشدة لإدخال السحرة والكلدانيين والمنجمين ، فأجاب الملك وقال لحكماء بابل : أى رجل يقرأ هذه الكتابة ويبين لى تفسيرها فإنه يلبس الأرجوان وقلادة من ذهب فى عنقه ويتسلط ثالثا فى المملكة ، ثم دخل كل حكماء الملك فلم يستطيعوا أن يقرأوا الكتابة ولا أن يعرفوا الملك بتفسيرها ، ففزع الملك بيلشاصر جدا وتغيرت فيه هيئته

واضطرب عظماؤه ، أما الملكة فلسبب كلام الملك وعظمائه دخلت بيت الوليمة ، فأجابت الملكة وقالت : أيها الملك عش إلى الأبد ، لا تفزعك أفكارك ولا تتغير هيئتك ، يوجد فى مملكتك رجل فيه روح الآلهة القدوسين ، وفى أيام أبيك وجدت فيه نيرة وفطنة وحكمة كحكمة الآلهة ، والملك نبوخذنصر أبوك جعله كبير المجوس والسحرة والكلدانيين والمنجمين . أبوك الملك من حيث إن روحا فاضلة ومعرفة وفطنة وتعبير الأحلام وتبيين ألغاز وحل وعقد وجدت فى دانيال هذا الذى سماه الملك بلطشاصر ، فليدع الآن دانيال فيبين التفسير » .

قبل دانيال نبى اليهود أن يكون كبير كهنة مردوخ وكبير السحرة وكبير المنجمين وهذا باعتراف دانيال نفسه ، فهل النبوة تتواكب مع الكهانة لصنم والسحر والتنجيم ؟ وهل يقبل نبى أن يبدل ملك مهما كان له من الجبروت اسمه ويطلق عليه اسما يلحقه بصنم ؟ إن وظيفة أنبياء بنى إسرائيل فى بلاط نبوخذنصر وابنه كانت وظيفة سياسية ، إنهم كانوا جواسيس الملوك الساسانيين . فلما انتصر قورش مؤسس الدولة الساسانية الإيرانية على بابل وقضى على بيت نبوخذنصر كافأ جواسيسه اليهود بأن سمح لهم بالعودة إلى بيت المقدس ، ولكن الدسائس السياسية لا تظهر عادة فى الكتب المقدسة .

« حينئذ أدخل دانيال إلى قدام الملك ، فأجاب الملك وقال لدانيال : أأنت هو دانيال من بنى سبى يهوذا الذى جلبه أبى الملك من يهوذا ؟ قد سمعت عنك أن فيك روح الآلهة نيرة وفطنة وحكمة فاضلة ، والآن أدخل قدامى الحكماء والسحرة ليقرأوا هذه الكتابة ويعرفونى بتفسيرها فلم يستطيعوا أن يبينوا تفسير الكلام . وأنا قد سمعت عنك أنك تستطيع أن تفسر تفسيرا وتحل عقدا ، فإن استطعت الآن أن تقرأ الكتابة وتعرفنى بتفسيرها فتلبس الأرجوان

وقلادة الذهب فى عنقك وتتسلط ثالثا فى المملكة .

فأجاب دانيال وقال قدام الملك : لتكن عطاياك لنفسك وهب هباتك لغيرى . لكننى أقرأ الكتابة للملك وأعرفه — بالتفسير ، أنت أيها الملك فالله العلى أعطى أباك نبوخذنصر ملكوتا وعظمة وجلالا وبهاء . وللعظمة التى أعطاها كانت ترتعد وتفزع قدامه جميع الشعوب والأمم والألسنة ، فأيا شاء قتل وأيا شاء استحيا وأيا شاء رفع وأيا شاء وضع . فلما ارتفع قلبه وقست روحه تجبر انحط عن كرسى ملكه ونزعوا عنه جلاله وطرد من بين الناس وتساوى قلبه بالحيوان وكانت سكناه مع الحمير الوحشية فأطعموه العشب كالثيران ، وابتل جسمه بندى السماء حتى علم أن الله العلى سلطان فى مملكة الناس ، وأنه يقيم عليها من يشاء ، وأنت يا بيلشاصر ابنه لم تضع قلبك مع أنك عرفت كل هذا — بل تعظمت على رب السماء ، فأحضروا قدامك آنية بيته وأنت وعظماؤك وزوجاتك وسراريك شربتم بها الخمر ، وسبَّحت آلهة الفضة والذهب والنحاس والحديد والخشب والحجر التى لا تبصر ولا تسمع ولا تعرف . أما الله الذى بيده نسمتك وله كل طرقك فلم تمجده ، حينئذ أرسل من قبله طرف اليد فكتبت هذه الكتابة ، وهذه هى الكتابة التى سطرت : مَنا مَنا تقْبل وفِرسين . وهذا تفسير الكلام . منا : أحصى الله ملكوتك وأنهاه ، تقبل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصا . فرسين : قسمت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس » .

ما هو جزاء من سب نبوخذنصر وتنبأ بزوال ملك ابنه ؟ القتل أو الصلب أليس كذلك ؟ ولكن اسمعوا ما يقول كاتب هذا السفر « حينئذ أمر بيلشاصر أن يلبسوا دانيال الأرجوان وقلادة من ذهب فى عنقه وينادوا عليه أن يكون متسلطا ثالثا فى المملكة .. ».

هذا الكلام قد كتب فى المنفى ، فإما أنه لم يحدث وقد كتب إرضاء لأكاسرة فارس الذين صار لهم الملك بعد تلك الليلة مباشرة ، وإما أن دانيال قد قاله لما علم أن الفرس على أبواب القصر فهو يقول صراحة فى سفره : « فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين فأخذ المملكة داريوس المادى وهو ابن اثنتين وستين سنة » .

إن دسائس اليهود فى قصور الكلدانيين والساسانيين لم تخمد ، وإن توراة المنفى وإن اتخذت لنفسها ثوبا دينيا إلا أنها تخفى ما كان يحيكه فى الظلام سقاة الملك اليهود : عزرا ونحميا ودانيال ومردخاى ومحظيات الأكاسرة من أمثال القديسة إستير .

ولم تنته عجائب دانيال بقتل ابن نبوخذنصر الذى قتل اليهود وشردهم وحملهم سبايا إلى بابل والقضاء على ملكه ، بل لا بد أن تستمر فى عهد الماديين ملوك فارس مادام دانيال هو الذى يكتب مغامراته ومعجزاته : « حسن عند داريوس أن يولى على المملكة مائة وعشرين مرزبانا يكونون على المملكة كلها ، وعلى هؤلاء ثلاثة وزراء أحدهم دانيال (طبعا) لتؤدى المرازبة إليهم الحساب فلا تصيب الملك خسارة . ففاق دانيال هذا على الوزراء والمرازبة لأن فيه روحا فاضلة ، وفكر الملك فى أن يوليه على المملكة كلها . ثم إن الوزراء والمرازبة كانوا يطلبون علة يجدونها على دانيال من جهة المملكة فلم يقدروا أن يجدوا علة ولا ذنبا لأنه كان أمينا ولم يوجد فيه خطأ ولا ذنب . فقال هؤلاء الرجال لا نجد على دانيال هذا علة إلا أن نجدها من جهة شريعة إلٰهه ، حينئذ اجتمع هؤلاء الوزراء والمرازبة عند الملك وقالوا له هكذا : أيها الملك داريوس عش إلى الأبد ، إن جميع وزراء الملكة والشجن والمرازبة والمشيرين والولاة قد تشاوروا على أن يضعوا أمرا ملكيا ويشددوا نهيا بأن كل

من يطلب طلبة حتى ثلاثين يوما من إلٰه أو إنسان إلا منك أيها الملك يطرح فى جب الأسود . فثبت الآن النهى أيها الملك ، وأمض الكتابة لكى لا تتغير كشريعة مادى وفارس التى لا تنسخ ، لأجل ذلك أمضى الملك داريوس الكتابة والنهى » .

ألا يذكرك ذلك القول بأقاصيص جدتك ؟ ملك قام ملكه على أساس دينى بعد أن قام زرادشت فى فارس يدعو إلى عبادة أهورا مزدا يوقع وثيقة تقضى بعقاب كل من يطلب طلبا من ربه ؟! إن ملوك الإيرانيين الساسانيين كانوا متدينين وكانوا يصلون لربهم ويدعونه ، فكيف يريد كاتب هذا السفر أن نصدق أن ملكا مهما بلغ به الجنون يوقع مرسوما ملكيا يقول فيه إن كل من يتوجه إلى ربه خلال ثلاثين يوما ولا يتوجه إلى الملك يلقى به فى الجب مع الأسود ؟ لو أن الدولة كانت دولة لا دينية لأمكن أن يفهم مثل ذلك الأمر ولما كان هناك ضرورة لتحديد مدة المنع بثلاثين يوما ، أما والدولة الساسانية دولة متدينة فإن ذلك الأمر لم يتجاوز عقل كاتب هذا السفر ، وقد لجأ إلى ذلك الزعم المتهافت ليلقى بدانيال مع الأسود وليزعم أنها فى وداعة الحمل . معجزة أخرى لدانيال وما أكثر معجزاته المادية التى لا يمكن أن يقوم عليها دليل :

« فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة فى علية نحو أورشليم ، فجثا على ركبتيه ثلاث مرات فى اليوم وصلى وحمد قدام إلٰهه كما كان يفعل قبل ذلك ، فاجتمع حينئذ هؤلاء الرجال فوجدوا دانيال يطلب ويتضرع قدام إلٰهه . فتقدموا وتكلموا قدام الملك فى نهى الملك ، ألم تمض أيها الملك نهيا بأن كل إنسان يطلب من أمه أو إنسان حتى ثلاثين يوما إلا منك أيها الملك يطرح فى جب الأسود ؟ فأجاب الملك وقال : الأمر صحيح كشريعة مادى وفارس التى لا تنسخ . حينئذ أجابوا وقالوا قدام الملك : إن دانيال

الذى من بنى سبى يهوذا لم يجعل لك أيها الملك اعتبارا ولا للنهى الذى أمضيته ، بل ثلاث مرات فى اليوم يطلب طلبته ، فلما سمع الملك هذا الكلام اغتاظ على نفسه جدا وجعل قلبه على دانيال لينجيه واجتهد إلى غروب الشمس لينقذه . فاجتمع أولئك الرجال . إلى الملك وقالوا للملك : اعلم أيها الملك أن شريعة مادى وفارس هى أن كل نهى أو أمر يضعه الملك لا يتغير . حينئذ أمر الملك فأحضروا دانيال وطرحوه فى جب الأسود ، أجاب الملك وقال لدانيال : إن إلهك الذى تعبده دائما هو ينجيك ، وأتى بحجر ووضع على فم الجب وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه لئلا يتغير العض فى دانيال » .

أهذا ملك أو ألعوبة فى أيدى عظماء مملكته ؟ وكيف يقبل الملك أن يلقى بكبير وزرائه فى جب مع الأسود لمجرد أنه ابتهل إلى إلٰهه؟ إنه من الظلم للملك أن نشك فيه أو فى عقله بل من العدل أن نبرئه من مثل هذه الصبيانيات وأن نتهم كاتب هذا السفر بسقم التفكير والتهافت القصصى ، فقصته التى يرويها متداعية الأركان . « حينئذ مضى الملك إلى قصره وبات صائما ، ولم يؤت قدامه بمرازبة وطار عنه النوم ، ثم قام الملك باكرا عند الفجر وذهب مسرعا إلى جب الأسود . فلما اقترب إلى الجب نادى دانيال بصوت أسيف وقال لدانيال : يا دانيال عبد الله الحى ، هل إلهك الذى تعبده دائما قدر على أن ينجيك من الأسود ؟ فتكلم دانيال مع الملك : يأيها الملك عش إلى الأبد ، إلهى أرسل ملاكه وسد أفواه الأسود فلم تضرنى لأنى وجدت بريئا قدامه وقدامك أيضا أيها الملك لم أصنع ذنبا ، حينئذ فرح الملك به وأمر بأن يصعد دانيال من الجب ، فأصعد دانيال من الجب ولم يوجد فيه ضرر لأنه آمن بإلٰهه ، فأمر الملك فأحضروا أولئك الرجال الذين اشتكوا على دانيال وطرحوهم فى جب الأسود وأولادهم ونساءهم ، ولم يصلوا إلى أسفل الجب

حتى بطشت بهم الأسود وسحقت كل عظامهم » .

هذه ليست أخلاق ملك ، إنها تصورات كاتب يهودى وانتقام يهودى لا يشفى له غليل إلا بقتل النساء والأطفال الأبرياء انتقاما من الآباء . ولنسمع الآن الحكمة من هذه الرواية ، الموعظة التى نخرج بها من كل أقاصيص كتّاب المنفى : « ثم كتب الملك داريوس إلى كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين فى الأرض كلها : ليكثر سلامكم ! من قبلى صدر أمر بأنه فى كل سلطان يرتعدون ويخافون قدام إلٰه دانيال لأنه هو الإلٰه الحى القيوم إلى الأبد ، وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى ، هو ينجى ويعمل الآيات والعجائب فى السموات وفى الأرض ، هو الذى نجّى دانيال من يد الأسود » .

وأهورامزدا إلٰهك يا داريوس ماذا تقول فيه ؟ أليس إلٰه النور بحى ولا قيوم ؟ هل سيزول ملكوته ، وما دمت يا داريوس قد شهدت بعظمة إلٰه دانيال فهل يا ترى اعتنقت اليهودية ؟ لقد ظلمك داريوس كاتب هذا السفر وتسلق عل أكتافك لينال مأربه ، وهى سياسة اليهود فى كل عصر وزمان . إنها سياستهم فى عصر نبوخذنصر وكورش وداريوس وأرتخشستا وأخشويروش ، وهى نفس السياسة فى عصر ترومان وجونسون ونيكسون ، وستستمر نفس السياسة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ويأتى بعد سفر دانيال سفر هوشع ، ويبدأ ذلك السفر بداية غريبة تصور مكر يهوه فى صورة تقشعر منها الأبدان « أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى ؛ لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب . فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم فحبلت وولدت له ابنا ، فقال له الرب ادع اسمه يزرعيل لأننى بعد قليل أعاقب بيت يا هو على دم يزرعيل وأبيد مملكة بيت إسرائيل ويكون فى ذلك اليوم أنى أكسر قوس إسرائيل فى وادى يزرعيل .

ثم حبلت أيضا وولدت بنتا فقال له : ادع اسمها لورحامة لأنى لا أعود أرحم بيت إسرائيل أيضا بل أنزعهم نزعا . أما بيت يهوذا فأرحمهم وأخلصهم بالرب إلٰههم ولا أخلصهم بقوس وبسيف وبحرب وبخيل وبفرسان » .

ثم فطمت لورحامة ، وحبلت فولدت ابنا فقال : ادع اسمه لو عُمى لأنكم لست شعبى وأنا لا أكون لكم . لكن يكون عدد بنى إسرائيل كرمل البحر الذى لا يكال ولا يعد ويكون عوضا عن أن يقال لهم لستم شعبى يقال لهم أبناء الله الحى ، ويجمع بنو يهوذا وبنو إسرائيل معا ويجعلون لأنفسهم رأسا واحدا ويصعدون من الأرض لأن يوم يزرعيل عظيم .

قولوا لإخواتكم عمى لأخواتكم رحُامة ، حاكموا أمكم ، حاكموها لأنها ليست امرأتى وأنا لست رجلها لكى تعزل زناها عن وجهها وفسقها من بين ثدييها لكيلا أجردها عريانة وأقفها كيوم ولادتها وأجعلها كقفر وأصيرها كأرض يابسة وأميتها بالعطش ، ولا أرحم أولادها لأنهم أولاد زنى » .

ويستمر سفر هوشع فى سب إسرائيل واليهود والدعوة إلى الرجوع إلى الرب ، ثم ينتهى السفر بحنين الرب إلى شعبه والقول بأن طرق الرب مستقيمة والأبرار يسلكون فيها وأما المنافقون فيعثرون فيها .

وفى الفترة بين السبى وبين داريوس تكثر الأسفار ، فكل من حاول إصلاح حال اليهود قد كتب مذكراته ووصاياه فتقدس ودخلت التوراة من أوسع أبوابها ، فقد كانوا جميعا فى عصر التدوين وكان لكل منهم أن يزعم أن الله قد كلمه أو أوحى إليه ، فيصبح ما كتبه هؤلاء الناصحون أو الثائرون على أوضاع إسرائيل الاجتماعية مقدسا يتلى فى المجامع والكنائس وفى الصلوات .

ويأتى بعد سفر هوشع أسفار يوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وناحوم وصفنيا وحجى وزكريا وملاخى . ولا جديد فى هذه الأسفار يناقش ، إنها

ثورة على أوضاع إسرائيل ودعوة إلى العودة إلى الرب ، وإن كل الدلائل كانت تشير إلى أن دولة إسرائيل كانت فى سبيلها إلى الزوال فقد كثر فيها الفساد ، وقد قضت الدولة الرومانية على إسرائيل وقوضت هيكل سليمان فى أيام تيتس بعد المسيح بسنوات قليلة .

وقد جاء ذكر التوراة فى القرآن ثمانى عشرة مرة ، ويقصد بالتوراة فى القرآن التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام ، وقد نزلت التوراة بلسان القوم الذين نزلت لهدايتهم ، وقد كان موسى عليه السلام يتكلم بلسان فرعون وكذلك كان بنو إسرائيل الذين كانوا يعملون فى مزارع فرعون ، فكانت توراة الله باللغة المصرية القديمة ، ولما خرج بنو إسرائيل من مصر ظلوا فى التيه أربعين سنة فكان لسانهم فرعونيا ، ثم دخلوا على يد يوشع بن نون أرض فلسطين واختلطوا لمئات السنين بالكنعانيين فأخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية ، وكانت حروب بين الكنعانيين وبنى إسرائيل .

وبعد حكم داود وسليمان عليهما السلام وكانا من نسل يهوذا اشتد ساعد اليهوذيين ، فانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين إسرائيل واليهوذية ، وفى أيام نبوخذنصر أغار على فلسطين وقتل من بنى إسرائيل واليهود خلقا كثيرا وحمل منهم أسرى إلى بابل وقوض الهيكل وحرق ما وجد من نسخ التوراة ، وهذه النسخ التى حرقت لا صلة بينها وبين التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام ، فقد ترجمت التوراة من اللغة المصرية القديمة إلى العبرية لسان الكنعانيين وقد أضيف إليها واعتورها التحوير .

وفى أرض السبى وفى أوائل أيام قورش مؤسس الدولة الساسانية كتب عزرا الكاتب التوراة وعاونه نحميا ودانيال ومردخاى ، ثم أضيفت أسفار إلى التوراة الجديدة حتى أصبح العهد القديم سجلا لتاريخ اليهودية .

وقد ثار خلاف بين السامريين واليهود حول التوراة ، فقد اعترف السامريون بالأسفار الخمسة التى تتحدث عن الخلق وآدم وحواء ونوح وإبراهيم واللاويين سبط موسى عليه السلام ، وقالوا ما دامت التوراة قد نزلت على موسى فمن أين جاءت الأسفار التى تروى أحداث بنى إسرائيل واليهود بعد موسى ؟ ولو أن ذلك الاعتراض وجيه إلا أنه يجب أن نناقشه فى عمق ، فقد سبق أن قلنا إن التوراة نزلت على موسى عليه السلام فى مصر بلسان فرعونى والأسفار الخمسة الأولى فى التوراة قد كتبت بلسان عبرى وهى لا تخلو من أساطير . فبناء على ذلك فالأسفار الخمسة الأولى لا تختلف فى كثير ولا قليل عن باق الأسفار ، فهى من وضع كهان اليهود فى المنفى ولا يجوز للمفسرين المسلمين ولا لكتاب السير أن يعتمدوا عليها . وإن الأخذ عن التوراة التى بين أيدينا فيه تفريط فى حق المسلمين ، فليس فيها إلا ما يساعد على إشاعة الفساد بين الناس ، فأنبياء الله يكذبون ويفجرون ، بل إن الله سبحانه وتعالى عما يصفون يندم لأنه لما خلق البشر لم يكن يدرى أنهم سينافسونه فى ملكه ! وقد دس كهان اليهود فى توراتهم آراء سياستهم لتحقيق مآربهم ألبسوها ثوب الدين ، فكل نقل عن التوراة فيه ترويج لمزاعم اليهود وفيه زعزعة لإيمان المؤمنين ، فهى تموج بادعاءات لا يقبلها عقل ولا يستريح إليها ضمير .

لقد كفر بالتوراة كثير من المفكرين ، وإنى أحترم عقول الذين لم يصدقوا ما فيها من زيف ، ولكنى فى نفس الوقت أسخر من المقلدين الذين كفروا بدينهم لأن بعض مفكرى العرب قد كفروا ، فشتان بين كتاب لا يستقيم مع منطق وبين كتاب يرضى العقل والفطرة والضمير ، ولكنه التقليد : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم

الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين . قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . »[١] .

---

(١) سورة الجمعة الآيات (٥ ـــ ٨) .

المراجــع

القرآن الكريم ــ الكتاب المقدس ــ صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينسن ــ ترجمة د . يحيى الخشاب

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

إحياء علوم الدين — للغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى

محمد رسول الله — مولاى محمد على .

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ــ ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى

المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا

نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطئ

عبقرية محمد — لعباس محمود العقاد

الروض الأنف — للسهيلى

تاريخ الطبرى

مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم

فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس محمود العقاد

أسباب النزول — للواحدى

شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد

الملل والنحل — للشهرستانى

فجر الضمير — جيمس هنرى برستد ــ ترجمة الدكتور سليم حسن

تفصيل آيات القرآن الحكيم — جول لابوم ــ ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى

الوحى المحمدى — السيد محمد رشيد رضا

سلم الواعظين — عبد الله بن الشيخ حسن الفارسى الكرهجى

رقم الإيداع : ٥٩٥٩

الترقيم الدولى : ١ ــ ٣٢٦ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

